قطر الولي على حديث الولي

للإمام الشوكاني

أو

ولاية الله والطريق إليها

تحقيق وتقديم

الدكتور ابراهيم ابراهيم هلال

كلية البنات - جامعة عين شمس

يطلب من

دار الكتب الحديثة لصاحبها توفيق عفيفي عامر

١٣ شارع الجمهورية بعابدين - ت ٩١٦١٠٧

مطبعة حسان
(٢٤١) شارع الجيش - ت ٨٢٣٣٥٤ - القاهرة

الإهداء

إلى من غرس فأحسن الغراس ، إلى من علمنى كيف أقرأ وكيف أكتب . إلى روح أستاذي العالم الإنسان ، والإنسان العالم الأستاذ الدكتور محمود قاسم .

أهدى هذا الكتاب كثمرة طيبة من ثمار غرسه الكريم ، وزهرة باسمة قد سقيت من فيضه العذب ؛ ومن جوده الواسع العميم .

تلميذكم الوفى لكم

ابراهيم ابراهيم هلال

حديث الوليّ

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى :

« من عادى لي وليًّا فقد آذنتهُ بالحرب ، وماتقرب إلى عبدى بشيء أحب إلى مما افترضتُ عليه ، ومايزال عبدى يتقرّبُ إلى بالنوافل حتى أحبهُّ ، فإذا أحببتُه : كنت سمعهُ الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بهـا ، ورجله التى يمشى بهـا ، ولئن سألنى لأعطينه ، ولئن استعاذنى لأعيذنه وماترددت عن شىء أنا فاعله ترددّى عن نفس عبدى المؤمن : يكره الموت ، وأكره إساءته » .

(صحيح البخارى)

بسم الله الرحمن الرحيم

تشمتل هذه الدراسة على ثلاث فقرات : الاولى تعريف بالإمام الشوكانى صاحب (قطر الولى) . والثانية : الدراسة على هذا الكتاب وهى دراسة مقارنة فى الولاية والطريق إليها ، تهدف إلى مناقشة الإمام الشوكانى فى ذلك الكتاب وبيان مدى موافقة ماجاء فيه للقرآن الكريم والسنة الصحيحة :

كما تهدف إلى مناقشة الصوفية ، فى آرائهم المناظرة ، والموازنة بينها وبين آراء الإمام الشوكانى فى هذا الكتاب ، ثم بيان الاصول التى تقوم عليها ، والروافد التى أمدتها ، سواء أكانت إسلامية أم غير إسلامية .

والثالثة : تحقيق الكتاب : (قطر الولى ، على حديث الولى) .

وهذا الكتاب فى عمومه يعتبر رداً على آراء الباطنية ، من الرافضة والصوفية فى الولاية والأولياء ، وتبيينا للصورة الحقيقية للولى كما يريده الله سبحانه ، حسبما ورد فى القرآن الكريم ، وفى السنة الصحيحة .

كما يعتبر من جهة ثانية دفاعا عن الإسلام فى أخص ناحية فيه ، وأمسها بوجوده وكيانه ، وهى ناحية تحمله ، ونقله عن الرسول ﷺ إلى الناس الذين لم يروه ولم يأخذوا عنه مباشرة ، تلك المهمة التى قام بها الصحابة رضى الله عنهم وأدوها على وجهها ولكنهم لقوا من الرافضة ، ثم من الباطنية ـ خلفائهم ـ الكثير من الشك ، والتشكيك فيهم ، والتنقيص لهم ، ما كان كفيلا بأن يزعزع الثقة بهم والإيمان عن طريقهم .

فكانت مهمة الإمام الشوكانى ، أن تقدم بهذا الكتاب لبيان فضلهم ومنزلتهم من ولاية الله سبحانه ، وأنهم بالنسبة لجهادهم فى تلقى هذه الدعوة ونشرها والمحافظة عليها صاروا رءوس الأولياء ، وأصبحوا المرجع الأول لمن يريد أن يتلقى الإسلام بضا خالصاً من كل شوب .

فإذا عمد أئمة الباطنية والرافضة إلى تنقيصهم ، ومحاولة التشكيك فيما يؤخذ عنهم ، فإنما ذلك لكى يقضوا على الإسلام عن هذا الطريق . فهى دعوة غنوصية فى واقعها[1] ، وجهت توجيها مجوسياً فارسياً[2] .

لذلك أعطى المؤلف صحابة رسول الله ﷺ مايجب لهم من التكريم ومن درجة الولاية لله ولرسوله ، وقفى بالعلماء العاملين الذين ساروا على نهجهم . وبهذا يكون قد شارك فى تدعيم بناء الإسلام أمام مهاجميه من الرافضة والباطنة

كما يعتبر من جهة ثالثة ، داعياً إلى طريق الولاية الحقيقية ، ومرشداً إليه ، حين جعل الصحابة والعاملين قدوتنا ، وحين أوضح معالم هذا الطريق ، ببيان ماأشار إليه الحديث ، من أن طريق الولاية ـ بعد الإيمان بالله هو أداء الفرائض ، والزيادة عليها بالنوافل ، وأن هذه وتلك ، أنواع عديدة ، كما جاءت فى القرآن والسنة .

ومنهجه فى ذلك هو المنهج السلفى الذى يرد إلى الكتاب والسنة كل شىء ويجعل هدفه فى التقرب إلى الله المحافظة على الشريعة وإحياءها بالعمل بها ، لاتعطيلها . فبدلا من أن يتقرب الإنسان إلى الله ـ على طريقة الصوفية ـ

---

(١) أنظر نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام جـ١ صـ١٨٦ ، ١٨٧ .الطبعة الثالثة سنة ١٩٦٥ ، دراسات فى الفلسفة الإسلامية صـ ١٢٦ ـ ١٤٧ الأنجلو سنة ١٩٦٦

(٢) المصدرين المتقدمين ، نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام الطبعة الأولى سنة ١٩٤٥ ص ٤٤ — ٥٢ .

عن طريق الرياضة والمجاهدة التى تفسد على الإنسان صحته وحياته ، وتبعده عن خدمة المجتمع الذى حض الرسول ﷺ على خدمته بقوله « خير الناس أنفعهم للناس » ، فإنه يتقرب إليه عن طريق الإيمان الصحيح ، والعبادة الشرعية السليمة التى قوامها أداء المأمورات ، واجتناب المنهيات ، ثم التنفل بما يستطيعه الإنسان من صلاة وزكاة ، وصيام ، وحج ، وبر وصدقة ، وبأداء هذه العبادات على وجهها ، وبالآداب التى رسمها الشرع فى أدائها ، وبالاختصار على طريقة الفقهاء المجتهدين الذين يلمون الإلمام الكافى ، بالكتاب والسنة ويعملون بما فيهما من تشريعات تتصل بالعبادة ، أو الأخلاق ، أو المعاملات ، لا الصوفية الانعزاليين المجردين .

كما أن رأيه فى القضاء والقدر ، وزيادة العمر ونقصانه ، وربطهما بقانون السببية ، ودعم ذلك بالآيات القرآنية والأحاديث الصحيحة ، يعتبر إبرازاً لجانب حى معقول من جوانب الدين الإسلامى ، طالما خبطت فيه العقول ، واضطربت فيه الآراء والأقلام ، مما ألقى ظلالا من التواكل والكسل على العالم الإسلامى . فخمدت همة المسلمين ، وألقوا كل شىء على القضاء والقدر ، وتركوا الأخذ بالأسباب التى هى فى الواقع قانون الحياة الدنيا التى أقامها الله عليه ، كما أنها قانون الحياة الآخرة فى تقرير المصائر ، وتطبيق الثواب والعقاب

وبهذا ، فقد قدم لنا الإمام الشوكانى صورة ناصعة للاسلام فى واقعه ، وكما يجب أن نكون عليه ، وصورة لرجاله وأولياء الله سبحانه كما يجب أن يكونوا. وفى الوقت ذاته رد دعاوى الباطنية والمتطرفين من الصوفية ، ومحاولة دعمهم لآرائهم بهذا الحديث (حديث الولى) .

وأخيراً ، فيعتبر الإمام الشوكانى بهذا الكتاب ، قد ملأ فراغاً ظل ينتظر من يملؤه من يوم أن فشت الأفكار الغنوصية فى البيئة الإسلامية ، واتجهت

إلى أن تجد لها سنداً فى هذا الحديث ، تدعم به آراءها فى الولاية وفى كرامات الأولياء ، أو معجزاتهم كما يصفونها فى بعض الأحوال . وفى مذاهبها الفلسفية التصوفية التى هى واقعها نوع من الإلحاد والشرك . فحقق بذلك لهذا الحديث عملا كان جديراً به ، وكان فى حاجة إليه ، كما أشار إلى ذلك فى مقدمة هذا الكتاب ، وكما سيتبين لنا من قراءة الدراسة التى قدمها بين يديه .

والله أسأل أن يجعل عملى هذا خالصاً لوجهه ، وأن ينفع به الأمة الإسلامية فى حاضرها المتوثب ، ومستقبلها الناهض العظيم .

ابراهيم ابراهيم هلال

ذى القعدة سنة ١٣٩٧ هـ

وَلَايَةُ اللهِ

وَالطَّرِيقُ إِلَيْهَا

(الفقرة الأولى)

التعريف بالإمام الشوكاني

ميلاده ونشأته — حياته العامة والعلمية — أساتذته

تلاميذه — كتبه — حياته الخاصة

التعريف بالإمام الشوكانى

١ — ميلاده ونشأته :

هو محمد بن على بن محمد بن عبد الله الشوكانى ثم الصنعانى . والشوكانى : نسبة إلى عدنى شوكان ، أو إلى هجرة شوكان[١] ، وهما اسمان لقرية واحدة بينها وبين صنعاء دون مسافة يوم ، وهى نسبة والده . والصنعانى : نسبة إلى صنعاء .

ولد بهجرة شوكان « حسبما وجد بخط والده » فى وسط نهار يوم الإثنين الثامن والعشرين من شهر القعدة سنة ١١٧٣[٢] هـ ولا مجال للاختلاف فى تاريخ ميلاده بعد هذا النص منه ومن والده[٣] .

وكان والده قاضى صنعاء ، ومن العلماء البارزين فيها ، فيه طيبة وصلاح تجعل من يعرفه حق المعرفة يتيقن أنه من أولياء الله ، ولعل هذا كان له أثره فى حياة ابنه بعد ذلك .

نشأ بصنعاء ، فقرأ القرآن ، وجوده على جماعة من مشايخ القراء بصنعاء وفى أثناء ذلك كان قد حفظ عدة مختصرات : فى الفقه والنحو ، والعروض

---

(١) نلاحظ أنه نسب على غير قياس ، لأن النسب إلى المضاف ، يكون إلى صدره ، وقد قال الإمام الشوكانى : إنها (نسبة غير حقيقية) — ٤٨١ جـ ١ من البدر الطالع .

(٢) المصدر المتقدم ص ٢١٥ جـ ٢ ويوافق سنة ١٧٦٠ م .

(٣) قد ذهب البعض إلى تحديد ميلاده بتاريخ غير هذا التاريخ ، مثل السيد محمد صديق حسن خان ، والدكتور أحمد أمين . أنظر : الأعلام للزركلى جـ ٢ ص ١٩٠ ، ومعجم المؤلفين لكحالة جـ ١١ ص ٥٣ ، وزعماء الإصلاح فى العصر الحديث ، للدكتور أحمد أمين ص ١٩ طبعة سنة ١٩٤٨ .

وآداب البحث ، وعلوم اللغة ، وطالع عدة كتب من كتب التاريخ والأدب ، ثم شرع فى طلب العلم ، فدرس على والده ، وعلى البارزين من العلماء فى عصره فى مختلف العلوم : الدينية ، واللسانية ، والعقلية ، والرياضية ، والفلكية . وظل كما يقول : يأخذ عن شيوخه حتى استوفى كل ماعندهم من كتب ، بل زاد فى قراءاته الخاصة على ماليس عندهم وكان طلبه للعلم فى صنعاء نفسها ، لم يرحل عنها على عادة طلاب العلم لعدم إذن أبويه له فى الرحلة ، فكان عند إذنهما .

وكان فى أثناء دراسته ، يلقى ما يأخذه عن مشايخه ، إلى تلاميذه الذين اجتمعوا عليه ، وهو لايزال فى دور الطلب الأول ، ولذلك كانت دروسه تبلغ فى اليوم والليلة ، ثلاثة عشر درساً ، منها ما يأخذه عن أساتذته ، ومنها مايلقيه على تلاميذه .

ثم تفرغ لإفادة طلاب العلم ، فكانوا يأخذون عنه فى كل يوم زيادة على عشرة دروس كما قال : فى فنون متعددة كالتفسير والحديث والأصول والمعانى ، والبيان ، والمنطق . وتقدم للإفتاء ، وهو فى نحو العشرين من عمره ، وكانت ترد عليه الفتاوى من خارج صنعاء ، وشيوخه إذ ذاك أحياء وكاد الإفتاء يدور عليه وحده ، وهو فى هذه السن .

وقد أحاط — إلى جانب العلوم العربية والدينية — بالعلوم الرياضية والطبيعية والإلهية ، وعلم الهيئة ، والمناظرة والوضع ، وحده دون معلم مباشر . ودرس هذه العلوم أيضاً لتلاميذه .

وفى الجملة ، فقد درس دراسة واسعة ، واطلع اطلاعا ، يندر أن يحيط به غيره ، فليس من المستطاع سرد مادرسه من كتب ، أو استجازه من مراجع ومن يرجع إلى كتابه ـ مثلا ـ (إتحاف الأكابر بإسناد الدفاتر) يدرك مدى

ما كان عليه هذا الرجل ، من تنوع فى الثقافة ، واتساع فيها . وقد برع فى كل ذلك تقريباً ، وصنف ودرس فيه . ولاغرو أن رأينا بعض كتاب التراجم يعرف به فيقول : مفسر ، محدث ، فقيه ، أصولى ، مؤرخ ، أديب ، نحوى ، منطقى ، متكلم ، حكيم[١] .

٢ — حياته العلمية والعامة :

وقد أعانته هذه الثقافة الواسعة والعميقة ، وذكاؤه الخارق . إلى جانب إتقانه للحديث الشريف وعلومه ، على الاتجاه وجهة اجتهادية وخلع ربقة التقليد ، وهو دون الثلاثين، وكان قبل ذلك على المذهب الزيدى ، وصار علما من أعلام الاجتهاد ، وأكبر داعية إلى ترك التقليد ، وأخذ الأحكام اجتهاداً من الكتاب والسنة ، فهو بذلك يعد طليعة المجددين والمجتهدين فى العصر الحديث ومن الذين شاركوا فى إيقاظ الأمة الإسلامية والعربية فى هذا العصر .

وقد أحس بوطأة الجمود ، وجناية التقليد الذى ران على الأمة الإسلامية من بعد القرن الرابع الهجرى ، وأثر هذا كله فى زلزلة العقيدة الإسلامية ، واعتناق البدع والإعتقاد فى الخرافات وشيوعها ، وتحلل الناس من التعاليم الدينية ، وانكبابهم على الموبقات ، والمنكرات . مما جعله يشرع قلمه ولسانه فى وجه الجمود والتقليد ،ويقف حياته على محاولة تغيير هذه الأوضاع الفاسدة، وتطهير تلك العقائد الباطلة ، فكتب للعلماء تارة ، وللعوام أخرى ،وللسلاطين ثالثة . ومما كتبه فى ذلك إلى الحاكم أو إمام المسلمين فى اليمن وغير اليمن وهو لايزال بعيداً عن الحياة السياسية ، رسالة بعنوان « الدواء العاجل فى دفع العدو والصائل » ، بين فيها أن الفتنة لا تنزل بالبلاد ، ولا يتغلب عدوها عليها ،

(١) معجم المؤلفين لكحالة ج ١١ ص ٥٣ .

إلا بسبب ماعليه أهلها من معاص ، وذلك على سبيل العقوبة لهم ، وقد وقع هذا فى الإسلام ، فقد سلط الله على أهله «طوائف من عدوهم عقوبة لهم ، حيث لم ينتهوا عن المنكرات ، ولم يحرصوا على العمل بالشريعة المطهرة ، كما وقع من تسليط الخوارج ، ثم تسليط القرامطة والباطنية ، ثم تسليط الترك ، وكما يقع كثيراً من تسليط الفرنج ونحوهم»[١].

وهو يصنف حال الشعب المحكوم ، إلى ثلاثة أصناف ، « رعايا يأتمرون بأمر الدولة ، وينتهون بنهيها ، وأكثر هؤلاء لايحسنون الصلاة ، فمنهم من تركها كلية ، ومنهم من أداها بطريقة غير مقبولة ، وكذلك الصيام ، فربما لا يكمل شهر رمضان صوماً إلا القليل ، وكثيراً مايأتى هؤلاء بألفاظ كفرية كالحلف بالطلاق ، والحلف بالخروج من الدين ، والاستغاثة بغير الله تعالى من نبي أو رجل من الأموات»[٢].

والقسم الثانى وهم بقية البلاد الإسلامية ، التى ليس للدولة عليها سلطان ، كبلاد القبلة ، والشرق ونحو ذلك « ممن لم يسكنوا المدن ، وهؤلاء الأمر فيهم أشد وأفظع ، فإنهم جميعاً لايحسنون الصلاة ولا القراءة ، وبالجملة فالفرائض الشرعية بأسرها من غير فرق بين أركان الإسلام الخمسة وغيرها مهجورة عندهم ، بل كلمة الشهادة ، قد ضاعت من ألسنتهم فضلا عن قلوبهم ، وسط الإنشغال بأوليائهم ، من أصحاب القبور وممن يدعون الصلاح فيهم»[٣].

وأما القسم الثالث : وهم الساكنون فى المدن ، فهم وإن كانوا أقرب من

---

(١) رسالة الدواء العاجل فى دفع العدو الصائل ص ٦٥ . ضمن مجموعة أخرى . طبع السنة المحمدية .

(٢) المصدر المتقدم ص ٥٦ .

(٣) نفس المصدر ص ٦٣ ، ٦٤ .

هذين إلى الخير ، إلا أن غالبهم عامة جهال ، يهملون كثيراً مما أوجبه الله عليهم من الفرائض ، جهلا وتساهلا ، « فهم لايحسنون أركان الصلاة ، ويتعاملون فى بيعهم وشرائهم بطرق يخالفون فيها المسلك الشرعى ، وكثيراً مايقع منهم الربا ، ويتكلمون بالألفاظ الكفرية ، وينهمك كثير منهم فى معاص صغيرة وكبيرة ، ومع ذلك فهم أقرب الناس إلى الخير ، وأسرعهم قبولا للتعليم ، إذا وجدوا من يعزم عليهم عزيمة مستمرة دائمة[1]. ثم يوجه النداء إلى الحاكم وأنه هو المسئول المباشر عن هؤلاء جميعاً فيقول :

« والواجب على إمام المسلمين ، وعلى أعوانه افتقاد هؤلاء ، والبحث عن مباشرتهم، وعن كيفية معاملتهم ممن يتولون عليهم » ويختم هذه الرسالة بقوله : « والله المسئول أن يلهم إمام المسلمين ، أقام الله به أركان الدين ، القيام بما أرشدناه إليه فى هذه الرسالة ، وإبلاغ الجهد فى أحوال هذه الأحكام التى ذكرناها ، فإنه إذا فعل ذلك صلحت له أحوال الدين والدنيا ، ودفع الله عن رعاياه كل محنة ، ولم يسلط عليهم عدوا قط كائنا من كان »[2].

ولاشك فى أن تحول هذه الأمة الإسلامية ، إلى تلك الحالة من الأعمال ، لايكون إلا عن نبذها لكتاب الله وسنة رسوله ، وتعوضهم عنها بمقالات أصحاب المذاهب السابقين ، ومن تبعهم من العلماء الذين جمدوا على آراء هؤلاء السابقين ، واتخذوا التشيع عقيدة ، والتصوف مذهبا[3] . ومن هنا وقف على مواطن الداء ، وأخذ يشخص الدواء ، فبين أن الرجوع إلى كتاب الله وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم ، هو الطريق الوحيد لصلاح الدين والدنيا ، وأن

---

(١) المصدر المتقدم ص ٧٠

(٢) نفس المصدر ص ٧٢

(٣) الدر النضيد فى إخلاص كلمه التوحيد ص ٣١ ، ٣٢

على علماء الدين أن يزنوا أقوالهم وأفعالهم، بميزان الكتاب والسنة، لا بأقوال سلفهم ممن هم مثلهم، بل ربما أقل من مستواهم فى العلم والتفكير، وفرص الحياة العلمية والكتابية، وأن هذه هى الروح الاجتهادية التى دعا إليها القرآن الكريم، وسار عليها الصحابة رضى الله عليهم والسلف الصالح، وعلى الشعب أن يزن أفعاله بميزان الكتاب والسنة الذى لا يتعارض مع ميزان العقل الصحيح. وعلى هذا الأساس صدر فى دعوته إلى عودة الاتجاه الاجتهادى، فدارت كل بحوثه ومؤلفاته على هذا الأساس، ووجدنا فيها العناية كل العناية بالكتاب والسنة، والمساهمة فى إحياء علومها: سواء منها ماهو عقلى، أو لسانى وبيانى، أو تاريخى. ويمكن أن نتبين أبعاد هذه الحياة العلمية العملية، فى ثلاثة خطوط بارزة:

(١) دعوته إلى الاجتهاد ونبذ التقليد.

(٢) دعوته إلى العقيدة السلفية فى بساطتها أيام الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة رضوان الله عليهم.

(٣) دعوته إلى تطهير العقيدة وتنقيتها من مظاهر الشرك الخفى.

(١) دعوته إلى الاجتهاد

لقد ذهب إلى أن ترك الاجتهاد من القادر عليه كفر وشرك، لأنه تعطيل لكتاب الله وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم، وإحلال لقول صاحب المذهب محلهما[1].

والإمام الشوكانى فى هذا، يعبر عن الروح الاجتهادية، لدى الأئمة

---

(١) القول المفيد فى أدلة الاجتهاد والتقليد ص ٢٧

السابقين ، وإن كان قد تشدد فى الحكم على المقلد القادر على الاجتهاد بالشرك.
فمثلا نرى الإمام الغزالى[1] يوجب الاجتهاد على القادر عليه دون أن يدينه بالشرك ، أو بالكفر ، إذا أصر على التقليد ، لأن الذى وصل إلى درجة الاجتهاد « غير عاجز ، فلا يكون فى معنى العاجز ، فينبغى أن يطلب الحق بنفسه فإنه يجوز الخطأ على العالم ، بوضع الاجتهاد فى غير محله ، كما أنه يجوز على المجتهد أيضاً ، الذى نقلده أن يبادر بالحكم قبل استتمام الاجتهاد ، والغفلة عن دليل قاطع . والعالم المقلد قادر على معرفة ما يعرفه إمامه الذى يقلده ، ومن الممكن أن يتوصل بنفسه إلى ما يريد ، إما إلى درجة اليقين ، وإما إلى الظن ، فكيف يبنى الأمر على عماية كالعميان ، وهو بصير بنفسه ؟ »[2] .

ويحمل على هؤلاء المقلدين ، الذين يبلغ بهم التعصب لإمامهم ، أن يعتقدوا فيه العصمة عن الخطأ فى الأحكام ، مع أن المجتهدين أنفسهم ، لا يدعون العصمة « أو يعدون الحق وقفا عليهم »[3] .

وكذلك يرى الإمام الشوكانى أن القدرة على الاجتهاد ، ليست بالأمر الذى يتطلب تفوقا فى الإحاطة بعلوم الاجتهاد ، وعلم السنة . بل يكفى فى ذلك أن يكون على علم من لغة العرب ، بحيث يستطيع به أن يفهم كتاب الله العزيز ، بعد أن يقوم لسانه بشىء من علم النحو والصرف ، وبعض من مهمات كليات أصول الفقه ، واطلاع على كتب السنة المطهرة التى جمعها الأئمة المعتبرون ، كالصحيحين وما يلتحق بهما مما التزم فيه مصنفوه الصحة ، أو جمعوا فيه بين

(١) هو أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالى المتوفى سنة ٥٠٥ هـ
(٢) المستصفى فى علم الأصول ص ١٢٢ ، وينظر أيضاً ص ١٠٢ — ١٢٤
(٣) دراسات فى الفلسفة الاسلامية ، لأستاذى الدكتور محمود قاسم ص ٧٠ (الغزالى ورأيه فى العقل والتقليد)

الصحيح وغيره مع البيان لما هو صحيح ، ولما هو حسن ، ولما هو ضعيف . « ولا يشترط فى هذا أن تكون الأحاديث محفوظة له ، بل يكون ممن يتمكن من استخراجها من مواضعها عند الحاجة »[١] وهو لا يرى بعد ذلك ضرورة الإحاطة بعلوم البلاغة لفهم كتاب الله ، فإنه يغنى عنها ما عليه المجتهد من معرفة باللغة والنحو والصرف والأصول . وأما علوم البلاغة ، فإنها ليست لازمة لاستخراج الأحكام ، وإنما هى لمعرفة بلاغة القرآن الكريم ، وما عليه من إعجاز .

فالتبحر فى هذه العلوم ، ليس مراداً للقدرة على الاجتهاد ، ولا مانع منه عند الإمكان ، فإن به فقط يظهر التفاوت بين المجتهدين . وإلى مثل هذا التبسيط ، ذهب الشيخ الظواهرى فى دعوته الإصلاحية أخيراً[٢] . هذا بالنسبة للعلماء المختصين . وأما غيرهم فلا يجوز لهم التقليد أيضا ، ولا أخذ آراء الآخرين دون دليل ، بل لابد أن يسألوا أهل الذكر عن الأحكام ويستروونهم النصوص فى ذلك ، ويطلبون منهم الأدلة على ما يقولون ، وإلا كانوا مقلدين أيضا . لأن التقليد ، كما أجمع عليه العلماء ، هو أخذ رأى الغير دون دليله ، وأما من يطلب الدليل ، فقد ارتفع على مستوى التقليد وأصبح قريبا من رتبة الاجتهاد ، فهذا صنف ثالث بين المجتهدين والمقلدين وهو مرتبة وسط بينهما ، فهو عامل بدليل بواسطة مجتهد . وهذا الصنف كان موجودا أيام الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة رضى الله عنهم وهو غالب السلف الصالح وهم خير القرون ، ومن أنكر هذا وقال : إن جميع الصحابة كانوا مجتهدين ، أو مقلدين ، فقد أعظم الفرية ، وجاء بما لا يقبله عارف .

---

(١) البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ص ٨٥ ، ٨٦ إرشاد الفحول فى علم الأصول ، ص ٢٢١ قارن : العلم والعلماء ص ١٣٨ للشيخ الظواهرى

(٢) انظر العلم والعلماء ص ١٣ ، ١٤

وهو فى ذلك أقرب إلى روح الدين ، التى تخاطب فى الإنسان عقله وتفكيره ، من الإمام الغزالى ، الذى لا يرى الأمر إلا أحد وجهين : إما اجتهاد للقادر عليه ، وإما تقليد للعامى أو الذى لم يصل إلى درجة الاجتهاد من المتعلمين ، وعلى هذا فالإمام الغزالى يبيح التقليد بلفظه ومعناه ، ويجعل له شروطا وأوضاعا ، يلتزمها المقلد فى أخذه عن غيره[1] .

والإمام الشوكانى ، يواجه المقلدين فى العالم الإسلامى بكلام أئمتهم الأوائل الذين اجتهدوا لآرائهم ، بأنهم من الممتنع عليهم ؛ بل من المحرم أن يقلدوهم فى تلك الآراء ، بل يقارنوا بينها وبين الحديث ؛ فإذا صح الحديث فهو مذهبهم ، هذا هو رأى مالك وأبى حنيفه والشافعى وابن حنبل وغيرهم من علماء الاجتهاد ، سواء كانوا من مذاهبهم ، أو على مذاهب أخرى[2] . وهو فى هذا قريب من الإمام الغزالى الذى يواجه المقلدين من العلماء ، بأنهم يقلدون من لا يرى لنفسه مزية على غيره ، أو أنه قد أصاب الحق من جميع وجوهه[3] وفى القطر اليمنى يواجههم بالإمام الذى قلدوه وبآرائه . وهو الإمام الهادى يحى بن الحسين[4] ، وأنه « صرح تصريحا ، لا يبقى عنده شك ولاشبهة بمنع

---

(١) دراسات فى الفلسفة الاسلامية ص ٨٨ ، ٨٩ فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة للامام الغزالى ص ١٧٤ ضمن مجموعة القصور العوالى

(٢) القول المفيد ص ٢٣ ، قطر الولى فى (وجود الاجتهاد فى المذاهب حجة على المقلدين)

(٣) انظر دراسات فى الفلسلة الاسلامية ص ٧٠

(٤) ينتهى نسبه إلى على بن أبى طالب (رض) ولدعام ٢٥٥هـ بالمدينة المنورة وخرج إلى اليمن سنة ٢٨٠ هـ وملك مابين صنعاء ، وصعدة ثمانية عشر عاماً ، وجاهد طاغى القرامطة عليها ابن الفضل ، ثم مات سنة ٢٩٨ هـ وقد سمى الذين قلدوه (بالهدوية) نسبة إليه ، كما سمى أتباع الشافعى بالشافعية ، وأبى حنيفة بالحنفية . الخ وفقههم بفقه الهدوية

التقليد له ، وهذه مقالة مشهورة فى الديار اليمنية ، يعلمها مقلدوه فضلا عن غيرهم ، ولكنهم قلدوه شاء أم أبى . وقالوا : قد قلدوه وإن كان لا يجوز ذلك عملا بما قاله بعض المتأخرين : أنه يجوز تقليد الإمام الهادى ، وإن منع من التقليد . وهذا من أغرب ما يطرق سمعك ، وبهذا تعرف أن مؤلفات أتباع الإمام الهادى فى الأصول والفروع ؛ وإن صرحوا فى بعضها بجواز التقليد ، فهو على غير مذهب إمامهم ، وهذا لما وقع لغيرهم من أهل المذاهب »[1] .

والإمام الشوكانى ؛ يرى أن المقلدين بإصرارهم على التقليد ، يخرجون على منطق الحياة ، وسنن الكون ، فإنهم قد ادعوا أن الله قد « رفع ما تفضل به على من قبلهم من الأئمة من كمال الفهم ، وقوة الإدراك ، والاستعداد للمعارف . وهذه دعوى من أبطل الباطلات ، بل هى جهالة من الجهالات ، فإن نهاية العالم ليست كبدايته » بل هو سائر فى طريق التطور والكمال ، والنضج العقلى ، عن طريق ازدياد المعارف وتطورها[2] . وهو فى هذا يتفق مع ديكارت الذى يرى « أن العلم متقدم دائما نحو مرتبة نسبية من الكمال ، وأن عظماء الرجال هم الذين يأتون دائما بآراء جديدة »[3] .

ثم هناك دعوى أخرى ، يدعيها المقلدون ليبرروا بها قعودهم عن الاجتهاد ، وهى أن العلم كان ميسرا لمن كان قبلهم ، ولكنه الآن أصبح تحصيله صعبا عليهم ، وعلى أهل عصورهم المتأخرة .

---

(١) القول المفيد ص ٢٥ ، ٢٦

(٢) إرشاد الفحول لتحقيق الحق من علم الأصول ص ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع جـ ٢ ص ٨٤ ، ٨٥ ، القول المفيد فى أدلة الاجتهاد ، والتقليد ص ٢٦ ، ٢٧

(٣) المنطق الحديث لأستاذى الدكتور محمود قاسم ص ٢٨ ، وانظر أيضاً ص ٣٢ فى نسبية المنطق

ولكن الإمام الشوكانى ، يرى أن هذه دعوى باطلة أيضا ، « فإنه لايخفى على من له أدنى فهم ، أن الإجتهاد قد يسره الله للمتأخرين ، تيسيرا لم يكن للسابقين ، لأن التفاسير للكتاب العزيز ، قد دونت ، وصارت فى الكثرة ، إلى حد لا يمكن حصره . وكذلك السنة المطهرة وتكلم الأئمة فى التفسير ، والتجريح والتصحيح والترجيح ، بما هو زيادة على مايحتاج إليه المجتهد ، وقد كان السلف الصالح ومن قبل هؤلاء المنكرين يرحل للحديث الواحد من قطر إلى قطر « فالاجتهاد على المتأخرين أيسر ، وأسهل من الاجتهاد على المتقدمين ولا يخالف فى هذا من له فهم صحيح ، وعقل سوى »[1] .

هذه إشارة إلى رأيه فى الإجتهاد والتقليد ، وعنوان لروح مذهبه ، وهو فى ذلك عالم أصيل متمكن ، مقتنع بما يقول متحمس له ، من باب التدين والمحافظة على الكتاب والسنة ، وهو يقول فى ذلك : « والذى أدين الله به أنه لا رخصة لمن علم من لغة العرب ، مايفهم به كتاب الله بعد أن يقيم لسانه بشىء من علم النحو والصرف ، وشطر من مهمات كليات أصول الفقه ، فى ترك العمل بما يفهمه من آيات الكتاب العزيز ، أو السنة المطهرة ، ولا يحل التمسك بما يخالفه من الرأى سواء كان قائله واحداً ، أو جماعة ، أو الجمهور »[2] .

نجد هذه الروح القوية فى جميع كتبه التى وصلتنا والتى ألفت فى علوم الكتاب والسنة جميعها ، مما يجعل منه مجاهداً كبيراً فى هذا الميدان ، لامجرد عالم صاحب دعوة وكفى ، وقدوقف بعض كتبه ، على بيان وجوب الاجتهاد ، وعدم جواز التقليد ، مثل : كتاب (السيل الجرار) ، وكتاب (أدب

---

(١) إرشاد الفحول ص٢٢٣ ، ٢٢٤ .
(٢) البدر الطالع جـ ٢ ص ٨٤ وما بعدها .

الطلب ، ومنتهى الأرب) ، وكتاب (القول المفيد فى أدلة الإجتهاد والتقليد) بغية المستفيد فى الرد على من أنكر الاجتهاد من أهل التقليد) . بل لقد بلغ به دفاعه للمقلدين وتأكيده لفكرته فى تطور العلم دائما وسيره نحو الكمال ، أن ألف كتاباً للتراجم ، كدليل عملى وواقعى على أن باب الإجتهاد لم ينسد ، وأنه مفتوح إلى يوم الدين ، ذلك هو كتابه المشهور « البدر الطالع » بمحاسن من بعد القرن السابع » ذكر فيه أصنافا من المجتهدين ، أو ممن فاقوا رتبة الإجتهاد ، كإبطال لفكرة انتهاء الإجتهاد بإنتهاء القرن السادس الهجرى وفى ذلك يقول : « فإنه لما شاع على ألسن جماعة من (الرعاع) اختصاص سلف هذه الأمة بإحراز فضيلة السبق فى العلوم دون خلفها ، حتى اشتهر عن جماعة من أهل هذه المذاهب الأربعة تعذر وجود مجتهد بعد المائة السادسة كما نقل عن البعض ، أو بعد المائة السابعة كما زعمه آخرون ... حدانى ذلك إلى وضع كتاب يشتمل على تراجم أكابر العلماء من أهل القرن الثامن ومن بعدهم مما بلغنى خبره إلى عصرنا هذا ، ليعلم صاحب تلك المقالة ، أن الله ، وله المنة ، قد تفضل على الخلف ، كما تفضل على السلف ، بل ربما كان فى أهل العصور المتأخرة من العلماء المحيطين بالمعارف العلمية على اختلاف أنواعها من يقل نظيره من أهل العصور المتقدمة ، كما سيقف على ذلك من أمعن النظر فى هذا الكتاب »[1] .

وقد وقف جزءاً من هذا الكتاب موضع التحقيق والدراسة وهو (قطر الولى على حديث الولى) على ذلك أيضا[2] ، وبين فيه جهاده مع المقلدين وما رآه منهم وما قاله فيهم ، وأشار إلى أنه رأى منهم الكثير ، وقال فيهم من الشعر ما صور به حاله وحالهم ، وأودع ذلك كله كتابه المتقدم : (أدب الطلب

---

(١) البدر الطالع جـ ١ ص٢ ، ٣ .
(٢) ينظر : (حماية العلماء العاملين للأمة من التقليد) .

ومنتهى الأرب)، ومن قوله فى ذلك :

يا غارقين بشؤم الجهل فى بدع	ونافرين عن الهدى القويم، هدوا
ما باجتهاد قتى فى العــلم منقصة	النقص فى الجهل لا حيا كم الصمد
لا تنــكروا مورداً عذبا لشاربه	إن كان لا بد من إنـكاره فردوا

هذا بالنسبة المقلدين من الزيدية[1] وغيرهم، أما بقية علماء الزيدية، وهم كثرة، فـكانوا على الإجتهاد، وعلى تقدير وإجلال للشوكانى، كما كانوا هم أيضا موضع إجـــلاله وثنائه، وفيهم يقول : « فإن فى ديار الزيدية من أئمة الـكتاب والسنة عدداً يجاوز الوصف، يتقيدون بالعمل بنصوص الأدلة، ويعتمدون على ماصح فى الأمهات الحديثة، وما يلتحق بهامن دواوين الإسلام المشتملة على سنة سيد الأنام، ولا يرفعون للتقليد رأسا، بل هم على نمط السلف الصالح »[2] .

وربما كان متأثرا فى اجتهاده ببعض شخصيات المجتهدين السابقين منهم، كالسيد محمد بن إبراهيم بن الوزير[3] الذى ترجم له ترجمة حافلة، وأثنى عليه ثناء عاطرا[4] .

كما كان له منهم التلاميذ الـكثيرون، معاصرون ومتأخرون، وقد وفوا

---

(١) وعرف هؤلاء بإسم الهدوية، نسبة إلى الإمام الذى قلدوه رغما عنــه، وهو الامام الهادى يحيى بن الحسين آخر علماء المائة الثالثة بعد الهجرة فى اليمن (القول المفيد فى أدلة الاجتهاد والتقليد) ص ٢٥، ٢٦ : وقد تقدمت ترجمة له فيما سبق .

(٢) البدر الطالع جـ٢ ص٨٢، قارن قطر الولى : فى (أهل اليمن والاجتهاد)

(٣) (من سنة ٧٧٥ — ٨٤٠ هـ) نفس المصدر ص ٨١

(٤) ينظر نفس المصدر ص٨١ — ٩٣

له ، ولمبادئه[١] ، ويكفى أن يكون منهم السيد محمد بن محمد زباره ، الذى يرجع إليه الفضل فى نشر كتبه هنا فى مصر ، وتعريف المصريين به كما أن الأئمة الحاكمين كانوا أسرع الناس إلى اقتناء كتبه وروايتها ، والمحافظة عليها[٢] وبلغ بهم أن جعلوا ما كان منها فى مكتبة صنعاء ضمن الكتب التى لا يجوز خروجها من المكتبة ؛ حرصا عليها ومحافظة[٣] .

(٢) الدعوة إلى عقيدة السلف فى الأصول

يرى الإمام الشوكانى « أن طرق المتكلمين لا توصل إلى يقين ، ولا يمكن أن تصيب الحق فيما هدفت إليه ، لأن معظمها قام على أصول ظنية ، لا مستند لها إلا مجرد الدعوى على العقل ، والفرية على الفطرة ، فكل فريق منهم قد جعل له أصولا تخالف ما عليه الاخر ، وقد أقام هذه الأصول على ما رآه عنده هو صحيحا من حكم عقله الخاص المبنى على نظره القاصر . فبطل عنده ما صح عند غيره ، وقاسوا بهذه الأصول المتعارضة كلام الله ورسوله فى الإلهيات وما يتصل بها من العقائد ، فأصبح كل منهم يعتقد نقيض ما يعتقده الاخر ،

(١) وهو يقول فى ذلك ، بعد حديثه عن كثرة المجتهدين فى اليمن : (بل غالب الآخذين عنا ، وهم العدد الجم ، هم بهذه الصفة ، وعلى هذه الخصلة المحمودة) قطر الولى فى (أهل اليمن والاجتهاد) .

(٢) كما فى قطر الولى ينظر صفحة الغلاف والعنوان فى المصور ، وينظر ص٢ من تفسير الشوكانى ج ١ ففى بدئه يروى تلميذه محمد زباره هذا التفسير عن سيف الإسلام أحمد بن قاسم بن عبد الله بن حميد الدين عن السيد الحافظ ، عبد الكريم بن عبد الله الحسنى اليمنى المتوفى سنة ١٣٠٩هـ عن القاضى أحمد ابن محمد بن على الشوكانى ، المتوفى سنة ١٢٨١ هـ عن أبيه .

(٣) ينظر : نهاية فهرس الخزانة المتوكلية لمكتبة الجامع المقدس بصنعاء الموجود بدار الكتب المصرية .

وكل منهم يزعم أن العقل يقتضى مايعتقده . وحاشا العقل الصحيح السالم عن تغير مافطره الله عليه ، أن يتعقل الشيء ونقيضه ، فإن اجتماع النقيضين محال عند جميع العقلاء فكيف تقتضى عقول بعض العقلاء أحد النقيضين ، وعقول البعض الآخر النقيض بعد ذلك الإجتماع ؟ . وما هذا الأمر إلا الغلط البحت الناشيء عن العصبية »[1] . ثم جعلوا هذه الأصول ، معيارا لصفات الرب تعالى، فأثبتوا لله تعالى الشيء ونقيضه ، ولم ينظروا إلى ما وصف الله به نفسه ، وما وصف به رسوله . « بل أن وجدوا ذلك موافقا لما تعقلوه ، جعلوه مؤيدا له ومقويا ، وقالوا قد ورد دليل السمع مطابقا لدليل العقل ، وإن وجدوه مخالفا لما تعقلوه ، جعلوه واردا على خلاف الأصل ومتشابها ، وغير معقول المعنى ، ولا ظاهر الدلالة . ثم قابلهم المخالف لهم بنقيض قولهم ، فافترى على عقله بأنه قد تعقل خلاف ماتعقله خصمه، وجعل ذلك أصلا يرد إليه أدلة الكتاب والسنة ، وجعل المتشابه عند أولئك محكما عنده ، والمخالف لدليل العقل عندهم، موافقا له عنده »[2] فوقعوا فى التناقض أمام فهم كتاب الله العزيز ، إلى جانب ماذهبوا إليه من الباطل ومن مظاهر ذلك ما وقع فيه المعتزلة من مبدأ نفى الصفات ، بناء على مبدئهم فى التنزيه ، وما غلا فيه الأشعرية من الوقوع فى التجسيم ، بناء على ماذهبوا إليه من التأويل ، والمبالغة فى الإثبات[3] . ويحيل الإمام الشوكانى إلى جانب ذلك على بعض المسائل التى تجلى فيها هذا الخطأ وذلك التناقض فيقول: « وإن كنت تشك فى هذا ، فراجع كتب الكلام ، وانظر المسائل التى قد صارت عند أهله من المراكز ، كمسألة التحسين والتقبيح ، وخلق الأفعال ،

(١) كشف الشبهات عن المشتبهات ص٢٢ ، ٢٣
(٢) التحف فى مذاهب السلف ص ٥٠ ، ٥١
(٣) انظر رسالة الأشعرى فى استحسان الخوض فى علم الكلام ص ١٠ ، ١١

وتكليف ما لا يطاق ، ومسألة خلق القرآن ، فإنك تجد ما حكيته لك بعينه »[1] .

ويرى أستاذنا الدكتور محمود قاسم ، أن هذا الاختلاف ، والتناقض بين علماء الكلام طبيعى ، « طالما كانوا ينهجون منهج الجدل، وطالما ينسون فى كثير من الأحيان أنه لا يحق للباحث فى مسائل الدين ، أن يطبق الاعتبارات الإنسانية على الأمور الإلهية » . وهذه هى علة التناقض والاختلاف عندهم[2] .

لذلك كان المسلك القويم فى الإلهيات والإيمان بما جاء فيها ، هو مسلك السلف الصالح من الصحابة والتابعين ، من حمل صفات البارى على ظاهرها ، وفهم الآيات والأحاديث على ما يوحيه المعنى اللغوى العام ، وعدم الخوض فى تأويلها ، والإيمان بها على ذلك دون تكلف ولا تعسف ولا تشبيه ولا تعطيل ، وإثبات ما أثبته الله لنفسه من صفاته ، على وجه لا يعلمه إلا هو ، فإنه القائل : (ليس كمثله شىء وهو السميع البصير) فأثبت لنفسه صفة السمع والبصر مع نفى المماثلة للحوادث فى الوقت نفسه[3] ، وأن القرآن عربى ، وخاطب قوماً عربا على الفطرة ؛ فلا داعى للتطرق إلى ما وراء اللغة من عقليات مخترعة ، بل الواجب فهمه فى ضوء ما جاءت به اللغة ، وما بينه الرسول صلى الله عليه وسلم من شرح وإيضاح .

وينتهى الغزالى وابن رشد إلى مثل ما سينتهى إليه الشوكانى من قصور

---

(١) كشف الشبهات ص ٢٢ ، ٢٣

(٢) مقدمة فى نقد مدارس علم الكلام ص ٩ ، ١٠ من مناهج الأدلة فى عقائد الملة .

(٣) التحف فى مذهب السلف ص ٥٣ ، فتح القدير فى علم التفسير ج ١ ص ٥١٤

علم الكلام عن أن يكسب الناس الإيمان ، عن طريق تلك الأدلة الجدلية[1] ، التي لا تصلح للجمهور ولا للعلماء ، فإنها بعيدة عن أن تكون « طرقا نظرية يقينية ، ولا طرقا شرعية يقينية » وهذه الأخيرة هي الطرق التي جاء بها الكتاب العزيز ليفهم عن طريقها الخاصة والعامة ، « وذلك أن الطرق الشرعية إذا تؤملت وجدت في الأكثر قد جمعت وصفين : أحدهما أن تكون يقينية ، والثاني أن تكون بسيطة غير مركبة ، أعني قليلة المقدمات ، فتكون نتائجها قريبة من المقدمات الأولى »[2] . أما أدلة المتكلمين في تعقيداتها وتشعيباتها ، وعدم قيامها على أسس يقينية فإنها غالبا ما يلزمها شكوك عويصة ، « لا يتخلص منها العلماء المهرة بعلم الكلام فضلا عن العامة[3] » . ولأجل هذا فقد صرح الإمام الغزالي « بأن الخوض في علم الكلام حرام لكثرة الآفة فيه »[4] ، وأن الواجب الرجوع إلى طريقة السلف ، لأن مذهبهم هو الحق[5] .

ويمكن أن نعتبر هذا رداً لما ذهب إليه (أبو الحسن الأشعري) من استحسان الخوض في علم الكلام ، وادعى أنه اجتهاد وهو جائز ، وأنه أولى بالجواز من أحكام حوادث الفروع « لأن حكم مسائل الشرع التي طريقها السمع ، أن تكون مردودة إلى أصول الشرع الذي طريقه السمع ، وحكم

---

(١) ص٧١ وما بعدها من دراسات في الفلسفة الإسلامية . وفيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة للغزالي ص١٧٣ ، ١٧٤ ضمن مجموعة القصور العوالي .

(٢) مناهج الأدلة في عقائد الملة ص ١٤٨ — ١٤٣ .

(٣) المصدر المتقدم ص ١٣٧ ، ١٣٣ ، وينظر الفصل الأول بأكملة الخاص بالبرهنة على وجود الله ، ففيه إبطال لأدلة المتكلمين بطريقة عملية .

(٤) مصدره المتقدم ص١٧٣ .

(٥) إلجام العوام عن علم الكلام ص ١٣ ، ٣٣

مسائل العقليات والمحسوسات ، أن يرد كل شيء من ذلك إلى بابه »[1] ثم يجعل أيضا ، براهين المتكلمين صورة من براهين القرآن[2] في إثبات وجود الله ، ووحدانيته .

وغنى عن البيان أنه يقلب الحقائق بذلك ، فإن الفروع ليست من السمعيات ، وإنما الأصول هي التي منها ، كما أن موازين علم الكلام ليست من موازين القرآن الكريم في شيء كما هو واضح في القسطاس المستقيم للغزالي وغيره .

والإمام الشوكاني يجعل عمدته في الدعوة إلى مذهب السلف هاتين الآيتين الكريمتين قوله تعالى : « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير » ، وقوله : « ولا يحيطون به علماً » ففيهما الإثبات والنفي ، إثبات صفات الباري ونفي مماثلة هذه الصفات للحوادث ، ثم تقييد هذا الإثبات بظاهر ماصرحت به الآيات وأجملته ، والزجر عن الخوض في كيفية هذه الصفات ، فإن الله سبحانه قد أخبرنا ، أنهم لا يحيطون به علما ، فمن زعم أن ذاته كذا أو صفته كذا ، فلاشك أن صحة ذلك متوقفة على الإحاطة ، وقد نفيت عن كل فرد من الأفراد »[3] : « ولا يحيطون به علما » .

نجد هذا المذهب مثبوتاً في تضاعيف كتبه ، وقد أفرد له بعض الرسائل مثل رسالة (التحف في مذهب السلف) ، و (كشف الشبهات عن المشتبهات)

---

(١) رسالة في استحسان الخوض في علم الكلام ص ١٠

(٢) المصدر المتقدم ص ٣ — ٩

(٣) نفس المصدرين ، والصفحتين المتقدمتين . والآية الأولى رقم (١١) سورة الشورى والثانية رقم (١١٠) سورة طه .

وقد اعتنق هذا المذهب اجتهادا لا تقليدا ، فقد كان فى بادىء أمره عليه ولكنه أراد أن يزداد به بصيرة ، فتحول بعض الوقت إلى علم الكلام وأكب على مؤلفات طوائفه المختلفة ، وشغل بها زمنا ، فلم يظفر بشىء ولم يستفد غير الخيبة والحيرة ، وهو يقول فى ذلك : «ولتعلم أنى لم أقل هذا تقليدا لبعض من أرشدنى إلى ترك الاشتغال بهذا الفن كما وقع لجماعة من محققى العلماء ، بل قلت هذا بعد تضييع برهة من العمر فى الاشتغال به ، وإحفاء السؤال لمن يعرفه ، والأخذ عن المشهورين به ، والإكباب على مطالعة كثير من مختصراته ومطولاته ، حتى قلت عند الوقوف على حقيقته من أبيات منها :

وغاية ما حصلته من مباحثى ومن نظرى من بعد طول التدبر
هو الوقف ما بين الطريقين حيرة فما علم من لم يلق غير التحير ؟
على أننى قد خضت منه غماره ولم أرتض فيه بدون التبحر [1]

(٣) دعوته إلى تطهير الاعتقاد

رأى الإمام الشوكانى ما أدخله غلاة الشيعة والصوفية على العقيدة الإسلامية من جراء رفعهم القبور ، وبناء القباب وتجميلها على الأموات من أئمتهم وأوليائهم ، وجرهم العامة إلى زيارتها والتبرك بها ، والتوسل بأصحابها واعتقادهم فيهم القدرة على الضرر والنفع ، وشيوع هذا فى الناس وتأصله فيهم ، وميلهم بهذا عن دعوة الله ، إلى دعوة هؤلاء الأموات والعكوف على قبورهم ، وطوافهم بها وتعظيمها والذبح لهم والنذر إليهم ، فأعلن أن هذا كفر صراح ، ولا يمكن أن يتفق مع شهادة (أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله) فإن مقتضى هذه

( ) التحف فى مذهب السلف ص٥٤ ، كشف الشبهات ص٢٣ ، ٢٤

الشهادة ألا يعتقد إنسان فى غيره أنه يستطيع أن يفعل له مايختص الله وحده بالقدرة على فعله ، وألا يأتى من الأعمال ، ولا من العبادات ، مايشعر بهذا الاعتقاد ، وأنه من الواجب على كل مسلم أن يخلص شهادة التوحيد لله .
وإخلاص التوحيد لايتم إلا بأن يكون الدعاء كله لله ، والنداء والاستعانة والرجاء واستجلاب الخير واستدفاع الشر له ومنه لا لغيره : « فلا تدعوا مع الله أحدا »[١] . « له دعوة الحق ، والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشىء »[٢] . « وعلى الله فليتوكل المؤمنون »[٣]،[٤] . هذا دعاء القرآن نحو إخلاص الدين ، أو التوحيد لله .

كما أن الرسول ﷺ قد نهى عن رفع القبور ، أو بناء المساجد عليها أو بالقرب منها ، وبين أن هذا من خصال الذين ضلوا من النصارى واليهود من قبل ، فإنهم كانوا إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً .

ويرد على أئمة الشيعة أنفسهم بما أخرجه مسلم عن أبى الهياج الأسدى قال : قال لى على : « ألا أبعثك على مابعثنى عليه رسول الله ﷺ ؟ ألا تدع صورة إلا طمستها ، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته »[٥] .

ويبين أن بناء القبور ورفع القباب عليها ، وتجميلها على ماهو متبع الآن من شأنه أن يوحى بالعظمة فى نفس الزائر من العوام ، فيقع فى الكفر من حيث لا يشعر «فقد ذهب بعض أهل مكة إلى القبة المقامة على قبر الإمام أحمد ابن الحسين (صاحب ذى بين) فرآها وهى موقدة بالشموع ، والبخور والطيب

---

(١) سورة الجن آية : ١٨ .
(٢) سورة الرعد آية : ١٤ .
(٣) سورة إبراهيم آية : ١١
(٤) الدر النضيد فى إخلاص كلمة التوحيد ص ١٥
(٥) المصدر المتقدم ص ١٤ ، شرح الصدور بتحريم رفع القبور ص ١٣ .

ينفخ فى جوانبها ، وعلى القبر الستور الفائقة ، فقال عند وصوله إلى الباب : أمسيت بالخير ياأرحم الراحمين »[١] . ولهذا نهى الرسول ﷺ عن إضاءة القبور ، أو بنائها بالجص أى الجير ، وما يشبهه .

وعبادة الأوثان ، والأصنام قديماً ، قد تطورت فى كثير من الأحوال عن مثل هذه الأبنية على الصالحين عند العرب، وعند قوم نوح ، فاللات اسم رجل صالح ، كان يلت للحجاج السويق ، فمات فعكفوا على قبره ، « وفى الصحيح عن ابن عباس (رضى الله عنهما) فى قوله تعالى : « ولاتذرن آلهتكم، ولاتذرن وداً ، ولا سواعا ولا يغوث ، ويعوق ، ونسرا » قال : هذه أسماء رجال من قوم نوح ، لما هلكوا ، أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم ، التى كانوا يجلسون عليها أنصابا وسموها ، بأسمائهم ففعلوا ، فلم يعبدوا ، حتى إذا هلكوا ، ونسى العلم عبدت وقال غيروا حد من السلف: لما ماتوا عكفوا على قبورهم »[٢] .

وهو يجهر بهذه الدعوة للعوام والخواص . ومما كتبه يشنع فيه على بعض الخواص، ممن نسوا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وانساقوا وراء التعصب أو التقليد رسالة بعنوان : « شرح الصدور بتحريم رفع القبور » وهو على عادته يجعل المسألة التى تدور عليها هذه الرسالة ، صورة من صور الاجتهاد ، أو من الرد إلى كتاب الله وسنة الرسول عند الاختلاف، أو عند إرادة الحكم الصحيح ، فيقول : « ولنجعل هذه المسألة التى جعلناها مثلا لما ذكرناه ،

---

(١) نفس المصدر ص ١٧ ، الدر النضية فى إخلاص كلمة التوحيد ص ١١ :

(٢) المصدر المتقدم ص ١١ ، الدرارى المضيئة للشوكانى أيضا ج ١ ص ٢٤٨ — ٢٤٩ . وقارن كشف الشبهات لابن عبد الوهاب مطبعة السنة المحمدية ص ٦ .

وإيضاحاً لما أمليناه : هى المسألة التى لهج بالكلام فيها أهل عصرنا ومصرنا، خصوصاً فى هذه الأيام لأسباب لاتخفى ،وهى : مسألة رفع القبور والبناء عليها، كما يفعله الناس من بناء المساجد والقباب على القبور »[1] . وهذه المسألة هى الرد على الإمام (يحيى بن حمزة)[2] فى قوله : لابأس بالقباب والمشاهد على قبور الفضلاء والملوك لاستعمال المسلمين ، ولم ينكر . فيثبت أن هذا أول نداء بهذه البدعة صدر فى الديار اليمنية،ثم تتابع المؤلفون فى الفقه بهذا التصريح والجواز وراءه ، تقليدا له واقتداء به . وهو يبطل هذه الفتوى بإبطال أدلتها التى أسندها بها صاحبها ، وهى « استعمال المسلمين ، ولم ينكر » فإن استعمال المسلمين أو عدم إنكارهم ، إذا تعارض مع الكتاب أو مع السنة ، كان ذلك الاستعمال باطلا ، فإن المرجع فى الجواز وعدمه هو كتاب الله وسنة الرسول: « فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول »[3] . وقد ظهر فى الكتاب والسنة أن هـــذه أعمال تتساوى مع الكفر ومع عبادة الأصنام . وقد قال الرسول (ﷺ) ، « كل أمر ليس عليه أمرنا ، فهو رد »[4] ثم إن علماء المسلمين فى كل عصر ، مازالوا يروون أحاديث رسول الله (ﷺ) فى لعن من فعل ذلك ويقررون شريعة الإسلام فى تحريم ذلك فى مدارسهم ومجالس حفاظهم، يرويها الآخر عن الأول والصغير عن الكبير »[5] .

---

(١) ص ٧٦ من الرسالة المذكورة، شرح الصدور بتحريم رفع القبور ص ١٢.

(٢) من كبار أئمة الزيدية فى اليمن فى القرن الثامن الهجرى . ولد (عام ٦٦٩ وتوفى سنة ٧٤٧ هـ) .

(٣) سورة النساء : ٥٩ .

(٤) شرح الصدور بتحريم رفع القبور ص ٩ وما بعدها .

(٥) نفس المصدر ص ٢٣ وماقبلها .

وبهذا يرينا كيف أن التقليد وترك الاجتهاد كان له أيضاً ، مدخل فى تشويه العقيدة ، والإخلال بإخلاص التوحيد لله ، وأن الطريق إلى تصحيح العقيدة هو الرجوع إلى الكتاب والسنة فى كل عمل أو اعتقاد .

وقد رأى الإمام الشوكانى أن إخلاص التوحيد ، أو النطق بشهادة « أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله » على وجهها ، هو الطريق إلى أداء العبادات ، ثم أداء الأعمال اليومية على وجهها بمراقبة الله فيها ، وأن المجتمع لا يمكن أن يستفيد من إيمانه أو إسلامه فى حياته الاجتماعية أو الاقتصادية والسياسية ، إلا إذا كانت هذه الشهادة خالصة من مظاهر الشرك ، فهنا يمكن أن ينتفع الإنسان من هذه الشهادة ديناً ودنيا ، وأنه ما أخر المسلمين ، وقعد بهم عن الاستمرار فى نهضتهم وعزتهم ، إلا تحريف هذه الشهادة ، وحيلولة مظاهر الشرك بينها وبين حلولها فى القلب أو حلوها ، ولكن بزيغ وتشويه ، وأن هذه هى علة المسلمين اليوم ، والتى وراء كل جمود وتأخر وذلة[1] .

وقد أخذت هذه الدعوة منه حيزاً كبيراً بحيث صار فيها فى اليمن إماما ، كابن عبدالوهاب فى الحجاز من قبل ، وابن تيمية فى مصر والشام ، ولاقى من جرائها الكثير من المتعصبين ومن المقلدين ، ورمى بالنصب من أجلها ، ومن أجل دعوته إلى الاجتهاد والرجوع بالتشريع ، إلى طريقة السلف الصالح من الصحابة والتابعين

ولكن طبيعة سلوكه ترد عليهم ، فإنه لم يذكر الرسول ﷺ ولم يصل عليه إلا وصلى على آله أيضا معه ، نرى هذا واضحاً فى كتبه التى وصلتنا ،

---

(١) رسالة الدواء العاجل فى دفع العدو الصائل ص ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٨ وما بعدها.
الدر النضيد فى إخلاص كلمة التوحيد ١٩ ، ١٣ ، ١٥ .

كما نراه أيضا فى كتابه الذى ألفه بعنوان ، « در السحاب فى مناقب القرابة والأصحاب » فقد جمع فيه كل ماوصلت إليه يده ، مما نسب للرسول ﷺ فى فضائل على رضى الله عنه وزوجه فاطمة وأولادها رضى الله عنهم .

(الشوكانى) وابن تيمية وابن عبدالوهاب

وهو فى هذا ، ليس متأثرا ، بابن تيمية ، ولا بابن عبدالوهاب كما يتبادر إلى الذهن وإنما سعة ، إحاطته بالسنة ، وكثرة رصيده من محفوظها ، ثم تشبعه بالناحية العقلية التى امتاز بها الزيدية فى عمومهم ، وغلبة الروح الاجتهادية عليهم ، هو الذى أثر فيه ووجهه هذه الوجهة القوية ، كما كان لنشأته الصالحة ، فى كنف والده الصالح أثر كبير فى ذلك ، وأثار هذه الروح وأبرز هذه الوجهة ، ماسمعه فى العالم الإسلامى ، ومارآه فى قطره من مظاهر الخروج على الكتاب والسنة ، من جمود ، ومن تشويه فى العقيدة ، فنهض يدعو إلى كتاب الله ، ويرشد إلى طريق النهضة بكل ماأوتى من علم ، ومن سلطان .

وقد ظهر لنا هذا الاستقلال فى تلك الدعوة ، من النظر فى نشأته عموما ، وفى موقفه من دعوة ابن عبدالوهاب ورأيه فيه ، وفى ابن تيمية ، فرغم أنه ينتهى فى النهاية ، إلى ماقاله ابن عبد الوهاب ، إلا أنه قد وضح فى رده على خلفه سعود بن عبدالعزيز فى إحدى قصائده أن له اتجاها خاصا يختلف شيئا ما عن ابن عبدالوهاب ، وأنه ، إذا كان قد جعل التوسل بالأولياء ، وزيارة قبورهم كفراً بعد ذلك فى غير هذه القصيدة[1] فإنما هذه لعقيدته الخاصة

---

(١) انظر شرح الصدور ص ١٧ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، الد النضيد طبعة الدمشقى سنة ١٣٥١ ص ١٦ ، ١٧ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٦ ، ٢٧ .

ودراسته الشخصية ، فيقول فى هذه القصيدة ، مخاطباً أهل نجد، بعد أن وصل إليه منهم ماأوجبها :

نرد إلى الكتاب إذا اختلفنا ... مقالتنا ، وليس لذا جحود
مضى خير القرون ، ومن تلاه ... ولا قيل ، ولا قال ولود
لهم من حلة الإنصاف حَلى ... ولبس الهدى لهم برود
وماقالوا بتكفير لقوم ... لهم بدع على الإسلام سود
وماقالوا بأن الرفض كفر ... وبدعته تشق لها الجلود
فكيف يقال قد كفرت أناس ... يرى لقبورهم حجر وَعود
فإن قولوا أتى أمر صحيح ... بتسوية القبور فلا جحود
ولكن ذاك ذنب ليس كفراً ... ولا فسقاً فهل فى ذاردود
وإلا كان من يعصى بذنب ... كفورا ، ان ذا قول شرود
ولى فى ذا كتاب قمت فيه ... مقاماً ليس ينكره الحسود
وقد سارت به الركبان شرقا ... وغربا لم ترد فيه ردود(١)

وهكذا يصرح فى هذه القصيدة بأنه لم يصل إلى نفس الرأى الذى وصل إليه أتباع ابن عبدالوهاب ، وأنه اذا كان قد ساواهم فى شىء ، فإنما هو قد وصل اليه قبل أن يعرفهم .

كما أن بلوغ الشوكانى مرتبة النضج العلمى والعقلى فى سن مبكرة ، ووصوله الى مرتبة الاجتهاد ، وهو دون الثلاثين ، ومعاصرته لابن عبد الوهاب

(١) نيل الوطر للشيخ محمد زبارة ص ٢٩٩—٣٠٢ ، وهى إحدى المكا التى جرت بينه وبينهم .

تقريبا[١] . إذ أنه توفى والشوكانى سنه إذ ذاك ثلاث وثلاثون ، يعطى أن هذا عالم وذاك عالم ، هذا نشأ فى صنعاء ، وذاك نشأ فى الحجاز ، وكلاهما اتجه اتجاها مستقلا عن الآخر، فى وقت متعاصر تقريبا ، وخاصة أن الإمام الشوكانى لم ينتقل من صنعاء

فإذا كان هناك تطور فى عقيدة الإمام الشوكانى ، وصل به إلى أن تساوى مع عقيدة ابن عبدالوهاب أو قرب منها ، فإنما هذا لاجتهاده الخاص، ولا يعدو أن يكون مجرد توافق والتقاء طبيعى على نتيجة واحدة لمذهبين ، جعلا منهلهما واحدا : هو الكتاب ، والسنة ، وآثار السلف الصالح . وهكذا إذا كان المبدأ متحداً ، فلابد أن تكون الغاية والنتيجة متشابهة .

ومن هنا فهو يلتقى مع ابن عبدالوهاب على الدعوة إلى تطهير الاعتقاد وكون كل منهما موجها للنهضة العلمية والدينية وجهة عقلية سلفية منتجة فى العصر الحديث .

وبالنسبة لابن تيمية ، فالأمر يكاد أن يكون كذلك ، رغم أنه نقل عن هذا الأخير ، بعض نقول ، وتأثر به فى اتجاهه التصوفى أخيرا ، كما هو واضح فى كتاب قطر الولى[٢] . فإنه قد ترجم لابن تيمية فى (البدر الطالع) ورغم أنه قد أعطاه حقه فى الثناء، إلا أنه لم يشر إلى أنه قد أخذ عنه شيئا ، أو تأثر

---

(١) اذ أن ابن عبد الوهاب ولد سنة ١١١٥ هو توفى سنة ١٢٠٦ هـ والشوكانى (١١٧٣ — ١٢٥٠ هـ) .

(٢) ينظر (العنوان الخاص بافضل الأولياء ، وطبقات الأولياء) ، وقارن ، الفرقان لابن تيمة ص ٢٧ — ٢٩ ، ٤٠ — ٥ ، ٤٤ ، قطر الولى فيما يتصل بتصوفه العنوان الخاص بالواجب على الولى فيما يصدر من أعمال ، وقارن الفرقان ص ٧٢ ، ٧٣ الطبعه الثانية سنة ١٩٥٨ .

به أو انتفع منه . ويبدو أن قراءته له بعد تكونه العلمى، فإنه لم يشر فى ترجمة لنفسه، إلى كتب ابن تيمية ضمن الكتب التى قرأها، وتلمذ فيها أو عليها[1] . وفى ذلك نفى لما يدعيه الشيخ عبد المتعال الصعيدى، من أن الشوكانى كان مقلدا لابن تيمية ، وأنه لا يعتبر من المجتهدين[2] ، فهو كلام لشخص ، لم يخبر هذا الرجل ، وأغلب الظن أنه سمع عنه سماعاً مشوهاً ، أو قرأ له فقط ترجمته لابن تيمية ، ففهم من احتفائه به ، أنه مقلد له .

٣ — أساتذته :

نذكر منهم :

١ — والده على بن محمد الشوكانى[3] .

٢ — السيد عبد الرحمن بن قاسم المدانى[4] .

٣ — العلامة أحمد بن عامر الحدائى[5] .

٤ — السيد العلامة اسماعيل بن الحسن بن أحمد ابن الإمام القاسم ابن محمد[6] .

٥ — العلامة القاسم بن يحى الخولانى[7] .

---

(١) وهذا واضح أيضاً ، من النظر فى تاريخ تأليفه للبدر الطالع، ولقطر الولى، فان الأول متقدم على الثانى بكثير ، فإنه قد انتهى من تاليفه عام (١٢١٣) هـ ، ومن قطر الولى سنة ١٢٣٩ هـ ، فيظهر أنه قد تكون علمياً ، ووصل إلى درجة الاجتهاد ، قبل أن ينطبع فى نفسه ابن تيمية .

(٢) المجددون فى الإسلام ص ٤٧٢ ـ ٤٨٥ (٣) توفى سنة ١٢١١هـ.

(٤) توفى سنة ١٢١١ هـ (٥) توفى سنة ١١٩٧هـ (٦) توفى سنة ١٢٠٦هـ.

(٧) توفى سنة ١٢٠٩ ، وولد سنة ١١٦٢ ، وقد اعتبره الإمام الشوكانى شيخه الأكبر وأثنى عليه علما ودينا ، ويذكر أنه رافقه فى الطلب أيضاً ، إلى جانب تلمذه عليه .

٦ — العلامة عبدالله بن اسماعيل النهمى ، درس عليه كل شرح (ايساغوجى) للقاضى زكريا[١] .

٧ — العلامة الحسن بن إسماعيل المغربى ، درس عليه شرح الشمسية للقطب وحاشيته للشريف[٢] .

٨ — السيد الإمام عبد القادر بن أحمد الكوكبانى[٣] .

٩ — السيد العلامة على بن ابراهيم بن على بن ابراهيم بن أحمد بن عامر[٤]

١٠ — السيد العارف يحى بن محمد الحوثى[٥] .

١١ — القاضى عبدالرحمن بن حسن الأكوع[٦]

٤ — تلاميذه .

منهم :

١ — السيد محمد بن محمد زبارة الحسنى اليمنى الصنعانى ، الذى ترجم للشوكانى فى كتابه (نيل الوطر من تراجم رجال اليمن فى القرن الثالث عشر) والذى ساهم فى نشر بعض مؤلفات الشوكانى فى مصر . وهو من الجيل الثانى من تلاميذ الشوكانى ، توفى سنة ١٣٨١ هـ . وحوالى ١٩٦٢ م .

---

(١) توفى سنة ١٢٨ هـ (٢) توفى سنة ١٢٠٨ هـ .

(٣) ينتهى نسبه إلى الإمام المهدى أحمد بن يحيى ولد سنة ١١٣٥ هـ قال عنه الشوكانى : لم ترعينى مثله فى كمالاته ، ولم آخذ عن أحد يساويه فى مجموع علومه » وتوفى سنة ١٢٠٧ هـ .

(٤) ولد سنة ١١٤٣ هـ وقيل سنة ١١٢٩ هـ وتوفى سنة ١٢٠٧ هـ .

(٥) ولد تقريباً سنة ١١٦٠ هـ وهو شيخ الشوكانى فى علم الفرائض والوصايا ، والضرب والمساحة ، وتوفى سنة ١٢٤٧ هـ .

(٦) توفى سنة ١٢٠٦ هـ .

٢ — محمد بن أحمد السودى ، ولد سنة ١١٧٨ ولازم الشوكانى منذ ابتداء طلبه إلى انتهائه . وقال فيه الشوكانى :

أعـــز المعالى أنت للدهر زينة وأنت على رغم الحواسد ماجده

توفى سنة ١٢٢٦ هـ .

٣ — محمد بن أحمد مشحم الصعدى الصنعانى ، وتولى القضاء فى صنعاء وغيرها وأثنى عليه الشوكانى كثيراً . ولد سنة ١١٨٦ هـ . وتوفى ١٢٢٣ هـ .

٤ — السيد أحمد بن على بن محسن بن الإمام المتوكل على الله إسماعيل ابن القاسم . ولد سنة ١١٥٠ هـ ، واشتغل بطلب العلم بعد أن قارب الخمسين ، ولازم الإمام الشوكانى نحو عشر سنين فى الطلب توفى سنة ١٢٢٣ هـ .

٥ — السيد محمد بن محمد بن هاشم بن يحي الشامى ثم الصنعانى ولد سنة ١١٧٨ ، وتوفى سنة ١٢٥١ هـ .

٦ — عبدالرحمن بن أحمد البهكلى الضمدى الصبيانى ولد سنة ١١٨٠ هـ درس على الشوكانى وغيره . ولكنه اختص بالشوكانى اختصاصا كاملا ، وكان من أوفى تلاميذه له ، ولى القضاء وتوفى سنة ١٢٢٧ هـ .

٧ — أحمد بن عبد الله الضمدى ، ولد سنة ١١٧٤ هـ . نسبة إلى (ضمد). أخذ عن الشوكانى وغيره ولكن صلته به كانت أكثر ، صار المرجع إليه فى التدريس ، والإفتاء فى (ضمد) وما حولها ، وله أسئلة عديدة إلى أستاذه الشوكانى أجاب له عنها فى رسالة سماها (العقد المنضد) فى جيد مسائل علامه (ضمد)[1] . وتوفى سنة ١٢٢٢ هـ .

---

(١) البدر الطالع جـ ١ ص ٧٧ ، وسماها الشوكانى فى رواية أخرى (عقود الزبرجد) . انظر كتبه فيما سيأتى ، والبدر الطالع جـ ٢ ص ٢٢٠ .

وقد نشرت هذه الرسالة : أجوبتها وأسئلتها فى كتاب (أبناء الشريعة) : مجموعة رسائل للإمام الشوكانى . فى دار النهضة العربية فى القاهرة .

٨ — على بن أحمد هاجر الصنعانى ، ولد تقريباً سنة ١١٨٠ هـ . تبحر فى العلوم العقلية وأتقنها ودرس على الشوكانى فى علم المنطق وغيره . قال عنه الشوكانى بالنسبة للمنطق : « وهو يفهمه فهما بديعا ، ويتقنه إتقاناً عجيبا . . . قل أن يوجد نظيره مع صلابة فى الدين » . توفى سنة ١٢٣٥ هـ .

٩ — عبد الله بن محسن الحيمى ثم الصنعانى : ولد تقريبا سنة ١١٧٠ ، درس على الشوكانى واستفاد منه فى عدة فنون ، ونقل كثيراً من رسائله ، وهو من التلاميذ الذين لازموا الشوكانى ، وأحبهم وأحبوه . توفى بعد سنة ١٢٤٠ هـ .

١٠ — القاضى محمد بن حسن الشجنى الذمارى . ولد سنة ١٢٠٠ هـ . سمع على القاضى محمد بن على الشوكانى صاحب الترجمة ودرس عليه ، وأجازه إجازة عامة فى رجب سنة ١٢٣٩ هـ ، ويعتبر أول شخص ترجم للشوكانى بإفاضة ومن جميع نواحيه ، وذلك فى كتابه (التقصار فى جيد زمن علامة الأقاليم والأمصار ، ويقصد بعلامة الأقاليم والأمصار أستاذه (محمد بن على الشوكانى) هذا ، فجعل هذا الكتاب ثلاثة أقسام : الأول منها فى ذكر ولادة شيخه هذا ونشأته وكيفية طلبه ، وخلاله وخصاله ، وذكر مؤلفاته ، وبعض رسائله ونظمه ، والثانى فى تراجم مشايخه . والثالث فى تراجم تلامذته . وكان شاعراً أديباً بليغا قال بعض من ترجموا له . « فهو الفرد الكامل والعماد الفاضل ، بل الذى ألقت إليه البلاغة زمامها . . . صار إمام أهل بلده فى علوم الآلات على اختلافها . . . » توفى سنة ١٢٨٦ هـ .

١١ — (ابنه) القاضى أحمد بن محمد الشوكانى ولد فى سنة ١٢٢٩ هـ ،

« وكان له الاشتغال التام بمؤلفات والده ، حتى حاز من العلم السهم الوافر ، وانتفع به عدة من الأكابر ، وتولى القضاء العام بمدينة صنعاء ، وله مؤلفات مفيدة »[١] وكان أكبر علماء اليمن بعد والده ، توفى سنة ١٢٨١ هـ .

هذا ، وتلاميذ الإمام الشوكانى أكثر من أن يحصوا[٢] ، وقد جمع أساتذته وتلاميذه فى كتابه (الإعلام بالمشايخ الأعلام والتلامذة الكرام) . وهؤلاء هم تلاميذه المباشرون ، أما غير المباشرين فما أكثرهم ، ففى اليمن لا تزال مدرسته قائمة إلى اليوم على أقوى ما تكون ، ورجالها يضيق عنهم نطاق الحصر ، وكلهم على مبدأ الاجتهاد .

وقد كان الإمام الشوكانى محظوظا ، أو كان الكتاب والسنة محظوظين على يديه ، إذ سريعاً ما انتشر مذهبه فى الاجتهاد فى الهند ، وباكستان على يد تلميذه الشيخ عبد الحق بن فضل الهندى - كما يقال - وحمل منه لواء هذه الرسالة ، تلميذ الشوكانى غير المباشر والمتحمس له (السيد/محمد صديق حسن خان) (١٢٤٨ - ١٣٠٧) هـ أمير مملكة : (بهوبال) بالهند ، والذى كان مهتما بنشر كتبه هناك .

ونلاحظ أنه معجب ، ومقدر غاية التقدير لأساتذته ، إلى جانب أنه يذكر تلاميذه بكثير من الفضل والثناء .

---

(١) نيل الوطر جـ ١ ص ٢١٥ . المطبعة السلفية .

(٢) وتراجمهم تملأ تقريباً أربع مجلدات كبار من كتابه (البدر الطالع فى محاسن من بعد القرن السابع) ، وكتاب (نيل الوطر فى تراجم رجال اليمن فى القرن الثالث عشر) لتلميذه السيد محمد زبارة .

٥ — كتبه :

(ا) ومن الكتب التى لا تزال مخطوطة[1]

١ ـ الأبحاث البديعة فى وجوب الإجابة إلى أحكام الشريعة .

٢ ـ الأبحاث الوضية فى الكلام على حديث حب الدنيا رأس كل خطيئة .

٣ ـ إبطال دعوى الاجماع على تحريم مطلق السماع .

٤ ـ الإبطال لدعوى الإختلال فى حل الإشكال : رد بها على بعض العلماء فى رد هذا الأخير على رسالة الشوكانى : (حل الإشكال فى إجبار اليهود على التقاط الأزبال) . ينظر مقدمة فتح القدير (ص ه) .

٥ ـ إتحاف المهرة فى الكلام على حديث (لا عدوى ولا طيرة) .

٦ ـ (أدب الطلب ومنتهى الأرب) نسخة بخط المؤلف ومن وقفه على مكتبة الجامع المقدس بصنعاء . رقم (٣٠٢) حديث . وقد حكى فيه ، ما وقع له مع المقلدين وتاريخ حياته كاملا فى طلب العلم ، وما الذى يجب أن يكون عليه طالب العلم ، وما يجب أن يحصله[2] .

٧ ـ (إرشاد الأعيان إلى تصحيح ما فى عقود الجمان) رساله رد بها على السيد العلامة حسين بن يحيى الديلمى ، فى اعتراضه على ما فى كتاب الشوكانى :

---

(١) ملاحظة : ما أمكن العثور عليه أو على مكانه ، فقد نبهت عليه وعرفت به . وما لم يمكن نقلته كما ورد فى مصادره الآتية نهاية هذا البحث

(٢) انظر قطر الولى : (جهاد الشوكانى للمقلدين) ، ص٨٩ جـ ٢ من البدر الطالع . وقد قال عنه الامام الشوكانى فى هذا الموضع الأخير : « فهو كتاب لا يستغنى عنه طالب الحق » .

(عقود الجمان)[١] .

٨ ـ (إرشاد السائل ، إلى دلائل المسائل) ضمن مجموع ١٣ مجاميع المتوكلية بصنعاء .

٩ ـ (إرشاد الغبي إلى مذهب أهل البيت فى صحب النبي) ضمن مجموع (٥٣) مجاميع بالمتوكلية . وقد أشار إليه فى قطر الولى[٢] : وفيه يقول فإنى قد نقلت فيه نحو أربعة عشر إجماعا لأئمة أهل البيت على تعظيمهم جانب الصحابة ، واتباعهم لهم ، وتمسكهم بعدهم .

١٠ ـ (إرشاد المستفيد إلى دفع كلام بن دقيق العيد فى الإطلاق والتقييد) .

١١ ـ (إشراق النيرين فى بيان الحكم إذا تخلف عن الوعد أحد الخصمين) .

١٢ ـ (إطلاع أرباب الكمال على ما فى رسالة الجلال فى الهلال من الإختلال) .

١٣ ـ (الإعلان بالمشايخ الأعلام ، والتلامذة الكرام) جعله كالمعجم لشيوخه وتلاميذه[٣] .

١٤ ـ (إفادة السائل فى العشر المسائل) رقم ٣ من مجموع ٥٩ مجاميع بالمتوكلية .

١٥ ـ (أمنية المنشوق فى تحقيق حكم المنطاق) .

١٦ ـ (إيضاح الدلالات على أحكام الخيارات) .

---

(١) مقدمة فتح القدير فى علم التفسير ص هـ .

(٢) فى موقف أهل البيت من الصحابة (رضى الله عنهم) .

(٣) البدر الطالع جـ ٢ ص ٢٢٠ .

١٧ — (إيضاح القول فى إثبات العول) .

١٨ — (بحث فى الإضرار بالجار) رقم ٥٦من مجموع (٥٩)مجاميع متوكلية.

١٩ — (بحث فيما تفعله النساء من الإنشاءات) ضمن مجموع (٥٠) مجاميع متوكلية .

٢٠ — (بحث فى الرد على الزمخشرى ، فى استحسان بيت المربة فى سورة سبحان) ٣٨ من مجموع (٥٩) المتوكلية .

٢١ — (البحث المسفر عن تحريم كل مسكر ومفتر) .

٢٢ — (بحث فيما يتعلق بعورات النساء) رقم ٥٧ من مجموع (٥٠) مجاميع بالمتوكلية .

٢٣ — (بحث فى قوله تعـــالى : (يوم يأتى بعض آيات ربك) رقم ٦ من مجموع (٥٩) مجاميع متوكلية .

٢٤ — البحث الملم المتعلق بقوله تعالى « إلا من ظلم) .

٢٥ — (بحث فى مستقر أرواح الأموات) رقم ٣٧ من مجموع (٥٩) مجاميع المتوكلية .

٢٦ — (بغية الأريب من مغنى اللبيب). قال عنه فى البدر الطالع : إنه نظم، وأنها رسالة ذكر فيها ماتمس الحاجة إليه من « مغنى اللبيب » وشرحها[١] .

٢٧ — (بحث فى الإضرار بالجار) . ضمن مجموع (٥٠) مجاميع المتوكلية .

٢٨ — (بحث فى سؤال يتعلق بالصلاة) رقم ٤٥ من مجموع (٥٩) متوكلية.

٢٩ — (بحث فى العمل بقول المفتى) . رقم ٣٦ من مجموع (٥٩) متوكلية.

---

(١) البدر الطالع جـ ٢ ص ٢٢٠ .

٣٠ — (بحث فى قوله (صلى الله عليه وسلم) : « الدنيا ملعونة . . . ») رقم ١٦ من مجموع (٥٠) مجاميع المتوكلية . وهذا البحث يقع فى نحو صفحتين ، وقد تكلم فيه من ناحية الإسناد وأورد له شواهد فى معناه ، وبين أن لعنها ، إنما يكون فى حال التكالب عليها دون مراعاة لحق الآخرة .

٣١ — (بحث فى الكلام على الجهر ، « ببسم الله الرحمن الرحيم ») رقم ٨ مجموع ٥٩ مجاميع المتوكلية .

٣٢ — (بحث فى كون أسباب التفرق ، هو علم الرأى) .

٣٣ — (بحث فى كون الولد يلحق بأمه) رقم ٢٣ من مجموع (٥٩) المتوكلية .

٣٤ — (بحث فى السجود للمنفرد) ضمن مجموع (٥٠) مجاميع . المتوكلية .

٣٥ — (بحث فيمن قرأ ، ولم يشق القاف) . نفس البيان المتقدم .

٣٦ — (بحث فيمن أوصى ، بالثلث ، قاصداً إحرام الوريث) نفس البيان .

٣٧ — (بحث فى بيع وقف الذرية) نفس البيان .

٣٨ — (بحث فى شفعة الجار) نفس البيان .

٣٩ — (بحث فى النهى عن مودة أهل السوء) ضمن مجموع (٥٩) المتوكلية .

٤٠ — (بحث فى هل يجوز قضاء المقلد) ضمن مجموع (٥٠) المتوكلية .

٤١ — (بحث فى مؤاخاته (صلى الله عليه وسلم) للصحابة) رقم ٣١ من مجموع (٥٩) متوكلية .

٤٢ — (بحث ، فى وصايا الضرار) ضمن (٥٠) المتوكلية .

٤٣ — (البغية فى مسألة الرؤية) (أى رؤية الله سبحانه وتعالى) . أثبت فيه إمكان رؤية الله فى الآخرة ، ورد فيه على المعتزلة الذين أنكروا ذلك . وأثبت عدم إمكان رؤية الله فى الدنيا . وقد أشار إليه فى تفسيره ج ٥

ص ٣٣٠ عند تفسيره لقوله تعالى : « وجوه يومئذ ناضرة ، إلى ربها ناظرة ». سورة القيامة[١] .

٤٤ — (بغية المستفيد فى الرد على من أنكر الإجتهاد من أهل التقليد) .

٤٥ — (تحرير الدلائل على مقدار ، مايجوز بين الإمام ، والمؤتم من الإرتفاع والحائل) .

٤٦ — (التشكيك على التفكيك لعقود التشكيك) .

٤٧ — (تشنيف السمع بإبطال أدلة الجمـــم) أى الجمع بين الصلاتين فى الحضر رداً على القائلين بجواز ذلك من الزيدية[٢] .

٤٨ — (تشنيف السمع لجواب المسائل السبع) .

٤٩ — (تفويق النبال ، إلى إرسال المقال) رد بهذه الرسالة على السيد عبد الله بن عيسى الكوكبانى ، حين ألف رسالة سماها (إرسال المقال ، على إزالة حل الإشكال) يناقض فيها ماذهب إليه الإمام الشوكانى فى رسالته (حل الإشكال فى إجبار اليهود على التقاط الأزبال)[٣] .

٥٠ — (تنبيه الأمثال ، على عدم جواز الإستعانة من خالص المال) رقم (١١) من مجموع (٥٩) المتوكلية[٤] .

٥١ — (تنبيه ذوى الحجا على حكم بيع الرجا) .

---

(١) أنظر مقدمة فتح القدير فى التفسير ص ه .

(٢) أنظر مقدمة فتح القدير فى التفسير ص ه .

(٣) أنظر المصدر المتقدم .

(٤) هكذا ورد فى فهرس المتوكلية ، وفى هدية العارفين ، ولكنه جاء فى مقدمة فتح القدير ، بدون كلمة : « عدم » ومتبعا بهذه العبارة : « يعنى طلب ولاة الجور من الأغنياء ظلما من المال يسمونه معونة » . ص و .

٥٢ — (التوضيح فى تواتر ماجاء فى المهدى المنتظر ، والدجال ، والمسيح) قد أشار إلى هذا الكتاب ، بقوله « وقد تواترت الأحاديث بنزول عيسى حسبما أوضحنا ذلك فى مؤلف مستقل يتضمن ذكرماورد فى المنتظر ، والدجال والمسيح » . فتح القدير فى التفسير ج ١ ص ٤٩٧ ، عند تفسيره لقوله تعالى : « وإن من أهل الكتاب ، إلا ليؤمن به قبل موته ، ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا » .

علمت من بعض الإخوة فى المدينة أنه طبع فى الهند قبل سنة ١٣٤٠ .

٥٣ — (جواب سؤالات وردت من كوكبان) ضمن مجموع (٥٩) المتوكلية .

٥٤ — (جواب سؤالات وردت من بعض العلماء) رقم ٢٤ ضمن مجموع (٥٩) متوكلية .

٥٥ — (جواب سؤالات من الفقيه قاسم بن لطف الله) رقم ١٧ ضمن مجموع (٥٩) المتوكلية .

٥٦ — (جواب سؤال فى نجاسة الميتة) رقم ١٨ من مجموع ٥٩ المتوكلية .

٥٧ — (جواب سؤال يتعلق بيمين المنت والشهادة) رقم ١٣ من مجموع (٥٩) .

٥٨ — (جواب الشوكانى على الدماميني) ضمن مجموع (٥٩) .

٥٩ — (جيد النقد فى عبارة الكاشف والسعد) .

٦٠ — (حل الإشكال فى إجبار اليهود على التقاط الأزبال) .

٦١ — (الدراية فى مسألة الوصاية) أى وصاية الرسول (صلى الله عليه وسلم) لعلى ابن أبى طالب رضى الله عنه فيمايدعى البعض رقم ١٤ من مجموع (١٧) المتوكلية .

٦٢ — (در السحابة ، فى مناقب القرابة والصحابة) .

وهو كتاب متوسط الحجم ، ألفه الإمام الشوكانى ، ليبين فضيلة كل من قرابة الرسول ﷺ ، وأصحابه وجعله منحصراً فى خمسة أبواب ، الباب الأول : فى المناقب العامة لهم جميعاً ، أو لطائفة كثيرة منهم كالأنصار وأهل بدر ، وأهل بيعة الشجرة . الثانى : فى مناقب العشرة المبشرة بالجنة . الثالث : فى مناقب أهل البيت عموماً وخصوصاً ذكورهم وإناثهم . الرابع : فى مناقب كل فرد من غير العشرة من الصحابة . الخامس : فى مناقب التابعين ، وسائر الأمة على الخصوص والعموم .

وهذا الإسم كما سماه به صاحبه فى مقدمته حيث قال : « وقد سميت هذا المختصر : (در السحابة فى مناقب القرابة والصحابة) ص ٣ ، ولكنه ورد فى المراجع التى ذكرته : « در السحاب فى مناقب القرابة والأصحاب » ، وقد فرغ مؤلفه من كتابته فى جمادى الأولى سنة ١٢٤١ هـ . والنسخة التى بأيدينا منقولة من الأصل فى ١٤ محرم سنة ١٣٦٠ هـ .

(وهذا الكتاب جمع من أحاديث الرسول ﷺ التى وردت فى هذا الشأن) .

٦٣ — (دفع الإعتراضات على إيضاح الدلالات) .

٦٤ — (رسائل فى أحكام لبس الحرير) .

٦٥ — (رسائل على مسائل من السيد العلامة على بن إسماعيل) .

٦٦ — (رسالة فى جواز استناد الحاكم فى حكمه إلى تقويم العدول) .

٦٧ — (رسالة فى حكم الإتصال بالسلاطين) .

٦٨ — (رسالة فى حكم للولد) .

٦٩ — (رسالة على مسائل لبعض علماء الحجاز) .

٧٠ — (رسالة فى حكم الجهر بالذكر) .

٧١ — (رسالة فى اختلاف العلماء فى تقدير النفاس) .

٧٢ — (رسالة فى حكم صبيان الذميين إذا مات أبواهم) .

٧٣ — (رسالة فى إرضاع الكبير لعذر ، هل يقتضى التحريم أم لا ، وفيما يقتضى التحريم من الرضاع) .

٧٤ — (رسالة فى التحلى بالذهب للرجال) :

٧٥ — (رسالة التسعير) .

٧٦ — (رسالة الرد على القائل بوجوب التحية) .

٧٧ — (رسالة رفع المظــالم والمآثم) .

٧٨ — رســالة الطلاق) .

٧٩ — (رسالة الطلاق البدعى يقع أم لا) .

٨٠ — (رسالة فى حــد السفر الذى يجب معه قصر الصلاة) .

٨١ — (رسالة فى الكلام على وجوب الصلاة على النبي (صلى الله عليه وسلم فى الصلاة) أشار إليها فى تفسيره ، فى سورة الأحزاب ج ٤ ص ٢٩١ .

٨٢ — (رسالة فى الكسوف ، هل لا يكون ذلك إلا فى وقت معين على القطع أم ذلك يتخلف) .

٨٣ — (رسالة فى لحوق ثواب القراءة المهداة من الأحياء إلى الأموات) .

٨٤ — (رسالة فى مسائل الصور) .

٨٥ — (الرســالة المكملة فى أدلة البسملة) .

٨٦ — رسالة فى (وجوب توحيد الله عز وجل) .

وهكذا رسائل كثيرة ، يلبوهنها الحصر ، منها المتوسط ، ومنها المطول وقد جمع منها كما قال ، أربع مجلدات كبار ، وسماه : (الفتح الربانى فى فتاوى الشوكانى)(١) ، وقد اجتهدت فى البحث عن هذا الكتاب ومعرفة مقره فلم أصل إلا إلى أنه موجود منه الآن ثلاثة مجلدات عند ورثة السيد / أحمد بن قاسم حميد الدين على مايقال .

٨٧ — (رفع البأس عن حديث النفس والهم ، والوسواس) رقم ٢٠ من مجموع (٩٥) المتوكلية .

٨٨ — (رفع الجناح عن نافى المباح) .

٨٩ — (رفع الخصام فى الحكم بالعلم من الحكام) .

٩٠ — (الروض الوسيع فى الدليل المنيع على عدم انحصار علم البديع) ، هكذا كما جاء فى مقدمة فتح القدير فى رواية حسين الأنصارى أحد تلاميذه الشوكانى المباشرين ، وجاء فى إيضاح المكنون بحذف كلمة (عدم) .

٩١ — (زهر النسرين الفائح بفضل العمرين ، أبى بكر وعمر رضى الله عنهما) .

٩٢ — (سؤال عن الوصية للوارث) ضمن مجموع ٥٠ متوكلية .

٩٣ — (سؤال فى شفعة الجار) ضمن مجموع ٥٠ متوكلية .

٩٤ — (سؤال فى التحليل لإسقاط الشفعة) ضمن مجموع (٥٠) متوكلية .

٩٥ — (سؤال فى بيع وقف الذرية) ضمن مجموع (٥٠) متوكلية .

---

(١) أنظر البدر الطالع فى ترجمته ج ٢ ص ٢٢٣ .

٩٦ — (سؤال فى إجبار الجار البيع مع الضرر) ضمن مجموع (٥٠) متوكلية

٩٧ — (السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار) فى الفقه ، وهو يعتبر تطبيقاً عملياً من الإمام الشوكانى ، لمبدأ الاجتهاد فى مسائل الفقه ومناهضاً للفقه الهدوى فى الزيدية ، إذ أنه يأتى ، بالمسألة التى تكلم عنها الإمام المهدى أحمد بن يحيى المرتضى (٧٧٥ — ٨٤٠ هـ) فى الأزهار أو علق عليها فى شروحه هو أو غيره ، فيبسطها ، ويبين ، وجه التقليد فيها الإمام الهادى يحيى بن الحسين[١] ، أو الإمام يحيى بن حمزة[٢] أو غيرهما ، أو الإستقلال بالرأى والتعصب له ، ويقيم الدلائل من القرآن والسنة على بطلان ذلك وابتداعه ، سواء كان على نفس الحكم ، أو على فساد المنهج ، بكل ثورة ، وكل حماس ثم يبين وجه الصواب ، وأن مرجع هذا الصواب ، إنما هو للاجتهاد ، وقد اطلعت على نسخة من هذا الكتاب بنفسى ، كانت هنا ، مع أحد العلماء ، فى زيارة له[٣] .

وقد قال الإمام الشوكانى نفسه عن هذا الكتاب ، وهو بصدد تأليفه ، حين كان يكتب ترجمة عن نفسه فى البدر الطالع : « وهو الآن يشتغل بتصنيف الحاشية التى جعلها على الأزهار : (من الأزهار للإمام المهدى أحمد ابن يحيى المرتضى) — وقد بلغ فيها إلى كتاب الجنايات وسماها (السيل الجرار على حدائق الأزهار) وهى مشتملة على تقرير مادل عليه الدليل ، ودفع ما خالفه ، والتعرض لما ينبغى التعرض له ، والاعتراض عليه من شرح الجلال وحاشيته .

---

(١) من أعيان علماء آخر المائة الثالثة من الزيدية وقد تقدمت ترجمته ص ١١

(٢) من (٦٦٩ — ٧٠٧) .

(٣) وهذا الكتاب الآن فى سبيل النشر . عن طريق المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة وقد بدأ نشره سنة ١٣٩١ هـ على أجزاء وصدر منه الآن جزءان.

وهذا الكتاب أن أعان الله على تمامه فسيعرف قدره من يعترف بالفضائل وما وهب الله لعباده من الخير » .

ويوجد لهذا الكتاب ثلاث نسخ بمكتبة صنعاء ، الأولى مجلدان : الأول يحتوى ٥٨٥ صفحة تحت رقم (١٠٠) فقه ، والثانى ٦٠٤ صفحة تحت رقم (١٠١) فقه ، وكتبت هذه النسخة سنة ١٣٠٠ هـ والنسخة الثانية فى مجلد واحد وكتبت سنة ١٢٤١ هـ ، تحت رقم (٣٤٧) فقه ، والثالثة بخط الشوكانى نفسه ، وانتهى منها سنة ١٢٣٥ هـ تحت رقم (٣٥٢) فقه فى مجلد واحد ، ونلاحظ ، أن تأليف هذا الكتاب قد استغرق نحواً من اثنى عشر عاماً ، وذلك لإنشغاله بالقضاء ، والحكم ، فى معظم أيام حياته من (سنة ١٢٠٩ — سنة ١٢٥٠ هـ)[١] .

وقد بدأ نشره سنة ١٣٩١ هـ على أجزاء وصدر منه للآن جزءان .

٩٨ — (شفاء العلل فى زيادة الثمن لمجرد الأجل) .

٩٩ — (الصوارم الحداد القاطعة لعلائق مقالات أرباب الاتحاد) .

١٠٠ — (الصوارم الهندية المسلولة على الرياض الندية) .

١٠١ — (الطود المنيف فى الانتصاف لسعد من الشريف) فى المسألة المشهورة التى تنازعا فيها بين يدى تيمورلنك[٢] .

١٠٢ — (طيب النشر فى جوانب المسائل العشر) .

---

(١) البدر الطالع جـ ٢ ص ٢٢٣ هذا ومما يذكر أن الشوكانى قد انتهى من تأليف البدر الطالع هذا سنة ١٢١٣ هـ . أنظر مقدمة فتح القدير فى التفسير (ص د) .

(٢) أنظر فتح القدير (المقدمة ص هـ) .

١٠٣ — (العذب النمير فى جواب عالم بلاد عسير) (فى التوحيد ، وفاتحة الـكتاب)[١] .

١٠٤ — (عقود الجمان فى شأن حدود البلدان ، ومايتعلق بها من الضمان) هـكذا ورد فى البدر الطالع فى ترجمة المؤلف لنفسه ، وورد فى فهرس المتوكلية بالإفراد (عقد) رقم ١ من مجوع (٩٠) مجاميع .

١٠٥ — (فتح الخلاق ، فى جواب مسائل عبد الرزاق) (علم المنطق) . وهى رسالة مشتملة على جواب مائة وخمسون سؤالا فى علم المنطق[٢] .

١٠٦ — الفتح الربانى فى فتاوى الشوكانى (أربعة مجلدات)[٣] .

١٠٧ — (فتح القدير بين المعذرة والتعذير) ، رقم ٢ من مجموعة (٥٩) مجاميع المتوكلية .

١٠٨ — (القول الجلى فى لبس النساء للحلى) .

١٠٩ — (القول الحسن فى فضائل أهل اليمن) رقم ٣٩ من مجوع (٥٩) مجاميع المتوكاية .

١١٠ — (القول الصادق فى حكم الإمام الفاسق) .

١١١ — (القول المقبول فى رد خبر المجهول ، من غير صحابة الرسول) .

١١٢ — (القول الواضح ، فى صلاة المستحاضة ، ونحوها من أهل العلل والجرايح) رقم ٥ من مجوع (٥٩) مجاميع المتوكلية .

---

(١) عن القاضى محمد حسين الزهيرى من علماء اليمن المعاصرين توفى سنة ١٩٦٦ م .

(٢) مقدمة فتح القدير ص و .

(٣) البدر الطالع ج ٢ ص ٢٢٣ .

١١٣ — كشف الرين عن حديث ذى اليدين .

١١٤ — كشف الأستار عن حكم الشفعة بالجوار .

١١٥ — (كشف الأستار فى إبطال كلام من قال بفناء النار) . رقم ٢٢ ضمن مجموع (٥٩) مجاميع المتوكلية .

١١٦ — (كفاية المحتظ) .

١١٧ — (المباحث الدرية ، فى المسألة الحمارية) رقم ١٩ من مجموع (٥٩) متوكلية .

١١٨ — (مجموع أسانيده) (الشوكانى)[1] .

١١٩ — (المختصر البديع فى الخلق الوسيع) : ذكر فيه خلق السموات والأرض والملائكة والجن والإنس ، وسرد غالب ما ورد من الآيات والأحاديث فى ذلك وتكلم فيها ، فصار فى مجلد ، ولكنه لم يبيضه[2] .

١٢٠ — (المختصر الكافى من الجواب الشافى) .

١٢١ — (مطلع البدرين ، ومجمع البحرين « فى علم التفسير ») .

١٢٢ — المقالة الفاخرة ، فى بيان اتفاق الشرائع على الدار الآخرة . وقد ذكرها أول الفصل الثانى المتعلق ، (باتفاق الشرائع على إثبات الآخرة) ، من كتابه (إرشاد الثقات إلى اتفاق الشرائع على التوحيد والمعاد والنبوات) المتقدم الذكر .

١٢٣ — (منحة المنان فى أجرة القاضى والسجان) .

---

(١) انظر اتحاف الأكابر ص ١٠ طبعة حيدر آباد سنه ١٣٢٨ رقم ٧٠ مصطلح حديث تيمور ، بدار الكتب المصرية .

(٢) البدر الطالع جـ ٢ ص ٢٢٠ .

١٢٤ — (نثر الجوهر فى حديث أبى ذر) .

نسخة مخطوطة بخط المؤلف بمكتبة صنعاء ، ملحقه بنسخة قطر الولى (الأصل) الموجودة هناك تحت رقم(٨٦٦) حديث . لسخة أخرى مصورة بدار الكتب المصرية تحت رقم (٢٣٤٧٣ ب) ، وهى مصورة (بالفوتوستات) عن الأصل الموجود بصنعاء ، وكنت قد أتيت بالنسخة المخطوطة من صنعاء مع (قطرالولى) وأخذت دار الكتب لهما صورة : كل كتاب صورة خاصة ، منفصلة عن الأخرى وصارا فى مجلدين .

وهى رسالة على حديث أبى ذر رضى الله عنه الذى يرويه الرسول صلى الله عليه وسلم عن ربه عز وجل بهذه الصيغة : « يا عبادى ، إنى حرمت الظلم على نفسى ، وجعلته بينكم محرماً ، فلا تظالموا . . ياعبادى كلكم جائع إلا من أطعمته .. يا عبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعاً ، فاستغفرونى أغفر لكم ... الخ » كما رواه مسلم فى صحيحه .

وقد تعرض الإمام الشوكانى فى شرحه لهذا الحديث فى هذه الرسالة إلى عدة نقاط هى :

(١) تعليل سب الرافضة للصحابة رضى الله عنهم .

(٢) سبب تسمية الرافضة لهذا الاسم .

(٣) إظهار ضلال الرافضة ، على لسان الإمام الهادى يحي بن الحسين ، حيث روى حديثا فى كتابه الأحكام مسلسلا بآبائه من عنده إلى عند الحسن ابن على بن أبى طالب رضى الله عنه ، عن على رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خاطبه فى شأن هؤلاء الرافضه وعرفه بهم ، وأمره بقتلهم حين ظهورهم . . .

٤ — ثم بيان الطريق الحقيق إلى معرفة الله سبحانه .

٥ — ثم ما المراد بالفطرة ، إلى حديث فى خلق أفعال العباد ، ثم إلى بيان قيمة الإستغفار بالنسبة للإنسان ، وكون طبيعة الإنسان تقتضى الخطأ ثم الاستغفار من هذا الخطأ ، وعدد صفحات هذه الرسالة (٢٤) .

١٢٥ — (نزهة الأحداق فى علم الاشتقاق) ضمن مجموع ٥٠ مجاميع المتوكلية .

١٢٦ — (وبل الغمام ، على شفاء الأوام وحاشيته) نسخة بقلم المصنف سنة ١٢١٣ ومن وقفه على مكتبة صنعاء (٣٠٠ صفحة) رقم (٣٠٣ حديث) المتوكلية .

١٢٧ — (وبل الغمامـــة فى تفسير « وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ») .

١٢٨ — (الوشى المرقوم فى تحريم حلية الذهب على العموم ، وفى رواية أخرى : (فى تحريم التحلى بالذهب للرجال على العموم)[1] .

١٢٩ — (هداية القاضى إلى تخوم الأراضى) .

١٣٠ — (هذا الـكتاب) . كما قال عنه فى البدر الطالع ، (فى مجلد)[2] .

١٣١ — (هفوات الأئمة الأربعة) ، وهذا الـكتاب أرويه عن القاضى محمد حسين الزهيرى اليمنى ، ويقول : إن الشوكانى يهدف فى هذا الـكتاب إلى تخفيف حدة التقليد ، حيث بين أن لهؤلاء الأئمـــة خطأهم إلى جانب صوابهم .

---

(١) أنظر مقدمة فتح القدير ص و .
(٢) جـ ٢ ص ٢١٩ .

(ب) كتبه المطبوعة مع اثبات تاريخ بعض الطبعات :

١ — (إتحاف الأكابر بإسناد الدفاتر) ، طبع فى حيـــدر آباد سنة ١٣٢٨ هـ .

٢ — إرشاد الثقات إلى اتفاق الشرائع على التوحيد ، والمعاد والنبوات ، دار النهضة العربية سنة ١٣٩٥ هـ .

٣ - (إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول) المطبعة المنيرية بمصر سنة ١٣٤٧ هـ ، مطبعة السعادة سنة ١٣٢٧ هـ .

٤ — أمناء الشريعة مع مجموعة رسائل له .

٥ — البدر الطالع بمحاسن من بعـــد القرن السابع مطبعة السعادة سنة ١٣٤٨ هـ .

٦ — تحفة الذاكرين فى شرح (عدة الحصن الحصين للإمام الجزرى) ، طبعة مصطفى الحلبي سنة ١٣٥٠ هـ .

٧ — التحف فى مذاهب السلف ، المطبعة المنيرية سنة ١٣٤٣ هـ ، المنار سنة ١٣٥١ هـ ، ومطبعة محمد مصطفى سنة ١٣١٠ هـ .

٨ — (تنبيه الأعلام على تفسير المشتبهات بين الحلال والحرام) ، طبع فى مصر تحت اسم (كشف الشبهات عن المشتبهات) مطبعة المعاهد سنة ١٣٤٠ هـ .

٩ — (الدرارى المضيئة) فى شرح الدرر البهية للشوكانى أيضاً ، مطبعة مصر الحرة سنة ١٣٢٨ هـ .

١٠ — (الدرر البهية) متن الدرارى المضيئة . طبعت مع الشرح المتقدم .

١١ — (الدر النضيد فى إخلاص كلمة التوحيد) ، إدارة الطباعة المنيرية

سنة ١٣٥١ هـ، طبعة المنار سنة ١٣٤٠ هـ .

١٢ — (الدواء العاجل فى دفع العـــدو الصائل) ، المطبعة المنيرية سنة ١٣٤٣ هـ .

١٣ — (رفع الريب فيما يجوز ، ولا يجوز من الغيب) المطبعة المنيرية سنة ١٣٤٢ هـ .

١٤ — شرح الصدور فى تحريم رفع القبور . المطبعة المنيرية سنة ١٣٤٣ هـ ثم طبع مع الرسالتين السابقتين له ، فى مجلد واحد ، فى مطبعة السنة المحمدية سنة ١٣٤٧ هـ .

١٥ — (العقد الثمين فى إثبات وصاية أمير المؤمنين) المطبعة المنيرية سنة ١٣٤٨ هـ .

١٦ — (فتح القدير) الجامع بين فنى الرواية والدراية من التفسير . مطبعة مصطفى الحلبي سنة ١٣٤٩ هـ وهو تفسير الإمام الشوكانى .

١٨ — (الفوائد المجموعة فى الأحاديث الموضوعة) طبع فى الهنـــد سنة ١٢٠٣ هـ ثم فى مصر بتحقيق واف ، فى مطبعة السنة المحمدية سنة ١٣٨٠ سنة ١٩٦٠ م .

١٨ — (القول المفيد « فى حكم التقليد ») ، أو فى أدلة الاجتهاد والتقليد طبعة مطبعة المعاهد سنة ١٣٤٠ ، ومصطفى الحلبي سنة ١٣٤٧ هـ .

١٩ — (نيل الأوطار شرح منتقى الأخيار) ، الحلبي سنة ١٣٤٧ هـ ، العثمانية سنة ١٢٥٧ هـ .

٢٠ — نزل من اتقى بكشف أحوال المنتقى ، وهو شرح مختصر للمؤلف ، اختصره من شرحه الكبير (نيل الأوطار) ، طبع حجر بالهند سنة ١١٩٧ هـ .

٦ — حياته الخاصة :

هذا وقد كان وراء تفرغ الإمام الشوكانى ، لهذا التأليف وكثرة الإنتاج والتدريس ، حياته فى كنف والده ، وكفايته له كل أسباب الحياة ووسائل العيش ، وقد ظل على هذا التفرغ إطلاعاً ، وتأليفاً ، وتدريساً ، منعزلا عن طلاب الدنيا ، ورجال الحكم والسياسة ، وكما قال عن نفسه : كان منجمعاً عن بنى الدنيا ، لم يقف بباب أمير ، ولا قاض ، ولا صحب أحداً من أهل الدنيا ولا خضع لمطلب من مطالبها ، راغباً فى مجالسة أهل العلم والأدب وملاقاتهم ، والاستفادة منهم ، وإفادتهم[١] ، إلى أن اختير للقضاء ، وهو فى السادسة والثلاثين من عمره (سنة ١٢٠٩ هـ) ، فتولى القضاء العام فى مدينة صنعاء ، وكان ذلك فى عهد الإمام المنصور (على بن العباس ١١٨٩ — ١٢٢٤ هـ) وظل فى القضاء مدة حكمه ، وحكم ابنه (الإمام المتوكل على الله أحمد) (١٢٢٤ — ١٢٣١ هـ) (إلى أن توفى سنة ١٢٣١ هـ فبايع الإمام الشوكانى ابنه (المهدى عبد الله ١٢٣١ ـ ١٢٥١ هـ) ، ثم أخذ البيعة من جميع أمراء صنعاء ، وحكامها وجميع أفراد أسرته ، وجميع الرؤساء والأعيان ومما يذكر أيضاً ، أنه هو الذى أخذ البيعة لأبيه من قبله[٢] ، وفى عهد هـذا الحاكم الأخير جمع الإمام الشوكانى بين القضاء والوزارة كلية ، فصار متولياً شئون اليمن الداخلية ، والخارجية[٣] ، وقد طغى هذا على تفرغه للعلم كل التفرغ ، ولكنه ظل على اشتغاله به إلى جانب أعبائه فى القضاء والسياسة ، والإدارة سائراً فى الناس

---

(١) البدر الطالع جـ ٢ ص ٢٢٤ .

(٢) أنظر البدر الطالع جـ ١ ص ٧٧ ـ ٧٩ ، ٢٧٦ ـ ٣٧٧ ، ٤٦٤ ـ ٤٦٧ .

(٣) أنظر البدر الطالع جـ ٢ ص ٤ — ٢٤ ، نيل الوطر السيد محمد زبارة ص ٢٩٩ — ٣٠٢ .

أحسن سيرة[١] ، ممتعاً بشخصية قوية ، لدى رجال الحكم جميعهم ، قبل اشتغاله معهم وأثناء اشتغاله مستعيناً بهم ، على تنفيذ أوامر الشرع حتى على أقرب المقربين إليهم[٢] ، إلى أن توفى بصنعاء سنة ١٢٥٠ هـ[٣] .

* * *

(١) نفس المصدر ص ٢٩٨ .

(٢) البدر الطالع جـ ١ ص ٤٦٥ .

(٣) نيل الوطر ص ٣٠٢ ، والموافق سنة ١٨٣٤ م .

الفقرة الثانيـــة

ولاية الله والطريق إليها

دراسة على كتاب قطر الولي على حديث الولي



منهج هذه الدراسة

يدور كتاب (قطر الولى على حديث الولى على ثلاثة أقسام بارزة ، هى :

١ — بيان من هو الولى .

٢ — الطريق إلى ولاية الله .

٣ — أثر سلوك هذا الطريق فى حياة الولى ، وفى منزلته عند الله .

وبذلك يتقابل مع أجزاء الحديث نفسه لأنه من الممكن تقسيمه أيضاً إلى ثلاثة أفكار عامة ، هى :

١ — « من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب » وهى تقابل القسم الأول من الكتاب .

٢ — « وماتقرب إلى عبدى بشىء أحب إلى مما افترضت عليه ،ومايزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه » وهى تقابل القسم الثانى .

٣ — « فإذا أحببته ، كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها . . الخ الحديث » وتقابل القسم الثالث .

وهذه الأقسام الثلاثة من الكتاب، يمكن أن نقسمها إلى أفكار رئيسية هى:

١ — مفهوم الولى فى اللغة وفى القرآن الكريم ، والسنة الصحيحة .

٢ — أفضل الأولياء .

٣ — عدم عصمة الأولياء .

٤ — الكرامات بالنسبة للأولياء وجوازها ، ثم بيان الخوارق الأخرى التى تقع لغير الأولياء ، من الفساق ، والكفار وغيرهم .

٥ — تحديد شخصيات الأولياء أو أصنافهم .

٦ — الطريق إلى ولاية الله .

٧ — أثر سلوك هذا الطريق فى حياة الولى .

وقد سرت فى هذه الدراسة ، على هـــذا المنهج تقريباً ، فعرضت هذه الأفكار ، بالنسبة للإمام الشوكانى، ثم بالنسبة للصوفية ، وغلاة الشيعة، فجاءت مكونة من خمسة فصول .

الفصل الأول : (من هو الولى) ، وتناولت بيان هذا الولى فى اللغة ، وعند جمهور علماء المسلمين ، ثم عند غلاة الشيعة والصوفية ، ثم ناقشت هذا المفهوم.

والفصل الثانى : (شخصيات الأولياء) . وفيه بينت أصناف الأولياء وشخصياتهم عند الإمام الشوكانى ، وناقشت هذا الاتجاه عنده مبيناً إلى أى مدى استقام له المبدأ مع التطبيق .

والفصل الثالث : جعلته لبيان الطريق إلى الولاية عند الإمام الشوكانى ، ثم عند الصوفية ، ثم الموازنة بين الطريقين .

والفصل الرابع : جعلته لبيان منزلة الإنسان عند الله ، حينما يصل إلى درجة حب الله ، واشتمل هذا الفصل على قسمين :

الأول : منزلة الإنسان الدينية حينما يتقرب إلى الله .

والثانى . فى الكرامات التى يمكن أن تضاف إلى ذلك الشخص ، ونظرة الشوكانى لها ، ونظرة الصوفية ، والفلاسفة من الإشراقيين .

ثم الفصل الأخير : وهو أفضل الأولياء ، وقد اشتمل على قسمين أيضاً :

١ — بيان رأى الإمام الشوكانى ، فى من هو الأفضل .

٢ — ثم رأى الصوفية ، مع مناقشة آرائهم .

وأخيراً ، خاتمة لهذه الدراسة .

الفصل الأول

من هو الولى ؟

(أ) مفهوم كلمة « ولى » فى اللغة وعند جمهور المسلمين :

شاعت هذه الكلمة (كلمة ولى) فى اللغة أول ماشاعت بمعناها العام . ثم جاء القرآن الكريم فاستعملها بذلك المعنى العام أى الجامع بين ناحيتى الخير والشر ، أو كما يقول ابن تيمية فى جانب أولياء الرحمن وجانب أولياء الشيطان وشاعت أيضا تلك الكلمة فى حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى جانب أولياء الله فى الأغلب والأعم كما فى الحديث الذى معنا . وفهمها الصحابة رضى الله عنهم ، ومن بعدهم ممن سار على سنتهم واستعملوها فى جانب الخير ، على أنها الوصف الذى يجب أن يكون الإنسان عليه فى الحدود التى حددها لها القرآن الكريم فى جانب أولياء الله ، وهم المسلمون عموما .

ولكن الذين تشيعوا أو تصوفوا ، خصصوا هذا المعنى فأدخلوا فيه عناصر دخيلة أو مبتدعة لاصلة لها بالإنسان المثالى فى القرآن الكريم كما تفيده كلمة «ولى» ، فوصفوا بها أشخاصاً معينين ، إما من آل البيت رضى الله عنهم ، وإما من شيعة آل البيت ، وإما من المتصوفة وأصبحت كلمة « ولى » ـ فى الإطلاق الشعبي العام أو ما فوق الشعبي ودون التحديد السلفى ـ تطلق على رجل التصوف أو الشريف المنتسب إلى آل البيت الذى يدعى ذلك ليتكسب من وراء هذا الادعاء . مع أنه لايحق لأحد أن يطلق هذه الكلمة على نفسه ولا على أى شخص آخر ، سوى من نص عليه القرآن الكريم وهم الصحابة رضى الله عنهم . مع أنها وصف لمن نال محبة الله ، أو هى غاية الكل يسعى

إليها ويجب أن يتحقق بها ، ولاندرى من الذى تحقق بها فعلا ومن الذى لم يتحقق إلا يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ماعملت . إذن سنحلل معنى هذه الكلمة لنرى أنها ترجح فى هذه الناحية على كلمة صوفى ولنعرف لماذا أطلقها الصوفية على كبار متصوفيهم دون الاكتفاء بكلمة صوفى .

فى القاموس المحيط (الوَلْىُ) : « القرب والدنو والمطر بعد المطر » . و (الولى) : الاسم منه والمحب والصديق والنصير . و (الولاية) : الإمارة والسلطان ، والمولى : المعتِق والمعتَق ، والصاحب والقريب ، والولى والرب ، والناصر والمحب » .

ويشير (الشوكانى) إلى هـذا المعنى فى (قطر الولى) بقوله : « قال فى الصحاح ، والولى ضد العدو انتهى . والولاية ضد العداوة وأصل الولاية المحبة والتقرب كما ذكره أهل اللغة ، وأصل العداوة البغض والبعد » . ويذكر فى تفسيره أن « الولى فى اللغة : القريب . والمراد بأولياء الله ، خلّص المؤمنين كأنهم قربوا من الله سبحانه بطاعته واجتناب معصيته ، وقد فسر سبحانه هؤلاء الأولياء بقوله : « الذين آمنوا وكانوا يتقون » أى يؤمنون بما يجب الإيمان به ويتقون مايجب عليهم اتقاؤه من معاصى الله سبحانه »[1] فكأن هذا الإيمان وهذه التقوى هما سبب القرب من الله .

ويذكر ابن تيمية هذا المعنى اللغوى الذى قدمه الشوكانى لتلك الكلمة فى كتابه (الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان) ثم يثنى بقوله : « وقد قيل : إن الولى سمى ولياً من موالاته للطاعات أى متابعته لها » ويقابل بين الولى والعدو على أساس من القرب والبعد[2] .

(١) فتح القدير ج ٢ ص ٤٣٦ .

(٢) الفرقان ص ٥ ينظر أيضاً مجموعة الرسائل والمسائل ج١ ص ٤٠ ، ٤١ .

وهذا المعنى الذى يدور بين الحب والقرب والنصرة هو الذى أراده القرآن الكريم من كلمة (ولى) ومشتقاتها فى كل موضع أتى بها فيه سواء فى جانب أولياء الله ، أو فى جانب أولياء أعداء الله . وقد أحصيت تلك المواضع فبلغت تسعين موضعاً : أربعة وخمسون منها فى جانب أولياء الله ، وستة وثلاثون فى جانب أولياء الشيطان وأعداء الله[١] . وكلها قد أتت فيها تلك الكلمة بالمعنى اللغوى المتقدم . فمن ذلك قوله تعالى : (ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون[٢]) . وقد فسر (الدكتور الشيبي) هنا الأولياء بالأحباء والمقربين إلى الله)[٣] كما تقدم لنا تفسير الشوكانى لها بذلك وكما سيأتى تفسير المفسرين لها بهذا المعنى أيضاً وقوله تعالى : (هنالك الولاية لله الحق)[٤] بالفتح ، فقد قال فيها الإمام (أبو بكر السجستانى)[٥] (والولاية بالفتح : النصرة والربوبية ومنه تلك الآية المتقدمة ، يعنى يومئذ يتولون الله ويؤمنون به ، ويتبرءون مما كانوا يعبدون)[٦] . وفى الإيمان بالله والتبرؤ من عبادة غيره بعد الكفر مافيه من معانى القرب من الله . ويذكر الشوكانى فى معناها : (والمعنى هنالك ، أى فى ذلك المقام النصرة لله وحده

---

(١) ينظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم مادة (ولى) وقارن أيضاً الصلة بين التصوف والتشيع جـ ٢ ص ١٥ .

(٢) سورة يونس آية ٦٣ .

(٣) الصلة بين .. نفس المصدر والصفحة .

(٤) سورة الكهف آية : ٤٤ .

(٥) المتوفى سنة ٣٣٠ هـ .

(٦) نزهة القلوب فى تفسير غريب القرآن هامش المصحف طبعة المكتبة السعيدية .

لا يقدر عليها غيره)[١] . وقوله : (ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا)[٢] ويكفى أن نتدبر الآيات فى سياقها فسنجد تلك الكلمة فيها لم تخرج عن معناها اللغوى وإن أحيطت بما يفسرها فى ذلك المقام من الشرعيات أو بما يتفق مع جوها العام الذى جاءت فيه .

ومن ثم فليس لنا كما يقول (الأستاذ الدكتور محمود قاسم) أن نخرج هذا المصطلح عن المعنى الذى حدده القرآن بلسان عربى مبين .

ولننظر موقف المفسرين والعلماء المسلمين من أهل السنة وغيرهم من تلك الكلمة ونظرتهم إلى مدلولها[٣] . يقول ابن حجر العسقلانى فى تفسير تلك الكلمة (المراد بولى الله: العالم بالله تعالى المواظب على طاعته المخلص فى عبادته) ويعلق الإمام الشوكانى على ذلك بأن هذا التفسير (هو المناسب لمعنى الولى المضاف إلى الرب سبحانه)[٤] .

ويفسر ابن جرير الطبرى الأولياء فى قوله تعالى : (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) بأنهم أنصار الله والأولياء جمع ولى وهو النصير وقد بينا ذلك بشواهده[٥] . ثم ينقل الطبرى ما روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (إن من عباد الله لأناساً ماهم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم

(١) فتح القدير جـ ٣ ص ٢٧٨ .
(٢) سورة النساء آية : ١١٩ .
(٣) حالة إطلاقها أو إضافتها إلى الله سبحانه وتعالى فقط .
(٤) قطر الولى فى تفسير كلمة : (ولى) .
(٥) تفسير الطبرى جـ ١٥ ص ١١٨ وتنظر الفهارس اللغوية لهذا الجزء وما قبله فى تفسير مادة ولى .

من الله ، قالوا : يارسول الله أخبرنا من هم وما أعمالهم ؟ فإنا نحبهم ، لذلك ، قال : هم قوم تحابوا فى الله [بروح الله] على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها فوالله إن وجوههم لنور وإنهم لعلى نور لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس وقرأ هذه الآية : (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون)[١] . ثم يعلق الطبرى على هذا : « والصواب من القول فى ذلك أن يقال : (الولى) أعنى ولى الله : هو من كان بالصفة التى وصفه الله بها وهو الذى آمن واتقى كما قال الله : (الذين آمنوا وكانوا يتقون)[٢] .

ويعرفنا الفخر الرازى بالولى فيقول : « أما أن الولى من هو ؟ فيدل عليه القرآن والخبر والأثر والمعقول » .

أما القرآن فهو قوله تعالى فى هذه الآية : — « ألا إن أولياء الله الخ » « الذين آمنوا وكانوا يتقون » فالإيمان هنا إشارة إلى كمال القوة النظرية ، والتقوى إشارة إلى كمال القوة العملية ، ويستدل عليه من الأخبار برواية عمر رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم فيهم « هم قوم تحابوا فى الله » الخ الحديث المتقدم . ويروى من الآثار عن أبى بكر الأصم : أولياء الله : « هم الذين تولى الله هدايتهم بالبرهان ، وتولوا القيام بحق عبودية الله تعالى والدعوة إليه » .

وأما المعقول فأساسه الاشتقاق لأن الولى معناه القريب ، والقرب من الله تعالى ليس قرباً مكانياً ، بل المراد به الاستغراق فى معرفة الله والإيمان بقدرته والثناء عليه وطاعته وهذا هو غاية القرب من الله . « فهذا الشخص يكون

---

(١) نفس المصدر ص ١٢١ .

(٢) نفس المصدر ص ١٢٢ ، ١٢٣ وينظر تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٤٢٢ .

ولياً لله تعالى ، وإذا كان كذلك كان الله تعالى ولياً له أيضاً كما قال الله تعالى : « الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور » . ويجب أن يكون الأمر كذلك لأن القرب لا يحصل إلا من الجانبين . وقال المتكلمون : ولى الله من يكون آتيا بالاعتقاد الصحيح المبنى على الدليل ، ويكون آتيا بالأعمال الصالحة على وفق ما وردت به الشريعة[1] .

ويرى العلامة أبو السعود أن المراد بالقرب الذى يدل عليه كلمة الولى هنا ، هو القرب الروحانى كما يدل على ذلك كل من الإيمان والتقوى اللذين يرتبطان بهذه الكلمة . ثم يستطرد فيذكر ما ذكره الفخر الرازى من أنهم الذين تولى الله هدايتهم بالبرهان ، ويذكر ماذكره كل من الطبرى وابن كثير من الروايات والأخبار عن الرسول صلى الله عليه وسلم فى وصفهم[2] . ويتفق الإمام النسفى فى كل ذلك مع هؤلاء المفسرين[3] .

وفى ضوء هذه المعانى فإن الإمام الشوكانى يرى أنه لا بد لمن يريد أن يكون من الأولياء ، أن يكون متمسكا بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم مقتديا به فى أقواله وأفعاله ، وازنا لكل عمل يأتى به بميزان الكتاب والسنة ، ويستدل لذلك بعمر رضى الله عنه فإنه مع كونه من كبار الأولياء ومع كون الرسول صلى الله عليه وسلم شهد له بأنه من المحدثين ، فلم يكن يعتمد على ذلك بل كان دليله الكتاب والسنة فى كل ما يعمل وما يدع ، « فكان يشاور الصحابة رضى الله عنهم ويشاورونه ، ويراجعهم ويراجعونه ويحتج

---

(١) مفاتيح الغيب جـ ٥ ص ١٤ .

(٢) هامش ص ٣١ من مفاتيح الغيب للرازى جـ ٥ .

(٣) تفسير النسفى جـ ٢ ص ٢٦ .

عليهم ويحتجون عليه بالكتاب والسنة ويرجعون جميعا إليهما »[١] .
« ومن خالف هـذا ممن يطلق عليه اسم الولى فليس من أولياء الله عز وجل »[٢] .

إذن فالمراد من كلمة ولى فى القرآن الكريم فى حال المدح وفى حال نسبتها إلى الله سبحانه وتعالى هو المحبة أو القرب أو الحماية والنصرة من الجانبين ، جانب المخلوق وجانب الخالق سبحانه ، وهى المعانى اللغوية لتلك الكلمة . وتلك المعانى الثلاثة التى تدور فيها هذه الكلمة حينما يسمى بها الشخص ، معان عامة شاملة لكل ما من شأنه أن يقرب إلى الله حسب المفهوم الشرعى السلفى للقرآن الكريم والحديث الشريف ، وحسب روح الإسلام العامة التى جاءت فجعلت الناس سواسية ، لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى ، إذ التقوى محلها القلب . وأن الإسلام يجمع بين الدين والدنيا . فاستخدام كلمة الولاية بمعنى مخالف يخدم غرضاً شخصياً أو قضية خاصة لا صلة لها حينئذ بالدين وإن ادعى ذلك أصحاب هذا الرأى .

ويجب أن نلاحظ أن هذه الآيات التى تحدثت عن الولاية والأولياء ، إنما تعنى أول ما تعنى صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين نصروه وعزروه ووقروه وآووه ، وجاهدوا معه كما قال القرآن الكريم فيهم . (فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه ، أولئك هم المفلحون)[٣] . فهى تشير إلى أعمالهم لا إلى أنسابهم ، فإذا كانوا أولياء لله فذلك لأنهم نصروا دينه.

---

(١) قطر الولى فى (الواجب على الولى فيما يصدر من أعمال) .
(٢) نفس المصدر .
(٣) سورة الأعراف آية : ١٥٧ .

وفى ذلك يقول (الدكتور أبو العلا عفيفى) : « ومن أوائل هذه الصفات (صفات الولى) وأقدمها أن الولى شخص يؤيده الله وينصره . وقد ظهر هذا المعنى فى الإسلام قبل ظهور التصوف وأولياء الصوفية . أى ظهر منذ ابتدأت الدعوة إلى الإسلام ، وكان معنى الولاية نصرة الله للعبد لنصرته لدين الله ، فالذين جاهدوا فى الله كانوا أولياءه ، وكذلك الذين اضطهدتهم قريش وآذتهم من أجل إسلامهم ، كل هؤلاء كانوا أولياء الله حسب النصوص القرآنية الواردة فيهم ، وفيهم جميعا نزلت الآية : (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) وورد الحديث : « من آذى لى وليا فقد عادانى . . . »[1] .

وهكذا كان استعمالها ، وظلت النظرة إليها بهذا المعنى إلى أن دخلت أوساط الشيعة ثم فى دائرة الصوفية فأطلقوها على أئمتهم ومشايخهم ، مرادين فيها اعتبارات أخرى غير هذه الاعتبارات الإسلامية[2] ، وأصبح لها مفهوم آخر إلى جانب المفهوم القرآنى الخاص .

وعلى هذا فإذا قال (نيكولسون) : « ويطلق المسلمون اسم الولى على الرجل الذى وصل إلى مقام الفناء عن ذاته وإرادته وبقى بالإرادة الإلهية »[3] فليس المراد بهم المسلمون الذين ساروا على النهج المحمدى ، وإنما هم الذين قال الجرجانى على لسانهم فى كتاب التعريفات : « إن الولاية هى قيام العبد بالحق عند الفناء عن نفسه »[4] وهم الصوفية الذين أخذوا هذه الكلمة

---

(١) التصوف الثورة الروحية فى الإسلام ص ٢٩٦ .

(٢) قارن (الدكتور أبو العلا) فى المصدر المتقدم فى نفس الصفحة .

(٣) فى التصوف الإسلامى وتاريخه ص ١٥٧ .

(٤) الصلة بين التصوف والتشيع جـ ٢ ص ٢٦ .

من غلاة الشيعة وأطلقوها على المتازين منهم حسب قواعدهم ومبادئهم. تلك المبادىء التي قال فيها ابن تيمية، إنها من جنس الطامات فإنه من المعلوم باتفاق الناس أن حال البقاء أكمل من حال الفناء، وهذه حال الأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين، ومعلوم أن الرسل يدعون العباد إلى الله تعالى ويعلمونهم ويجاهدونهم ويأكلون الطعام ويمشون في الأسواق فلو كانت تلك الحال أكمل لكان من لم يرسل أكمل من الرسل وهذا خلاف دين المسلمين واليهود والنصارى ولكنه يوافق غالية الصابئة من المتفلسفة[1].

فهذا الفناء الذي يشير إليه (نيكولسون) ليس من الإسلام في شيء وإنما يمكن أن نرده إلى فلسفة أفلوطين[2] كعامل أكبر من العوامل التي تأثر الصوفية بها - ذلك الذي يقول: «لنعتزل العالم الخارجي ولنتوجه بكليتنا

---

(١) بغية المرتاد في الرد على القرامطة والباطنية ص ٢٣.

(٢) فيلسوف مصري متصوف. حذق الفلسفة اليونانية، ودان بالديانة المسيحية بعد أن سطت عليها يد الغنوص بالتأويل والتحوير والتبديل، وخلطها بالسحر والأساطير، والعقائد الوثنية، وقد عاش في أول القرن الثالث الميلادي وتلقى علومه الفلسفية في الإسكندرية، وروما، وبعض مدن الشرق.

والغنوصية: شيعة دينية فلسفية متعددة الصور، مبدؤها أن العرفان الحق هو الكشف عن طريق الحدس التجريبي الحاصل عن اتحاد العارف بالمعروف لا العلم بواسطة المعاني المجردة والاستدلال. فهي نوع من التصوف يزعم أنه المثل الأعلى للمعرفة، ويعتقد أنه ليست هناك حواجز أو فروق بين الأديان بعضها وبعض، سواء كانت يهودية أو مسيحية، أو وثنية. ومن هنا كان خطرها على الأديان وتأثيرها السيء عليها. وهي مأخوذة من اللفظ اليوناني «غنوسيس» يعني «معرفة» وقد نشأت في القرن الأول الميلادي بتأثير اختلاط الثقافة اليونانية بثقافة الشرق ودياناته في ذلك الحين.

نحو الداخل ، ولنجهل كل شيء حتى كوننا نحن الذين نتأمل »[1] .

وبناء عليه فليس ذلك الشخص الذى يتصف بمثل هذه الحالة أو يدين بها من الولاية القرآنية فى شيء .

والولى هو : المسلم ، والأولياء هم : المسلمون كلهم ، لأن الله اتخذهم أولياءه فى مقابلة أعدائه الكافرين به الذين ذكرهم أول سورة الممتحنة محذراً المؤمنين منهم فى قوله : (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء ...) .

(ب) مفهوم الولاية عند غلاة الصوفية ، وصلة ذلك بمفهوم الإمامة عند غلاة الشيعة :

رأينا كيفية دلالة كلمة (ولى) وأولياء فى القرآن الكريم ، وأنه يعنى بها صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذين والوه ونصروه ، وتعرضوا للاضطهاد والتعذيب من أجل نصرة دين الله ، وأنه لا مانع بعد ذلك من أن تطلق تلك الكلمة على من ينطبق عليه نفس ذلك المعنى المتقدم ، أو على من تشبه حاله حالهم على العموم .

لكن يظهر أن الشيعة بهرتهم تلك الكلمة ، وما تنطوى عليه من معنى له فعل السحر فى نفوس الناس ، فأطلقوها أحيانا على أئمتهم ، وعلى كبار

---

(١) تاريخ الفلسفة اليونانية ص ٢٨٩ — ٢٩٠ ، وينظر أيضاً كتاب (التلويحات) للسهروردى الحلبي ضمن مجموعة فى الحكمة الالهية ص ١١٣ ، ١١٤ ، ٢٤ ، ٤٠ . فهناك يصرح السهروردى بأن نظرية الفناء هذه مأخوذة من أفلاطون . وهذا وإن لم يكن دقيقاً كل الدقة ، إلا أنه يدل على أن هؤلاء المتفلسفين من الصوفية إنما أخذوا هذا المذهب وغيره من المذاهب الفلسفية الأخرى عن مصادر أجنبية عن الدين الإسلامى .

الدعاة فيهم ، ولو كانوا على ضد ماتحمل تلك الكلمة من معنى حسب الإطلاق اللغوى ، وحسب إطلاق القرآن الكريم لها فى حال المدح . ثم أضفوا على ذلك الإمام صفات باطنية لا يمكن توفرها فى غيره حسب زعمهم ، لتحقيق بعض الغايات السياسية والاجتماعية ، فأصبحت محصورة فى طائفة خاصة بعد أن كانت صفة محتملة لأى إنسان يقوم بنصرة دين الله من عباده المسلمين . ولم يلبث إطلاقها بهذا المعنى غير الشرعى أن نشأ فى الأوساط الصوفية أيضاً ، وهو إن لم يأخذ الصفة السياسية كاملة إلا أنه قد أخذ سفة لاهوتية ، هى خليط من أديان سابقة سماوية وغير سماوية وثقافات أجنبية فيها المعنى الإلحادى ظاهر .

١ — الوصاية :

وقد بدأ تحريف تلك الكلمة (كلمة ولى) فى أوساط الشيعة ، حين تزيدوا فى معناها ، وحين بدأوا يطلقونها على أول ولى فى دوائرهم أو إمام ، وهو أمير المؤمنين على بن أبى طالب (رضى الله عنه) ، فالفضل بن العباس ابن أبى لهب يصف علياً (رضى الله عنه) لمعنى سياسى بأنه ولى عهد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فى الوقت الذى يصفه فيه بأنه (ولى الله) وذلك فى قوله :

وكان ولى العهد بعد محمد ... على وفى كل المواطن صاحبه
على ولى الله أظهر دينه ... وأنت مع الأشقين فيمن تحاربه[1]

---

(١) يرد على الوليد بن عقبة بن أبى معيط فى اتهامه لبنى هاشم بتدبير قتل عثمان (رضى الله عنه) ينظر الصلة بين التصوف والتشيع ج ٢ ص ١٥ ويلاحظ أننا نعتبر عليا (رضى الله عنه) من كبار الأولياء من وجهة النظر القرآنية فقط على أنه صحابى جليل . أنظر « دراسات فى الفلسفة الاسلامية للاستاذ الدكتور محمود قاسم ص ١٢٩ ، ١٣٠ .

يشير بذلك إلى فكرة الوصاية التي تدعيها الشيعة لعلي بن أبي طالب وبنيه[١] ، والتي يعتمدون عليها في حصرهم للإمامة فيهم ، لأنهم في نظرهم من طينة غير طينة سائر البشر ، « طينة مكنونة تحت العرش ، أسكن الله فيها النور ، فكانوا بشراً نورانيين ، أو هم بشر إلهيون ، لأن النور الذي هو الله حل في عبد المطلب . ثم صار في أبي طالب ثم صار في محمد (صلى الله عليه وسلم) ثم صار في علي بن أبي طالب ، فهم آلهة كلهم »[٢] . فهي فكرة غنوصية راموا من ورائها بيان قداسة أهل البيت حفاظاً على بقاء السلطة السياسية فيهم ، وكان لها أثرها فيما بعد في دائرة المتصوفة في ظهور مذاهب الحلول والاتحاد ووحدة الوجود ، على ألسنة أوليائهم . وهي إحدى رواسب نظريات الفرس القديمة في تأليههم للملوك « وقولهم بالنور الذي ينتقل من ملك إلى آخر »[٣] .

وعلى هذا الأساس رأيناهم يثبتون الولاية لعلي بن أبي طالب (رضي الله عنه) ثم ينقلونها إلى الأئمة من بعده .

٢ — العلم اللدني :

وهناك صفة ثانية أضيفت إلى مفهوم الولاية عند الشيعة والصوفية ، وهي صفة العلم اللدني الذي أخذه علي بن أبي طالب عن الرسول كما قالوا ، ثم ورثه إياهم ، ويرجعون هذا أيضا إلى فكرة الوصاية التي قالوا بها ، وإلى المؤاخاة

---

(١) ينظر : الصلة بين التصوف والتشيع جـ ١ ص ٥ ، ٧٨ ، ١٩٢ ، ٢٠٦ ، جـ ٢ ص ٢٣ .

(٢) المصدر المتقدم جـ ٢ ص ١٠ ، ثم ص ١٩٢ من كتاب فرق الشيعة ص ٤٣ .

(٣) الصلة بين التصوف والتشيع جـ ٢ ص ١٠ قارن القاضي عبدالجبار في المغني جـ ٢٠ ص ١٢ ، ١٣ .

التى عقدها الرسول (ﷺ) بينه وبين على رضى الله عنه وإلى الحديث الذى وضعوه وهو : « أنا مدينة العلم وعلى بابها ، فمن أراد العلم فليأت الباب »[١] .
وبهذا فقد نسب إليه المتصوفة علم الباطن وخصوه « بأنه تلقى أسرار التأويل عن النبي صلى الله عليه وسلم » ، فجمل المتصوفة فى البلاد الإسلامية يكادون يجمعون على أنهم يقتبسون طريقتهم من الإمام على كرم الله وجهه ... بل يصرحون أنهم أخذوا عنه الحكمة كما يقول ابن أبى الحديد : « ولهذا نجد المباحث الدقيقة فى التوحيد والعدل ، مبثوثة عنه فى فرش كلامه وخطبه » ولانجد فى كلام أحد من الصحابة والتابعين كلمة واحدة من ذلك،وإذن فليس بعجيب أن نجد بعض العناصر الشيعية فى التصوف[٢] . وفى هذا مايلقى لنا ضوءاً على ذلك التزاوج الذى نراه بين التشيع والتصوف ، والذى يتمثل فى تصوير أولياء الصوفية بصورة ولى الله على بن أبى طالب ، وإسناد مايقال فى أئمة الشيعة إلى أولياء الصوفية[٣] . ومن ذلك وصف « التسترى »[٤] « للأولياء بأنهم » لايزالون ينقلون من حال إلى حال ومن علم إلى علم ، فهم أبداً فى المزيد من العلم فيما بينهم وبين ربهم[٥] » . وصفة العلم اللدنى هذه ،

---

(١) المصدر السابق ص ٢٣ . وقد أورد الشوكانى هذا الحديث وحديثاً آخر بمعناه فى الموضوعات من كتابه (الفوائد المجموعة فى الأحاديث الموضوعة) ص ٣٤٨

(٢) دراسات فى الفلسفة الاسلامية ص ١٢٨ ، ١٢٩ .

(٣) ينظر الصلة بين التصوف والتشيع جـ ٢ ص ٢٢ ، ٢٣ ، وحقائق التفسير لأبى عبد الرحمن السلمى ورقة ٦٣ .

(٤) أبو محمد سهل بن عبد الله التسترى ، توفى سنة ٢٨٣ هـ :

(٥) تفسير القرآن العظيم ص ٤٦ .

واختصاص على رضى الله عنه بالتأويل هو والأئمة من بعده[١] كما اختص محمد صلى الله عليه وسلم بالتنزيل ، حسبما يدعون ، جعلتهم يسندون إلى الأئمة أو الأولياء صفة العصمة وربما جعلوهم يزيدون فيها على الرسول ، ويحتجون لذلك بأن الرسول معه الوحى ينبهه فلا يقع فى خطأ ، أما الإمام فليس معه الوحى فهو معرض للخطأ فى إيصال العلم اللدنى أو التأويل الباطنى إذا لم يكن معصوما[٢] .

وقد بدأت هذه الفكرة من هشام بن الحكم أحد تلاميذ الإمام جعفر الصادق وأنصاره بعد وفاة الصادق ، ولزمت التشيع ولم تنفصل عنه[٤] بل

(١) دراسات فى الفلسفة الاسلامية ص ١٢٨ ، الصلة بين التصوف والتشيع جـ ١ ص١٣٥ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ٧٦ . ويروى الشهرستانى عن أصحاب أبى هاشم ابن محمد ابن الحنفية : « « أن لكل ظاهر باطنا ، ولكل شخص روحاً ، ولكل تنزيل تأويلا ولكل مثال فى العالم حقيقة . والمنتشر فى الآفاق من الحكم والأسرار مجتمع فى الشخص الإنسانى : وهو العلم الذى استأثر به على عليه السلام ثم ابنه محمد بن الحنفية وهو أفضى ذلك السر إلى إبنه أبى هاشم ، وكل من اجتمع فيه هذا العلم فهو الإمام حقاً » : الصلة بين التصوف والتشيع جـ ١ ص ١٢٤ نقلا عن الملل والنحل جـ ١ ص ٢٤٣ . وربما كانوا هم الذين يعنيهم القاضى عبدالجبار بقوله « وربما قالوا لابد أن يزيد (الإمام فى العلم على الرسول فى بعض حالاته)» المغنى جـ ٢ ص ١٤ .

(٢) الصلة بين التصوف والتشيع جـ ١ ص ١٤٦ . جـ ٢ ص٦٢ . ٦٤ ومنهاج السنة النبوية لابن تيمية ص ٢٢٦ . المغنى للقاضى عبدالجبار جـ ٢ (الخاص بالإمامة) ص ١٤

(٣) منهاج السنة النبوية ص ٢٢٦ ، والصلة بين التصوف والتشيع جـ ١ ص ١٤٦ ، ١٤٧ . جـ ٢ ص ٦٢ . وهشام هذا أحد الشيعة المتكلمين من الكوفيين توفى سنة ١٩٩

(٤) الصلة بين التصوف والتشيع جـ ١ ص ١٤٨ .

ما كدت، وتبجح بإعلانها معتنقوها بعد ذلك وخاصة فى دوائر الشيعة الإمامية، ثم الإمامية الإثنى عشرية[1] التى ماتزال موجودة إلى اليوم .

٣ — العصمة :

وبما أن الصوفية يدينون بعقيدة الشيعة فى أن للقرآن ظاهراً وهو التنزيل وهو ماجاء به محمد بن عبدالله ﷺ وباطناً وهو التأويل[2] وهو ماتكفل ببيانه أئمة الشيعة وأولياء الصوفية حسب نظرية العلم الوراثى أو اللدنى المتقدمة، فقد وصفوا أولياءهم أيضاً بالعصمة ، فكأنهم أشركوهم مع أولياء الشيعة أو أئمتهم فى ذلك أو قابلوا بينهم وبين الأنبياء ، فالأنبياء يبلغون رسالة التصوف أيضا ، والاثنان وجهان لحقيقة واحدة[3] ، وكما سيتبين لنا من مقارنة الصوفية أولياءهم بالأنبياء وأن الولاية ماهى إلا نبوة باطنة وهى لاتزال « فى الدنيا والآخرة لأن الوحى الإلهى والإنزال الربانى لاينقطع إذ به حفظ العالم » . « فكيف يكون الصوفى نبي ولاية ورسولا باطناً ولا يكون معصوماً[4] » ؟ .

---

(١) المغنى للقاضى عبد الجبار جـ ٢٠ (الكلام فى النبوات) ص ٢٤٨ ، ٢٥٦، ومنهاج السنة النبوية لابن تيمية ص٢٢٦ ، ٢٢٨ ، ورأس الحسين (رضى الله عنه) لابن تيمية ص ٥ .

(٢) ينظر على سبيل المثال : تفسير على بن إبراهيم ص٨٧ ، الصلة بين التصوف والتشيع جـ ٢ ص ٢٣ ، ٥٥ ، ٦١ ، ٩٧ ، ٩٩ ، جـ ١ ص ٧٦ ، ١٢٤ ، ١٣٥ . ودراسات فى الفلسفة الإسلامية ص ١٢٨ ، تفسير القرآن العظيم للتسترى ص ٣ والرسالة القشيرية ص ٤٣ .

(٣) الصلة بين التصوف والتشيع جـ ٢ ص ٦٣ .

(٤) نفس المصدر ص ٦٥ .

وتستوى هذه العصمة فى كلام من أظهر منهم أنه سنى وفى كلام من أعلن منهم أنه شيعى أو باطنى على حد سواء فالقشيرى يرى : « أن من أجل الكرامات التى تكون للأولياء دوام التوفيق للطاعات والعصمة من المعاصى والمخالفات »[١] والشاذلى (أحمد) «يرى فى غير لبس ولا إبهام أن من خواص القطب ، إمداد الله له بالرحمة والعصمة والخلافة والنيابة »[٢] . ويرى ابن عربى « أن من شرط الإمام الباطن أن يكون معصوماً وليس الظاهر إن كان غيره يكون له مقام العصمة »[٣] . « وأن تلقيات الموحدين تكون بحسب تجريده وصحة قصده وعصمته فى طريقه »[٤] .

ويجب أن ننبه إلى أن الصوفية فى كثير من الأحوال قد يعبرون عن العصمة بالحفظ مثل ماقال الكلاباذى : « ولطائف الله فى عصمة أنبيائه وحفظ أوليائه ، من الفتنة أكثر من أن تقع تحت الإحصاء والعد »[٥] . فنجد هنا مقابلة بين عصمة الأنبياء ،وحفظ الأولياء وهذه المقابلة قد أوردها القشيرى أيضا بذلك الأسلوب الذى يعطى أنهما بمعنى واحد ، أو على الأقل أن العصمة قد تكلم فيها بالنسبة للأولياء[٦] : « فإن قيل فهل يكون الولى معصوما »

(١) الرسالة القشيرية ص ١٦٠ .

(٢) الصلة بين التصوف والتشيع ﺟ ٢ ص ٦٥ .

(٣) الفتوحات المكية ﺟ ٣ ص ١٨٣ .

(٤) رسائل ابن عربى ، كتاب التراجم ص ٤ عن الصلة بين التصوف والتشيع ﺟ ٢ ص ٦٥ .

(٥) التعرف لمذهب أهل التصوف ص ٩٩ عن الصلة بين التصوف والتشيع ﺟ ٢ ص ٦٢ .

(٦) قال صاحب (تحفة الأصفياء) : « العصمة فى حق غير الأنبياء جائزة وسؤال الجائز جائز . هامش ص ١٢ .

قيل : أما وجوبا كما يقال فى الأنبياء فلا ، وأما أن يكون محفوظاً حتى لا يصر على الذنوب إن حصلت هنات أو آفات أو زلات فلا يمتنع ذلك فى وصفهم »[١] ونلاحظ أنه تلطف فى إثبات الحفظ أو تلك العصمة حتى أثبتهما للأولياء ، فنفس إيراد السؤال فى أن الولى يكون معصوما وطريقة إجابته بقوله « أما وجوبا كما فى الأنبياء فلا ... الخ » يفهم منه أن الحفظ هنا مراد به العصمة أو مايقرب منها ، وخاصة أنه أورد هذا السؤال بعد تعريفه للولى ، وأنه « من توالت طاعته من غير تخلل معصية » أو « هو الذى يتولى الحق سبحانه حفظه وحراسته على الأدامة والتوالى فلا يخلق له الخذلان الذى هو قدرة العصيان ، وإنما يديم توفيقه الذى هو قدرة الطاعة »[٢] ثم بعد ذلك جعل من كرامات الولى دوام التوفيق للطاعات ، والعصمة عن المعاصى والمخالفات » كما تقدم . فقد أطلقوا الحفظ فى جانب الأولياء ، ولكن أرادوا به العصمة التى تكون للأنبياء[٣] ، فإننا إذا حللنا معنى « الحفظ » وجدناه بمعنى « المنع » ، و « العصمة » هى « المنع » ، كما أننا إذا نظرنا إلى مجمل أحوالهم وعباراتهم وجدناهم يقصدون بالحفظ العصمة بعينها[٤] ، كما قال ابن تيمية : « والغالية فى المشايخ قد يقولون

---

(١) الرسالة ص ١٦٠ .

(٢) نفس المصدر ص ١١٧ ، ١٦٠ .

(٣) قارن . التصوف الثورة الروحية فى الإسلام للدكتور أبو العلا عفيفى ص ٣٠٠ ، ٣٠١ ، والصلة بين التصوف والتشيع ج ٢ ص ٦٦ .

(٤) فمعناها فى اللغة هو نفس المعنى فى الإصلاح عند سائر الطوائف من المتكلمين والصوفية وأهل السنة من السلفيين ، فنجد صاحب (تحفة الأصفياء فى بيان معنى القول بعصمة الأنبياء) يفسر العصمة فى الاصطلاح بأنها : « حفظ الله تبارك وتعالى للمكلف من الذنب مع استحالة وقوعه » هامش ص ٧ على كتاب « اتحاف أهل العناية الربانية » وينظر إلى هامش ص ١٣ .

ومن المفهوم دينا وعقلا أن وقوع الذنب ليس مستحيلا مع الولى كما يشير إلى ذلك أستاذنا الدكتور محمود قاسم فى ملاحظاته على ذلك .

إن الولى محفوظ والنبي معصوم ، وكثير منهم إن لم يقل ذلك بلسانه فحاله حال من يرى أن الشيخ أو الولى لايخطىء ولا يذنب »[١] ولكنهم تظاهروا بكلمة الحفظ بدل العصمة ليوهموا الناس أن تصوفهم موصول بالإسلام وأنه يسير على هدى الكتاب والسنة ، فيكثر أتباعهم من جانب ويحفظوا على المتصوفة حياتهم من جانب آخر ، وفى ذلك توطيد لمركزهم[٢]، وعون على بلوغ مايصبون إليه من خلع الناس من الإسلام ، وإدخالهم فى ذلك « الخليط العجيب من الحكمة الذى يجمع بين خرافات الفرس ووثنية الإغريق وعقائد اليهود الذين حرفوا دينهم من قبل »[٣].

٤ — الفناء :

ومن المعانى التى تلزم العصمة أو تساويها عند هؤلاء « الفناء » فى الله ، لأن الشخص إذا فنى فى ذاته (أى ذات الله سبحانه) وغاب عن صفاته ، لم يتصور أن يخطىء ، وإذا أخطأ فى الظاهر فإن له فى الباطن مايعلل هذا الخطأ أو يفسره بأنه هو الصواب « ومن هنا قالوا ، إن رياء العارفين أفضل من إخلاص المريدين[٤] » . فليس تصريف الولى حينئذ « صادراً عن عقل واع ، وإنما هى النفس الكلية المحدة تتصرف وتصدر عن المثل الأعلى[٥] » وهذا ماعلل به فى التشيع الإسماعيلى شرب إسماعيل الخمر « وقسوة الحاكم بأمر الله

(١) منهاج السنة النبوية جـ ١ ص ٤٤ .

(٢) قارن الصلة بين التصوف والتشيع جـ ٢ ص ٦٧ ، ٦٨ .

(٣) دراسات فى الفلسفة الإسلامية ص ١٢٩ ، ١٢٧ ، ١٣٥ .

(٤) فى التصوف الإسلامى وتاريخه لنيكولسون ص ٢١ .

(٥) الصلة بين التصوف والتشيع جـ ٢ ص ٦٨ .

وأوامره البعيدة عن المنطق المادى »[1] .

ويظهر أن صفة « الفناء » هذه غلبت على أولياء الصوفية أكثر منها فى أئمة الشيعة ، نظراً لأن التصوف وجهته دينية فى الأكثر ، أما التشيع فالغالب عليه الاتجاه السياسى . ولذلك نجد الكلام فى هذه الناحية قد كثر عند الصوفية وطالت ذيوله ، ولا عجب « فالفناء » عندهم ، هو « نهاية الطريق وعتبة الوصول إلى الله ، وباب الولاية ومقامها »[2]. ولا أغلوا إذا قلت إنه أبرز أبواب التصوف أو أن التصوف كله ينتهى إليه، وأنه يكاد يجمع المذاهب الفلسفية التى يحتوى عليها التصوف ، والتى تفسر الولاية بمظاهرها المختلفة ، فأبو بكر الواسطى[3] يصل فى وصفه للفناء ، إلى مذهب الاتحاد أو الحلول ، فقد سئل عن «الولى» كيف يغذيه الله فقال : « فى بدايته بعبادته وفى كهولته بستره ولطافته ... ثم يذيقه طعم قيامه به فى أوقاته »[4] ثم يفسر هذا القيام بأن الله يكشف للولى فيه بأنه السامع منه إذا سمع والمبصر منه إذا أبصر ، والباطش منه إذا بطش،وهكذا قال تعالى مخاطبا النبي (صلى الله عليه وسلم) « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » فهو وإن فسر هذا القيام بالعبد بحديث الولى موضع الدراسة ، وبتلك الآية القرآنية إلا أنه لايقصد فيهما إلى المعنى السنى القرآنى ، ولكن إلى المعنى المطلق ، وكأنه يؤكد هذه الفكرة ، فكرة الفناء ـ التى صار فيها الولى فى مقام الاتحاد أو الحلول ـ بهذين النصين

---

(١) نفس المصدر .

(٢) التصوف ، الثورة الروحية فى الإسلام ص ٣٠٠ .

(٣) أبو بكر محمد بن موسى الواسطى توفى ٣٢٠ هـ

(٤) نفس المصدر والصفحة ، وينظر الرسالة القشيرية ص ١١٨ ، وقارن ابن عربى فى الفصوص جـ ١ ص ١٨٥ .

الكريين[1] ، فقد أصبح العبد في مقام المحو ، وصار الحق هو الذي يتصرف له .

والإنسان في مقام وحدة الوجود لايختلف عنه ـ تقريباً ـ في مقام الحلول أو الاتحاد ، فابن عربي : يرى أن العارف الذي صار في مقام كنت سمعه وبصره الخ ، إذا تصرف بهمته ، فليس تصرفه إلا عن جبر واضطرار ،وذلك أن الفناء في هوية الأحدية ، قد سلبه الاختيار وحرية التصرف ، فخرج عن تدبيره إلى تدبير غيره ، وعلى هذا الوجه يؤول قوله على لسان الرسول ﷺ : « وما أدرى ما يفعل بي ولا بكم »[2] فهنا نسبة تامة لأفعال العباد إلى الله ، والخلق هم فيها مجرد أسباب صورية اقتضتها أو اقتضت الاعتراف بها النشأة الدنيوية ، وهذا هو معنى البقاء المقابل للفناء ، وهما وجهان لحقيقة واحدة هي الوحدة الوجودية ، وهذا قريب من كسب الأشاعرة ، ومن رأى (ملبرانش) في الأفعال الإنسانية وغيرها ، ومن النظرية الفلسفية التي تعرف في العصر الحديث باسم نظرية الظروف أو المناسبات[3] .

كذلك يفرض عليه مذهب وحدة الوجود ، أن الأشقياء ـ إن كان في مذهبه أشقياء ـ إنما يتصرفون بتصرف الله ، فبما أنهم آلهة ، أو أنهم صور لتعينات الذات الإلهية ، فتصرفهم ، ليس بأشخاصهم ، وإنما هو بتصرف الله المطلق ، ليس لهم فيه إرادة ، أو أنهم أسباب مادية ظاهرية ، اختيرت ـ في مرأى العين ـ لتقوم بأفعال معينة أراد الله إنفاذها وإن كانوا في الواقع آلهة

---

(١) قارن : قطر الولي في (تحقيق آراء الاتحادية والصوفية) .

(٢) فصوص الحكم جـ ١ ص ١٢٩ ، جـ ٢ (تعليقات) الدكتور أبو العلا عفيفي ص ٧٩ ، ٨٠ ، ١٥٦ .

(٣) جـ ٢ (تعليقات الفصوص) ص ٨٠ .

وهذا المعنى هو الذى أراده السحرة فى قولهم لفرعون « فاقض ماأنت قاض » على أساس أنهم اعترفوا به كإله أعلى منهم «وإن كان الكل أربابا بنسبة ما» فهو الأعلى بما أعطيه فى الظاهر من التحكم فيهم ، فليس الأمر فى هذه الآية من باب الاستهانة بفرعون ووعيده ، وإنما هو عند السحرة كما يقول ابن عربى ، من باب الاعتراف — على طريقة الكشف — بألوهية فرعون ، وأنه مظهر من مظاهر الذات الإلهية[1] ، وهذا هو مدار إسناد التصرف للإنسان عند ابن عربى[2] .

ويروج أبو عبدالرحمن السلمى لهذا الاتجاه الأخير فينقل عن الواسطى أيضا ، فى صدد تفسير قوله تعالى : « ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون » ، « أن حظوظ الأولياء مع تباينها،من أربعة أسماء ، قيام كل فريق منهم باسم منها:هو الأول والآخر والظاهر والباطن،فمن فنى عنها بعد ملابستها فهو الكامل التام »[3] .

وهذا مظهر آخر من مظاهر الفناء يعرضه علينا أبو عبدالرحمن السلمى

---

(١) فصوص الحكم ج١ ص٢١٠ ، ٢١١ ، ج٢ (تعليقات الدكتور أبو العلا عفيفى) ص ٣١٤ .

(٢) قد أرشدنى إلى أصل هذه الفكرة ومراجعها أستاذى الدكتور محمود قاسم أثناء مراجعة هذه الرسالة .

(٣) ويشرح موقف كل فريق من هؤلاء فيقول : « فمن كان حظه من اسمه الظاهر لاحظ عجائب قدرته ، ومن كان حظه من اسمه الباطن لاحظ ما جرى فى السرائر من أنواره إلى أن يقول : وكل كوشف على قدر طاقته إلا من تولاه الحق ببره وقام عنه منه بنفسه . فنرى الاتحاد أو الحلول ماثلا فى هذه العبارة الأخيرة، ينظر حقائق التفسير ورقة ٦٣ والرسالة القشيرية ص ١١٨ ، قارن فصوص الحكم لابن عربى ج١ ص٤٩ — ٥٦ ، و ص٦٨ ، ٦٩ ، ج٢ ص ٤٠ من التعليقات ،

أيضا ، وهو فى الواقع صورة من صور وحدة الوجود ، أو رؤية الحق فى الخلق أو الخلق فى الحق : فمن علامات الولى أن يكون سلبياً فى الحياة لا تبدر منه بادرة كرد فعل لما يحس به ـ إذا كان يحس ـ أو يلاقيه فى الحياة ومن الناس لأنه فى هذه الحالة « يرى الخلق لله تعالى فيعاشرهم على رؤية ما منه إليهم »[١].

ومن مظاهر الفناء أيضاً الكشف والمشاهدة، كما يقول أبو على الجوزجانى: « الولى هو الفانى فى حاله ، الباقى فى مشاهدة الحق سبحانه، تولى الله سياسته، فتوالت عليه أنوار التوالى »[٢] . وكما يقول ابن عربى فى تعريف الأولياء ، بأنهم « المستغرقون فى عين الهوية الأحدية بفناء الإنية » وأنهم « الذين آمنوا الإيمان اليقينى ، وكانوا يتقون حجب صفات النفس وموانع الكشف » وذلك لأنهم متصلون بالمبادىء العالية الروحانية كالعقل وما يليه »[٣] . فوحدة الوجود عنده هى المقام الأسمى لحال الفناء ، والفناء عنده له نصيب من اسمه ، فهو فى أحد مظاهره « إهلاك النفس » ويظهر أنه يقصد إهلاك حيوانيتها ، وبشريتها ، ووضعها فى مصاف الجمادات ، فعنده أن أقرب الموجودات إلى الله الجمادات ، ثم النباتات، ثم الحيوانات ، ثم الإنسان ، لما فيه من العقل والفكر ، فإنهما عائق له عن الوصول ويمكن للإنسان بناء على ذلك أن يصل إلى مرتبة القرب بإهلاك نفسه ، أو بإهلاك هذه الأشياء فيها ، والنزول بها إلى مرتبة الجمادات ، فإنه بعد ذلك يصعد إلى الملأ الأعلى، ويلحق بالعقول المجردة ، وهذا

---

(١) المصدر المتقدم والورقة .

(٢) الرسالة القشيرية ص ١١٨ قارن فى التصوف الإسلامى وتاريخه ص ٨ ، والرسالة القشيرية ص ١٤٢ قول أبى يعقوب السوسى فى الفناء ، ص ٣٧ آخر فصل (الفناء والبقاء) .

(٣) تفسير ابن عربى ج١ ص ١٤٤ .

هو طريق ابراهيم عليه السلام ، فإنه لم يذبح كبشاً فى الحقيقة ، وإنما ذبح بشرية نفسه وحيوانيتها ، وكان الكبش هو الصورة التى تراءت له فيها نفسه فى صورة ولده كى يميتها ، أو يذبحها تقرباً إلى الله وفناء فيه[1] . ولعل هذا هو مقام الموت ، الذى سماه مقام الدار الآخرة ، وهو مقام الحياة الحقيقية أو النشأة الآخرة ، كما يسميها، يشير بهذا إلى قوله تعالى : « وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون » على غير ماتشير اليه الآية . وفى هذا المقام يدرك الإنسان أن كل مافى الوجود حى ، أى متصف بذات الله وصفاته وقد سرت صفات الله من السمع والبصر والعلم والحياة والقدرة الخ فى الموجودات كلها ، أى أنها هى الله ، وإن ظهر فيها بصور وتعينات مختلفة[2] ، أو هى وجوه وجوه لحقيقة واحدة ، هى الذات العلية ، فكل مافى الوجود حى ، لأنه صورة من صور الله[3] وهذه الأشياء لانراها على تلك الحقيقة الباطنية ، أو الوجودية ، لما فينا من العقول والحواس .

أما اذا ماتت هذه الحواس والعقول ، فإنه من الممكن أن نرى الكون بما فيه على حقيقته الوجودية ، وفى هذه الحالة نرى أن ما كنا نراه حال الحواس والعقول ومن خلالها انما هو رموز وأحلام وخيالات، يجب أن تؤول كما تؤول أحلام النائمين ، ويستدل على ذلك بقوله صلى الله عليه وسلم « الناس نيام ، فإذا ماتوا انتبهوا » ،قولا له على غير حقيقته ، فهذا هو موت الحواس ،

---

(١) فصوص الحكم ص ٨٤ ، ٨٥ ، التعليقات ص ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ .

(٢) التعليقات ص ٢١١ ، الفصوص ص ١٥٤ (قد أرشدنى إلى هذه الفكرة ومراجعها أستاذى الدكتور محمود قاسم أثناء إشرافه سيادته على هذه الرسالة) .

(٣) نفس المصدرين المتقدمين ص ١٥٣ .

وحياة الروح ، أو « موت الجهل ، وحياة المعرفة اليقينية الحقة »[١] ، والسهروردى يسمى هذا بالموت الأصغر[٢] ، أو الفناء فى الخلسة[٣] ، وقد جعله من علامات الاتحاد ، أى الاتحاد بالنفس ، لأن الاتحاد بالجسم غير ممكن عنده[٤] وربما كان هذا هو مقام الخرس ، الذى يشير إليه (ابن عربى) فى النشأة الثانية لإدريس عليه السلام ، وفيه ينزل الإنسان « عن حكم عقله إلى شهوته ، ويكون حيوانا مطلقا ، حتى يكشف ماتكشفه كل دابة ماعدا الثقلين[٥] » ، وهنا يخرس الإنسان فيشاهد مايشاهده من عالم الحقيقة ، أو وحدة الوجود ، ولكنه لا يستطيع النطق أو الإبانة عما يرى ، كما حدث لابن عربى نفسه ، حين أقيم فى هـــذا المقام فى إحدى الحالات ، وينصح السهروردى بالعمل على الوصول إلى هذا المقام « فإن كنت بنطقك صابراً من الصالحين ، فيوشك أن تصير بالصمت ملكا من المقربين»[٦] .

هذا وقد سبق كثير من الصوفية أيضا ، ابن عربى إلى الكلام فى هذا المقام ، مقام الخرس ، أو مقام الحيرة والدهش ، وجعلوه مظهراً للمعرفة ، أو للمشاهدة كما جعله ابن عربى ، فهنا أبو القاسم القشيرى ، يرى أن سبب السكوت قد يكون حيرة البديهة ، « فإنه اذا ورد كشف عن وصف البغتة

---

(١) التعليقات ص ٢٢٠ ، الفصوص ص ١٥٩ .

(٢) مجموعة فى الحكمة الإلهية ص ٣ ٥ .

(٣) نفس المصدر ص ١١٤ .

(٤) نفس المصدر ص ٧٣ .

(٥) يشير الشوكانى إلى أن هذا من صفات المجاذيب والبله والمجانين ، ولكنه لايدل على قرب من الله ، لأن مثل هذه الأصناف ، ارتفعت عنها أهلية التكليف . قطر الولى ، فى (خوارق غير الأولياء) .

(٦) مجموعة فى الحكمية الإلهية ص ١٢١ .

خرست العبارات عند ذلك ، فلا بيان ولا نطق »[١] . ويقول الواسطى : « من عرف الله تعالى ، انقطع، بل خرس وانقمع »[٢] . ويقول أبو سليمان الدارانى : « إن للمعرفة أقرب إلى الصمت منها إلى الكلام »[٣] .

والفناء بمعنى الموت المتقدم ، قد تكلموا فيه أيضا ، فالجنيد البغدادى يقول :

« التصوف هو أن يميتك الحق عنك ، ويحييك به »[٤] .

والإنسان يكون على هذه الحال من الفناء حينما يكون فى مقام الجمع « أى الحال التى لا يميز فيها بين العبد والرب » ويسميه ابن عربى (القرآن) ويقابله الفرقان، وهو أن يشعر العبد فى حال اتحاده ، بالفرق بينه وبين الذات الإلهية، وأن الذات الإلهية فى هذه الحالة ، وقاية له ، وحماية لصورته الإنسانية وقد يكون هذا الفرقان قبل الدخول فى الفناء الصوفى التام وهو حال القرآن ، وقد يكون بعده ، فيسمى « فرقانا » بعد قرآن ، وهى حال البقاء ، وفيه يعلم « أن الحق ، والخلق (اللاهوت والناسوت) ولو أن بينهما اتحاداً ذاتياً — كما دلت عليه حال الفناء — إلا أن الحق متميز من الخلق ، امتياز الصورة من الجوهر الذى هى صورة له » ويسمى أيضاً بقاء بعد فناء[٥] .

---

(١) الرساله القشيرية ص ٥٨ ، وينظر أيضاً ص ٥٩ .

(٢) نفس المصدر ص ١٤١ .

(٣) فى التصوف الإسلامى وتاريخه ص ٦ نقلا عن تذكرة الأولياء .

(٤) الرسالة القشيرية ص ١٢٦ السطر الأخير فى التصوف الإسلامى وتاريخه ص ٣٢ .

(٥) فصوص الحكم ص ٨٩ ، ٩٠ ، التعليقات لأبى العلا ص ٨٢ ، ٨٣ .

وهذا لا تعارض مع البقاء والفناء ، بل كلاهما وجهان لحقيقة واحدة هي الوحدة الذاتية مع الله ، فلا يشعر الشخص بالبقاء بالله ، إلا بالفناء عن صور الرسوم ومظاهر الدنيا ، وفي هذه الحالة يكون باقيا مع الله ، أو في الله ويكون الله هو الفاعل في الحقيقة ،أو هو عين العبد وسمعه ويده الخ ، كما قال الواسطي ، فليست صفة الفناء سلبية (في الحقيقة) . وانما هي إيجابية في الوجود بالله[1] ومن هذا قول ذي النون المصري : « عرفت ربي بربي ، ولولا ربي لما عرفت ربي »[2] . ويكاد يكون هذا المعنى الذي يراه ابن عربي في البقاء ، موجوداً على صورة غير ناطقة هذا النطق عند الصوفية المتقدمين[3] .

والذكر كذلك يرادف الفناء عند ابن عربي . فهو غياب الذاكر عن مذكوره ، وهو الحال التي يتحقق فيها الصوفي بوحدته الذاتية مع الله ، فذكر الله معناه عندهم الحضور مع الله ، والفناء فيه ، واذا وصل الصوفي إلى هذا المقام انكشف له الحق « وانمحى كل أثر بين الواحد والكثير ، أي بين الحق والخلق والذاكر والمذكور ،وتحققت وحدة الإثنين »[4] ، وذلك عندما يكون الإنسان في مرتبة الجمعية ، وحضوره بكل حواسه ، وقواه البدنية والروحية مع الله[5] .

وابن عربي لا يفهم الذكر بغير هذا المعنى ، « والجليس مشهود للذاكر ،

---

(١) التعليقات ص ٢٩٤ ، الفصوص ١٥٥ .

(٢) الرسالة القشيرية ص ١٤٢ ، في التصوف الاسلامي وتاريخه ص ٧ .

(٣) ينظر الرسالة القشيرية (فصل الفناء والبقاء) ، علم القلوب لمحمد بن عطية المكي (مخطوط) ص ٦٦ ، ٦٩ ، ٧٠ .

(٤) التعليقات على الفصوص ص ٢٣٢ .

(٥) نفس المصدر والصفحة ، والفصوص ص ١٦٨ ، ١٦٩ .

ومتى لم يشاهد الذاكر الحق الذى هو جليسه فليس بذاكر ، فإن ذكر الله سار فى جميع البدن لا من ذكره بلسانه خاصة »[١] . والذكر بهذا المعنى نكاد نجده عند السهروردى[٢]، والغزالى[٣]، كما نجد له أصولا عند بقية المتصوفة السابقين ممن لم يغلب عليهم التفلسف ، فذو النون المصرى ، يرى أن الذكر: « هو غيبة الذاكر عن الذكر » ، والشبلى يقول : « أليس الله تعالى يقول أنا جليس من ذكرنى »[٤] . ؟ بل لقد صور الذاكر الفانى بصورة من خرج على الطبيعة البشرية حتى أصبح يصرع الجن إذا اقتربوا منه[٥]. ووجدناهم أيضاً يرون أن الفناء فى الذكر يجعل صاحبه فى وحدة مع الله ، يقول الخراز ، وهو ممن أخذ عنهم ابن عربى كثيراً — : إذا أراد الله تعالى أن يوالى عبداً من عبيده ، فتح عليه باب ذكره فإذا استلذ الذكر ، فتح عليه باب القرب ، ثم رفعه إلى مجالس الأنس به ، ثم أجلسه على كرسى التوحيد ، ثم رفع عنه الحجب ، وكشف له عن الجلال والعظمة ، وحينئذ يصير العبد زمنا فانيا . فوقع فى حظه سبحانه ، وبرئ من دعاوى نفسه[٦] . والوصول إلى درجة الفناء ليس أمرا سهلا عند ابن عربى ، بل هو بطريق الرياضة والمجاهدة ، وقوة الجمعية بحيث يستطيع الإنسان أن يتخلص من حواسه ومن فكره ، ومن

(١) نفس المصدر ص ١٦٨ ، ١٦٩ .

(٢) مجموعة فى الحكمة الالهية ص ١١٤ .

(٣) إحياء علوم الدين ص ١٩ ، كيمياء السعادة ص ٨٨ الملحق بمجموعة المنقذ من الضلال .

(٤) الرسالة القشيرية ص ١٠٢ ، فى التصوف الاسلامى ص ٧ .

(٥) القشيرية ص ١٠٣ ومن ذلك ما يرويه القشيرى : «قيل إذا تمكن الذكر من القلب ، فإن دنا منه الشيطان صرع كما يصرع الانسان إذا دنا منه الشيطان ، فتجتمع إليه الشياطين ، فيقولون ما لهذا؟ فيقال ، : قد مسه الانس » .

(٦) الرسالة القشيرية ص ١١٨ ، ١١٩ .

مظاهر هذا الوجود الدنيوى ولذلك ، فقد جعل (الظالم) اسماً من أسماء الفانى ، أو من أسماء العارف ، الذى ظلم نفسه بالمجاهدة حتى أفناها عن هذا الوجود المادى وأبقاها بالحق ، ويستدل لذلك بقوله تعالى : (ثم أورثنا الكتاب الذى اصطفينا من عبادنا ، فمنهم ظالم لنفسه ، ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات) وجعل الظالم أرقى الثلاثة ، على ضد ما تؤول إليه الآية[1] ، وجعل ضلال الظالمين فى آية (ولا تزد الظالمين إلا تبارا) هو حيرة العارفين فى الله الذين غرقوا فى بحار العلم به وفى تعدده بالوجوه والنسب[2] .

فالفناء عند ابن عربى على تعدد مظاهره ، بأسمائه المختلفة هو الحالة أو المقام الذى تكتمل للعارف فيه القدرة على رؤية الوجود واحداً ، والواحد كثيراً ، والكثير واحداً : ونكاد نجد هذا المعنى عند الصوفية السابقين ، وإن كان دون هذا النطق الصارخ بوحدة الوجود بكثير .

والطريق إلى ذلك الفناء أو تلك الولاية التى لا تتحقق إلا به ، أن لا يتعلق الإنسان لا بالدنيا ولا بالآخرة كما يقول (إبراهيم بن أدهم) « أتحب أن تكون لله ولياً ؟ لا ترغب فى شىء من الدنيا والآخرة ، وفرغ نفسك لله تعالى ، وأقبل بوجهك عليه ليقبل عليك ويواليك »[3] . ونلاحظ أنهم ينظرون إلى معنى الفناء على أنه معنى الولاية ، وأنهما معا من التولى والتوالى ، لله ومن الله[4] .

---

(١) الفصوص ص ٧٢ ، ٢٣ التعليقات ص ٤٠ .

(٢) نفس المصدرين المتقدمين . ونلاحظ أن الصوفيه المتقدمين ، يرون أن أرقى درجات المعرفة ، هو الوصول إلى درجة التحير والدهش . انظر على سبيل المثال فصل (المعرفة) فى الرسالة القشيرية .

(٣) الرسالة القشيرية ١١٨ .

(٤) نفس المصدر ص ١١٨ ، ص ٣٦ ، ٣٧ ، اللمع للسراج ص ٦١ ، ٦٢ .

هذه هى أبرز صفات الولاية عندغلاة الشيعة وعند الصوفية وهناك صفات أخرى قد وصف بها أولياء الشيعة وأولياء الصوفية وهى : الشفاعة ، التقية ، الكرامات والتفسير والتأويل[١] ، فلا نطيل بالحديث عنها ، لأن منها مالا يتصل بتكوين الشخصية مثل الشفاعة والتقية ، ومنها مانسبه إلى الأولياء جمهور أهل السنة والسلفيون وإن كانوا لم يجعلوها من مكملات الولاية ، وهى الكرامات ، ومنها مايتصل بصفة العلم اللدنى أو الوراثى ، وهى التفسير والتأويل .

وهكذا تحولت الولاية عند هؤلاء من المعنى القرآنى الذى هو النصرة والحماية والقرب التى يتوجه بها العبد إلى الله ولدينه فيمنحه الله نصرة وحماية وقرباً فى مقابلها ، إلى معان خاصة فى طوائف خاصة لها شروط وعلامات غير تلك العلامات القرآنية ، وبعد أن كانت حقاً مشاعاً لجميع المسلمين أصبحت مقصورة على نفر تنتقل إليهم بطريق الوراثة فى النسب أو الروح من النبي ﷺ ثم من على وبنيه رضى الله عنه ، فكأن الولاية بهذا المعنى امتداداً للنبوة ومقصورة على أئمة الشيعة وأولياء الصوفية[٢] .

نرى هذا من الشيعة ثم من الصوفية رغم ادعائهم الإنتساب إلى السنة وإلى الجماعة فيما يقولون ، وربما يعرفون المعنى القرآنى لكلمة ولى وأنه من الممكن « بهذا المعنى العام أن يدخل الأنبياء فى الأولياء ، كما يدخل فيهم الصوفية — كما يدعون — لأن صفة القرب من الله حظ مشترك بين هؤلاء جميعاً ، إلا أن جمهور الصوفية يطلقون اسم (الولى) على : الصوفى الذى حصل فى مقام

---

(١) ينظر الصلة بين التصوف والتشيع جـ ٢ ص ٧٠ ، ٦٦ .

(٢) التصوف ، الثورة الروحية فى الإسلام ص ١٩١ ، ١٩٢ ، ينظر أيضاً المغنى (الكلام فى الإمامة) جـ ٢٠ ص ١٢ .

القرب من الله بفضل قداسته وورعه وفنائه فى محبة ربه ، ويعتبرون الولاية والنبوة مرتبتين مختلفتين مستقلتين إلى حد أنه يمكن المفاضلة بينهما » .

« فإذا قالوا : إن الصوفية خاصة المسلمين ، والأولياء خاصة الصوفية ، فمعنى هذا أن الأولياء (من الصوفية) خاصة المسلمين ، وأن الولاية أعلى مرتبة روحانية يصل إليها المسلم »[1] وليست النبوة .

وإذا كانت الولاية عند الصوفية هى أعلى مرتبة يصل إليها المسلم ، فإن الأمر كذلك عند الشيعة بالنسبة للولاية أو الإمامة ومن كلامهم فى ذلك مايرويه (الكلينى) بإسناد يصل به إلى الإمام جعفر الصادق : « إن الله تبارك وتعالى ، اتخذ إبراهيم عليه السلام عبداً ، قبل أن يتخذه نبياً ، وإن الله اتخذه نبياً قبل أن يتخذه رسولا ، وإن الله اتخذه رسولا قبل أن يتخذه خليلا ، وإن الله اتخذه خليلا قبل أن يجعله إماماً ، فلما جمع له الأشياء قال : إنى جاعلك للناس إماماً ، قال فمن عظمها فى عين إبراهيم قال : دون ذريتى ؟ قال : لا ينال عهدى الظالمين »[2] .

الولاية عند ابن عربى :

وقد أفصح عن هذا الاتجاه المشترك بين غلاة الشيعة والصوفية شخصية مزدوجة ، أو مركبة من التصوف والتشيع والفلسفة هى شخصية ابن عربى . فالولاية عنده ثلاث مراتب : مرتبة الأنبياء ، ومرتبة الأولياء ولاية خاصة ، ثم مرتبة الولاية العامة .

وهو يعتبر مرتبة الأنبياء والرسل فى الولاية مرتبة خاصة[3] ، ولكنه

(١) التصوف ، الثورة الروحية فى الإسلام ص ٢٩٣ .
(٢) الكافى (كتاب الحجة) ورقة ٣٧ أ .
(٣) فصوص الحكم ص ٣٦١ ، ١٦٠ .

فى الواقع ، لا يقصد من هذه الخصوصية ، تفضيلا الأنبياء على الأولياء ، وإنما يقصد بها ، إضفاء صفة مؤقتة ، على من يصطفيهم الله من الأولياء — إن كان يرى فى النبوة ولاية — يبلغون بمقتضاها شريعته الظاهرة المتصلة بأمور الدنيا إلى الخلق ، وبعد أداء هذه المهمة ، يلحقون ببقية الأولياء ، ويزول عنهم اسم النبوة والرسالة[1] . فليس النبي أعلى من الولى ، إلا فى نظر أهل الظاهر أو أهل الشريعة ، أما « من اقترنت عنده (من المتصوفة الباطنية) حالة أخرى تقتضيها مرتبة النبوة » وهى الولاية فيعلم أن الولاية هى « علو رتبة باقية وهى المرتبة الباقية على الأنبياء والرسل فى الدار الآخرة التى ليست بمحل لشرع »[2] .

ومقتضى اصطفاء الله للأنبياء والرسل (عند ابن عربى) ، أو اختصاصهم بالرسالة ، أن لا يكون لهم فيها شىء من الإكتساب ، الذى يتمثل فى الذوق ، والقوة الروحية والقدرة على الكشف أو المشاهدة[3] . التى يتمتع بها الأولياء ، وبها اكتسبوا ولايتهم أو نبوتهم العامة التى لا تشريع فيها[4] ، والأنبياء بناء على ذلك تأتيهم الشريعة بطريق الإخبار الذى يقصر عن إدراك مالا ينال إلا بالذوق[5] .

ونلاحظ أن ابن عربى يجعل للعلم الإلهى ثلاث طرق يخص الأنبياء منها بأضعف طريق فى نظره ، هذه الطرق الثلاث هى الذوق والكشف وهو طريق

(١) عنقاء مغرب ص ٧٠ ، التعليقات على الفصوص ص ١٧٤ .

(٢) الفصوص ص ١٣٦ ، ١٣٧ .

(٣) الفصوص ص ١٦٠ ، والتعليقات ص ٢٧٤ .

(٤) التعليقات على الفصوص ص ٢٢٤ ، الفصوص ص ١٣٤ ، ١٣٥ .

(٥) نفس المصدر ص ١٣٣ .

العلم الكامل ثم البحث والنظر، ويلى الأول فى الدرجة، ثم الإخبار الذى خص به الأنبياء والذى يقول فيه: «والإخبار أيضاً يقصر عن إدراك مالا ينال إلا بالذوق»(١).

هذا إذا اعترف بالوحى الخارجى، وأما هو فى واقع نفسه وواقع مذهبه فلا يرى الوحى شيئا خارجا عن الإنسان، ولكنه خيال يجسد من باطن النفس للنفس(٢).

والمرتبة الثانية: وهى مرتبة الولاية الخاصة، أوالنبوة العامة التى لا تشريع فيها وإنما مناطها العلم والمشاهدة، لأن أصحابها لم يعودوا إلى هذه النشأة الأولى وإنما صاروا بفنائهم، فى النشأة الآخرة، قد حشروا فى دنياهم، ونشروا فى قبورهم فهم بشر إلهيون، وفى الأرض سماويون، فهم يرون مالا نرى(٣)، وهم الذين يدركون ذوقا، أن الكثرة عين الوحدة(٤)، فهم قد اختصوا بطريق العلم الكامل، وهو الذوق والكشف(٥) ويسميهم ابن عربى ورثة، لأنهم أخذوا علمهم عن الله مباشرة من حيث كونه ورث العلم عن الأنبياء، بعد انقطاع نبوتهم، وورثه إياهم(٦)، فهذا هو الفرق بين علم التشريع الذى وصلنا عن النبي ﷺ، وبين علم الأولياء الذى جاد به الله عليهم تجليا ومشاهدة(٧)، وهم عند ابن عربى أفضل من الأنبياء نظراً لما هم عليه من ذوق

---

(١) نفس المصدر والصفحة، والفتوحات ص ٣٣٥.

(٢) الفصوص ص ٦١، ٦٦، التعليقات ص ٩٤، ٩٥، الفتوحات المكية ج ٢ ص ٤٢٩، قارن (الأحلام) للدكتور الطويل ص ٨٨.

(٣) الفصوص ص ١٨٦. (٤) التعليقات ص ١٧٠.

(٥) الفصوص ص ١٣٣. (٦) الفتوحات المكية ج ٢ ص ٣٣٥

(٧) الفصوص ص ١٣٣، عنقاء مغرب ص ٦٠، ٦١.

أدركوا به علم الوجود ووقفوا به على سر القدر[١]، وما في النبي من ولاية، فإنما يرجع إلى قدر نصيبه من هذا العلم، «ولهذا فمقامه من حيث هو عالم، أتم وأكمل من حيث هو رسول أو ذو تشريع وشرع[٢]»، والعون في هذا العلم، أوصاحب المدد فيه، هوخاتم الأولياء الذي يستمده بدوره، بفضل نور الحقيقة المحمدية التي يرمز إليها الصوفية باسم «القطب»، والتي تقابل العقل الأول عند (أفلوطين) و (الكلمة) عند المسيحيين[٣].

ويبلغ تفضيل ابن عربي للأولياء على الأنبياء ذروته، حيث يصرح بأن كل نبي «من لدن آدم إلى آخر نبي ما منهم أحد يأخذ إلا من مشكاة خاتم النبيين»، وأن خاتم الرسل «من حيث ولايته نسبته مع الخاتم للولاية، نسبة الإنبياء والرسل معه، فإنه الولي الرسول النبي، وخاتم الأولياء، الولي الوارث الآخذ عن الأصل، المشاهد للمراتب»[٤]، ففضل خاتم الأولياء، إنما «هو باستيفاء مقام العيان» «وليس الختم بالزمان»[٥]، ونظرا لأن النبوة لم تنقطع في نظر ابن عربي، بموت محمد ﷺ، وأن هؤلاء الأولياء قد صارت لهم النبوة والرسالة العامة من بعده[٦]، فقدجعل لهم التشريع بالاجتهاد في ابتكار أحكام جديدة بإلغاء حكم أو إثبات حكم لم يكن، بناء على مايراه هذا الإمام أو المجتهد من جهة الكشف، من ثبوت خبر عن الرسول، لم يكن قد ثبت

---

(١) الفصوص، ص ١٣٢.

(٢) الفصوص ص ١٣٥.

(٣) التعليقات على الفصوص ص ٢٤، ٢٥، الفصوص ص ٦٢.

(٤) الفصوص ص ٦٤. (٥) عنقاء مغرب ص ٧١.

(٦) الفصوص ص ١٣٤، الفتوحات ص ٣٣٥.

له ، أو عدم اتصال خبر قد أسند إليه[١] ، ولهذا فهم أئمة خلفاء ، وهم في الظاهر متبعون لشرع الرسول ﷺ ، ولكنهم في الباطن يأخذون عن الله من مشكاة خاتم الأولياء « فلله خلفاء في خلقه يأخذون من معدن الرسول والرسل ، ما أخذته الرسل عليهم السلام ، ويعرفون فضل المتقدم هناك ، لأن الرسول قابل للزيادة ، وهذا الخليفة ليس بقابل للزيادة »[٢] وابن عربي في هذا ينهل من منهلين ، المنهل الأول ، قرآن الله وسنة الرسول ﷺ ، والمنهل الثاني هو فلسفة (أفلوطين) وما شابهها من الفلسفات الغنوصية الأخرى ، غير أنه تحمس للمصدر الثاني على الأول ، وأخذ يؤول هذا الأخير وبطونه ، ليتمشى مع مبادىء الغنوصية وكشف أفلوطين فظهر منه هذا الزيغ ، وإن حاول أن يستره بإيهام توكيده لسلطة الشريعة في الظاهر ، وإنها إنما جاءت لهذا فقط . ولكن هذا غير ماتقتضيه الشريعة ، وغير مايقتضيه مقام الأنبياء ، « فمن المعلوم أن العقل ، والدين ، يقتضيان أن جانب النبوة والرسالة ، أحق بكل تحقيق ، وعلم ومعرفة ، وإحاطة بأسرار الأمور وبواطنها »[٣] .

والمرتبة الثالثة : أو الشكل الثالث من أشكال الولاية هو الولاية العامة ،

---

(١) الفصوص ص ١٦٤ ، ١٦٣ ، ١٣٥ . ومن هنا ظهرت عندهم في التشيع صفة التأويل والتفسير الباطني . وهذا مرجع ابتداعهم في الدين ، تلك البدع المعروفة عندهم في التشيع ، فابن عربي هنا شيعي غال بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى .

(٢) فصوص الحكم ص ١٦٣ ، قارن التعليقات على الفصوص ص ٢٢٢ ، ٢٢٥ ونلاحظ أنه في استعمال كلمة إمام ، يريد بها الولي في هذا المقام ، متأثر بأفكار الشيعة في الإمام المعصوم . التعليقات على الفصوص ص ٢٢٤ .

(٣) نقض المنطق لابن تيمية ص ٧١

وهو ذلك النوع الذى اقتضته نزعته التلفيقية ، والتى أفصح عنها فى قوله :

عقد الخلائق فى الإله عقائداً وأنا اعتقدت جميع ما عقدوه[1]

وقد جعلها سارية فى عبادة المشركين لما يعبدونه ، وإنهم بذلك مؤمنون ، واقتضاء لزعمهم فإن الله ينظر إليهم، وينصرهم بهذا الإيمان ، على الموحد الذى فرط فى حق الله ؛ فالأول مؤمن ، ولكنه فى عبادته غير الله أخطأ النسبة ، والثانى صار غير مؤمن ، فانطبقت الآية « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » ، على الأول دون الثانى، « فأى شخص صدق فى احترام الألوهية واستحضرها، وإن أخطأ فى نسبتها ، ولكن هى مشهوده ، كان النصر الإلهى معه »[2]. وهو يجعل هذه الولاية من التولى ، وأنها رمز لوجوده ، وتطبيق لأحد أسمائه تعالى (الولى) فقد تولى الخلق بالوجود فى أعيانهم ، ويحفظ الوجود عليهم « وتولاهم بما رزقهم فيه قوام عيشهم ، ومصالحهم عموما . . . » « فإن كل جزء من العالم مسبح لله تعالى من كافر وغير كافر »[3] ومن مظاهر هذه الولاية ، تعاطف الوالدين على أولادهم والعكس ، وتعاطف الحيوانات العجم كذلك ، وقيام كل أحد بخدمة الآخرين ، وهو يظن أنه يخدم نفسه كالتاجر الذى يجوب الأقطار بيعا وشراء يظن أنه يخدم نفسه ولكنه فى الوقت ذاته، قد نفع الكثيرين غيره « بما جعل الله فى قلبه من ذلك بولايته »[4] . فلهذا قلنا إن ولاية الله عامة التعلق ، لهذا جعل الوجود كله ناطقا بتسبيحه » ، فلم يتول الله إلا المؤمنين، وما ثم إلا مؤمن » والناس كلهم بهذا أولياء ، ولتولى بعضهم بعضا ، كما قال « المؤمنون بعضهم أولياء بعض » « والذين كفروا

---

(١) التعليقات على الفصوص ص ٩٣ .

(٢) الفتوحات المكية جـ٢ ص ٣٢٦ ، ٣٢٧ .

(٣) نفس المصدر ص ٣٢٧ . (٤) نفس المصدر والصفحة .

بعضهم أولياء بعض» . « فجعل الولاية بينهم تدور » ، « فهذه هى ولاية الحق ، وأسرارها ، وهى الولاية العامة »[١] .

(ح) مناقشة هذا المفهوم عند الشيعة والصوفية :

هذه معان فى الولاية أصح ما نصفها به أنها ليست من الإسلام فى شيء وإنما هى « خليط من المذاهب الفلسفية التلفيقية »[٢] أقحمت على تلك الكلمة على يد الشيعة ، واستعملها صوفية المسلمين « فى المعنى الذى استعملها فيه صوفية غيرهم من أبناء الديانات الأخرى »[٣] . وهى محاولة دينية سياسية قصد بها هدم الإسلام من الداخل كدين ، وضربه من الخارج كدولة ، وإعادة الحياة الفارسية القديمة بما تشمل عليه من غنوص وديانات وثنية مختلفة[٤] . وقد وضح هذا فى دعوة (إخوان الصفاء) وتخطيطهم لإعادة تلك الحياة ؛

---

(١) الفتوحات المكية جـ ٢ ص ٣١٧ ، ٣٢٨ .

(٢) دراسات فى الفلسفة الإسلامية ص ١٢٩ .

(٣) التصوف الثورة الروحية فى الإسلام ص ٢٩٤ ويقول الدكتور أبو العلا فى ذلك : إن تلك الاعتقادات سابقة على التصوف فى البلاد الفارسية ، وفكرة الولاية بهذا المعنى أو ما يعادله كانت موجودة فى البلاد التى فتحها المسلمون ، وكانت منتشرة انتشار الإسلام نفسه ، فلما ظهرت حركة التصوف فى البلاد الإسلامية ، لم تخلق فكرة الولاية خلقاً ، وإنما شكلت أفكار كانت جزءاً من التراث الروحى لهذه البلاد بأن أبرزت فيها الجانب الصوفى من الحياة الدينية ، وينظر إلى جانب ذلك : (المدخل إلى التصوف الاسلامى) ص ١٠ ، ١٧ ، ١٨ ، ٧٠ ، ٧٣ ، ٧٥ ، ٧٦ ، س ٣ . وهناك يعترف مؤلف هذا الكتاب على نفسه دون أن يشعر بان التصوف وارد أجنبى رغم ادعائه بأنه فى بدئه نبت إسلامى .

(٤) دراسات فى الفلسفة الاسلامية ص ١٣٥ ، ١٢٩ .

فقد برز فيها الجانب السياسى بجوار الجانب الدينى التلفيقى[١] ، ودعوات الشيعة على العموم هى فى الواقع تخطيط سياسى ، وإن تقنعت بقناع الدين ، كما أن دعوات المتصوفة كلها من هذا القبيل ، وقد رأينا الحلاج والسهروردى الحلبي ، قد ذهبا ضحية هذا التطلع السياسى الباطنى ، وهذا هو السبب فى أن شخصيات أولياء المتصوفة قد نحتت على غرار شخصيات أولياء الشيعة أو أئمتهم[٢] . وليس التصوف بناء على هذا إلا ضرب من التشيع الباطنى[٣] .

---

(١) أما عن الجانب السياسى فيظهر فى مثل قولهم فى مخاطبة المتشيعين : « ومما يجمعنا وإياك أيها الأخ البار الرحيم محبة نبينا عليه السلام وأهل بيته الطاهرين وولاية أمير المؤمنين على بن أبى طالب خير الوصيين صلوات الله عليهم أجمعين » ص ٢٤٢ ج ٤ ونلاحظ أن الشيعة على العموم يقصدون بآل البيت أولاد على من فاطمة فقط مع أن المقصود بها فى القرآن أولا وقبل كل شىء نساء النبى ﷺ كما نلاحظ نصهم على الوصاية فى هذه العبارة والدعاء للأوصياء بالصلاة مع أنهم دعوا للرسول ﷺ بالسلام فقط . وفى موضع آخر يقول لأحد الاخوان : « اعلم أيها الأخ أن لنا إخواناً من كرام الناس متفرقين فى البلاد فمنهم طائفة من أولاد الملوك والأمراء والوزراء والعمال والكتاب والأشراف ، وقد اخترناك أيها الأخ الرحيم لمعاونتهم لتكون مساعداً لهم ، فاذكر لهم ما ألقيناه إليك من حكمتنا وأسرار علمنا لتنبههم من نوم الغفلة ورقدة الجهالة فإن الله تعالى يؤيدك بنصره كما وعد أولياءه فقال عز من قائل « ولينصرن الله من ينصره » وقال تعالى « فإن حزب الله هم الغالبون » . الرسائل ج ٤ ص ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٧ ، ج ٣ ص ١٧٧ . أما الجانب التلفيقى ، فالمعروف عن مبادئهم ومذاهبهم أنها علوية ، وباطنية ، وفيثاغورية ، وأفلاطونية ومجوسية الخ ماهنالك من ديانات وثنية مقنعة فى بعض الأحيان بقناع إسلامى وهذا ظاهر فى ثنايا رسائلهم كلها . ينظر مثلا ج ٤ ص ٨٥ ، ٨٦ ، ج ١ ص ٢٤٨ — ٢٥١ ، ١١٩ ، إخوان الصفاء للدكتور جبور عبد النور ص ٢٦ — ٣٤ .

(٢) الصلة بين التصوف والتشيع ج ٢ ص ٦٩ .

(٣) نفس المصدر ص ٥٦ — ٦٠ .

وأمام هذه المعانى وذلك الاختصاص المدعى من جانب الشيعة والمتصوفة ، لا يسعنا إلا أن نضعهم امام المفهوم القرآنى لكلمة (ولى) وأمام روح الإسلام العامة إن كانوا مسلمين ، فضلا عن أن على بن أبى طالب (رضى الله عنه) الذى انتسب إليه كلا الفريقين قد تبرأ منهم هو وأولاده ومما قالوه فيهم . فقد روى البخارى (رضى الله عنه) عن أبى جحيفة (رضى الله عنه) قال : قلت لعلى (رضى الله عنه) هل عندكم شىء من الوحى إلا ما فى كتاب الله ؟ قال : والذى فلق الحبة ، وبرأ النسمة ، ما أعلمه إلا فهما يعطيه الله رجلا فى القرآن ، وما فى هذه الصحيفة ، قلت : وما فى الصحيفة ؟ قال : العقل ، وفكاك الأسير ، وأن لا يقتل مسلم بكافر[١] . وتبرأ الأئمة من أولاده ، من الغلاة ومما قالوه فيهم . فقد قال الإمام جعفر الصادق هؤلاء الغلاة : « لاتقاعدوهم، ولا تؤاكلوهم ، ولا تشاربوهم، ولا تصافحوهم، ولا تناكحوهم ولا توارثوهم »[٢] . ولعله يرمى بذلك — مخلصا — إلى أنهم خرجوا من الدين ، فإن « من يجعل صفة الإمام صفة النبي يصح له أن يوجب فى الإمام ما يجب للنبي ، كما أن من جعل صفة الإمام صفة الإله يصح أن يوجب فيه ما يجب لله تعالى »[٣] . ويرى القاضى عبد الجبار أنهم بهذا الغلو قد «شاركوا النصارى فى لفظ الاتحاد وفى عللهم وطريقتهم » ولا عجب ؛ « فالأصل فيهم الإلحاد لكنهم يستترون بهذه المذاهب » التى يقولونها فى الأئمة[٤] .

---

(١) صحيح البخارى ج٤ ص٨٤ باب فضل الجهاد ، نقض المنطق ص٦٥ ، ٦٦

(٢) الصلة بين التصوف والتشيع ج١ ص ١٩٤ عن (معرفة أخبار الرجال ص ١٩١) قارن قطر الولى فى (مبدأ الباطنية وكيف قاموا) ونقض المنطق لابن تيمية ص ٦٥ ، ٦٦ .

(٣) المغنى للقاضى عبد الجبار ج ٢٠ ص ١٢ .

(٤) نفس المصدر ص ١٣ .

١ — رد فكرة الوصاية :

وفكرة الوصاية التى اعتمدوا عليها فى إثبات الإمامة بالنص لعلى (رضى الله عنه) ولأولاده من بعده ثم الولاية بناء على تلك الإمامة المرفوضة من أساسها [(١)]. ويدلل القاضى عبد الجبار على نفى هذا النص ، بطريقة الغلاة أنفسهم فى ادعاء هذا النص ؛ فهم يقولون . إنه ثبت عند طوائفهم خاصة دون بقية المسلمين ، فيقول لهم : إنه لو كان ذلك كذلك لكان من الممكن أن يقال فى العباس عم الرسول (صلى الله عليه وسلم) مثلا : ما قيل فى على ابن عمه ، ويختص بمعرفته قوم دون قوم ، ثم كان من الممكن أيضا أن ينقطع هذا النقل عن المسلمين جميعهم « لأنه إن جاز انقطاع النقل فيما يعم تكليفه عن بعض دون بعض جاز انقطاعه عن جميع المكلفين ، فذلك أن

(١) ينظر منهاج السنة النبوية جـ ١ ص ١٣٤ — ١٤١ ، و (العقد الثمين فى إثبات وصاية أمير المؤمنين) : (على بن أبى طالب) فستجد أن كل ما أمكن أن نصل إليه مع الامام الشوكانى فى بحث هذه الفكرة إنما هو إثبات وصاية عامة فى أمور عامة ليس للخلافة فيها تصريح ولا تلميح . وينظر الجزء الرابع كله من منهاج السنة النبوية فهو بمثابة إثبات إمامة أبى بكر ، ورد على من يقدم عليا على أبى بكر فى أى شىء . وكذلك شطر من الجزء الثالث يدور حول هذا الموضوع ، وأن أمير المؤمنين عليًا ليس له فضل على أبى بكر وعمر . ومن ذلك رده لاستدلال الرافضة أو الامامية كما يدعو بقوله ﷺ لعلى رضى الله عنه: « أنت منى وأنا منك » أو « أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى ؟ » حين خلفه على المدينة فى إحدى الغزوات ، بأن مثل هذا الحديث الثانى بمثابة تطييب الخاطر وكأنه يقول له : إنه وإن كان قد تركه فى المدينة ولم يخرجه معه للغزو فليس هذا امتهانا ، وإنما هو تكريم ، وأن الحديث الأول لم يقله ﷺ لعلى فقط ، وإنما قاله فى مناسبات عديدة لكثير غيره من الصحابة و بعض القبائل ، فليس من خصائصه رضى الله عنه ، بل قد شاركه فيه غيره ممن هو دون الخلفاء الثلاثة ، وإذا كان كذلك لم يكن دالا على الأفضلية ولا على الامامة ص٧ ، ٨ .

ما أوجب إزاحة العلة فى كلهم يوجب إزاحة العلة فى بعضهم »[١] .

« ثم إن ما جرت عليه أحوال الصحابة يمنع من ادعاء هذا النص فى الأصل » ومن الضرورى أن يكون معلوما لجميعهم ، ولو كان الأمر كذلك لرأينا تطورات الإمامة على غير الذى حدث ، لأنه يجب « أن يكونوا مضطرين إلى معرفة إمامة أمير المؤمنين كاضطرارهم إلى أن صلاة الظهر واجبة وصوم رمضان واجب الخ » ولو كان كذلك لم يعقل أن تسير ظروف الإمامة على ما صارت عليه ، ولما صح ما قد ثبت عنهم من مواقف الإمامة والمنازعة . إلى غير ذلك .. ولا يمكن بعد ذلك إلا نسبة جميعهم إلى الارتداد والنفاق »[٢] وهذا عين المحال .

٢ — رد فكرة العصمة :

أما من ناحية العصمة ، فقد رأينا أنها صفة غلو ، وإخراج للولى والإمام عن وضعه الطبيعى الذى حدده له الدين ، فليست العصمة لازمة لغير الأنبياء ، لا من جهة كونهم أولياء ، ولا من جهة كونهم أئمة .

أما من حيث أنهم أولياء ، فقد تقدم لنا أن عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) مع كونه مشهوداً له بأنه من المحدثين بالنص النبوى[٣] ، كان يشاور الصحابة

(١) المغنى ج ٢٠ ص ١١٩ .
(٢) نفس المصدر والصفحة .
(٣) وهو قول الرسول ﷺ : « إن فى هذه الأمة محدثين وإن منهم عمر » وقد جاء هذا الحديث فى الصحيحين . والمحدث كما يقول الشوكانى . « الصادق الظن المصيب الفراسة » وقد جاء فى الحديث عنه صلى الله عليه وسلم : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه يرى بنور الله » ينظر قطر الولى فى (الواجب على الولى فيما يصدر من أعمال) ، و (العصمة والقرب التى فى هذا الحديث) .

(رضى الله عنهم) ويشاورونه ، ويراجعهم ويراجعونه ، وعرفنا أنه رجع إلى رأى إحدى النساء حين اعترضت عليه فى تحديده مهور النساء . وفى عصر الرسول صلى الله عليه وسلم كانت تقع له وقائع يردها عليه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) هو وصديقه أبو بكر (رضى الله عنه)[١] ، يقول الإمام الشوكانى : « واعلم أن أولياء الله غير الأنبياء ليسوا بمعصومين ، بل يجوز عليهم ما يجوز على سائر عباد الله المؤمنين »[٢] ويرى أن انتفاء هذه العصمة فى حقهم لا يؤثر فى ولايتهم ، وإذا وقع منهم ما يخالف الصواب ، فلا يخرجهم ذلك عن كونهم أولياء لله ، وإن كان قليلا ما يقع منهم ذلك[٣] .

بل إن هذه المخالفات قد تكون سبباً فى رفع الدرجات وكثرة الحسنات إذا أعقبتها التوبة حتى ولو كانت تلك المخالفات كفراً ، فإن داود عليه السلام كانت حاله عند الله بعد التوبة خيراً منها قبل ارتكاب الذنب[٤] . والله سبحانه وتعالى قد وصف أولياءه فى القرآن الكريم بأنهم « الذين آمنوا

---

(١) ينظر مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية ص ٤٣ .

(٢) قطر الولى فى (الأولياء غير الأنبياء : ليسوا بمعصومين) ، ويقول فى مكان آخر : « ... وأن من حاول منهم (من غير الأنبياء) أن لا يقع منه ذنب ألبتة فقد حاول ما لا يكون ، لأن العصمة لا تكون إلا للأنبياء ، فلو راموا أنهم لا يذنبون أصلا ، راموا ما ليس لهم » . نثر الجوهر على حديث أبى ذر . (مصور بدار الكتب المصرية) ص ٣٠ . وذلك فى تفسيره لقوله تعالى فى هذا الحديث القدسى : « ياعبادى : إنكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعاً ، فاستغفرونى أغفر لكم » .

(٣) قطر الولى فى (الأولياء غير الأنبياء ليسوا بمعصومين) .

(٤) منهاج السنة النبوية جـ ١ ص ١٣٠ وقد قال تعالى فى ذلك : « فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب » سورة (ص) آية ٢٥ . وهناك فى آية أخرى : « إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » فإن العبد يصل بعد التوبة

وكانوا يتقون »[١] بعد أن وعدهم فى صدر الآية بأنهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . وهذه التقوى لم ينفها عنهم فى آية أخرى لأنهم عملوا بعض السيئات، بل وصف عملهم بأن فيه سيء وأسوأ ، ومع ذلك جمع لهم التقوى مع هذا العمل ، وذلك فى قوله تعالى « والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين ، ليكفر الله عنهم أسوأ الذى عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذى كانوا يعملون »[٢] . ونلاحظ أنه وصفهم بالتقوى بطريق القصر (هم المتقون) ، كما أنه جعل لهم ما يشاءون اووصفهم بأنهم محسنون ، كما أنه سيجزيهم أجرهم على أحسن ما عملوا ، فى مقابل توبتهم عن أسوأ ما عملوا الخ[٣] .

وبهذه النظرة إلى الأولياء على أنهم بشر ، نظر الله سبحانه وتعالى إلى أنبيائه أيضاً على أنهم بشر ، فلم يعصمهم إلا من كبائر الذنوب ومن الخطأ فى تلقى أو أداء ما يبلغونه عنه من الشريعة إلى العباد ، أما بالنسبة للصغائر التى لا تتصل بالأخلاق ، وفى بقية حياتهم العملية اليومية التى هى عن اجتهاد منهم ، فهم معرضون للأخطاء ، ولكن لا يقرون على هذه الأخطاء فيتوبون من قريب بعد أن ينبههم الله ، أو بعد ما يتبين لهم أنهم فعلوا خلاف الأولى[٤] .

إلى مقام الحب الذى يشير إليه الحديث : « وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الخ . . » ، قارن (نثر الجوهر على حديث أبى ذر) للشوكانى ص ٣٠ — ٣٥ .

(١) فى الآية التى تقول : « ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون » .

(٢) مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية جـ ١ ص ٤٣ ، ٤٤ .

(٣) منهاج السنة جـ ١ ص ١٣٠ .

(٤) فى صحيح البخارى : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لله أفرح

وهذه فضيلة منحهم الله إياها وليست نقيصة فلو كان النبي لا يخطىء ولا يتوب إلى الله تعالى فينال محبة الله وفرحه بتوبته ، وترتفع درجته بذلك ، ويكون بعد التوبة التي يحبها الله منه خيراً مما كان قبلها ، لـكان « في هذا غض من مناصب الأنبياء وسلبهم هذه الدرجة ومنع إحسان الله إليهم وتفضله عليهم بالرحمة والمغفرة »(١) .

وإذا كان هذا في جانب الأنبياء فلا وجه لمن تمسك بها في جانب الأولياء ، كما أنه لا وجه لمن تمسك بها للأولياء اعتماداً على ما جاء في الحديث: « فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به .. الخ » « فإن العصمة بهذا المعنى خص الله سبحانه بها رسله وملائكته » وهو مقام النبوة لا مقام الولاية ، وإنما المراد بهذا الجزء من الحديث أن من وصل إلى مقام محبة الله بأداء الفرائض والإكثار من النوافل ، كان موفقاً في معظم أحواله ، لا أنه صار معصوماً من الخطأ أو أنه صار في درجة الإخذ عن الله مباشرة(٢) .

بتوبة عبده من رجل نزل منزلا وبه مهلكة ومعه راحلته عليها طعامه وشرابه فوضع رأسه فنام نومة ، فاستيقظ وقد ذهبت راحلته حتى اشتد عليه الحر والعطش أو ما شاء الله ، قال : أرجع إلى مكاني فرجع فنام نومة ، ثم رفع رأسه فإذا راحلته عنده » باب التوبة . كتاب الدعوات . والرسول صلى الله عليه وسلم يقول عن نفسه : « والله إني لأستغفر الله وأتوب في اليوم أكثر من سبعين مرة » . باب استغفار النبي صلى الله عليه وسلم في اليوم والليلة . كتاب الدعوات . فهذا الاستغفار من النبي صلى الله عليه وسلم مشعر بأنه صلى الله عليه وسلم معرض للخطأ ولو في الصغائر التي لا تتصل بالأخلاقيات أما ما يتصل بالأخلاقيات والمعاملات الشخصية فالرسل منزهون عن الصغائر التي من هذا النوع .

(١) منهاج السنة النبوية جـ ١ ص ٢٢٦ .

(٢) قطر الولي في (العصمة والقرب التي في هذا الحديث ، وينظر أيضاً نفس المصدر في (المراد من أن الله سمع العبد وبصره) .

وأما انتفاء العصمة بالنسبة للأئمة فيقول الإمام الشوكاني في ذلك : « عصمة علي وحجية قوله ذهب إلى القول بهما جماعة من أهل البيت ، وذهب جماعة منهم وسائر المسلمين أجمعين ، إلى أن المعصوم إنما هو رسول الله على الخصوص ، والحجة إنما هي ماجاء عن الله وعنه »[١] . وقد أورد بعض الأحاديث التي استدل بها القائلون بعصمة (علي) (رضي الله عنه) مثل حديث : « علي مع القرآن والقرآن مع علي ولن يفترقا حتى يردا على الحوض » وبين أن الجمهور أجاب عنها بأجوبة مختلفة ، منها القدح في أسانيدها ، ومنها أنها لا تدل على عصمة (علي) (رضي الله عنه) ولا على حجية قوله ، وإلا لثبتت العصمة وحجية القول لجماعة من الصحابة، ورد فيهم مايدل على نحو مادلت عليه هذه الأحاديث كما ورد في حق ابن مسعود أن النبي ﷺ قال : « رضيت لأمتي مارضي لها ابن أم عبد». وماورد في أبي عبيدة عامر بن الجراح «أنه أمين هذه الأمة»[٢]. ثم رد قول القائلين « بعصمة (علي رضي الله عنه) ، وبين أنه إذا كانت قد وردت فيهم أحاديث بأنهم من أهل الجنة، فإنه لا تلازم بين دخول الجنة والعصمة، وإلا أثبتنا العصمة للعشرة المبشرين ، وكل أفراد الصحابة الذين وردت فيهم أحاديث تدل على أنهم من أهل الجنة ، كأصحاب بدر وأهل بيعة الرضوان ، وغيرهم من الأفراد[٣] .

ثم يبين ابن تيمية أن هذه دعوى من الرافضة ومن تقرب إليهم من المصنفين الغلاة ، لما وراءها من إخراج الناس من دين الإسلام إلى الدين الذي

---

(١) عقود الزبرجد في جيد مسائل علامة ضمد . مخطوط بمكتبة صنعاء وتحت يدي نسخة منه ص ٥١ ضمن أجوبة مفيدة لشيخ الإسلام القاضي محمد ابن علي الشوكاني .

(٢) نفس المصدر ص ٥٢ .

(٣) نفس المصدر ص ٥٣ .

تفرضه أهواؤهم مضيفونه إلى الأئمة ، وقد اختص بها من بين الشيعة الرافضة الإمامية ثم الاثنى عشرية ومن هم شر منهم ، وهم الإسماعيلية الذين يقولون بعصمة بنى عبيد المنتسبين زورا وبهتانا إلى محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق ، وهم أمن هم فى الإلحاد والنفاق(١) . ثم إن هذه دعوى من غير دليل فليس لهم حجة إلا ما يدعونه من أنه يجب على الله أن يجعل للناس إماماً معصوماً ، ليكون لطفاً ومصلحة فى التكليف ، وهذا فاسد من وجوه ، أدناها أن هذا الإمام مفقود لا موجود ، فإنه لم يوجد إمام معصوم حصل به لطف ولا مصلحة ، ولو لم يكن فى الدليل على انتفاء ذلك إلا المنتظر الذى قد علم بصريح العقل أنه لم ينتفع به أحد لكان هذا دليلا على بطلان قولهم ، فكيف مع كثرة الدلائل على ذلك »(٢) .

هذا إلى أن هذا الإمام المنتظر أو المهدى أسطورة أو حديث خرافة ، فإن أهل العلم بأنساب أهل البيت يقولون : إن الحسن بن على العسكرى لم يكن له نسل ولا عقب . « ولا ريب أن العقلاء كلهم يعدون مثل هذا القول من أسفه السفه » فإن هؤلاء الجهال يدعون أن هذا المنتظر « المسمى باسم محمد ابن الحسن » كان عمره عند موت أبيه ، إما سنتين ، أو ثلاثا أو خمسا على اختلاف بينهم وهذا يجب دينا وعقلا أن يكون تحت وصاية غيره ، فكيف يكون إماما ومعصوماً من الخطأ ؟(٣) .

فإذا تبين لنا أن أبا الأئمة وإمام الأولياء وهو (على) رضى الله عنه هو

---

(١) منهاج السنة النبوية ج ١ ص ٢٢٨ ، ٢٢٩ .

(٢) نفس المصدر ج ٢ ص ١٣٤ .

(٣) رأس الحسين من ص ٥ — ٧ .

وولداه الحسن والحسين ، لم تثبت لهم العصمة ، أو لم يضفها إليهم نص قرآنى أو حديث نبوى ، فبأن لا تثبت لبقية الأئمة بعدهم أولى .

ثم إن هذا اللطف الذى يحتجون به ، قد جاء وسبق فى القرآن الكريم وفى الحديث الشريف ؛ ولم يصبح الناس فى حاجة إلا إلى حاكم ؛ أو خليفة ، يختارونه من بينهم على صفة ينهض معها بالأمر ويكون فى وضع المستشهد دائما[١] .

ويتقدم القاضى عبد الجبار لإبطال هذه العصمة من طريق استدلالهم عليها بالمعجزة أو الخارق وكونه من شروط الإمام ودليل عصمته من الخطأ ، فيبين أنهم يوجبون ظهور المعجز « لأجل العصمة ، ثم يوجبون العصمة لأجل المعجز ، وهذا تناقض ويوجب ألا يعرف واحد منهما »[٢] . وبعد هذا فالفائدة فى ظهور المعجزة على الإمام وإثبات عصمته عن الخطأ ، « قيام الحجة به على من يلزمه الانقياد له . فقد كان يجب أن يكون الخوارج وسائر من خالف علياً أمير المؤمنين (من أتباعه) يعرفون ظهور المعجز عليه ، ولو كان قد ظهر لهم ذلك ما خرجوا عليه ، ولكان الأولى فيما يورده من الحجاج عليهم ذكر ذلك ليبين عصمته وزوال الخطأ عن تدبيره ورأيه » . ولكنه لم يذكر معجزة ولا دليلا خارقا على رأيه[٣] . ولا عجب ففكرة العصمة هذه لم يكن يعرفها ، ولم تكن قد عرفت من قبل لا بالنسبة للأنبياء ولا بالنسبة للأئمة ولا للأولياء ، فلم تتطرق إليها الأسفار الدينية المسيحية ولا اليهودية ، ولا القرآن نفسه ولا حديث الرسول (صلى الله عليه وسلم[٤]) ، وإنما كان

---

(١) ينظر المغنى جـ ٢ (الكلام فى الإمامة) ص ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ .

(٢) المصدر المتقدم ص ٢٤٩ .

(٣) المصدر المتقدم ص ٢٥٥ ، ٢٥٦ .

(٤) الصلة بين التصوف والتشيع جـ ١ ص ١٤٩ ، جـ ٢ ص ٦٢ .

يكرر دائما : « إنما أنا بشر بشر مثلكم يوحى إلى » وأنه دائم الاستغفار والتوبة إلى الله الخ : وإنما هى فكرة شيعية أصيلة ثم أخذت طريقها إلى محيط المتصوفة . وإذا كان المسلمون من أهل السنة وغيرهم قد تكلموا فيها بعد ذلك بالنسبة للأنبياء ، ونفوها عن غيرهم ، فإنما ذلك مجاراة أو رد فعل لهذا الاتجاه الالحادى السائد ، وإعطاء كل ذى حق حقه .

وحينئذ فلم يعد لإلباسهم كلمة « ولى » تلك المعانى التى تقدمت وحصرهم لها فى دائرة محدودة أساس تعتمد عليه ، وأنه ليس لأولياء الله حقيقة شىء يتميزون به عن الناس لا فى لسب ولا فى مظهر ، ولا فى طريقة تند عن طريق الكتاب والسنة » ، فلا يتميزون بلباس دون لباس كما قيل : « كم من صديق فى قباء ، وكم من زنديق فى عباء » . بل يوجدون فى جميع أصناف أمة محمد (صلى الله عليه وسلم) إذا لم يكونوا من أهل البدع الظاهرة والفجور ، فيوجدون فى أهل القرآن والعلم ، وفى أهل الجهاد والسيف ، وفى التجار والصناع والزراع إلخ »[1] فهم بإيمانهم وبأعمالهم موجودون فى أى مكان وفى أية طائفة من أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

٣ — ماذا وراء الاتفاق بين هاتين الطائفتين ؟

بقى علينا أن نبين سبب ذاك الاتفاق بين الغلاة من الشيعة وأصحاب التصوف الفلسفى . ذلك أن هدف هاتين الدعوتين — (الشيعة الغالية والصوفية) — واحد وهو تقويض دعائم الإسلام تأثراً بالغنوصية الفارسية ، وإحالته إلى خليط عجيب من الفلسفة والوثنية والدين ، وذلك تحقيقاً لآمال الفرس الناقمين وغيرهم من أصحاب المبادىء الشعوبية[2] ، وجعلوا محور

(١) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان لابن تيمية ص ٢٣ ، ٢٤ .

(٢) قطر الولى فى (مبدأ الباطنية وكيف قاموا) . ويقارن بذلك رسائل إخوان الصفا جـ ٤ ص ٢٤ ، ١٢٤ ، ٢١٥ ، ٢٣٥ ، ٢٣٧ ، جـ ٣ ص ١٧٧ .

حركتهم هـــذه عليا وبنيه » وأظهروا محبتهم وموالاتهم كذبا وافتراء ، ثم كذبوا على أكابرهم الجامعين بين العلم والدين المشهورين بالصلاح والرشد »[١].

ووصلوا بهم وبأنفسهم إلى ما رأينا من مرتبة النبوة ثم مرتبة الإلهية « وارتفع المتصوفة بأنفسهم بالمجاهدة وأحيانا بالعلم السرى إلى نفس المقام »[٢]، ومن هذا نرى أن الغلو الشيعى والتصوف الفلسفى هدفا مشتركا : « هو أن يكون للإنسان موضع قدم فى الإلهية ، وتصريف شئون الدين والدنيا بقدرة غيبية » . ليصلوا من وراء ذلك إلى غايتهم السياسية والاجتماعية والتفاف العامة حولهم وإيمان أكبر جزء بهم . وفى هذا كما قدمت ، هدم للنبوات والرسالات من طريق خفى[٣] ، فضلا عن الهبوط بمستوى كلمة (ولى) عما أراد لها القرآن الكريم ، مما دعا إلى استخفاف الناس بها ، وصارت من أهون المراتب أمامهم وأسهلها فى الوصول إليها فى نظرهم وفى نظر العامة أرخص ثمن وأتفهه لجلب نفع خاص حقير أو جليل .

وأخيراً لعل سمو هذه الكلمة (كلمة ولى) بما تحمل من نهاية الحب والقرب والنصرة فى العرف السنى وإطلاق الله سبحانه وتعالى لها على الصحابة فى موقفهم من رسول الله ، وشيوع هذا الإطلاق فى القرآن الكريم وحديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) مع ثناء الله سبحانه وتعالى على الصحابة بما لاثناء بعده[٤] ، هو الذى دفع الغلاة من الشيعة إلى إطلاقها على أئمتهم بهذه

---

(١) قطر الولى فى (العنوان المتقدم) .

(٢) corrhin . Henbui) : Histoire de la philosopbhie islanidue Gallimard. 1964.

(٣) الصلة بين التصوف والتشيع ج ١ ص ١٣٣ .

(٤) وذلك مثل قوله تعالى : « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجرى من تحتها =

المعانى المتقدمة ، ليرفعوهم فى نظر أتباعهم إلى تلك الدرجة والدنيا ، وذلك أمر قاهر فهموه من حديث الرسول ﷺ : « من كنت مولاه فعلى مولاه »(١) . وإلى جانب ذلك ، فهم يرون فى (الولاية) ، سلطة عامة على الناس أجمعين يتولون بها شئونهم فى الدين ، ثم جاء المتصوفة من بعدهم ، فوجدوا أيضا تلك الكلمة أقوى فى دلالتها فى إطلاقها على الممتازين منهم ، خاصة وأنهم مختلفون فى أصل كلمة صرفى وفى معناها أيضاً ، وكثير منهم قد خرج باشتقاقها عن أصله مخالفين بذلك القاعدة فى الاشتقاق(٢) . وبذلك صارت كلمة « ولى » علماً على الإمام فى التصوف مثلاً صارت علما على الإمام فى التشيع ، واقتصر مفهومها على هذا عند هاتين الطائفتين .

= الأنهار » سورة التوبة آية ١٠٠ . ينظر أيضا سورة الحشر آيتى : ٩، ٨ وسورة الطلاق آية ٤ .

(١) تاريخ الفلسفة الإسلامية (لكوربان) مقدمة الإمام (موسى الصدر) .

(٢) دراسات فى الفلسفة الإسلامية ص ١٢٧ . قارن : الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص ٢٤ ، ورسالة الصوفية والفقراء ص ٣ ، واللمع للسراج ص ٤٠ ، ٤١ ، والمدخل إلى التصوف الإسلامى ص ٦٩ .

الفصل الثانى

شخصيات الأولياء وأصنافهم

بعد أن عرفنا مفهوم الولى فى القرآن الكريم ، وبعد أن تكلمنا على هذا التحديد التعسفى للولاية لدى الشيعة والمتصوفة ، فمن واجبنا أن نورد نماذج للأولياء ممن ينطبق عليهم وصف القرآن الكريم والحديث الشريف ، لكى يتسنى لنا أن نميز شخصية الولى حقيقة من شخصية الولى المدعى ، ونكون بهذا قد أجبنا — عملياً — عن سؤالنا : (من هو الولى) .

وشخصية الولى فى الإسلام كما يرى الإمام الشوكانى : هى شخصية إيجابية عمليه ، تدور مع الحياة حيث تكون ، وتترسم خطى الدين فى كل ما أمر أو نهى أو رغب أو خوف . بل إن صاحبها ليتسامى فوق الالتزام بالمأمورات والمنهيات إلى الالتزام بالمندوبات والمحبوبات[1] لا يحب إلا لله ولا يبغض إلا لله[2] فهى شخصية عامة غير مقتصرة على فئة معينة من الناس ، لا تنطوى

---

(١) ويصفه فيقول : « ومن أعظم ما يتبين به من هو من أولياء الله سبحانه أن يكون مجاب الدعوة ، راضيا عن الله عز وجل فى كل حال ، قائماً بفرائض الله سبحانه تاركاً لمناهيه ، زاهداً فيما يتكالب عليه الناس من طلب العلو فى الدنيا والحرص على رياستها غير معجب بما من الله عليه من خصال الولاية حسن الأخلاق كريم الصحبة إذا زاده الله رفعة زاد فى نفسه تواضعاً وخضوعا ، عظيم الحلم كثير الاحتمال . وبالجملة أعظم اشتغاله بما رغب الله فيه وندب عباده إليه .

قطر الولى فى (شخصية الولى) ، (وتواضع الولى وحقيقته) .

(٢) قطر الولى فى (المعاداة من الولى كما يمكن أن تتصور) .

تحت لواء الصوفية ، ولا تحت لواء الشيعة ، وإنما تحددها هذه الصفات المتقدمة في أى طائفة أو في أى طبقة .

ويذهب ابن تيمية إلى هـذا المبدأ ، غير التحديدى لشخص الولى ، فيراه عاماً فى أى طائفة أو جلس ، تحدده مثل الصفات المتقدمة ؛ بل قد يكون مجهولا لا يفطن إليه إلا من هو مثله ، ومن يزن الناس بأعمالهم ، لا بأشكالهم وأنسابهم ، كما يقول الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » وكما تقول الحكمة المأثورة : « كم من صديق فى قباء ، وكم من زنديق فى عباء » . فأولياء الله هم الذين آمنوا وكانوا يتقون كما تقول الآية القرآنية[1] .

ونلاحظ أن القرآن والسنة ينظران فى الأولياء إلى معان سامية ، وأكثر ما تكون عملية اجتماعية إيجابية بالنسبة إلى الآخرين ، وهى التى كانت لهم طريقاً إلى الله تعالى وولايتهم له . فقد أخبر القرآن الكريم بأن أولياء الله هم الذين آمنوا وكانوا يتقون . وبين المتقين فى قوله : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب . ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ، ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون »[2] . وبينت السنة أن الطريق إلى

---

(١) ينظر سورة يونس آية : ٦٢ ، ٦٣ ، « ورسالة الصوفية والفقراء » ص ٢٥ ، ٢٦ وينظر أيضا ص ١١٥ و ١١٦ من هذه الدراسة .

(٢) سورة البقرة آية : ١٧٧ .

الولاية ، هو أداء الفرائض والتقرب بالنوافل[1] ، والفرائض تشمل كل الفرائض والواجبات المطلوبة من الإنسان ، والنوافل تشمل كل الأعمال الصالحة التي رغب فيها الشرع فمن أجل هذه المعاني العملية التي في تلك الأعمال ، أطلقت كلمة « ولي » على الصحابة رضي الله عنهم ، ووضعت علما على كل من سار في هذا الاتجاه . وهو كل مسلم ، لأن المسلم أصبح بإسلامه وليا لله ومحباً له عكس الكافر الذي لم يؤمن فإنه أصبح عدواً لله .

وإذن فليس في الإسلام تحديد للولاية بالنسبة إلى شخص أو نسب أو طائفة . اللهم إلا ما نص عليه بطريق القرآن ، كما في جانب الصحابة رضي الله عنهم ، أو بالسنة كما في العشرة المبشرين بالجنة[2] . ومن انطبقت عليه هذه الصفات التي تقدمت ، بعد هؤلاء العشرة فهو « ولي » لله بينه وبين الله ، ولا يجوز له أن يطلقها على نفسه ، ومن الأكمل لمن حوله ألا يشهروه بهذا اللقب ، لأن هذا سر بين الله والإنسان[3] .

ومع عموم معنى الولاية فلا سبيل إلى حصر أصناف الأولياء ، وإن كان من الممكن الإشارة إلى بعض الأصناف كأدلة عملية لذلك المعنى . فأول هذه الأصناف : الملائكة . ثم الرسل ، ثم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام :

---

(١) كما يقول الحديث الذي معناه « وما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إلى مما افترضت عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه . » ينظر عقيدة أهل السنة والفرقة الناجية لابن تيمية ص ٥٤ ، ٥٥ .

(٢) مجموعة الرسائل ج ١ ص ٤٣ : وهم أبو بكر ، عمر ، عثمان ، علي ، طلحة ، الزبير بن العوام ، عبد الرحمن بن عوف ، أبو عبيدة عامر بن الجراح ، سعد بن أبي وقاص ، سعيد بن زيد .

(٣) ينظر قطر الولي في (أفضل الأولياء) .

ثم يشير الإمام الشوكانى إلى أصناف أخرى ، وهم : صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم : ويبين أنهم الصنف الذى تتمثل فيه صفات الأولياء أتم تمثيل بعد الأنبياء ، وذلك لأن لهم النصيب الوافر من طاعة الله سبحانه ، ومن التقرب إليه بما يحبه ويرضاه ، ومن العمل بكتاب الله وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم . وقد جمعوا بين الجهاد بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم والعلم والعمل بما جاء به والوقوف معه فى السراء والضراء إلخ . ولهذا فهم خير العالم بأمره لا يفضلهم أحد إلا الأنبياء والملائكة ، فإذا لم يكونوا رأس الأولياء وصفوة الأتقياء ، فليس لله أولياء ولا أتقياء ، فقوله صلى الله عليه وسلم « من عادى ولياً » يصدق عليهم صدقا أوليا [١] . ومن يأتى بعدهم ممن يقال له : إنه من الأولياء فليس يصدق عليه هذا الإسم إلا إذا كان متبعا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى أقواله وأفعاله ، ومحصلا من الأعمال ما حصله أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم [٢] ، فى حياته وبعد موته [٣] .

وبهذا يتبين لنا أن لفظ الصحبة ، ليس له من لفظه المعنى اللفظى فقط ،

---

(١) قطر الولى فى (المكاشفات الصحيحة وأولياء المؤمنين) ، و (القدر ونفى احتجاج العصاة به) .

(٢) نفس المصدر فى (المكاشفات الصحيحة . الخ) .

(٣) وذلك مثل ما هو معروف من جهودهم فى نشر الإسلام فى أرجاء العالم ، وفى ذلك يقول الإمام الشوكانى : « قد أقاموا أعمدة الإسلام بسيوفهم ، وشادوا قصور الدين برماحهم ، واستباحوا الممالك الكسروية والقيصرية ، وأطفأوا الملة النصرانية والمجوسية ... وأوصلوا دين الإسلام إلى أطراف المعمورة من شرق الأرض وغربها ... ودان بدين الله سبحانه الأسود والأحمر والوثنى والملى » . قطر الولى فى (الصحابة ومركزهم من الولاية) .

وإنما يراد به كل ما أضافه لهم القرآن الكريم والحديث الشريف من جهود وما ثر خالدة فى سبيل نصرة دين الله سبحانه وتعالى[١] . فله من ظروفه مع الرسول صلى الله عليه وسلم ، وفى نشر رسالته السماوية ما يحقق فيه كل معانى الولاية . وحينئذ فليست الولاية هنا للصنف من باب أنه صنف ، وإنما من جهة العمل .

وولاية الصحابة بهذا المعنى أصل قد أجمع عليه جميع العلماء من المسلمين كما تقدم[٢] إلا من شذ منهم كالرافضة ، وأتباعهم من غلاة الشيعة والصوفية ومن نحا نحوهم[٣] ، ولذلك ثنى الإمام الشوكانى بعد ذكر المزايا للصحابة رضى الله عنهم بمهاجمة أعدائهم من الرافضة ومن نحا نحوهم ، وبين الأسباب التى حملتهم على ذم الصحابة رضى الله عنهم ، أو عدم تقديرهم حق قدرهم ، وهى أن هؤلاء ، ليسوا فى حقيقة أمرهم إلا بقايا من المجوس ومن طوائف الشرك والإلحاد ، فلما ظهرت عليهم الشريعة الإسلامية وقهرتهم الدولة الإيمانية ولم يجدوا سبيلا إلى مقاومتها بالسيف ولا بالجدال « ستروا ما هم فيه من الإلحاد والزندقة بحيلة تقبلها الأذهان فانتموا إلى أهل البيت المطهرين »[٤] .

---

(١) من ذلك قوله تعالى فى المهاجرين والأنصار : « والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله، والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا . لهم مغفرة ورزق كريم . والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم ، فأولئك منكم» سورة الأنفال ، آيتى : ٧٤ ، ٧٥ . إلى جانب ما تقدم فى تحقيق معنى كلمة (ولى) ينظر أيضا قطر الولى : فى (موقف أهل البيت من الصحابة) .

(٢) ينظر أيضاً : نقض المنطق ص ١٢٩ .

(٣) ينظر دراسات فى الفلسفة الإسلامية ص ١٢٩ ، ونقض المنطق ص ١٢٧ وما قبلها وما بعدها .

(٤) قطر الولى : (فى مبدأ الباطنية وكيف قاموا) .

ثم لما وجدوا أن الكتاب والسنة يصطدمان مع مبادئهم ، وقفوا منهما موقف العداء ومن حامليهما أيضاً ، فقدحوا فى السنة المطهرة ، « بعد قدحهم فى الصحابة رضى الله عنهم وجعلوا المتمسك بها من أعداء أهل البيت فأبطلوا السنة المطهرة ، وتمسكوا فى مقابلها بأكاذيب مفتراة »(١) ، وهذا هو باب الفتنة ، وطريق القضاء على الإسلام ، فإنهم إذا نجحوا فى التشكيك فى حملة هذا الدين والناشرين له من الصحابة رضى الله عنهم ، فقد نجحوا فى التشكيك فيه وتقويضه فى نفوس أهله .

ولا يفوتنا فى هذا الصدد أن ننوه بجهود ابن تيمية فى الدفاع عن الصحابة رضى الله عنهم وإثبات ولايتهم وأنهم خير القرون ، ودحض الاتهامات الباطلة التى يلصقها بهم هؤلاء الرافضة ، من الإمامية والإسماعيلية والقرامطة وغيرهم ، ومعظم كتبه (العديدة) تدور حول هذا الموضوع(٢) .

ويذكر (الشوكانى) أيضاً من الأولياء : العلماء العاملين : واعتبرهم مندرجين تحت كلمة (الولى) فى قول الله سبحانه : « من عادى لى وليا ، فقد آذنته بالحرب » أو « فقد بارزنى بالمحاربة »(٣) .

والعلماء العاملون عنده — كما يقتضيه قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « العلماء ورثة الأنبياء » وكما يقتضيه تكريم الله سبحانه وتعالى لهم فى قرنه شهاداتهم بشهادته فى قوله : « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا

---

(١) نفس المصدر .

(٢) نذكر منها : منهاج السنة النبوية فى نقد كلام الشيعة القدرية ، الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، بغية المرتاد فى الرد على القرامطة والباطنية . شرح العقيدة الأصفهانية . مجموعة الرسائل والمسائل . نقض المنطق .

(٣) ينظر قطر الولى : فى (نصيب العلماء العاملين من الولاية) .

العلم » ، هم الذين إذا فتح الله عليهم بالمعارف العلمية عملوا بها ، ونشروها بين الناس ، وأرشدوا عباده إلى ما شرعه لأمته ، ونبهوا الظالم إلى ظلمه ، والعاصى إلى عصيانه ، وعرفوا الأمة بحقوقها وواجباتها ، وأمروا بالمعروف وعملوه ، ونهوا عن المنكر وأمسكوا عنه ، وكانوا عند قوله صلى الله عليه وسلم . « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه » فضلا عن أن يروجوا له ، فهم بذلك أمناء الله حقا على شريعته وفى الدرجة الأولى من ولاية الله سبحانه[1] .

وهم عند الإمام الشوكانى أولياء أيضا ، لأنهم يوضحون للناس ما وقع من أهل الزيغ من تفسير كتاب الله « بأهويتهم وعلى ما هم فيه من البدعة » الذين حرفوا كلام الله ورسوله عن مواضعه ، وخالفوا بذلك تفسير رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفسير أصحابه ، والتابعين لهم ، « وما تقتضيه اللغة العربية التى نزل بها القرآن الكريم » « وردوه إلى ما قد دعوا إليه من الباطل المبين « فى الأئمة والولاية والنبوة » الذى يعود فى أصله إلى الإلحاد ونبذ الأديان[2] .

وهم أيضا أولياء لاتباعهم الكتاب والسنة والعمل بمقتضاهما ، فهم بذلك مجتهدون متبعون لما أنزل الله فى كتابه وفى سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فهم عاملون بقوله تعالى : « اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء ، قليلا ما تذكرون »[3] .

---

(١) قطر الولى : فى (العنوان المتقدم) .
(٢) نفس المصدر والعنوان — (حماية العلماء العاملين للأمة من التقليد) .
(٣) سورة الأعراف آية : ٣ ، ينظر قطر الولى : فى (الرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله فى مسائل الدين هو الطريقة العلمية) .

ويقابلهم فى ذلك المتمسكون بمحض الرأى النابذون لكتاب الله وسنة رسوله ، وكذلك المقلدون ، « فإن المستدل بمجرد محض الرأى لا يعلم بما أحله الله وحرمه »[١] ، لأنه اعتمد على رأيه وترك الكتاب والسنة ، وكذلك العالم المقلد ، يقر على نفسه أنه لا يعقل حجج الله ولا يفهم براهينه ولا يدرى بما شرعه الله لعباده فى كتابه وعلى لسان رسوله ، بل هو تابع لرأى من قلده مقر على نفسه ، بأنه لا يدرى هل الرأى الذى قلده فيه من الحق أو من الباطل[٢] » .

ويورد كدليل على ذم هذين الصنفين من العلماء قوله تعالى: (قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا ، قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون)[٣] .

---

(١) قطر الولى : فى حماية العلماء العاملين للأمة من التقليد) .

(٢) لأنه من المعروف أن التقليد هو أخذ قول الغير دون دليل أو برهان ، أو أخذ رأيه دون روايته . قطر الولى فى (الرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله فى مسائل الدين هو الطريقة العلمية) ، و (حقيقة المقلد والتقليد وحكمهما) .

(٣) سورة يونس آية : ٥٩ . ينظر : (حماية العلماء العاملين للأمة من التقليد) فى قطر الولى ، و (حقيقة المقلد والتقليد وحكمهما) ويذكر الإمام الشوكانى أن علماء المذاهب وفى مقدمتهم أصحاب المذاهب الأربعة ، بلغ من تمسكهم بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم واتباعهم للكتاب ، أن قدموا الحديث الضعيف على الرجوع إلى الرأى . كما أجمعوا أيضا على النهى عن تقليدهم والعمل مثل عملهم . وينظر فى بيان فساد التقليد ووجوب الاجتهاد واتباع الكتاب والسنة لا الرأى سواء أكان رأى الشخص نفسه أم رأى غيره : من (حماية العلماء العاملين للأمة من التقليد) إلى (سد باب الاجتهاد نسخ للشريعة) . وفى موقف الشوكانى من مقلدى عصره وجهاده لهم (جهاده للمقلدين) من قطر الولى . ثم رسالة للمؤلف خاصة بالاجتهاد والتقليد . بعنوان: (القول المفيد فى أدلة الاجتهاد والتقليد) . طبع مصطفى البابى الحلبى . القاهرة سنة ١٣٤٧ هـ .

فبقدر ولاية العلماء المجتهدين لله وقربهم منه بقدر بعد المتمسكين بمحض الرأى والمقلدين عن الله . وقد تقرب منزلة هذين الصنفين من العلماء ، من منزلة فلاسفة الباطنية وعلماء المتصوفة الغلاة فى بعدهم عن الكتاب والسنة ، وبالتالى بعدهم عن الله سبحانه وتعالى . فأساس الولاية الحقة ، هو السير على منهج القرآن والسنة والتجرد من الآراء الدخيلة المخربة للإسلام .

هذه هى شخصية الولى ، وهؤلاء هم النماذج للأولياء ولأصنافهم ، وكأنى بالإمام الشوكانى هو وأستاذه ابن تيمية ، وقد قصدا من هذا التمثيل بهذا النموذج الأخير من علماء أهل السنة العاملين[1] ، الرد على الفلاسفة وغلاة الشيعة والمتصوفة الذين رفعوا أنفسهم إلى مرتبة أعلى من مرتبة النبوة عندما خلعوا الولاية على أنفسهم ، ورأوا أن الولاية أسمى من النبوة ، وبنوا هذه الأفضلية على ما أضافوه لأنفسهم — زوراً وبهتاناً — من العلم الإلهى أو الباطنى الذى تعوضوا به عن الكتاب والسنة ، وسموه علم الأسرار والحقائق ، وادعوا أخذه عن أهل البيت[2] ، وادعوا كذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن يعرف ذلك ، أو كان يعرفه ولكن لم يبينه لأصحابه لأنه لا تطيقه عقولهم[3] .

ومع ذلك فإننا سنجد عند الشوكانى بعض رواسب التصوف أو مظاهره ، فقد رأيناه يهيم بعض الهيام معهم فى أودية الحب الإلهى الذى خرج به المتصوفة

---

(١) ينظر فيما يتعلق بابن تيمية ، نقض المنطق ص ٤٤ ، ٤٥ ، ٧١ - ٧٣ ، ثم من ص ١ — ٩٥ .

(٢) نفس المصدر ص ١٣٢ - ١٣٣ ، ص ٦٣ - ٧١ .

(٣) نفس المصدر ص ١٣٢ - ١٣٤ .

عن السمت القرآنى إلى المظهر البشرى[١] . وكذلك فإنه روى لبعضهم كرامات : منها أنه يورد لعبد الواحد بن زيد[٢] إحدى كراماته فيقول : « وأصاب عبد الواحد ابن زيد الفالج فسأل ربه أن يطلق أعضاءه وقت الوضوء ؛ فكان وقت الوضوء تطلق له أعضاؤه ، ثم تعود بعده »[٣] .

كذلك يورد كرامة للجنيد يرفعه بها إلى درجة الأولياء المذكورين فى الحديث موضع الدراسة ، فقد أتى بها كمثال على أن العبد إذا تقرب إلى الله سبحانه على الطريقة التى رسمها الحديث ، صار الله سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به وصارت له القدرة على الأخبار بالمغيبات[٤] .

---

(١) ومن قوله فى ذلك :

وكيف ترى ليلى بعين ترى بها	هواها وما طهرتها بالمدامع
وتلتذ منها بالحديث وقد جرى	حديث سواها فى خروت المسامع
أجلك ياليلى عن العين إنما	أراك بقلب خاشع لك خاضع

يوجه هذا الغزل للذات العلية ، أو يقيس الشعور نحو حب الله بالشعور نحو حب المخلوق ، وفى الوقت نفسه يرد بذلك على المنكرين للحب الإلهى أو درجة الحب الإلهى التى يصل إليها الإنسان ، وأن هؤلاء المنكرين إنما ينكرون شيئا هم فى شغل عن الوصول إليه ، ولذلك لم يعملوا من أجل ذلك الوصول . ينظر قطر الولى : فى (مقام المحبة وإجابة الدعاء) .

(٢) من أوائل صوفية البصرة وصاحب الحسن البصرى . توفى سنة ١٧٧ هـ.

(٣) قطر الولى : فى (متى يكون الخارق كرامة) .

(٤) وهى أن السرى السقطى شيخ الجنيد أمره أن يخرج يتكلم على الناس ، فكأنه نادى مناد فى الناس بأن الجنيد سيتكلم فجاءوا إليه أفواجاً ، ولم يطلع على مادار بينه وبين شيخه أحد فخرج وفى أثناء حديثه ، برز إليه رجل نصرانى كان متخفياً وسأله عن معنى حديث : « اتقوا فراسة المؤمن » فأطرق قليلا ، ثم قال له : أسلم فقد آن لك أن تسلم ، فقام وجثا بين يديه وأسلم . قطر الولى : (الولى ومعرفة الغيبيات) . وإذا نظرنا إلى القصة فسنجد أن طابع التلفيق فيها

وقد وقع الإمام ابن تيمية أيضاً فيما وقع فيه الإمام الشوكانى من تأثر بالصوفية فى بعض المواضع ، فأقر جماعة منهم على ما قالوا وعلى ما سلكوا واعتبرهم أيضاً من الأولياء ، كما اعتبرهم الإمام الشوكانى(١)، فنجده يستشهد ببعضهم فى أكثر من موضع على سلامة الطريق ، وعلى خاصية المكاشفة كنماذج ممتازة للأولياء ، وربما جعلهم مجتهدين فيما اختطوا لأنفسهم من طريق مثل الفقهاء تماما بتمام . فيقول عن زهاد البصرة بأنهم صديقون ، كما أن أئمة الفقه فى الكوفة صديقون أيضا ، بل هم من أكمل صديقى زمانهم(٢) وفى

شديد الظهور ، فهى دعاية لجهود الصوفية المزعومة فى نشر الاسلام ، كما أنها دعاية لمبدأ إخبار الولى بالمغيبات . رجل نصرانى يسأل عن معنى حديث « اتقوا فراسة المؤمن » فيستشف الجنيد أنه يريد أن يختبره عن طريق هذا السؤال ، وأنه قد أوشك أن يدخل فى الاسلام ، فيعلن أنه قادر على استشفاف الغيب ، بتلك العبارة « أسلم فقد آن لك أن تسلم » . فالصلة بين موضوع الحديث وبين الإجابة ظاهر فيها الاعداد والتلفيق ، وأن الحديث قد اختير موضوعا للسؤال ليؤكد الاجابة أو تؤكده الاجابة لأنهما من جنس واحد ، فالاجابة بتلك الطريقة المتقدمة هى هى تفسير عملى لمعنى الحديث .

(١) يظهر أنهما متأثران بالفكرة السائدة ، بان التصوف حتى القرن الثالث كان سنياً ، ولم يتفلسف أو لم تدخله المذاهب الالحادية إلا فى نهاية القرن الثالث وأوائل الرابع ، ولكن الواقع أن التصوف كله من يوم نشا والزهد من قبله لا صلة لهما بالسنة ولا بالقرآن فى شىء . ينظر (دراسات فى الفلسفة الاسلامية) : المبحث الخاص بالتصوف من ص ١٢٦ – ١٤٧ ، وكتاب (الصلة بين التصوف والتشيع) ج١ ، ج٢ ، وفى رأيى أن ظهور هذين الكتابين فى هذا العصر غير النظرة القديمة إلى التصوف الاسلامى فى قرونه الثلاثة الأولى وأنه سنى .

(٢) وإكمال عبارته : « والصواب أنهم مجتهدون فى طاعة الله كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة الله ، ففيهم السابق المقرب بحسب اجتهاده ، وفيهم المقتصد الذى هو من أهل اليمين » يشير بذلك إلى درجة أهل اليمين التى تشير إليها آيات الواقعة من آية ٢٧ » : « وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين فى سدر مخضود . وطلح منضود»

موضع آخر من رسالة الصوفية والفقراء يقرن أبا سليمان الدارانى بالإمام أحمد بن حنبل فيقول : « وقد تكلم به (لفظ الصوفية) غير واحد من الأئمة والشيوخ كالإمام أحمد ابن حنبل وأبى سليمان الدارانى وغيرهما »[١].
ويقول فى الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، فى معرض البرهنة على بطلان آراء ابن عربى : « فإن ابن عربى وأمثاله ، وإن ادعوا أنهم من الصوفية فهم من صوفية الملاحدة الفلاسفة ، ليسوا من صوفية أهل العلم فضلا عن أن يكونوا من مشايخ أهل الكتاب والسنة ، كالفضيل بن عياض ، وإبراهيم بن أدهم ، وأبى سليمان الدارانى ، ومعروف الكرخى ، والجنيد بن محمد ، وسهل بن عبد الله التسترى وأمثالهم ، رضوان الله عليهم أجمعين »[٢].
وفى شرح العقيدة الاصفهانية يصف بعض هؤلاء وآخرين منهم بأنهم « من خيار المسلمين وساداتهم عند المسلمين »[٣].

وفى مواضع أخرى يذكر أبا يزيد البسطامى ، والشبلى كأمثلة للأولياء المصطفين .

مناقشة ابن تيمية والشوكانى :

والطريف فى هذا الموقف أنه يمكن الرد على ابن تيمية من كلامه هو ومن كتاباته ، ذلك أنه زعيم السلفية فى عصره وشأنه فى ذلك كشأن الإمام الشوكانى ، فهو زعيم السلفية فى عصره هو الآخر، وكل منهما يرى أن طريق

إلى آية ٤٠ . وقد جاءت هذه الدرجة بعد درجة السابقين . ينظر آية ١٠ — ٢٦ من نفس السورة ، ورسالة (الصوفية والفقراء) ص ١٩ ، ٢٠ .

(١) المصدر السابق ص ٢ .

(٢) ص ٤٥ ، ينظر أيضاً ص ٥٢ .

(٣) ص ١١١ — ١١٣ .

الله واضح ، وأن أى زيغ أو انحراف منه يخرج صاحبه عن جادته إلى مذاهب مبتدعة ، وأهواء متبعة ، وأن خير من سار على طريق الله أو طريق القرآن هم الصحابة رضى الله عنهم الذين خلا عصرهم من البدع ، ومن التطرف فى الزهد ، والتمذهب بمذهب التصوف ، وأنه من الممكن بعدهم أن نرى خروجا عن جادة الإسلام ، وتفشياً للبدع والإلحاد . . الخ .

كذلك قد فطن كل منهما إلى جناية الأساليب الجدلية ، والمنطق العقيم والميتافيزيقا على المسلمين فى بعض مسائل الدين .

فالأصل فى أمر هذين الإمامين أنهما لا يعتقدان حقيقة أمر المتصوفة ، ولكن يظهر أنهما خدعا بتمويه الصوفية بادعائهم الانتساب إلى السنة والجماعة فظنا أن هذا حق منهم حتى بلغ بهما الأمر أن استشهدا بقول بعضهم على سلبية التصوف ، وسلبية أولياء الصوفية ، بل لقد كان هذا الاستشهاد فى معرض القول بضرورة تمسك الولى بالكتاب والسنة ، وأن الكتاب والسنة هما المقياس الوحيد لولاية الشخص[1] .

ومن استشهاد الإمام الشوكانى قوله : « وما أحسن ما قاله (أبو سليمان الدارانى) : « إنها لتقع فى قلبى النكتة من نكت القوم فما أقبلها إلا بشاهدين عدلين : الكتاب والسنة »[2] . وقد اتخذ الصوفية ، ومن يؤرخون لهم —

---

(١) ينظر قطر الولى فى (الواجب على الولى فيما يصدر من أعمال) وفى (نصيب العلماء العاملين من الولاية) .

(٢) نفس المصدر : فى (الواجب على الولى فيما يصدر من أعمال) . ومن ذلك أيضاً ما نقله عن الجنيد : « علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة » . وعن أبى عمرو بن نجيد : « كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فهو باطل » . كما نقل عن غيرهم » ينظر نفس المصدر ، وقارن : الفرقان لابن تيمية ص ٧٢ ، ٧٤ .

عنهم ـ هذا التمويه تقية من مثل هذين الإمامين الجليلين ، من ميول سلفية ، أو معادية لمبادىء الصوفية وهذا هو السراج صاحب اللمع ، يزجى إلينا بعضا من ذلك التمويه . يقول فى معرض بيان أصناف المتمسكين بالكتاب والسنة :

« ... وعندى أن أولى العلم القائمين بالقسط ، هم المعتصمون بكتاب الله تعالى ، المجتهدون فى متابعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ... هم ثلاثة أصناف : أصحاب الحديث ، والفقهاء ، والصوفية »[1] . فقد قرن الصوفية بالفقهاء وأصحاب الحديث لكى ينجح فى إدعائه أنهم على سنة الرسول صلى الله عليه وسلم وعلى طريق القرآن الكريم . وهذه نغمة طالما يرددها السراج فى كتابه المذكور ، وقد رددها القشيرى أيضاً فى صدر رسالته فى الصفحة الأولى منها ، وأنطق بها جل مشايخه فى أحاديثهم المفرقة فى أبواب رسالته ، وكذلك فعل السهروردى فى عوارف المعارف من أوله إلى آخره[2] ، يظهر أنه على هدى الكتاب والسنة ، ولكنه فى باطنه وواقعه نبت أجنبى ، وروح غير إسلامى .

ويظهر أن التشدق بالتمسك بالكتاب والسنة كان نغمة عامة وشاملة فى تلك العصور ، وطريقة متبعة للوصول إلى مأرب معين أو فى سبيل المحافظة على

---

(١) اللمع ص ٢٣ ، هذا فى الوقت الذى يفسر فيه المحبة فى الحديث الذى معنا بالفناء معتضدا فى ذلك باقوال أقرانه من الصوفية . يقول فى هذا الصدد : قال أبو يعقوب السوسى : لاتصح المحبة حتى يخرج من رؤية المحبة إلى رؤية المحبوب : بفناء علم المحبة من حيث كان له المحبوب فى الغيب ، وسئل الجنيد عن المحبة فقال : دخول صفات المحبوب على البدل من صفات المحب ، فهذا معنى قوله : « حتى أحبه فاذا أحببته كنت عينه التى يبصر بها ، وسمعه الذى يسمع به ، ويده التى يبطش بها ص ٨٨ ، هذا مع ملاحظة أن الإمام الشوكانى نفى تفسير هذا الحب وما ترتب عليه » بالفناء ، ينظر قطر الولى : فى (تحقيق آراء الاتحادية والصوفية) .

(٢) قارن : الصلة بين التصوف والتشيع ج ٢ ص ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ .

ذلك المأرب ، فقد سمعناها تنسب إلى الخلفاء من بنى أمية و بنى العباس وعلى لسان الشيعة ، وأخيراً عند المتصوفة ، والهدف عند الثلاثة واحد .

وباتخاذ تلك النغمة شعاراً غمض أمر هؤلاء الصوفيا على كثير من الناس ومهدوا لهم ، وصاروا من أعدادهم الوفيرة ومن مريديهم كما غمض أمر الشيعة الغلاة من قبل ، وأصبحنا نجد رجلا مثل الإمام الشوكانى أو ابن تيمية وقد انصرف جهده الأكبر إلى الجهاد فى ميادين الجمود والتقليد والبدع التى فشت بين عامة الشعب وفقهائهم ، والسفسطة والمغالطة التى شغلت المتكلمين ومن نحا نحوهم ، فلم يلتفت لدى الصوفية إلا إلى الشطط الظاهر ، والخلاف الصريح من بعضهم ، مثل ماظهر من الحلاج ، أو ابن عربى وابن سبعين ، والسهروردى المقتول . فظن بمن رفع ذلك الشعار المتقدم من المتصوفة ، أنه على دين الله كما يدعى .

وقد وقع (نيكولسون) فيما وقع فيه ابن تيمية والشوكانى حتى ذهب إلى أن التصوف الإسلامى ، كان حتى نهاية القرن الثالث تقريبا ، وافقاً لتعاليم الكتاب والسنة[1] .

وقبل أن أورد ، رد ابن تيمية على نفسه أحب أن أشير سلفاً إلى أن ماقدمه من أن هؤلاء الصوفية مجتهدون قول غير مقبول ، إذ أن الاجتهاد لا يكون إلا فى استخراج الأحكام ، أو التماس العلل الأحكام والأعمال فى غير مراسم العبادات . أما العبادات والعقائد الدينية ، فليست مجالا للاجتهاد ، وليس لنا من إضافة إليها فوق ما نص عليه الدين منها[2] .

---

(١) فى التصوف الإسلامى وتاريخه ص٤ — ٢٧ ، الصلة بين التصوف والتشيع ج ٢ ص ٦٧ ، ٦٨ .

(٢) إرشاد الفحول فى أصول الفقه للشوكانى ص ٢٣٤ — ٢٣٦ ، قطر الولى فى (حماية العلماء العاملين للأمة من التقليد) .

فهؤلاء فى بدعهم التى خرجوا علينا بها ، متأثرون بعناصر دخيلة على الإسلام ، وهو مايقول به ابن تيمية ولاينكره . فهو يرى أن فى لبس الصوفية تقليد مسيحى (وهدى نبينا أحب إلينا ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم يلبس القطن وغيره) كذلك يعترض على حساسية الخوف الزائدة عند البصريين الذين كانوا يصعقون عند سماع القرآن ، ويقول : « ولم يكن فى الصحابة من هذا حاله ، فلما ظهر ذلك أنكره طائفة من الصحابة والتابعين ، لأن الأحوال التى كانت فى الصحابة هى المذكورة فى القرآن ، وهى لاتزيد على وجل القلوب[1] ودموع العين[2] ، واقشعرار الجلد » (الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى ، تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله) . فهذه هى مظاهر التأثر التى مدحها القرآن الكريم ، وهى عن تأثر طبيعى ناتج من الشعور النفسى حقيقة ، وما بعد ذلك فهو تزيد مفتعل لا صلة له بالقلب ، ولذلك قال عنه أحد التابعين : « مابيننا وبين هؤلاء الذين يصعقون عند سماع القرآن إلا أن يقرأ على أحدهم وهو على حائط ، فإن خر فهو صادق »[3] .

ويقف نفس هذا الموقف من حال السكر التى يدعونها ويستدل لذلك بحال النبى صلى الله عليه وسلم « فإنه أسرى به إلى المسجد الأقصى وعرج به إلى السماء ، وأراه الله ما أراه ، وأصبح كبائت لم يتغير عليه حاله »[4] .

ويمكن أن نتبين مدى خروج هؤلاء الصوفية — وخاصة أوليائهم — على الكتاب والسنة من أقوالهم التى يبثونها لمريديهم كوصف وإرشاد إلى طريق

---

(١) ينظر سورة الأنفال آية : ٢ .

(٢) سورة الإسراء آية : ١٠٩ .

(٣) ينظر رسالة : « الصوفية والفقراء لابن تيمية » ص ٤ — ٦ .

(٤) نفس المصدر ص ٩ — ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ .

الله كما يرون ، فهذا إبراهيم بن أدهم يعلن أنه قد تعلم المعرفة من أحد الرهبان ، ويروى قصته فى ذلك أنه دخل على ذلك الراهب صومعته وسأله عن طعامه ، فقال له فى كل ليلة (حمصة) فقال له : « فما الذى يهيج من قلبك حتى تكفيك هذه (الحمصة) ؟ . قال ترى الذين بحذائك (يظهر أنه يريد ملائكة) قلت : نعم . قال : إنهم يأتوننى فى كل سنة يوماً واحداً ، فيزينون صومعتى ، ويطوفون حولها يعظموننى بذلك ، وكلما تثاقلت نفسى عن العبادة ذكرتها تلك الساعة ، فأنا أحتمل جهد سنة لعز ساعة . . . فوقر فى قلبى المعرفة »[١] . فقد وقرت فى قلبه المعرفة لكنه لم يحدثنا عما يريده بتلك المعرفة ، وهى ليست فى الواقع إلا ما نلمسه من سياق القصة ، وهى التجرد الكامل للعبادة والعزلة ، والإقلال من الطعام على ما يفعل ذلك الراهب ، لكى يحوز ذلك الرضا الذى وصل إليه هذا الراهب . فهذا منه دعوة إلى سلوك هذا الطريق واجتناب طريق القرآن .

وأبو يزيد البسطامى قد أعلن إسقاط التكاليف الشرعية عن طريق ندائه بمذهب وحدة الوجود ، ونتبين هذا منه فى نقله عن (القطب) لما لقيه فى طريقه إلى الحج وأمره أن يعود قائلا له : « إن الله هو ما تراه فى بعين قلبك ، لأنه اختارنى بيتا له ، فإذا رأيتنى فقد رأيته ، وطفت حول الكعبة ، وإذا عبدتنى فقد عبدته وسبحت له . فلا تظنن أنى شىء غيره » ورجع أبو يزيد عن طريقه ولم يحج[٢] . وبهذا يمكن أن نلحقه بطوائف الباطنية الذين أسقطوا التكاليف ، وأباحوا المحرمات[٣] ، أو نلحقهم به .

---

(١) تلبيس إبليس ص ١٤٨ .

(٢) نيكولسون : فى التصوف الإسلامى وتاريخه ص ١٥٧ نقلا عن المثنوى لجلال الدين الرومى (طبعة بولاق ص ٥٩ جـ ١) .

(٣) أنظر نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام ص ١٩٣ ، ١٩٤ .

وقد قال نيكولسون فى شأنه : « إنه هو الذى أدخل فى التصوف الإسلامى فكرة وحدة الوجود ، « التى كانت ذائعة ذيوعاً عظيما فى أنحاء فارس حتى زمن الساسانيين »[١] .

فأين هؤلاء من الكتاب والسنة ؟ وأين مركزهم من الولاية ؟ إن الأليق بهم أن يكونوا من أولياء الشيطان ، على حد تصانيف ابن تيمية نفسه ، فضلا عن أن يتجرأوا ويحصروا الولاية فى دوائرهم وأصنافهم هم ، أو فى دوائر الشيعة وأئمتهم . وسيكون الفصل التالى بمثابة تدليل على ذلك ، إن شاء الله .

---

(١) فى التصوف الإسلامى وتاريخه ص٢٣،٢٤، وقارن السهروردى : « فى مجموعه فى الحكمة الإلهية » ص ٧٤ ، ٥٠٣ ، ٥٠٤ .

الفصل الثالث

الطريق إلى ولاية الله

ولاية الله أو حبه لبني الإنسان هما الغاية التي حفزنا إليها القرآن الكريم والحديث الشريف، والتي يسعى إليها كل مسلم يحب الله ورسوله[1]، ولعلنا قد لاحظنا فيما تقدم أن الحب من معاني الولاية، فإذا قلنا في هذا الفصل: الطريق إلى الولاية أو إلى حب الله للإنسان، كان ذلك بمعنى واحد، وكان ذلك ملتقيا مع الحديث موضع الدراسة، الذي جعل نهاية الطريق الذي رسمه لسلوك الأولياء، هو حب الله للولي[2].

وفي هذا تحديد من الشرع الكريم للغاية التي يجب أن يسعى إليها كل مسلم، وهي «حب الله للعبد أو ولايته له»، وهي إلى جانب هذا التحديد غاية سامية وهي أن يحب الله المرء.

وهذا التحديد، وهذا السمو، لا نجده عند المتصوفة، فبالنسبة للأمر الأول، لا نكاد نجد عند المتصوفة اتفاقاً على غاية واحدة يسعون إليها[3]،

---

(١) ينظر (بحث في وجوب محبة الله) للامام الشوكاني. مخطوط رقم ٥٩ مجاميع بمكتبة الجامع المقدس، بصنعاء.

(٢) وذلك حيث يقول: «وما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، ولايزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه» الخ.

(٣) ينظر المنقذ من الضلال ص ١٣١ وهناك يذكر الغزالي عدة غايات للوصول لدى المتصوفة، كل فريق يتجه إلى غاية مخالفة أو يصل إليها، والغزالي نفسه في وصوله متحير بين غايتين مختلفتين لا يدري ما هو منهما، فحين يذكر الفناء بالكلية في الله سبحانه وتعالى يذكر أيضاً مشاهدة الذات العلية أو معرفة الله بالشهود والعيان.

فمنهم من يجعل الغاية من سلوك طريقهم ، هى معرفة الله ، أو معرفة ذاته العلية إما بالبرهان ، وذلك للطالبين ، وأما بالشهود والعيان وهذا للواصلين[١] .
ومنهم من يجعلها معرفة النفوس والقلوب والأرواح ، ويدعون أنهم فى النهاية يصلون بذلك إلى معرفة الله ، معتمدين على الحكمة اليونانية الدخيلة على الإسلام « من عرف نفسه فقد عرف ربه »[٢] .

وأحياناً يجعلونها الفناء ، كما تقدم فى تعريفهم للولى[٣] ، وأحيانا يجعلونها الحلول أو الاتحاد ، أو وحدة الوجود كما هو معروف عند أصحاب هـــذه المذاهب ، وإن كان الأساس فيها جميعا هو الفناء[٤] .

وقد يطمحون إلى غاية يشبهونها بتلك الغاية التى حددها القرآن والسنة ، ونطق بها الحديث الذى معنا ، وهى حب الله للعبد ، فيجعلون غايتهم ومظهر ولايتهم الوصول إلى درجة حب الولى الصوفى لله ، وهو ما اشتهر فى أوساطهم بالحب الإلهى . فهـــذا مظهر اختلافهم فى الغاية التى يصل إليها السالك الصوفى .

وأما بالنسبة للأمر الثانى . وهو عدم سمو أى غاية من تلك الغايات فإنا نرى أن فى مذاهب الحلول والاتحاد ووحدة الوجود خروجا على الدين ، وربما

---

(١) المدخل إلى التصوف الإسلامى ص ٥٣ ، وينظر أيضاً ص ٧٣ من تلك الدراسة فهناك غاية إبراهيم بن أدهم المعرفة أيضاً .

(٢) تاريخ الفلسفة فى الاسلام (لديبور) ص٢٧ ، وينظر أيضاً نفس المصدر المتقدم والصفحة ، ورسالة القول الأشبه فى حديث من عرف نفسه فقد عرف ربه ، ضمن مجموعة رسائل للسيوطى ، الصلة بين التصوف والتشيع جـ١ ص٦٥ وينظر ابن عطاء الله السكندرى وتصوفه ص ٢٣٥ — ٢٥٠ .

(٣) راجع هذه الدراسة ص٧٧ — ٨٩ وابن عطاء الله وتصوفه ص ٢٦٩ ، ٢٧٠ .

(٤) فى التصوف الاسلامى ص ١١٥ — ١٢٩ ، الانسان عند الغزالى ص ١٧٩ ، ١٨٠ .

إنكاراً لوجود الله كما فى مذهب وحدة الوجود ، وقد تقدم لنا الفناء وقول ابن تيمية فيه . وأما المعرفة والحب الإلهى بالمعنى الصوفى ، فالمفروض كما فى القرآن الكريم ، أن هذين بدء الطريق لا نهايته ، فإن للمعرفة خطوة أولى فى الإيمان ، فلا إيمان بالله إلا بعد معرفته ، وهى أمر فطرى كما يحدثنا القرآن بذلك فى عشرات الآيات : « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم »[1] ، ومعلوم أن مثل هذه الآية إنما تتحدث عن الكفار من قريش ومن العرب الذين يشركون بالله أولا يأبون دعوة الإيمان به على يد محمد (صلى الله عليه وسلم)[2]. فالمعرفة هذه التى جعلها الصوفية — ومن نحا نحوهم من أتباع الأفلاطونية الحديثة — فى سبيل المثور عليها — كفاية — ، هى خطوة أولى قبل الإيمان ، فلا إيمان إلا بمعرفة ، والإيمان خطوة أولى فى سبيل الولاية ، فكل ولى مؤمن ، وليس كل مؤمن ولى ، ومن هنا يتبين لنا أن كثيراً من الصوفية ، قبل سلوكهم طريقهم شاكون فهم يبدءونه وهم غير مؤمنين بالله سبحانه ، وكذلك ينتهون منه وهم غير مؤمنين إلا بينهم وبين أنفسهم التى خيلت لهم أنهم آمنوا ، إيمان مشاهدة للذات العلية ، أو بالاستدلال على وجودها .

كذلك الحب الإلهى الذى يتحدثون عنه ، إنما هو حب المخلوق للخالق فى ذلك الجو التكلفى ، والذى ينزع عن روح غير إسلامية ، أما الحب الذى يؤكد ولاية الشخص فهو حب الخالق للمخلوق والذى لا يصل إليه العبد إلا باعتناق الإخلاص فى أداء العبادات والأعمال ، ولذلك جعله الله رمز الولاية ونهاية الطريق فى الحديث موضع الدراسة ، وجعل مظاهره تكريم

---

(١) سورة الزخرف آية : ٩ .

(٢) ينظر سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٤٦ فى إسلام أبى سفيان .

العبد أيما تكريم وجعل (الحب الإلهى لدى الصوفية) بدء الطريق وموضع الاختبار فى الآية الكريمة : « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله »[١] هذا إذا اعتبرناه حباً لله ، وإلا فهو فى الواقع مظهر جذب غير إسلامى ، فقد شملت الآية الكريمة بدء الطريق إلى الله ثم الطريق نفسه ثم نهايته ، وهى حب الله للإنسان[٢] ، ولكنهم لم يروا فى الحب الإلهى إلا حب المخلوق للخالق وعند هذا الحد وقفوا ، رغم أن الآية والحديث ينطقان بحب الله لعباده ، ولكنهم ينكرون أن الله يحب ، كما ينكرون فى الواقع أنه يحب[٣] .

وإذا كانوا قد عضدوا نظريتهم فى هذا الحب بما جاء فى الحديث « حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الخ » فإنهم فسروا الحديث على غير وجهه ، وجعلوه حجة لهم على مذهبهم فى الفناء[٤] ، وبدل أن يكون الله سمع العبد

---

(١) سورة آل عمران ، آية : ٣١ .

(٢) فأول الطريق حب العبد لله ، والطريق نفسه هو اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم ، ونهايته أو غايته ونتيجته حب الله للإنسان .

(٣) الرسالة القشيرية ص ١٤٣ — ١٤٥ ، واللمع للسراج ص ٨٦ . والأصل فى إنكارهم أن الله يحب عباده كما يحبونه ، أنهم تأثروا بالمتكلمين من القدرية فى جعلهم المحبة والارادة والرضا شيئاً واحداً ، وأن ذلك الشىء لا يتعلق إلا بمعدوم ، فلا يثبتون لله سبحانه إلا إرادته أن يخلق فقط ، وهى لا تتعلق إلا بمعدوم فأما أن يحب موجودا من خلقه فهذا باطل عندهم . النبوات لابن تيمية ص ٦٦ ، والتحفة العراقية لابن تيمية أيضاً ٥١ — ٥٥ .

(٤) وذلك كما قال أبو القاسم القشيرى : « والمحبة توجب انتفاء المباينة فإن المحب أبداً مع محبوبه ، وبذلك ورد الخبر » ص ١٤٨ الرسالة القشيرية : وكما ينقل السراج عن الجنيد فى رأيه عن الحب الالهى « دخول صفات المحبوب على البدل من صفات المحب ، فهذا على معنى قوله : حتى أحبه فإن أحببته كنت الخ » ص ٨٨ ==

وبصره بعد تقربه إليه بالفرائض والنوافل كمظهر لحب الله للإنسان ، جعلوا الله سمع العبد وبصره كمظهر لحب الإنسان لله ، وانتهائه فيه إلى درجة الفناء في الله واكتفائه بذلك عن العمل على الوصول إلى درجة حب الله له[1] .

وطبيعي أن هذا التكريم لا يكون للإنسان إلا إذا برهن على حبه لله ، بالعمل واتباع سبيل المؤمنين ، فقد حرموا أنفسهم من ذلك التكريم الذي كرم الله به الإنسان ، ووقفوا دون الطريق للوصول إلى هذا التكريم ، ومن هنا كان السمو في الوصول إلى درجة حب الله للإنسان ، الذي لا يدانيه الحب الصوفي المتخيل من جانب الإنسان لله ، كما نطقت بذلك الآية الكريمة حجة على هذا الادعاء أو التخيل « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله » .

فالصوفية في حالة (المعرفة) وحالة (الحب الإلهي) قد انتهوا حيث يجب البدء ، ومن هنا كان بعدهم عن طريق الله ، وإذا كان هذا شأن المتصوفة ، في هذين الأمرين ، المقبولين — مبدئياً — فهم في باقي الغايات المتشعبة المتعددة ، أكثر بعداً عن طريق الله .

وبقدر اختلاف غايات هؤلاء الصوفية عن غاية الإسلام ، اختلف طريقهم أيضاً عن طريق الله ، وأصبحت طرقهم ، لا تنم عن الإسلام في شيء ، وإنما تنم عن المبادىء الأجنبية والنظريات الدخيلة التي توجهها ، ولذلك فقد رأينا الإمام الشوكاني يرسم الطريق إلى الله على غير ما يرسمون وحسب ما جاء في هذا الحديث باختصار ، وحسب ما ورد به الشرع القويم بالتفصيل ،

= فهنا الحب من جانب العبد حتى يصل إلى الفناء فيحس بأنه لا شيء ، وأن الله هو ، ومن هنا جاء مذهبهم في الحلول والاتحاد . فهذا حب أفلوطيني أول من أجله الحديث حتى يثبتوا له أصلا إسلامياً ، ولكن شتان بين هذا وذاك ، فهذا حب الله للانسان وذاك حب إنساني : لم يزد على ذلك .

(١) ينظر أيضاً الرسالة القشيرية ص ١٣٤ ، ١٤٦ ، ١٤٧ .

لأنه يفهم الحديث على غير ما يفهمون ، ويرى أن حب الله للإنسان هو أسمى غاية يصل إليها العبد الطائع ، وأسمى مظهر لرضاء الله عن الإنسان .

(أ) الطريق إلى ولاية الله كما يراه الإمام الشوكانى :

يرى الإمام الشوكانى أن الطريق إلى الولاية ، يتلخص فى ثلاث شعب ، الشعبة الأولى : هى الإيمان « بالله كما ندب إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم » والشعبة الثانية : هى أداء الفرائض واجتناب النواهى . والثالثة : فعل النوافل ، والاستكثار منها .

الإيمان بالله :

ويقول عنه الشوكانى : إنه « الباب الأعظم للدخول إلى صرح الولاية » وإنه هو الذى يحدد درجة الولى من الولاية ، وحظه من العمل والثواب ، لأن الأمر كما يقول إنه : « من لازم الإيمان القوى العمل السوى » .

وفى إشارته إلى أن الإيمان يجب أن يكون على الكيفية التى ندب إليها رسول الله ﷺ ، أن يكون إيمانا بالله وملائكته وكتبه ورسله ، والقدر خيره وشره[١] . ويرى أن أصعب هذه الخصال الإيمان بالقدر ، لأنه إذا حصل للإنسان على الوجه المعتبر ، هانت عليه جميع الأمور[٢] . وأن إيمان الشخص يتأثر بين القوة والضعف بدرجة إيمانه ، بالقضاء والقدر[٣] .

---

(١) يشير بذلك إلى حديث الرسول صلى الله عليه وسلم « الايمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والقدر خيره وشره » .

(٢) قطر الولى فى : (شخصية الولى) .

(٣) قطر الولى فى : (الايمان بالقدر وخاصة المؤمنين) ، (فوائد الايمان بالقدر) ، (الايمان بالقضاء ، والاستعاذة من سوءه) .

ويضيف الإمام الشوكانى إلى شعبة الإيمان درجة الإحسان ، وذلك حيث جمع الرسول ﷺ فى الحديث بين الإيمان والإسلام والإحسان[١] ، لأن من بلغ هذه الدرجة كان فى الذروة العليا من الإيمان ، فمن يعبد الله كأنه يراه ، فإن لم يكن يراه ، فإنه يراه ، كان فى الرتبة الأولى من التصديق بوجود الله ، وكان فى غاية الإخلاص والانصراف إلى الله بالكلية ، وكأنه هو الذى أحبه الله فصار سمعه وبصره ويده فلا يفعل إلا خيراً ، ولهذا كان من أولياء الله عز وجل الراسخين فى الولاية ، والذين آذن الله سبحانه من عاداهم بالحرب[٢] .

ومن أعظم محصلات مقام الإحسان : كما يقول الإمام الشوكانى : الخشوع والخوف والخشية من الله عز وجل ، كما قال الله سبحانه : (ولمن خاف مقام ربه جنتان[٣] . وكما جاء فى الحديث « سبعة يظلهم الله تحت ظله يوم لا ظل إلا ظله » وفيهم : « ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إنى أخاف الله تعالى » .

كذلك من محصلات هذا المقام ، الزهد فى الدنيا[٤] ، فى ضوء التشريعات الإسلامية ، والرفق ، والأناة والحلم ، وحسن الخلق وطلاقة الوجه ، وإفشاء السلام .

---

(١) ينظر صحيح مسلم ص ٣٠ كتاب الايمان .

(٢) قطر الولى فى (الايمان والاحسان ولمن يجتمعان) ، (الدعاء أعظم مظاهر الولاية) .

(٣) سورة الرحمن آية : ٤٦ .

(٤) وقد قيده ابن تيمية باسم : الزهد المشروع ، وعرفه : بأنه ترك مالا ينفع فى الدار الآخرة . مجموعة الرسائل والمسائل جـ ١ ص ٢٢٠ .

كذلك من محصلات هذا المقام ، المداومة على العمل الصالح ، ويستدل على كل ذلك بالأحاديث الشريفة والآيات القرآنية التي وردت فيها [١] .

(ب) أداء الفرائض :

وهي كما جاء في الحديث : — « وما تقرب إلَيَّ عبدي بشيء أحب إلَيَّ مما افترضت عليه » — أحب القربات إلى الله ، لأن في أدائها امتثالا للأمر ، وهو مظهر الطاعة ، وإظهار لذل العبودية وعظمة الربوبية ، ولا ينافي أنها أعظم القربات إلى الله إن الله يحب للتقرب بالنافلة ، بل من تقرب بها بعد أداء الفرض ، كان ذلك دليلا على روح الإخلاص في الامتثال لأداء الفرض ، فالنوافل وأداؤها بعد الفرائض ، كالدليل على إحسان أداء الفرائض ، وحسن قبولها من الله سبحانه [٢] .

ومن هنا ، فليس أداء الفرض مسقطاً للعقوبة فقط ، دون ترتب ثواب عليه كما يتبادر إلى بعض الأذهان ، وإنما إذا أدى الفرض بروح الإخلاص ، كان له من الثواب إلى جانب النجاة من العقاب ، ما يتكافأ مع نية الأداء وروحه [٣] :

وقد ذهب الإمام الشوكاني إلى أن هذه الفرائض ، منها ما هي ظاهرة ومنها ما هي باطنة وهي محاربة الاعتقادات الباطلة ، وأن أداء الباطنة ، والامتثال لأمر الله فيها لا تقل ضرورته عن أداء الظاهرة ، بل إن أثر الباطنة في حياة الإنسان يكاد يكون أبعد أثراً من الظاهرة ، كما قال أحد وثني الهند

---

(١) ينظر قطر الولي في (مقام الاحسان ولمن يكون؟) ، (مقام الولي وإجابة الدعاء) .

(٢) نفس المصدر في (محبة الله بين أداء الفرض والنفل) .

(٣) نفس المصدر في (ليست الادامة شرطاً في القرب) .

بعد إسـلامه : « جاهدت نفسى فى كسر الوثن الذى أعبده ليلة فغلبتها وكسرته ، وأنا فى جهاد لها نحو عشرين سنة فى كسر الأصنام الباطنة فلم أقدر عليها ، ولا نفع جهادى لها أبداً »[1] . فإن الرجل قد يؤمن بالله ، وملائكته وكتبه ورسله ، والقدر خيره وشره وهو مشتمل على شىء من هذه المعاصى الباطنة »[2] مثل الحسد والعجب ، والكبر . والرياء الخ .

١ — الفرائض الظاهرة :

والفرائض الظاهرة ليست فقط هى الخمس التى اشتمل عليها عليها حديث بنى الإسلام[3] على خمس ، واشتهرت بأنها هى أركان الإسلام بل هى كثيرة جداً يصعب حصرها ، وتتعسر الإحاطة بها . « ناهيك أن رأس الفرائض الظاهرة « الجهاد » وليس من جملة الخمس التى اشتمل عليها حديث الإسلام ! » وهى « معروفة لكل ذى علم وفهم » . ولذلك آثر الإمام الشوكانى عدم ذكرها ، تفادياً الإحاطة[4] .

ولم يلته أن يلحق بذلك الفرائض الظاهرة ، ترك المعاصى ، فجعل ترك المعاصى من أعظم فرائض الله ، ويذكر أنه لا خلاف فى أن الله افترض على العباد ترك كل معصية كائنة ما كانت ، « فكان ترك المعاصى من هذه الحيثية ، داخلا تحت عموم قوله : « وما تقرب إلىّ عبدى بشىء أحب إلىّ مما افترضت عليه »[5] .

---

(١) قطر الولى فى (طهارة الباطن ، وأثرها فى مركز الانسان من الولاية) .
(٢) نفس المصدر .
(٣) ينظر صحيح البخارى ص ٩ .
(٤) نفس المصدر فى : (الطريق إلى طهارة الباطن) .
(٥) نفس المصدر فى (من أداء الفرائض وترك المعاصى) .

٢ — الفرائض الباطنة :

١ — إخلاص النية في أداء الأعمال ، وقد جعلها الشوكاني عمدة الأعمال التي تترتب عليها صحتها أو فسادها ، والمرجع في ذلك هو حديث : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى » وغيره من الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية التي تحض على الإخلاص ، وتنهى عن الرياء[١] .

٢ — البعد عن سوء الظن غير المشروع ، وعن الحسد ، والتباغض ، والتدابر ، وبالإجمال كل ماجاء في الحديث : « إياكم والظن ، فإن الظن أكذب الحديث[٢] » إلى آخر مانهى عنه من المعاصي الباطنة .

٣ — البعد عن الكبر والعجب « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من مات وهو بريء من الكبر دخل الجنة » . « لايدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر »[٣] .

٤ — الصدق والبعد عن النفاق ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من كان له وجهان في الدنيا ، كان له يوم القيامة لسانان من نار »[٤] .

٥ — الأمانة والبعد عن الخيانة ، فقد وردت الأحاديث بأنها من خصال النفاق[٥] .

---

(١) نفس المصدر في : (الطريق إلى طهارة الباطن) .
(٢) وإكماله : « ولا تجسسوا ، ولا تنافسوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تباغضوا ولا تدابروا كما أمركم ، المسلم أخو المسلم : لايظلمه ، ولايحقره » قطر الولي في : (الطريق إلى طهارة الباطن) .
(٣) قطر الولي في : (نفس العنوان المتقدم) .
(٤) نفس المصدر . (٥) نفس المصدر .

٦ — المحبة ، والبغض ، والكراهة : فيحب الخير ولا يحب إلا لله ويبغض الشر ، ولا يبغض إلا لله [١] .

٧ — الطيرة ، فقد صح عنه صلى الله عليه وسلم أنها شرك [٢] .

٨ — التوبة ، وهي أشهر من أن يستدل عليها [٣] .

٩ — الخشية والخوف من الله عز وجل [٤] .

١٠ — حسن الظن بالله ، وعدم الارتكان إلى طول الأمل [٥] .

١١ — الصبر « وقد ورد مدحه ، وكون الله مع الصابرين ومالهم من الأجر العظيم في الكتاب والسنة » [٦] .

ويختتم هذه المجموعة من الفرائض الباطنة بقوله : « وبالجملة فاستيفاء الفرائض الباطنة ، والمحرمات الباطنة التي تركها من الفرائض يطول جداً ، فلنقتصر على هذا المقدار [٧] .

(حـ) التقرب بالنوافل :

والنوافل عامة ، شاملة جميع أجناس الطاعات من صلاة وصيام وزكاة وحج . الخ كل مانديب الله سبحانه إليه من غير إيجاب أو فرض [٨] .

وباستعراضنا للنوافل التي يذكرها الشوكاني يتبين لنا أن ظاهر الشرع

---

(١) نفس المصدر . (٢) نفس المصدر .

(٣) نفس المصدر .

(٤) نفس المصدر والصفحة . (٥) نفس المصدر .

(٦) نفس المصدر والصفحة . (٧) نفس المصدر .

(٨) نفس المصدر في : (التقرب بالنوافل) .

الإسلامى على حد تعبير الصوفية — كفيل وحده بأن ينتج الولى الذى يباهى به الله سبحانه ملائكته ، فضلا عن أن يسلك الإنسان فى رتبة الملائكية كما هو مطمحهم من رياضاتهم وطرقهم ومجاهداتهم التى يسمونها علم الباطن .

١ — من نوافل الصلاة :

يذكر منها رواتب الفرائض الخمس كما هى معروفة فى مواضعها ، ويستشهد على فضيلة كل راتبة والترغيب فيها بما شاء له الاستشهاد من الأحاديث الشريفة ، ثم كذلك يذكر صلاة الليل مع الوتر ، ثم صلاة الضحى ، ثم تحية المسجد ، ثم الصلاة عقب الوضوء ، ويشير إلى أن الباب مفتوح أمام من يريد التقرب بنوافل الصلاة فى جميع الأوقات ماعدا أوقات الكراهة [1] .

٢ — من نوافل الصيام :

يذكر أن من تلك النوافل المؤكدة ، صيام شهر (المحـــرم) ، ويوم عاشوراء ، وست من شوال ، كما ثبت فى الحديث : « من صام رمضان وأتبعه ستاً من شوال ، فكأنما صام الدهر » . وكذلك صوم عشر ذى الحجة ، وأفضلها يوم عرفة ، وكذلك صوم شعبان . وهذه هى المؤكدات من الصيام . وبقية الأيام محل قبول من الله سبحانه لصيامها . ماعـــدا الأيام المنهى عن صيامها كأيام الأعياد ، وكما قال : يكفى فى مشروعية مطلق التنفل بالصيام حديث : « الصوم لى وأنا أجزى به »[2] .

ثم يذكر بعد ذلك من النوافل التى قال الحديث عنها : « ومايزال عبدى

---

(١) قطر الولى فى : (من نوافل الصلاة) .

(٢) نفس المصدر فى : (من نوافل الصيام) .

يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه » والتى أثرت عن الرسول صلى الله عليه وسلم وحض عليها ، نوافل الحج ، ونوافل الصدقة ، ونوافل الأذكار ، ثم يبين أن أفضل الذكر[١] ، ما كان فى دعاء الرب عز وجل لقوله تعالى : (ادعونى أستجب لكم ، إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين)[٢] ويبين أن هناك أذكاراً مخصوصة بأوقات معينة وحالات خاصة ويذكر فوائد تلك الأذكار ، ويبين أن أفضلها هو كلمة التوحيد[٣] ويضيف إلى تلك النوافل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وفضيلتها[٤] ، ثم التسبيح وفوائده ، ثم الأدعية التى أثرت عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم الأدعية عقب الوضوء والصلاة ، وعند الأذان والإقامة ودخول المسجد إلى آخر ماهنالك من أدعية فى الصلاة والصيام والحج والجهاد والسفر وغيرها[٥] .

هذا هو الطريق إلى الولاية أو هذه هى معالمه كما خطه لنا القرآن والسنة ، وهو الذى ينتج الشخص المحبوب لله سبحانه ، ونرى أنه رياضة أو مدرسة قد أعدها الإسلام تخرج فيها الإنسان ، وقد صقل خلقه وسمت نفسه ، وأصبح شخصاً صالحاً لنفسه ولوطنه ولدينه ولننظر طريق الصوفية بقدر ماتسمح لنا هذه المقدمة .

---

(١) قارن هذا بما يراه ابن باديس فى الذكر ، وأن أفضله هو تلاوة القرآن الكريم . الأستاذ الدكتور محمود قاسم فى كتابه « الإمام عبد الحميد بن باديس » ص ١٢٢ .

(٢) سورة غافر آية : ٦٠ .

(٣) المصدر المتقدم فى : (أذكار التوحيد) .

(٤) نفس المصدر فى : (الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم وفضلها) .

(٥) نفس المصدر فى : (التسبيح وفوائده — الأدعية داخل الصلاة) .

(ب) الطريق إلى الله كما يراه الصوفية :

لعلنا لا نبعد كثيراً عن الصواب إذا قلنا إن الطريق إلى الله كما أشار إليه الإمام الشوكانى ، من شأنه أن ينتج الشخص المحبوب لله والمفيد المجتمع فى الوقت ذاته ، وأن طريق الصوفية من شأنه أن ينتج الشخص البعيد عن الله ، وعن المجتمع فى كثير من الحالات ، وذلك لما اشتمل عليه كلا الفريقين ، من أمور تفترق فى غايتها ، كما افترقت تلك الأمور نفسها فى كلا الطريقين — فى طبيعتها ، كما يجدر بنا أن ننبه إلى أن هذا الطريق الإسلامى الذى أشار إليه الإمام الشوكانى ، ليس من المحتم المرور به من أوله إلى آخره لكى يكون الإنسان ولياً ، وإنما يكفى أن يؤدى ما يستطيع منه ، — ولو قل — بروح الإخلاص ، ليصل إلى درجة الولاية أو حب الله ، فمن الممكن أن يحبه الله ، وهو فى أول هـذا الطريق أو بعد أداء بعضه ، ثم لا يمنعه ذلك الحب عن الاستمرار فى تلك الطاعات والإكثار منها ، وهذا علامة ولايته ودليل استمرارها[1] . فطريق الإسلام ليس طريقاً آلياً مؤقتا بوقت ولا محدوداً بكم ، كطريق الصوفية ، وإنما يمكن للإنسان أن يكون حبيبا لله ، إذا آمن وأخلص النية بعد قليل من العمل ، وبعد قليل من الوقت . أما الصوفية فطريقهم آلى شكلى ، خال فى الأغلب الأعم من روح الإخلاص ، يؤمن بالكم لا بالكيف ، فعندهم لابد من أن يمر المريد بكذا وكذا وكذا حتى يصل ، وعندهم طريق له أول وله وسط وله آخر[2] ، أما طريق الإسلام ،

---

(١) قطر الولى : فى (ليست المداومة شرطاً فى القرب) ، (مقام المحبة وإجابة الدعاء) ، (ضلال المدعين لرفع التكليف) .

(٢) ينظر المنقذ من الضلال للغزالى ص ١٣١ والإشارات لابن سينا قسم ٣ ، ٤ ص ٨٠ النمط التاسع .

فلستطيع أن نقول إن له أولا وليس له آخر ، فمتى وجدت روح الإخلاص فى العمل فقد وجد حب الله وولاية الشخص لله سبحانه . ومن هنا كان طريق الإسلام خاليا من روح الصنعة والترويض والتكلف ، وكان طريق الكثيرين من الصوفية فيه صنعة ورياضة وتكلف .

وطريق هؤلاء المتصوفة يجمع إلى جانب كثير مما قدمه (الشوكانى) أساليبهم التى اختصوا بها وابتدعوها ، طبقا لما تأثروا به من ثقافات أجنبية عن الدين الإسلامى ، وقد مر بنا قول إبراهيم بن أدهم ، إنه تعلم المعرفة من راهب يقال له سمعان[١] .

وابن سينا يرى أن الصوفى يمكن أن يمر بثلاثة أسماء حسب تحققه بثلاث صفات ، كل صفة تقابل اسما : (فالزاهد) : هو « المعرض عن متاع الدنيا وطيباتها » . (والعابد) هو « المواظب على فعل العبادات من القيام والصيام ونحوهما » . (والعارف) هو « المنصرف بفكره إلى قدس الجبروت مستديما لشروق نور الحق فى سره » . « وقد يتركب بعض هذه مع بعض[٢] » . وأرقى هذه الثلاثة هو العارف ، وهو الذى يتسامى فى عبادته وزهده لأنه سما بنفسه وبفكره إلى مشاهدة نور الحق والانصراف إليه عن كل شىء غيره . « فالزهد عند غير العارف معاملة ما ، كأنه يشترى بمتاع الدنيا متاع الآخرة ، وعند العارف تنزه ما عما يشغل سره عن الحق ، وتكبر على كل شىء غير الحق » . « والعبادة عند غير العارف معاملة ما ، كأنه يعمل فى الدنيا لأجرة يأخذها فى الآخرة هى الأجر والثواب » .

---

(١) ينظر ص ١٤٨ من تلبيس إبليس .

(٢) الإشارات والتنبيهات قسمى ٣ ، ٤ ص ٨٠٠ النمط التاسع .

« وعند العارف رياضة ما ، لهممه ، وقوى نفسه المتوهمة والمتخيلة ليجرها بالتعويد عن جناب الغرور ، إلى جناب الحق ، فتصير مسالمة للسر الباطن حينما يستجلى الحق لا تنازعه » .

« فيخلص السر إلى الشروق الساطع ، ويصير ذلك ملكة مستقرة ، كلما شاء السر ، اطلع إلى نور الحق غير مزاحم من الهمم بل مع تشييع منهاله ، فيكون منخرطاً بكليته فى سلك أسرار القدس »[١] .

وقد أشار إلى نحو من هذا فى رسالة له صغيرة ، وهى المسماة (برسالة الزيارة)[٢] .

وفى أغلب الظن أنهم لم يتمسكوا بأداء العبادات من صلاة وصيام ،

---

(١) نفس المرجع ص ٨٠١، ٨٠٢ . ونلاحظ أن فى عدم النظر إلى جزاء على العبادة تأكيد لفكرة « أنهم لا يسلكون طريقهم ، إلا للوصول إلى الإيمان أو معرفة الله سبحانه » وأن هذا هو مظهر شكهم ، فالعبادات عندهم ، ليست لطلب الثواب ، وإنما هى للوصول إلى مرحلة التأكد من وجود الله ، ثم بعد ذلك يكفيهم هذا التأكد ، وهذه المشاهدة ، ولكن هذا غير ما جاء به الدين ، فإن الله ما طلب عملا ، إلا بعد الإيمان ووعد عليه بالثواب ، وأمن به من العقاب ، وفى الواقع ، أن الخوف ، والرجاء ، هما مظهر الإيمان بوجود الله ، فإذا لم يتجه العمل إلى الرغبة فى الجنة ، أو النجاة من النار لم يدل على اعتراف بوجود الله ، وكان عملا متجهاً إلى غير الله ، فإما إلى قصد منفعة خاصة ، وإما إلى الاستعانة به على سلوك طريق التصوف ، كما هو قصد معظمهم . يروى ابن تيمية : « قال بعضهم : من عبد الله بالحب وحده ، فهو زنديق ، ومن عبد الله بالخوف وحده ، فهو خارجى ، ومن عبده بالرجاء وحده ، فهو مرجىء ، ومن عبده بالحب ، والخوف ، والرجاء ، فهو مؤمن موحد » . التحفة العراقية فى الأعمال القلبية ص ٦٠، ٦١ .

(٢) مخطوطة بدار الكتب المصرية ضمن مجموعة رقم (٢٦٩٤ . و) .

إلا للمريدين فقط ، لأنهم لا يزالون دون الوصول[١] ، وربما كانت تلك العبادات البدنية ، هي النصف الأول من اجتياز الطريق ، وبعده ينتقل المريد إلى مقامات أخرى ، مثل التوبة والصبر والشكر والخوف والرجاء الخ . على ما يوحى به تقسيم كتاب الإحياء للإمام الغزالى[٢] ، فقد جعل النصف الأول للعبادات أو للفرائض والنوافل التى أشار إليها الإمام الشوكانى ، والنصف الثانى لبيان طريق الصوفية فى إتمام الكمال الروحى للنفس الإنسانية .

وفى هذه المرحلة الثانية التى يمر السالك فيها بالمقامات ، ربما يكتفى بتلك الرياضة التى يسمونها روحية ، وربما يقتصر على الفرائض إلى جانب ذلك ويترك النوافل كما أوصى بذلك الإمام الغزالى[٣] .

ولنضع فى اعتبارنا ، ونحن ننتقل مع هؤلاء نتبين معالم طريقهم أنهم شاكون متحسسون للإيمان باحثون عن الله ، فطريقهم ليس مؤسساً على الإيمان ، وإنما هو يبتدىء من الشك ، ويحاول أن ينتهى بالإيمان .

نتبين هذا فى غايتهم المثلى من التصوف ، وهى مشاهدة الحق سبحانه والاتصال به ، والاطلاع على أسراره ، فكأنهم لا يقتنعون بالإيمان ، إلا إذا كان عن مشاهدة ورؤية ، تعج بهذا أقوالهم فى مقامات التصوف وأحواله ، وقد مر بنا من هذه الأقوال ما يمكن أن نرى فيه ذلك ، من مثل قول إبراهيم

---

(١) ينظر السهروردى الحلبى فى مجموعة فى الحكمة الإلهية ص ١١٤ ، ونلمس هذا أيضاً فى قول أبى سليمان الدارانى : أن الله يفتح للعارف ، وهو على فراشه ، مالا يفتح لغيره وهو قائم يصلى . أنظر أيضاً قطر الولى فى العناوين السابقة .

(٢) إحياء علوم الدين ج ٢ ص ١٩ ، ٢٠ كيمياء السعادة ص — ٩٠ .

(٣) قارن : فى التصوف الإسلامى وتاريخه ص ٦٠ — ٦٢ .

ابن أدهم وابن سينا وغيرهم[١] كما أنه سيستقبلنا من هذا ما يمكن أن نؤكده به هذه الفكرة.

ويكفى أن ننظر فى أصول طريقتهم من الزهد والعزلة والذكر أو العبادة أو الرياضة، فسنجد الغاية منها هى الوصول إلى الإيمان القائم على المشاهدة والكشف، لا الخوف من الله، ولا الرغبة فى جنته، وقد مر بنا قول ابن عربى فى تعريف الأولياء، بأنهم الذين آمنوا الإيمان اليقينى، وكانوا يتقون حجب صفات النفس وموانع الكشف[٢].

أما العبادات والطاعات فى الدين الإسلامى، فهى الفروع بعد الأصل الذى هو الشهادتان، وقد طلبت هذه العبادات من العبد، لمنافع دنيوية وأخروية، وليست لرؤية الله فى الدنيا، كما هو هدف الصوفية، كما أنها لا اعتبار لها، إلا بعد الإيمان القائم على التصديق، والاقتناع، لا المشاهدة.

وهذا هو الفارق الأكبر بين طريق الصوفية وطريق الشرع الكريم، فقد رأيناه كما رسمه الشوكانى يبتدىء بالإيمان، ومن هنا كان تمسك أهل السنة بالتكاليف الشرعية وبهدى الكتاب والسنة، وتذبذب الصوفية بين تلك التكاليف، وبين الابتداعات التى ابتدعوها، وسواء أجعلوا نهاية طريقهم، الفناء أم المعرفة، أم حبهم لله أم المشاهدة أم الحلول أم الاتحاد،

---

(١) ويمكن أن نضيف إلى هذا قول أبى حفص: «منذ عرفت الله تعالى، ما دخل قلبى حق ولا باطل» ص ١٤١ القشيرية، وقول الواسطى: «من عرف الله تعالى، انقطع، بل خرس وانقمع» نفس المصدر. وينظر فى ذلك أيضاً، فصل: المعرفة، الولاية، التوحيد فى القشيرية.

(٢) ص ٨١ من هذه الدراسة.

فإن كل تلك النهايات تتداخل بعضها فى بعض أو تلتقى فى نقطة واحدة، وهى الوصول إلى حضرة الربوبية، أو مشاهدة الذات[١]، ثم الإيمان بعد هذا الوصول، وعلى تلك الحالات.

وهذا هو التسترى يحدد الإيمان، بأنه «معاينة الغيب ومكاشفة اليقين، ومشاهدة الرب»[٢].

ولننظر فى بعض دروب ذلك الطريق، ومسالكه التى يسلكونها للوصول إلى هذا الإيمان، أو ذلك العرفان، ولن نعرض لها إلا بقدر ما نتبين تطرفهم فى سلوكها.

الزهــــد:

وهو المظهر العام للتصوف أو لرياضة المتصوفة، فأبو يزيد البسطامى يقول إنه وجد المعرفة بالله «ببطن جائع وبدن عار»[٣]. وسهل بن عبد الله التسترى كان ينهى عن الأكل الذى يقصد به تقوية البدن، ويرى أن العجز عن أداء العبادات لضعف البدن الناشىء عن قلة الأكل أفضل من القدرة على أدائها مع امتلاء البطن، وأن صلاة الجائع الذى قد أضعفه الجوع قاعداً، أفضل

---

(١) ينظر هذه الدراسة ص ١٢٨، والمدخل إلى التصوف الإسلامى ص ٥٣، ٦٦ والمنقذ من الضلال ص ١٣١ — ١٣٢، والإشارات والتنبيهات لابن سينا قسم ٤،٢ ص ٧٦٢ — ٧٦٥.

(٢) التصوف طريقاً وتجربة ومذهبا للدكتور محمد كمال جعفر ص ٢٠٧.

(٣) الرسالة القشيرية ص ١٤، نذكر أيضاً بصدد ذلك قول إبراهيم بن أدهم أن الراهب الذى تعلم منه المعرفة، لم يكن يتناول فى اليوم إلا حمصة.

من صلاته قائماً[١] . ونسوا قوله صلى الله عليه وسلم : « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف » .

ويعلق ابن الجوزى على ذلك ، بأن الإنسان إذا تقوى على القيام فى الصلاة بالطعام ، كأن تناول هذا الطعام عبادة لأنه يعين على العبادة ، « وإذا تجوع إلى أن يصلى قاعداً ، فقد تسبب إلى ترك الفرائض فلم يجز له » ثم يتساءل : « أى قربة فى هذا الجوع المعطل أدوات العبادة ؟ »[٢]

ويعلق على كتاب الحكيم الترمذى الذى سماه (رياضة النفوس) بأنه فى هذا الكتاب الذى يأخذ المريد بالشدة والمبالغة فى إطالة الصوم ، يقضى على أفراح النفس ، ويمنعها لذتها فتمتلىء غماً[٣] . وفى ذلك كبتها وتمويتها عن

---

(١) الإحياء للغزالى جـ ٣ ص ٨٧ . فى التصوف الإسلامى وتاريخه ص ٥١ ، قارن تلبيس إبليس ص ٢٠٤ .

(٢) المصدر المتقدم ص ٢٠٤ .

(٣) نفس المصدر ص ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ينظر أيضاً (مجموعة فى الحكمة الالهية) للسهروردى ص ١١٤ فهناك يقول « والصوم وأحسنه ما يؤخر فيه الإفطار إلى السحر لتقع العبادة فى الليل على الجوع » فهنا فضلا عن إرهاق النفس بتأخير الإفطار إلى السحر مخالفة لحديث شريف صريح فى هذا « ماتزال أمتى بخير ما عجلوا الفطر وأخروا السحور » والحديث يرمى من تعجيل الفطر ، إلى إظهار امتثال أوامر الرب ، حيث يمتنع عن الأكل حيث الأمر بالامتناع ، وحيث يبادر إليه حين يؤذن له فيه ، ففى هذا تقدير لله ولأمره حق قدره ، كذلك قصد بتأخير السحور معنى صحياً حيوياً ، ففى تأخيره إعطاء فرصة لهضم طعام الإفطار ، ثم إراحة المعدة بعد ذلك ، حيث أنها قد عملت بعد طول راحة وفراغ ، وعدم إرهاق الجسم بتطويل فترة الصيام عليه ، وخاصة إذا كان يقضى نهاره فى العمل . وبذلك نرى أن كلام الرسول صلى الله عليه وسلم هو عين الحكمة ، وكلام الصوفية من أمثال السهروردى ، أبعد ما يكون عن الحكمة والعقل .

النهوض بواجبها الدنيوى والأخروى وفى هذا يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ما معناه : « نفسك راحلتك فارفق بها حتى تبلغ المنزل » .

ويروى ابن الجوزى بهذه المناسبة قوله صلى الله عليه وسلم : « من أصابه جهد فى رمضان فلم يفطر فمات دخل النار » ويقول بأن كل رجال هذا الحديث ثقات ، ويورده من طريق آخر أيضا [١] تأكيداً لصحته ، وحديثا آخر بإسناده : « إن الله عز وجل يحب أن يرى آثار نعمته على عبده فى مأكله ومشربه » [٢] .

وهذه الرياضة الزهدية ، تتناول ضمن ما تتناول امتناعهم من أكل اللحوم والحلوى والفواكه ، والماء البارد ، والاكتفاء بخبز الشعير والملح ، ومن قول بعضهم فى ذلك : « أكل درهم من اللحم يقسى القلب أربعين صباحاً » [٣] .

فهذا الامتناع عن أكل اللحم إنما هو مذهب البراهمة الذين لا يرون ذبح الحيوان ، وليس من الإسلام فى شىء . وأن الله عز وجل أعلم بمصالح الأبدان ، فأباح اللحم لتقويتها « فأكل اللحم يقوى القوة وتركه يضعفها ويسىء الخلق ، وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم ، يأكل اللحم ويحب الذراع من الشاة » [٤] ، « ويأكل الدجاج ويحب الحلوى ويستعذب الماء البارد » [٥] ، « وكان الحسن البصرى يشترى كل يوم لحما ، وعلى هذا كان السلف » [٦] .

---

(١) نفس المصدر ص ٢٠٥ .
(٢) نفس المصدر ص ٢١٢ — ٢١٣ .
(٣) نفس المصدر ص ٢٠٣ .
(٤) نفس المصدر ص ٢٠٥ ، ٢٠٦ .
(٥) نفس المصدر ص ١٤٦ .
(٦) نفس المصدر ٢٠٥ ، ٢٠٦ .

هذا إلى أن منع النفس شهواتها على الإطلاق ضار بالبدن فإن البدن محتاج فى قوامه إلى مختلف أنواع الأغذية : « وقد ركب فى الطبع الميل إلى ما تميل إليه النفس وتحتاجه ، فإذا مالت النفس إلى ما يصلحها فمنعت فقد قوبلت حكمة البارى سبحانه وتعالى بردها ، فكان هذا مخالفا للشرع والعقل »[١] .

على أن ذلك النوع من الحرمان والرياضة ، إنما يفرض أكثر ما يفرض على الشبان المريدين والمبتدئين فى الطريق ، « ومن أضر الأشياء على الشاب الجوع ، فإن المشايخ يصبرون عليه والكهول أيضا » ولكن الشبان لا يصبرون على الجوع ، والسبب فى ذلك « أن حرارة الشاب شديدة فلذلك يجود هضمه ، ويكثر تحلل بدنه فيحتاج إلى كثرة الطعام ، كما يحتاج السراج الجديد إلى كثرة الزيت . فإذا صابر الشاب الجوع وتشبثه فى أول النشوء قمع نشوء نفسه ، فكان كمن يعرقب أصول الحيطان » إضافة إلى ذلك أن المعدة ، حينما لا تجد غذاء فإنها تتجه إلى « أخذ الفضول المجتمعة فى البدن فتغذيه بالأخلاط فيفسد الذهن والجسم معا[٢] .

وواضح أن هذا أسلوب لا يقره عقل ولا شرع ، بل إن الزهد بهذا المعنى لم يرد فى الدين الإسلامى أصلا ، وما ورد فى القرآن من لفظ الزهد ، فليس إلا لفظة واحدة ، وجاءت بمعنى عدم الرغبة من جانب القافلة السيارة فى إبقاء يوسف ﷺ على ملكيتهم فى قوله تعالى : (وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين)[٣] ، لا بذلك المدلول الاصطلاحى لهذا

---

(١) نفس المصدر والصفحة . قارن ص ١٤٧ من المصدر المتقدم .

(٢) تلبيس إبليس ص ٢٠٧ .

(٣) سورة يوسف آية : ٢٠ .

الزهد الصوفي[١] ، وما جاء من الآيات القرآنية أو الأحاديث النبوية مما يشعر أنه يوحي بهذا المعنى الاصطلاحي الصوفي ، من مثل قوله تعالى : (اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو ، وزينة وتفاخر بينكم ، وتـكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الـكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ، ثم يكون حطاما وفي الآخرة عذاب شديد ، ومغفرة من الله ورضوان ، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور)[٢] . أو قوله تعالى : (زين للناس حب الشهوات ، من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا ، والله عنده حسن المآب »[٣] ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « ازهد في الدنيا يحبك الله ، وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس » فليس المراد منه ذم الدنيا لذاتها ، وإنما إذا تـكالب عليها الناس وضيعوا حدود الله ، وجاروا على الدين في سبيلها ، وحصلوها من غير حلها بدليل قوله تعالى : « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق » ؟ والحديث المتقدم : « إن الله يحب أن يرى آثار نعمته على عبده »[٤] فليس في الإسلام زهد بهذا المعنى التصوفي ، وإنما الزهد المشروع إذا قلنا إن هناك زهد ، هو ترك ما لا ينفع في الدار الآخرة » ، « وأما كل ما يستعين به العبد على طاعة الله فليس تركه من الزهد المشروع ، بل ترك الفضول التي تشغل عن طاعة الله ورسوله هو المشروع »[٥] .

---

(١) قارن : الصلة بين التصوف والتشيع جـ٢ ص ٢٥٦ .

(٢) سورة الحديد آية : ٢٠ .

(٣) سورة آل عمران آية : ١٤ .

(٤) ينظر تفسير الإمام الشوكاني جـ ٥ ص ١٧٠ ، ١٧١ . تلبيس إبليس ص ١٤٥ .

(٥) مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية جـ ١ ص ٢٢٠ ، تلبيس إبليس ص ١٤٦ والتحفة العراقية في الأعمال القلبية ص ١٤ .

على أن عقيدتهم فى أن الزهد طريق وصل إلى معرفة الله ، أو إلى مشاهدته ليست أصيلة ولا ثابتة ، فإنهم ما لبثوا أن انقلبوا إلى حب الدنيا ولو من غير حلها بعد أن كانوا زاهدين فيها ، وملأوا بطونهم من أصناف الأطعمة إلى حد الإسراف والتخمة ، وأصبحوا بعد القرن الثالث الهجرى أهل دنيا ، وإن ادعوا أنهم أرباب دين ، وأهل شراهة وتخمة ، وإن ادعو أنهم أهل قناعة ورياضة[1] . وهذا أكبر دليل على أنهم لا يوقنون بأن الزهد والجوع ، طريق إلى المعرفة أو الحب الإلهى ، وإنما هى أمور تأثروا فيها بغيرهم ، من أبناء الديانات السابقة[2] وقلدوهم خاطئين ، ثم لم يلتزموا بهذا التقليد فى كثير من الأحيان . وما أشبههم فى هذا بعملاء الكلبيين من فلاسفة اليونان فى العصر القديم ممن أتوا بعد سقراط ، فقد ادعوا فى أول أمرهم أنهم يسيرون على هدى سقراط ، « ويؤمنون بآرائه الأخلاقية » وأن الثروة ليست هى التى تخلق السعادة ، وإنما الفضيلة والقناعة هما اللتان تنتجان ذلك ، ونصبوا أنفسهم أساتذة للناس ولكنهم ما لبثوا أن اندفعوا فى شهواتهم ، وهتكوا حجاب الحياء « واستحلوا التناول من مال الناس بغير إذن ... »[3] .

الترهب وترك الزواج :

والفكرة العامة عندهم « أن التجرد عن الأزواج والأولاد ، أعون على الوقت للفقير ، وأجمع لهمه ، وألذ لعيشه .... والتزوج ، انحطاط من العزيمة

(١) تلبيس إبليس ص ٢١٤ ، رسالة (الدواء العاجل فى دفع العدو الصائل) للإمام الشوكانى هامش ص ٦٢ ضمن رسالة (شرح الصدور بتحريم رفع القبور) للشوكانى أيضاً .

(٢) فى التصوف الإسلامى وتاريخه ص ٤٧ ، ٢٢٧ .

(٣) جمال الدين الأفغانى . للدكتور محمود قاسم . ص ١٢٠ — ١٢٣ .

إلى الرخص[١]، ورجوع من التزوج إلى النقص، وتقييد بالأولاد والأزواج، ودوران حول نطاق الاعوجاج، والتفات إلى الدنيا بعد الزهادة»[٢] هكذا يلخص أبو حفص عمر السهروردي رأى الصوفية فى الزواج وأنه عائق عن الوصول، ثم يروى لأبى سليمان الدارانى رأيه فى ذلك ومنه قوله: «ما رأيت أحداً من أصحابنا تزوج فثبت على مرتبته»[٣].

ويروى الشعرانى لرياح بن عمرو القيسى قوله: «لا يبلغ الرجل إلى منازل الصديقين حتى يترك زوجته كأنها أرملة، وأولاده كأنهم أيتام، ويأوى إلى منازل الكلاب»[٤].

ومرجعنا فى إبطال هذا الاتجاه قوله صلى الله عليه وسلم: «إن الله عز وجل لم يبعثنى بالرهبانية»[٥] وقوله صلى الله عليه وسلم ردا على من أرادوا التشديد على أنفسهم فى العبادة وحياة الرهبنة «... أما والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكنى أصوم وأفطر، وأصلى وأرقد، وأتزوج النساء، فمن

---

(١) ونرى هنا أنهم جعلوا الزواج رخصة مع أنه فى واقعه عزيمة وفرض واجب، وعلى فرض أنه رخصة فالمستحب إتيانه أيضاً دون أن يكون فى ذلك انحطاط، لقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما تؤتى عزائمه».

(٢) عوارف المعارف للسهروردى ص ٨٠، ٨١ من هامش إحياء علوم الدين ج١.

(٣) نفس المصدر ص ٨١.

(٤) فى التصوف الإسلامى وتاريخه ص ٥٦ عن طبقات الشعرانى ج١ ص ٤٠ - ٥٧ من المصدر الأول. ، حلية الأولياء ج ٦ ص ١٩٤ طبعة الخانجى الطبعة الأولى وفيها يروى (رياح) هذه العبارة عن مالك بن دينار.

(٥) ابن الجوزى فى تلبيس إبليس ص ٢١٣.

رغب عن سنتى فليس منى »[(١)] .

وهناك أمراض عدة تصيب تارك الزواج ، منها : (الماليخوليا) ، (فقدان الشهية)[(٢)] ، (سوء الهضم)[(٣)] الخ .

هذا إلى أن هؤلاء ينحرفون إلى صحبة الصبيان ، والتعلق بالمرد منهم[(٤)] .

السماع والغناء :

قد جعل الصوفية ، الاستماع إلى الغناء . والأشعار الملحنة ، والأصوات الموقعة[(٥)] . طريقا إلى حب الله أو إلى معرفته ، وذلك لما فى الغناء والألحان

---

(١) صفوة صحيح البخارى ح ٤ ص ٢ — ٥ ويعلق على ذلك شارح هذا الحديث « فيفطر ليتقوى على الصوم ، وينام ليتقوى على القيام ، ويتزوج لإعفاف النفس وتكثير النسل » هامش ص ٥ .

(٢) وينقل ابن الجوزى عن (أبى بكر محمد بن زكريا الرازى) الطبيب المشهور (٨٥٠ — ٩٢٣) أنه يعرف قوما . لما منعوا أنفسهم من الجماع لضرب من التفلسف بردت أبدانهم وعسرت حركاتهم ، ووقعت عليهم الكآبة بلا سبب وعرضت لهم أعراض الماليخوليا ، وقلت شهواتهم وهضمهم ، قال : ورأيت رجلا ترك الجماع ، ففقد شهوة الطعام ، وصار إن أكل القليل لم يستمرئه وقاياه ، فلما عاد إلى عادته من الجماع سكنت عنه الأعراض سريعا » تلبيس إبليس ص ٢٨٥ ، ٢٨٦ . وهذا ما يؤيده أيضاً الطب الحديث .

(٣) تلبيس إبليس ص ٢٨٥ .

(٤) نفس المصدر ص ٢٨٦ ، ليلى والمجنون فى الأدبين العربى والفارسى ص ١٦٢ ، ١٣٧ ، ١٣٨ .

(٥) اللمع لأبى نصر السراج ص٣٤٧ ، الرسالة القشيرية ص١٥١ ، وعوارف المعارف ص ١٠٥ — ١٠٩ .

من الإشارة وتحريك الوجد ، والذهاب مع الخيال كل مذهب ، وقد سئل بعض الصوفية عن « المشايخ الذين لقيهم » كيف كان يجدهم وقت السماع ؟ فقال مثل قطيع الغنم إذا وقع فى وسطه الذئاب »[١] . ويظهر أن التحرك والصياح وقت السماع ، كان مظهراً مألوفاً ونتيجة طبيعية لهذا السماع ، فقد سئل الجنيد : « كنت تسمع هذه القصائد وتحضر مع أصحابك فى أوقات السماع ، وكنت تتحرك ، والآن فأنت هكذا ساكن الصفة ، فقرأ عليهم الجنيد هذه الآية : وترى الجبال تحسبها جامدة ، وهى تمر مر السحاب »[٢] .

وقد قسموا هذا السماع بالنسبة للخاصة على ثلاثة أوجة : « وجه للمريدين يستدعون بذلك الأحوال الشريفة ، والثانى للصديقين يطلبون الزيادة فى أحوالهم ، والثالث لأهل الاستقامة من العارفين ، فهم لا يعترضون ولا يتأبون على الله فيما يرد على قلوبهم حين السماع من الحركة والسكون[٣] »

ومما يدل على أن السماع له اعتباره فى سلوك الصوفية ، أننا نجد معظم المؤلفين فى التصوف والمراجع الأساسية فيه ، تهتم به فتعقد له بابا أو كتابا خاصا ، ضمن بقية أبواب المؤلف وكتبه . مثل مافعل السراج[٤] والقشيرى[٥] والسهروردى البغدادى[٦] .

---

(١) اللمع ص ٣٦١ .

(٢) نفس المصدر ص ٣٦٧ ، قارن الرسالة القشيرية ص ١٥٥ . قارن : السهروردى الحلبى مجموعة فى الحكمة الإلهية ص ١١٤ .

(٣) اللمع ص ٣٤٩ ، والرسالة القشيرية ص ١٥٤ .

(٤) اللمع من ص ٣٣٨ — ٣٧٤ .

(٥) الرسالة القشيرية طبعة صبيح سنة ١٩٥٧ من ص ٥١ — ١٥٨ .

(٦) عوارف المعارف على هامش الإحياء ص ١٠٥ .

وقد لبسوا على الناس فى شرعية الوصول إلى الله عن طريق هذا السماع واعتباره عبادة من العبادات التى تتبع فى الطريق إلى ولاية الله ، فاستدلوا على شرعيته ، بمثل قوله تعالى : « الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله ... »[١] ، فإن سماع الصحابة والتابعين لم يكن على شاكلة سماع الصوفية ، بل كانوا كما قال فيهم القرآن الكريم : (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا)[٢] ، (الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها ، مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله)[٣] . فلم يكن على شاكلة هذا السماع للصوفية ، وإنما كان فيه من السكينة ، وحسن الاستماع ، ما يضفى على مجلس الاستماع هيبة ووقاراً ، ولم يكن استماعهم فى باب العبادة ، لغير القرآن وحديث الرسول ﷺ[٤] .

أما هؤلاء المتصوفة ، فكان من النادر عندهم فى باب العبادة استماعهم القرآن ، وكان أندر منه أن يتأثروا لسماعه . قال الخواص ، وقد سئل « مابال الإنسان يتحرك عند سماع غير القرآن ، ولا يجد ذلك فى سماع القرآن ، فقال ، لأن سماع القرآن صدمة لا يمكن لأحد أن يتحرك فيه لشدة غلبته ، وسماع القول ترويح فيتحرك فيه »[٥] . والحقيقة أن سماع القرآن ، لم يكن يصاحبه دف ولا شبابة ، وغيره كان يصاحبه الدف والشبابة وغيرها من أدوات

---

(١) سورة الزمر آية : ١٨ .

(٢) التحفة العراقية فى الأعمال القلبية لابن تيمية ص ٨٥ .

(٣) سورة الزمر آية ٢٣ ، وينظر رسالة (الصوفية والفقراء لابن تيمية ص ٦)

(٤) مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية ص ٣٨ ، ٣٩ جـ ١ .

(٥) الرسالة القشيرية ص ١٥٥ . والترويح هو إثارة النفس من جميع نواحى الإحساس فيها ، وجعلها فى موقف الحيرة والدهش .

الطرب ، فتأثرهم وتحركهم فى الحقيقة ، إنما هو للحن والنغمة للموسيقية ، التى كان يختارها للوقع ، حسب هوى نفوس المستمعين وحسبما يريد من نوع الإثارة .

ومن هذا التلبيس ، أنهم استدلوا ، باستماع الرسول ﷺ لشعر كعب ابن زهير وحسان وغيرهم فى الأحوال العادية ، لا فى حال العبادة ، واستماعه لبعض الغناء البرىء من بعض الجوارى ، على إباحة الغناء وسماعه وإنشاد القصائد وتوقيعها ، وسط التصفيق والحركات الشاذة ، كطريق من طرق العبادة والذكر[١] . وانتقل أبو القاسم القشيرى من سماع الرسول ﷺ لقصيدة كعب بن زهير وغيرها ، بغير ألحان إلى إباحتها « بالألحان الطيبة[٢] » كباب من أبواب التعبد والذكر . وهذا من المغالطة بمكان ، فإن استماع الرسول لهذه الأشياء كما قلنا ، كان فى غير التعبد ، فكيف يستدلون بهذا على إباحته فى العبادة ، أو جعله طريقا من طرق الذكر والوصول ؟

فليست هذه طريق الرسول ﷺ ولا طريق الصحابة رضى الله عنهم فى الحياة والذكر ، وإنما كانوا إذا اجتمعوا وأرادوا السماع والذكر قرأ واحد منهم القرآن والباقى ينصتون[٣] ، ولم يحدث فى الصحابة ولا التابعين ، أنهم اجتمعوا لسماع القصائد الربانية ، لا بكف ، ولا قضيب أو دف ، أو شبابة ولا بدونها ، لا فى الحجاز ولا فى الشام ولا فى اليمن ولا فى العراق ولا مصر ، ولا خراسان ولا المغرب ، وما ينقل خلاف ذلك فهو كذب وافتراء ، باتفاق

---

(١) الرسالة القشيرية ص ١٥١ ، ١٥٢ ، اللمع ص ٣٣٨ — ٣٤٧ .

(٢) المصدر المتقدم ص ١٥١ .

(٣) التحفة العراقية لابن تيمية ص ٥٨ ، ٥٩ ، مجموع الرسائل والمسائل ص ٣٨ .

أهل الآفاق من أهل العلم وأهل الإيمان[١] .

وما يدعونه من أن الغناء بالقصائد الربانية وسماعها على طريقتهم ينتج حب الله وذكره فهو ادعاء باطل، فكل ماينتجه « تحريك جنس الحب الذى يحرك من كل قلب ما فيه من الحب بحيث يصلح ، لحب الأوتار والغلمان ، والإخوان ، والأوطان ، والمردان والنسوان ، كما يصلح لحب الرحمن »[٢] .

وإن كنت لا أوافق ابن تيمية على هذه العبارة الأخيرة ، فهو فى الحقيقة يحرك جنس الحب ، إلا حب الرحمن ، إلا إذا تخيلوا الرحمن — حسب ضلالهم — فى جودات الجميلة ، من المرد والنساء كما هو حالهم[٣] .

وهذه الرهبانية التى ابتدعوها كطريق مفضل فى الوصول إلى الله قد ألفوها ، باشتراع السماع والغناء ، فإنه إلى جانب أنه يلهى القلب عن التفكر فى عظمة الله سبحانه والقيام بعبادته ، فإنه يهفو به إلى اللذات والشهوات الحسية ، ومعظمها النكاح « وليس تمام لذته إلا فى المتجددات ، ولا سبيل إلى كثرة المتجددات من الحل » فلذلك يوقع فى الزنا « فبين الغناء والزنا تناسب من جهة أن الغناء لذة الروح ، والزنا أكبر لذات النفس ، ولهذا جاء فى الحديث : « الغناء رقية الزنا »[٤] .

ويقرن ابن تيمية الغناء بالخمر ، وأن من تأثر به ، يفعل فعل من تأثر بشرب الخمر « فالمعازف خمر النفوس تفعل بها أعظم مما تفعل حميا الكؤوس ، فإذا

---

(١) مجموع الرسائل والمسائل جـ ١ ص ٣٨ ، ٣٩ .

(٢) التحفة العراقية ص ٥٦ .

(٣) ليلى والمجنون فى الأدبين العربى والفارسى ص ١٦٢ عن مصارع العشاق للسراج طبعة القسطنطينية سنة ١٣٠١ .

(٤) تلبيس إبليس ص ٢١٥ .

سكروا بالأصوات حل فيهم الشرك ومالوا إلى الفواحش والظلم ، فيشركون ويقتلون ويزنون . وهذه الثلاثة موجودة كثيراً في أهل سماع المعازف[١] ثم يذكر قصصا وحوادث لهم ، ومنها مارآه بنفسه[٢] .

فإذا كان هذا أثر هذا النوع من السماع فى النفس ، فكيف يكون طريقا إلى ولاية الله وحبه ؟ : وهذا نتيجة كل تزيد وابتداع فى العبادات ، وإضفاء اسم القرب على مثل هذه الأشياء ، وهى ليست فى الواقع إلا قرب للشيطان لا الرحمن ، ولهذا فإن هذا السماع المحدث ليس من القرب فى شىء ، لأن القرب والعبادات إنما تؤخذ عن الرسول صلى الله عليه وسلم « فكما أنه لا حرام إلا ما حرمه الله ، لا دين إلا ما شرعه الله »[٣] .

الخلوة والعزلة :

والخلوة والعزلة من المجاهدات العملية التى من شأنها أن تهىء السالك « لأحوال الوجد والفناء والمعرفة »[٤] ، لأنها فى رأيهم تبديل الخصال المذمومة

---

(١) مجموع الرسائل والمسائل ص ١٠١ ، ١٠٢ ج ٥ .

(٢) ينظر نفس المصدر ص ١٠٢ ، ١٠٣ . ويرى ابن تيمية أيضاً أن سماع الصوفية هذا ، هو سماع أهل الجاهلية وصلاتهم ، التى قال فيها القرآن الكريم « وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية ، فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون » . وأن نتيجته ليست إلا وجدا فى الهوى مذموم ، وأما لطم وشق ثياب وصياح كصياح المحزون المحروم ، إلى غير ذلك من الآثار الشيطانية التى تعترى أهل الاجتماع على شراب إذا سكروا به » مجموعة الرسائل والمسائل ج ١ ص ٣٨ ، ٥٧ .

(٣) التحفة العراقية فى الأعمال القلبية ص ٥٦ ، ٥٧ .

(٤) ابن عطاء السكندرى وتصوفه ص ١٣٨ ، ١٣٩ .

والاتصاف بالكمال الخلقى فى أسمى صوره[١] ، فهى صفة أهل الصفوة ، ومن آمارات الوصلة ؛ وقد جعلوها ضرورية للمريد فى ابتداء أمره[٢] ، فهى فى مقدمة الطرق الموصلة إلى الله . أو الموصلة إلى الإيمان والمجددة له[٣] ، فقد اهتم بها الصوفية ، وعقدوا لها الفصول الخاصة فى كتبهم[٤] ، وساقوا الأقوال المأثورة فى بيان فضيلتها وحث طوائفهم على التزامها ، ومن ذلك قول ذى النون المصرى : « لم أر شيئا أبعث على الإخلاص من الخلوة » ؛ وقول أبى عبد الله الرملى : « ليكن خدنك الخلوة ؛ وطعامك الجوع ، وحديثك المناجاة ، فإما أن تموت وأما أن تصل إلى الله[٥] .

وتمثل الخلوة اتجاه الصوفية السلبي نحو الحياة والناس :

فالجنيد يقول: « ومن أراد أن يسلم له دينه ، ويستريح بدنه وقلبه فليعتزل الناس »[٦] فبدلا من أن ينفذوا قول الله تعالى : ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر »[٧] ، وقول الرسول ﷺ « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ؛ وهذا أضعف الإيمان » ، تركوا الناس لشرهم ونجوا بأنفسهم بل وصلوا بحالة السلبية هذه فى بعض الحالات إلى أن تركوا نفوسهم

(١) نفس المصدر والصفحة ، والرسالة القشيرية ص ٥٠ .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

(٣) اللمع ، للسراج ص ٢٧١ ، ٢٧٧ .

(٤) ينظر السراج فى اللمع ، والرسالة القشيرية .

(٥) الرسالة القشيرية ص ٥١ .

(٦) المصدر المتقدم ص ٥١ .

(٧) سورة آل عمران آية : ١٠٤ .

على ما هي عليه من شر ، وخلوا بها بعيداً عن الناس ، حتى لا يصيب الناس من شرهم شيء ، وقد أبرز هذا أبو القاسم القشيري كتعليل للخلوة في قوله : « ومن حق المتعبد إذا آثر العزلة ، أن يعتقد باعتزاله عن الخلق سلامة الناس من شره ، ولا يقصد سلامته من شر الخلق »[١]. وكان الواجب أن يروض الواحد منهم نفسه على معاملة الناس بالحسنى ، بدلا من أن ينأى عنهم . ثم إننا نلمس في هذه العبارة تواضعا كاذبا ، أكده بقوله بعد ذلك : « فإن الأول من القسمين نتيجة استصغار نفسه ، والثاني شهود مزيته على الخلق ، ومن استصغر نفسه فهو متواضع ، ومن رأى لنفسه مزية على أحد فهو متكبر »[٢]. والواقع أن كلا الاتجاهين سواء في معارضة الإتجاه القرآني[٣].

وهم في هذه الخلوات قد ركبوا من الشطط فخرجوا بها على الدين ، وبدلا من أن توصلهم إلى الله أوصلتهم إلى الشيطان .

يعلق الإمام الشوكاني على قول أبي القاسم القشيري : « ولا يتم قرب العبد من الحق إلا ببعده عن الخلق »[٤] بقوله : « فهذا إنما يكون فيمن لا نفع فيه للعباد » . أما من كان يفيدهم بعلم ، أو أمر بمعروف أو نهي عن منكر أو جهاد في سبيل الله وقيام بما أوجب الله على مثله القيام به ، فهذا يكون قربه من الخلق أقرب إلى الحق »[٥].

---

(١) الرسالة القشيرية ص ٥٠ .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

(٣) ينظر قطر الولي في (العزلة والولاية) .

(٤) الرسالة القشيرية ص ٤٢ .

(٥) قطر الولي في العنوان المتقدم .

فالزاهد على هذا كما قال ابن الجوزى « لا يتعدى نفعه عتبة بابه ، والعالم نفعه متعد ، وكم قد رد إلى الصواب من متعبد »(١).

بل الغالب أنه لا نفع هناك مطلقاً فى تلك الخلوات ، فمعظمهم قد قصد إليها دون علم ودين ، فقد يخرج الشخص منهم إلى الجبال ، فيبعد عن الجمعة والجماعة والعلم ، وقد يكون له عائلة فتضيع أو والدين فيقطعهما ، وقد يكون عليه مظالم لم يخرج منها فيضيعها على أصحابها ، وهو مع ذلك لا يعرف أركان الصلاة(٢) ويروى ابن الجوزى أن النبي ﷺ نهى أن يبيت الرجل وحده ، وأن بعض السلف قال : « خرجنا إلى جبل نتعبد ، فجاءنا سفيان الثورى فردنا »(٣).

وهكذا يقصدون الأماكن التى ليس فيها أذان ، ولا مسجد يصلى فيه ، بل لا يتجهون إلا إلى المساجد المهجورة والمقابر وخاصة ، إذا كانت لأناس من صالحيهم . وذلك كما كان يفعل ابن عربى فى خلواته حسبما حدثنا بذلك عن نفسه(٤) . ومن اعتزل منهم فى الأربطة قد فاتهم السعى إلى المساجد

---

(١) تلبيس إبليس ص ١٤٦ .

(٢) نفس المصدر ص ١٤٥ ، ٢٧٨ .

(٣) نفس المصدر والصفحة .

(٤) فقد قال فى الفتوحات المكية : « ولقد كنت انقطعت فى القبور مدة ، منفرداً بنفسى فبلغنى أن شيخنا يوسف بن يخلف (خلف) الكومى قال : إن فلانا — وسمانى — ترك مجالسة الأحياء ، وراح يجالس الموتى ، فبعث إليه ، وقلت : لو جئنى لرأيت من أجالس . فصلى الضحى ، وأقبل إلى وحده مامعه أحد ، فطلب على ، فوجدنى بين القبور قاعداً مطرقا ، وأنا أتكلم على من حضرنى من الأرواح ، فجلس إلى جانبى بأدب قليلا قليلا . فنظرت إليه فرأيته قد تغير لونه =

« وتوطنوا فراش الراحة وتركوا الكسب »(١).

وبينما نجد ابن الجوزى وابن تيمية ينعيان عليهم ذلك، إذا بنا نجد السراج يتكلم بلسان الدعوة لهذا الاتجاه ويعلى من شأنه ، ومن ذلك ما يرويه عن بعضهم : « كان أبو المسيب رجلا كبيراً ، وكان ينفرد فى المساجد الشعثة ، فصادفته ليلة فى مسجد ، فقلت له : من أين أنت ؟ قال لى: أنا من كل مكان . فقلت : من كان من كل مكان ، فما علامته ؟ قال لا يستوحش من شىء ، ولا يستوحش منه شىء . قال : فحملت إليه الشبلى فنظر إليه ، وقال : ليس هذا من دواب الاصطبل ، وإلا فأين سمته ؟ قال : فصاح الشبلى ، واطم وجهه

وضاق نفسه ، وكان لا يقدر أن يرفع رأسه من الثقل الذى نزل عليه وأنا أنظر إليه وأبتسم ، فلا يقدر أن يبتسم لما هو فيه من الكرب، فلما فرغت من الكلام، وصدر الوراد ، خفف عن الشيخ ، واستراح ، ورد وجهه إلى ، فقبل بين عينى، فقلت له : « يا أستاذى ! من يجالس الموتى أنا أو أنت ؟ » « قال : « لا والله : بل أنا أجالس الموتى . والله لو طال على الحال فطست » فكان يقول :من أراد أن يعتزل عن الناس ، فليعتزل مثل فلان » الفتوحات المكية جـ٣ ص ٥٨،٥٩، أنظر (ابن عربى) حياته ومذهبه. لآسين بلا ثيوس ترجمة الدكتور عبدالرحمن بدوى . ص ١٧ ، ١٨ .

فنرى من هذا أن الخلوة على هذا الوجه ، كانت أسلوباً متبعاً ،ومنتجاً عندهم فى مراحل الطريق الصوفى ، بل وتكاد أن تكون أرقى الأساليب عندهم فى التعمق فى أسرار الطريق ، وحالات الوجد والفناء ، كما يشير إلى ذلك تعليق شيخ ابن عربى على هذا النوع من الخلوة .

(كان لأستاذى الدكتور محمود قاسم الفضل فى إرشاده لى باستكمال فكرة اختلاء الصوفية فى المقابر ، بما كان يفعله ابن عربى فى رياضته الصوفية باعتزاله فى المقابر) .

(١) مجموعة الرسائل والمسائل جـ ٥ ص ٩٣ ، تلبيس إبليس ص ٢٧٨ .

وهام ، وهو يقول : صـدق والله ، إن كان من من دواب الإصطبل فأين سمنه ؟ » (١) .

الخلوة والعلم اللدنى :

ومن لوازم الوصول إلى الله عند الصوفية أو من مظاهره ، رؤية الله سبحانه أو ملائـكته ، وتنزل العلم اللدنى على قلوب الأولياء والواصلين ، والخطوة المباشرة لذلك هى الخلوة(٢) . ويرسم لنا أبو حامد الغزالى الطريق إلى مثل ذلك النوع من الخلوات وما يتخذ فى ذلك من المجاهدات والرياضيات فيقول : والطريق إلى ذلك يكون أولا بانقطاع علائق الدنيا بالـكلية ، وقطع الهمة عن الأهل والوطن وعن العلم ، ثم « يخلو بنفسه فى زاوية مع الاقتصار على الفرائض والرواتب ويجلس فارغ القلب مجموع الهمة ، ولا يفرق فـكره بقراءة قرآن ، ولا بالتأمل فى تفسير ، ولا بكتب حديث . . . فلا يزال بعد جلوسه فى الخلوة قائلا بلسانه : الله الله على الدوام مع حضور القلب ، حتى ينتهى إلى حالة يترك فيها تحريك اللسان ، ويرى كأن الـكلمة جارية على لسانه . . . ، ويبقى معنى الـكلمة مجرداً فى قلبه حاضراً فيه . . . وعند ذلك إذا صدقت إرادته وصفت همته ، تلمع لوامع الحق فى قلبه »(٣) وذلك عن طريق أحد بابى العلوم فيه وهو الباب الخاص بالأحلام ، وبالعلم الذى لا يأتى

(١) اللمع ص ٢٧٧ – ٢٧٨ .

(٢) عوارف المعارف للسهروردى ص ١٧٧ — ١٧٩ ، المنقذ من الضلال للغزالى ص ١٣٠ ، مجموعة الرسائل والمسائل جـ ٥ ص ٨٥ .

(٣) الإحياء جـ ٣ ص ١٩ ، ٢٠ ، كيمياء السعادة ص ٨٨ ، وقارن : المنقذ من الضلال ص ١٣٠ — ١٣٢ .

عن طريق اليقظة والحواس وهو علم الأنبياء عليهم السلام[١] .

وبعضهم يرى أن هذه الخلوة تكون أربعين يوماً ، تقطع فى الصيام مع التقليل من الطعام فى أثنائه ، والاقتصار على ما يقيم الأود ، معتمدين فى ذلك على الحديث الذى ينسبونه للرسول صلى الله عليه وسلم : « من أخلص لله أربعين صباحا ، ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه »[٢] ، وعلى أن موسى عليه السلام ، لم يتلق الألواح إلا بعد صيام الأربعين ليلة صياما متواصلا ، لم يدخل معدته فيها طعام ، فدل هذا على أن خلو المعدة من الطعام أصل كبير فى الباب ، حتى احتاج موسى إلى ذلك استعداداً لمكالمة الله سبحانه « والعلوم اللدنية فى قلوب المنقطعين إلى الله تعالى ضرب من المكالمة »[٣] . ويستدلون على ذلك أيضا وعلى تعظيم أمر هذه الخلوة ، بأن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يأته الوحى إلا بعدها فى غار حراء .

وطريقة أبى حامد هذه طريقة غير مشروعة ، فإنها فضلا عما فيها من مجانبة القرآن والحديث ، فإنها تقتصر على أداء الفرض ، والنافلة من المعروف أنها من دلائل كمال طاعة العبد لله كما أن الذكر بالاسم المفرد مظهراً ، أو مضمراً[٤] بدعة فى الشرع وخطأ فى القول واللغة ، فإن الاسم المجرد ، ليس

---

(١) نفس المصدر ص ٨٦ — ٩١ .

(٢) عوارف المعارف ج ٢ ص ١٧٧ ، الرسالة اللدنية للغزالى ص ١٢٢ .

(٣) عوارف المعارف ج ٢ ص ١٧٨ — ١٧٩ ، قارن مجموعة الرسائل والمسائل ج ٥ ص ٨٥ .

(٤) كما يقولون ذكر الخاصة : الله الله ، وذكر خاصة الخاصة : هو هو ، المصدر المتقدم ص ٨٦ .

هو كلاما لا إيمانا ولا كفراً[١] . فليس من جنس الكلام المعقول ، ولذلك قال بعض من يأمر به من المتأخرين : « إنه ليس قصدنا ذكر الله تعالى ، ولكن جمع القلب على شيء معين حتى تستعد النفس لما يرد عليها »[٢] ، ولذلك لا يرد عليها إلا أحوال الشياطين ، والخبل والاضطراب العسكرى .

والصوفية فى هذا ، يشبهون السحرة أو الكهان ، أو ضحايا الزار ، حين يتركز انتباههم على كلمات معينة ، أو إيقاع مخصوص ، فيخرجون عن طورهم ، ويغيبون عن الظاهر ويعيشون فى الخيال ، وفى ذلك العالم الذى خرجوا إليه من الوسوسة والاضطراب[٣] وأبو حامد وإن اختار لفظ الجلالة فى ذلك ، فإنما

---

(١) نفس المصدر ص ٨٦ ، والذى ورد فى كلمات الذكر ماثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أفضل الكلام بعد القرآن أربع وهن من القرآن: سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله الا الله ، والله أكبر » وفى حديث آخر « أفضل الذكر لا إله إلا الله » وقال : « أفضل ماقلت أنا والنبيون من قبلى: لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير » ص ٨٦ . ويرد على من يروجون للذكر بالاسم المفرد اعتماداً على قوله صلى الله عليه وسلم « سبق المفردون » بأن المراد بالمفردين هو ما وصفهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم رداً على سؤال بعضهم : « ومن المفردون يارسول الله ؟ ، قال: الذاكرون الله كثيراً والذاكرات » كما ورد فى صحيح مسلم . أنظر : (التحفة العراقية فى الأعمال القلبية) ص ٦٢ .

(٢) المصدر المتقدم ص ٨٦ ، ٨٧ . بل يروى ابن تيمية عن بعضهم أنه قال له « ليس مقصودنا إلا جمع النفس بأى شىء كان ، حتى يقول : لا فرق بين قولك : ياحى ، وقولك (ياجحش) وهذا مما قاله لى شخص منهم وأنكرت ذلك عليه » ص ٨٧ .

(٣) وقد فسر ابن سينا هذا الكشف الصوفى بأنه اضطراب فى الخيال وفى الحس ، وهو يظهر أيضا عند المرضى والممرورين ، وله أيضا طرق صناعية

هو اطراد مع نيل غايته وشرف مقصده ، وإنما الأمر واحد فى هذه الحالات ، والطريق طريق الجذب وإفناء الأنوى ، وطريق الهوس والجنون .

والأمر لا يفترق كذلك كثيراً عن ذلك التدريب الذى يقوم به الساحر فى بعض القبائل البدائية ، لكى يندو اضطرابه العصبي ، فيتأهل بذلك لممارسة السحر ، فلكى يصل إلى حالة الإنجذاب ، فلا بد أن يظل طيلة أيام عديدة فى حفرة ، « وقد ربط نفسه بجثة الرجل الذى قتله ، ووضع فاه على فيه ، وألصق جسده بجسده ، دون أن يأكل أو يشرب » ويعلق روجيه باستيد على ذلك بقوله : « فكيف لا يخرج من هذا الامتحان برؤى المجاذيب وصيحاتهم ؟ »[١] .

فهذه هى خلوة الصوفية ورياضتهم وصيامهم الذى نسمع فيه الأعاجيب والتى نقف أمامها بين مصدق ، ومكذب[٢] .

وذلك مثل ما يؤثر عن قوم من الأتراك ، أنهم إذا فزعوا إلى كاهنهم فى تقدمة معرفة ، فزع هو إلى شد حثيث جداً ، فلا يزال يلهث فيه ، حتى يكاد يغشى عليه ثم ينطق بما يخيل إليه .. فإن جميع ذلك مما يشغل الحس بضرب من التحير ومما يحرك الخيال تحريكا محيرا ، كأنه إجبار لا طبع . وربما أعان على ذلك الإسهاب فى الكلام المختلط ، والإيهام لمسيس الجن ، وكل ما فيه تحير وتدهيش فإذا اشتد توكل الوهم بذلك الطاب ، لم يلبث أن يفرض ذلك الاتصال ، فتارة يكون لمحان الغيب ضربا من ظن قوى ، وتارة يكون شبيهاً بخطاب جنى ، أو هتاف من غائب ، وتارة يكون مع ترائى شىء للبصر مكافحة ، حتى تشاهد صورة الغيب مشاهدة . الإشارات والتنبيهات قسم ٣ ، ٤ ص٢٨٧ — ٨٩٠ ، ينظر أيضاً نفس المصدر ص٧٧١ — ٨٨١ : معارج القدس المنسوب للغزالى ص١٥٢ — ١٥٩ ، السهروردى فى مجموعة فى الحكمة الإلهية ص١٠٠ — ١٠٤ ولأستاذى الدكتور محمود قاسم الفضل فى إرشادى إلى هذا التفسير .

(١) مبادى علم الاجتماع الدينى (ترجمة د. محمود قاسم) ص ٤٠ .

(٢) ومن ذلك ما يرويه ابن الجوزى عنهم : « كان أبو عبيد التسترى إذا

ويرى ابن تيمية أن هذه الطريقة تفضى إلى الكفر ، لا أنها توصل إلى الله[١] . ويتساءل ابن الجوزى ، بأن هذا الذى يشاهده أبو حامد أو يسمعه فى خلوته هو أو غيره ، « من أين له أن الذى يسمعه نداء الحق ، وأن الذى يشاهده جلال الربوبية ، وما يؤمنه أن يكون ما يجده من الوساوس والخيالات الفاسدة ؟ وهذا الظاهر ممن يستعمل التقلل فى المطعم ، فإنه يغلب عليه الماليخوليا »[٢] . فهذه هى حالات مرضية ليست من الدين فى شىء ، وقد اصطلح حديثا على تسميتها بـ (الإندوفيزيا) ، يعنون بها تتابع الصور الداخلية فى العقل أمام بصر الإنسان بصورة تدفع الشخص إلى الكلام والصيام تأثرا بما يشاهده وذلك نتيجة اضطراب فى الفكر تجعل حركته نشطة نشاطا غير عادى[٣] وقد فسر بها علماء النفس المحدثون والمتنبون

كان أول يوم من شهر رمضان يدخل البيت ، ويقول لامرأته : طينى باب البيت ، وألقى إلى كل ليلة من الكوة رغيفاً ، فإذا كان يوم العيد فوجدت ثلاثين رغيفاً فى الزاوية ، ولا أكل ولا شرب » ص ٢٧٩ ، تلبيس إبليس .

(١) وإن كان يبرىء أبا حامد من أنه كان يظن فيها ذلك ، ولكنه لايبرئه من البدع ، والبدع بريد الكفر . مجموعة الرسائل والمسائل ج ٥ ص ٨٧ .

(٢) تلبيس إبليس ص ١٥٨ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ . ثم يجزم بذلك فيقول : « وهذا الظاهر ممن يستعمل التقلل فى المطعم ، فإنه يغلب عليه الماليخوليا . وقد يسلم الإنسان فى مثل هذه الحالة من الوساوس ، إلا أنه إذا تغشى بثوبه وغمض عينيه تخايل هذه الأشياء ، لأن فى الدماغ ثلاث قوى ، قوة يكون بها التخيل ، وقوة يكون بها الفكرة ، وقوة يكون بها الذكر . فإذا أطرق الانسان وغمض عينيه جال الفكر والتخيل ، فيرى خيالات فيظنها ما ذكر من حضرة جلال الربوبية إلى غير ذلك .

(٣) (La Lande) « vocabulaire Technique et cirtique de le Philosphie » P. U. F. boris 1951. p. 282.

بدراسة مثل هذه الظواهر ، مثل هذه الحالات فى التصوف المسيحى[١] أيضا .

وأما تمسكهم بخلوته صلى الله عليه وسلم فى غار حراء قبل الرسالة[٢] ، فإن ما فعله النبي صلى الله عليه وآله وسلم قبل الرسالة ، لسنا مأمورين باتباعه ، إلا إذا كان قد شرعه بعد الرسالة ، ولكنه من حين جاءته الرسالة لم يصعد إليه هو ولا خلفاؤه الراشدون ، وقد أقام فى مكة بعد الرسالة وقبل الهجرة بضع عشرة سنة ، ودخلها فى عمرة القضاء وعام الفتح ، وأقام بها قريبا من عشرين ليلة ، وأتاها فى حجة الوداع وأقام بها أربع ليال ، ومع ذلك لم يقصد إلى غار حراء ولم يصعد إليه .

فهذه كانت طريقة لهم جميعا فى الجاهلية ، ليس له ﷺ فقط وقد سنها لهم جده عبد المطلب[٣] .

ومثل ذلك يقال فيما يسمونه بالأربعينية التى يدعون أن موسى وعيسى عليهما السلام ، خوطبا بعدها[٤] ، بأن هذا خاص بأفرادهم كأنبياء ورسل ، ثم إنه شرع لهم وليس شرعا لمحمد ﷺ ، كما شرع لموسى عليه السلام السبت « والمسلمون لا يسبتون » ، وكما حرم فى شرعه أشياء لم تحرم فى شرع محمد

---

(١) Las Problémes de la vie mystique Par Roger Bastide : P. 80 - 81, 125 - 128.

وينظر تعليل ذلك أيضاً عند فلاسفة الإسلام . انظر هامش ما مضى من هذه الدراسة .

(٢) الغزالى فى المنقذ من الضلال ص ١٣٢ ، والدكتور عبد الحليم محمود فى مقدمة المنقذ ص ٤٨ ، ٤٩ .

(٣) مجموعة الرسائل والمسائل ج ٥ ص ٨٥ .

(٤) نفس المصدر والصفحة ، فى التصوف الاسلامى وتاريخ ص ٥٩ .

صلى الله عليه وسلم »[1] ، فليس هذا فى الواقع إلا اتجاها غنوصيا تلفيقيا[2]، فما يدعونه من العلم اللدنى أو رؤية الله أو الأنبياء أو الملائكة فى هذه الخلوات محض افتراء وضلال ، مرجعه إلى خيالاتهم التى فسدت بما يصطنعونه فى العزلة والخلوة[3] .

ويكفينا فى رد هذه العزلة والخلوة ، ما يحكيه أبو أمامة قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم للجهاد ، فمر رجل بغار فيه شىء من ماء ، فحدث نفسه بأن يقيم فى ذلك الغار ، ويصيب ما حوله من البقل ، ويتخلى عن الدنيا

---

(١) مجموعة الرسائل والمسائل ج ٥ ص ٨٥ . وما يستدلون به على خلواتهم من أن أهل الصفة كانوا كذلك ، فإن هذا محض افتراء ، أو جهل بحالهم وواقع أمرهم ، فإنهم كانوا مهاجرين ، أو طارقين على المدينة بعد أن آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الأنصار والمهاجرين ، فكان من لم يتيسر له مكان يأوى إليه ، يأوى إلى تلك الصفة فى مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم مؤقتا ، إلى أن يتيسر له مكان يأوى إليه ، فكانوا غير مجتمعين فى وقت واحد ، كما كانوا تارة يكثرون ، وتارة يقلون . فتاره يكونون عشرة أو أقل ، وتارة يصل عددهم إلى السبعين ، وكان فقراؤهم يكتسبون عند إمكان الاكتساب ، ويقبلون عندما لا يمكنهم ذلك بسبب اشتغالهم مع الرسول فى الجهاد ، ما يوصله إليهم أثرياء المسلمين من خير ، قال ابن الجوزى . « وهؤلاء القوم ، إنما قعدوا فى المسجد ضرورة ، وإنما أكلوا من الصدقة ضرورة ، فلما فتح الله على المسلمين استغنوا عن تلك الحال وخرجوا » تلبيس إبليس لابن الجوزى ص ١٦٢ طبعة محمد منير الدمشقى سنة ١٣٤٧ هـ ، سنة ١٩٢٨ م ، ومجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية طبعة المنار ص ٢٧ — ٣٠ .

(٢) أنظر رسائل إخوان الصفا ج ٤ ص ٨٠ .

(٣) ينظر ابن تيمية المصدر المتقدم ص٩٣ ، ٩٤ ، وتعليق السيد رشيد رضا على ذلك فى هامش ص ٩٣ ، ٩٤ .

وذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال له صلى الله عليه وسلم : « إني لم أبعث باليهودية ولا النصرانية ، ولكني بعثت بالحنيفية السمحة ، والذى نفس محمد بيده لغدوة أو روحة فى سبيل الله خير من الدنيا وما فيها ، ولمقام أحدكم فى الصف خير من صلاته ستين سنة »[1] .

هذه معالم من طريق المتصوفة إلى الله ، رأينا فيها كل ما يجافى الإسلام ، ويصطدم مع الغاية التى وضعها الله سبحانه وتعالى ، مقصداً لعباده من عبادتهم ومن خلقهم ، وهى أن يكونوا فى الدرجة التى يحبهم الله فيها ، أو فى موضع استحقاقهم لحبه سبحانه . وكل ما حققوه فى هذا السبيل ، أنهم حاولوا الوصول إلى الإيمان به ، أو معرفته ثم حبه ، ولم يتقدم هذا الحب المزعوم فى طريقه خطوة نحو اجتلاب حب الله ، وإنما دار حول نفسه ، وصار فى حلقة مفرغة ، ولم يعد على صاحبه منه إلا تعذيب النفس والهوس والبعد عما يقرب إلى الله أو الإيمان به ، حتى قال بعضهم « المحبـــة تشويش يقع فى القلوب »[2] .

فأين هذا من الغاية التى ذكرها الله سبحانه كنتيجة طبيعية للذكر فى قوله : « ألا بذكر الله تطمئن القلوب »[3] ؟ !

وابن تيمية مع ميله كثيراً إلى طريق كثير من الصوفية ، ممن لم يجهروا بالحلول ولا بالاتحاد . . ، شأنه فى ذلك شأن المعتدلين ، أو ممن يحسنون الظن بالصوفية — ، يقول خلاصة رأيه فى تلك الطرق وفى ما ابتدعته ممن ليس فى القرآن ولا سنة الرسول أنها « عند التحقيق طرق مضلة ، إنما توصل إلى

---

(١) تلبيس إبليس لابن الجوزى ص ٢٨٠ .

(٢) الرسالة القشيرية ص ١٤٥ . وينظر ما بعدها .

(٣) سورة الرعد : آية ٢٨ .

رضا الشيطان وسخط الرحمن ، كالعبادات التى ابتدعها ضلال أهل الكتاب والمشركين ، وخالفوا بها دين المرسلين ، فهؤلاء (الصوفية) فى الأحوال البدعية وأولئك «أهل الكتاب» وفى الأقوال البدعية »(١) .

(ج) موازنة بين طريقة الإمام الشوكانى ، وطريقة الصوفية :

وبالموازنة بين طريق الإسلام مما أشار إليه الإمام الشوكانى ، وبين ما تقدم لنا من معالم طريقة هؤلاء القوم ، يتبين لنا كيف كان من هاجمهم أمثال ابن الجوزى على حق فيما هاجمهم فيه ، وإلى أى مدى كانوا محلا للعجب واللوم من مثل ابن عقيل فى تلك العبارة التى وجهها إليهم : « ما أعجب أموركم فى التدين ، إما أهواء متبعة ، أو رهبانية مبتدعة بين تجرير أذيال المرح فى الصبا واللعب ، وبين إهمال الحقوق واطراح العيال ، واللحوق بزوايا المساجد ، فهلا عبدوا على عقل وشرع ؟ »(٢) .

---

(١) النبوات ص ٦٥ .

(٢) تلبيس إبليس ص ١٤٧ ، وقد منع رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبل عبد الله بن عمرو بن العاص من مثل هذا حين قال له : « ألم أحدث أنك قلت لأصومن النهار ولأقومن الليل . ولأقرأن القرآن فى ثلاث » ؟ قال : بلى . قال : « فلا تفعل فإنك إذا فعلت ذلك هجمت له العين (أى غارت ودخلت فى موضعها) ، ونفهت له النفس (أى ضعفت وكلت) . ثم أمره بصيام ثلاثة أيام من كل شهر ، فقال : إنى أطيق أكثر من ذلك ؛ فانتهى به إلى صوم يوم وفطر يوم ، فقال : إنى أطيق أكثر من ذلك . فقال صلى الله عليه وسلم : « لا أفضل من ذلك » . وقال : « أفضل الصيام ، صيام داوود عليه السلام ، كان يصوم يوماً ويفطر يوماً ، ولا يفر إذا لاقى . وأفضل القيام ، قيام داوود ، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه ، وينام سدسه ، وأمره أن يقرأ القرآن فى سبع » مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية ج ٥ ص ٨٣ عن الصحيحين : البخارى ومسلم .

فطريقة هؤلاء القوم لا أصل لها فى الإسلام ، وإنما يمكن أن نلتمس أصولها فى أى مذهب أو دين غير دين الإسلام ، وهو ما يقرره (نيكولسون) بعد عرضه لنماذج من طريق الصوفية ومذاهبهم المختلفة ، وذلك حيث يقول : « وليس عندى من شك فى أن المذهب الغنوصى بعد ما أصابه من التغيير والتحوير على أيدى مفكرى المسيحية واليهودية ، وبعد امتزاجه بالنظريات اليونانية ، كان من المصادر الهامة التى أخذ عنها رجال التصوف الإسلامى . وإن بين التصوف والغنوصية مواضع اتفاق كثيرة هامة » ويقول أيضاً إذا نظرنا إلى الظروف التاريخية التى أحاطت بنشأة التصوف ، لزم علينا أن نعتبره وليد اتحاد الفلسفة الأفلاطونية الحديثة ، والديانة المسيحية ، والمذهب الغنوصى متأثرة بأفكار فارسية أو هندية[١] .

ويشير الدكتور محمد مصطفى حلمى ، إلى مظاهر التشابه بين التعاليم والمذاهب الصوفية فى الإسلام ، فيوقفنا على أن الزهد فى التصوف الإسلامى يشبه الزهد والرهبنة المانوية ، كما يشبه الزهد والقناعة ، والنهى عن ذبح الحيوان فى الديانة المزدكية « وأن مثل هذه العقائد قد شاع فيما شاع بين المسلمين من تراث الفرس القديم ، ووجدت من تلقاها بالقبول من الشيعة ، ومن الصوفية وتأثرها بها[٢] .

وقد سبق لى أن أشرت إلى أن الفناء[٣] الذى يجعلونه الغاية من سلوكهم هذا الطريق ، وكذلك المعرفة[٤] ، إنما هما تأثر بالغنوصية ، واليونانية والمسيحية .

(١) فى التصوف الإسلامى وتاريخه ص ٨١ .
(٢) الحياة الروحية فى الإسلام ص ٤٢ .
(٣) ينظر ص ٦٩ من هذه الدراسة .
(٤) ينظر ص ١٢٤ — ١٢٦ من هذه الدراسة ، فى التصوف الإسلامى وتاريخه ص ١٧ ، ١٨ ، ٧٤ .

وربما كشف لنا السهروردى المقتول من حقيقة أولئك المتصوفة ، وعن تأثرهم بالغنوص عندما روى لنا أنه رأى أستاذه أرسطو فى النوم ، فسأله رأيه عن مجموعة من المتصوفة ؛ بل أقطاب التصوف ، الذين يستشهد بهم وبآرائهم كل من كتب فى التصوف أو تكلم فيه ، من مثل أبى يزيد البسطامى ، وسهل التسترى ، وذى النون المصرى ، والحسين بن منصور الحلاج ، فقال فيهم : « أولئك هم الفلاسفة والحكماء حقاً ، ما وقفوا عند العلم الرسمى ، بل جاوزوا إلى العلم الشهودى ، وما اشتغلوا بعلائق الهيولى ، فلهم الزلفى وحسن مآب ، فتحركوا بما تحركنا ، ونطقوا بما نطقنا » . وفى موضع آخر يتكلم السهروردى نفسه : وأما أنوار السلوك فى هذه الأزمنة القريبة ، فخميرة الفيثاغوريين وقعت إلى أخى أخميم (ذى النون المصرى) ، ومنه نزلت إلى سيار تستر وشيعته » ثم يضيف إلى ذلك بيان من كان لهم نصيب فى الأخذ من التراث الفارسى : « وأما خميرة الخسروانيين فى السلوك : فهى نازلة إلى سيار بسطام (أبى يزيد) ، ومن بعده إلى فتى بيضاء (الحسين بن منصور الحلاج) ومن بعدهم إلى سيار آمل وخراقان (أبو الحسن الخرقانى)[1] .

على أن الأصل فى تسمية هذا المذهب بالتصوف ، وأصحابه بالصوفية[2] ، يوقفنا على أن التصوف فى أصله إنما هو استيراد أجنبي ، ليس الإسلام فيه شىء ، لا فى نشأته ولا فى طريقته المتزيدة ، ولا فى غايته أو غاياته المتعددة التى أثبتنا ، إنها تقف حيث يبدأ طريق الإسلام متجها إلى غايته الواضحة المحددة ، وهى حب الله للإنسان ، وإن كان قد تزيى تصوفهم هذا بزى الإسلام فى بعض الأحوال .

(١) مجموعة فى الحكمة الإلهية ص ٥٠٣ ، ٥٠٤ .

(٢) ينظر : دراسات فى الفلسفة الإسلامية ص ١٢٧ ، فى التصوف الإسلامى وتاريخه ص ٦٧ ، ٦٨ ، المدخل إلى التصوف الإسلامى ص ٦٩ — ٧٦ .

الفصل الرابع

الإنسان بين مظاهر حب الله له

(أ) المنزلة الدينية للإنسان المتقرب إلى الله :

يصور لنا الحديث القدسى الإنسان بعد سلوكه ذلك الطريق إلى الله وبعد قبول الله لتلك الأعمال ، بأن الله قد أحبه ، وأنه صار سمع العبد الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به . . الخ . ونريد أن نعرف فهم الإمام الشوكانى لهذا الجزء من الحديث وفهم الصوفية ، وأتباع الأفلاطونية المحدثة من الفلاسفة الإسلاميين .

١ — المكانة الدينية للإنسان المتقرب إلى الله عند الشوكانى :

أما الإمام الشوكانى فإنه يرى أن معنى ذلك هو توفيق العبد فى أعماله بحيث تصبح جلها صالحة موافقة للصواب ، وأن هذا المعنى هو ما يدل عليه منطوق القرآن والسنة[1] . وأنه لا دلالة فيه مطلقا على مذاهب الصوفية الفلسفية[2] .

٢ — ولكن الصوفية قد رأوا فيه سنداً لمذاهبهم فى الفناء ثم الحلول .

---

(١) قطر الولى فى (المقياس فى قبول المكاشفات) «(المراد من أن الله صار سمع العبد وبصره) .

(٢) نفس المصدر .

والاتحاد، ووحدة الوجود[1]، وكثيراً ماتمثلوا به فى وجهاتهم المختلفة[2].

فالجنيد يتكلم عن توحيد الخواص، ويبين أنه مقام من وصل إلى الفناء عن نفسه «وعن دعوة الحول والقوة بذهاب حسه وحركته بقيام الحق فيما أراد منه . . . وهذا غاية تحقيق حقيقة توحيد الموحد للواحد، أن يذهب كما لو لم يكن ويتلاشى، وتنمحى أوصافه، ويبقى بأوصاف الحق كما لم يزل على معنى قوله : «صرت سمعه وبصره، ويده ورجله، وقلبه يسمع به ويبصر به . الخ»[3].

وذو النون المصرى يتكلم عن المعرفة، ويرى أنها لا تكمل إلا بالوصول إلى درجة الفناء ويستمد هذا الفناء من قول الرسول ﷺ : «فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به . . . » الخ، ويصير العارف بهذا — فى مظهر الفناء الأكمل — متحركا بحركة الله، ناطقا بما يجريه على لسانه، ناظراً بنور الله فى بصره[4]. وقد خرج الصوفية من هذا الفناء إلى الحلول والاتحاد ووحدة الوجود . فهذا أبو يزيد البسطامى الذى لا نكون مغالين فيه، إذا قلنا : إنه من الذين بشروا بهذه المذاهب الثلاثة جملة[5]، يقول فى الفناء :

---

(١) نفس المصدر . وإذا استثنينا رجلا مثل الحكيم الترمذى وجدناه يرى فى هذا الجزء من الحديث أكمل مظهر لأعلى درجة لولى الله الذى أدى الفرائض وحفظ الحدود وتقرب بالنوافل فتمت له بذلك ولاية الله ص ٣٣١ ص ٣٣٢ ختم الأولياء .

(٢) ينظر ص ٢٠ — ٢٧ من هذه المقدمة .

(٣) علم القلوب لمحمد بن عطية المكى ص ٦٩، ٧٠، وينظر الفناء عند ابن عربى فى صدر هذه الدراسة .

(٤) فى التصوف الإسلامى وتاريخه ص ١١٥ .

(٥) ينظر من ص ٧٣، ٧٤ من هذه الدراسة، وفى التصوف الإسلامى وتاريخه ص ٢٣، ٢٤ .

« شهوتى ومناى ، أن أقول مرة : لا إله إلا الله بغيبوبة أبى يزيد وحضور أبى يزيد عن أبى يزيد مع لا إله إلا الله . . . كما جرى له فى الذر مع الله حين أقر « بلى » فكان إقراره للرب بالربوبية ، والنفس بالعبودية ، ثم غاب عن الإقرار ، وبقى بالتوحيد ، مجرداً للواحد الفرد »[1] .

وأبو يزيد يشير بذلك — (إقرار الذر بالربوبية بقوله « بلى ») — إلى قوله تعالى : (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم ، وأشهدهم على أنفسهم ، ألست بربكم ؟ قالوا : بلى ، شهدنا ، أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين)[2] .

والصوفية يقولون إن الناس ، قد وحّدوا الله حق التوحيد ، وهم فى عالم الفناء قبل خروجهم إلى هذا الوجود ، فلا توحيد لهم بعد الخروج إلى ذلك الوجود ، إلا بالاضمحلال والفناء عنه .

ولكن هذا الذى فهموه فى الآية ، ليس هو المراد منها ، وإنما المراد أنهم وحدوا الله بفطرتهم بعد ولادتهم ، لما دلهم بخلقه على أنه خالقهم فقامت هذه الدلالة مقام الإشهاد ، كما يقول الحديث الصحيح : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه ، أو ينصرانه أو يمجسانه . . الخ » ، وكما تقول الآية الكريمة : « فأقم وجهك للدين حنيفا ، فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم »[3] .

ثم ينتقل عن هذا الفناء إلى الاتحاد ، فيقول مخاطباً ربه : « . . . قربى

---

(١) علم القلوب لمحمد بن عطية المكى ص ٦٦ .

(٢) سورة الأعراف . آية : ١٧٢ .

(٣) سورة الروم آية : ٣٠ ، وينظر تفسير الإمام الشوكانى فى هاتين الآيتين وقارن تفسير الحلاج للآية الأولى فى : (الحسن بن منصور الحلاج ص ٧١، ٧٢) .

بوحدانيتك ، وألبسنى ربانيتك ، وارفعنى إلى أحديتك ، حتى إذا رآنى خلقك قالوا رأيناك ، فيكون أنت ذاك ، ولا أكون أنا هناك »[١] .

والحلاج زعيم القائلين بالحلول ، يتخذ الفناء أساساً لهذا المذهب[٢] فلا يصل إنسان إلى مرتبة حلول الله فيه ، إلا بعد أن يفنى عن نفسه فناء كاملا ويحجب عنها الله[٣] ، ويتمثل فى ذلك الفناء بحديث الأولياء ، فالمتحققون عنده بالله هم الذين « أفناهم الله عن أوصافهم الناشئة عن طبائعهم ولم يردهم إلى علومهم المستخرجة بحكم عقولهم . . . بل كان هو لسانهم الذى به ينطقون ، وبصرهم الذى به يبصرون وأسماعهم التى بها يسمعون ، وأيديهم التى بها يبطشون »[٤] .

ويرى الإمام الشوكانى ، أن الحديث بنصه ، يرفض هذه المعانى[٥] ، وأن المسلم المتبصر فى الإسلام ، لا يفهم منه إلا ذلك المعني الذى قدمه .

وإذا رجعنا إلى صدر هذه الدراسة ، وجدنا أن فكرة الفناء هذه لايقرها الدين الإسلامى ، وليس لها فى نص من نصوصه سند تعتمد عليه فهو يتجافى معها كلية بروحه وألفاظه[٤] .

والخطر فى هذا الفناء الذى أوغل الصوفية فى وصفه ، هو أنه يسلم ، إلى

---

(١) تلبيس إبليس ٣٣٣ .

(٢) ينظر : الحسين بن منصور الحلاج ص ٧١ — ٧٢ .

(٣) نفس المصدر ص ٨٣ ٨٤ .

(٤) نفس المصدر ص ٨٩ .

(٥) قطر الولى فى العنوان السالف .

(٦) ص ٦٩ من هذه الدراسة .

القول بالحلول أو الاتحاد، أو وحدة الوجود[١]، فقد رأيناهم قالوا بالحلول والاتحاد من حيث يظنون أنهم يتكلمون فى الفناء[٢]، وقد أشار الغزالى إلى هذا حين وصف حالة الفناء التى يصل فيها الشخص إلى مرتبة الكشف أو الشهود، وإن كان قد قال بخطأ هؤلاء الذين قالوا بالحلول أو الاتحاد[٣] بل لقد جرته عقيدته فى الفناء، وأنه أسمى مقام يصل إليه الصوفى، فى عبادته أو توحيده إلى القول بوحدة الوجود من حيث لا يشعر[٤].

وليس من شك فى أن العقيدة الإسلامية ترفض هذه المذاهب برمتها لأنها تتنافى مع التوحيد والصوفية المعتدلون أو من هم حسنو النية، يرفضون

(١) أنظر المقدمة، فى التصوف الإسلامى وتاريخه ص١١٩

(٢) الرد الأقوم لابن تيمية ص ٤٧ .

(٣) المنقذ من الضلال، ص ١٣١، ١٣٢ .

(٤) جواهر القرآن ص ١٥، ١٦، إحياء علوم الدين كتاب التوحيد والتوكل ص ٢٤٩٥ — ٢٤٩٨ ومن كلامه فى التوحيد فى هذا المصدر الأخير عن المرتبة الرابعة فى التوحيد: « أن لا يرى (الموحد) فى الوجود إلا واحداً، وهى مشاهدة الصديقين، وتسمية الصوفية « الفناء فى التوحيد » لأنه من حيث لا يرى إلا واحداً، فلا يرى نفسه أيضاً، وإذا لم ير نفسه لكونه مستغرقاً بالتوحيد كان فانيا عن نفسه فى توحيده بمعنى أنه فنى عن رؤية نفسه والخلق». قارن جواهر القرآن .

وابن تيمية يرى فى مثل هذا الكلام تشابها مع كلام القائلين بوحدة الوجود: بغية المرتاد للرد على القرامطة والباطنية . ص ٢٣ ضمن ج ٥ من مجموعة فتاوى ابن تيمية . والغزالى وإن وصل فى قوله إلى هذا الحد، إلا أنه كما قدمنا يرفض الحلول والاتحاد، ويرفض فكرة الفناء الذى تذوب فيه النفس البشرية فى ذات الله، فعنده أن الله سبحانه وتعالى غير ما يخلق . ولكن تأثره بالصوفية فى نظرية الفناء، جعله يقع من حيث لا يشعر فيما وقع فيه من اعتنق هذه النظرية من أصحاب التصوف الفلسفى .

فكرة الحلول والاتحاد ، ويرون أن العقل والدين يحيلانها[1] . وأما مذهب وحدة الوجود فلازمه ، إنكار الإله لأنه إذا لم يكن فى الكون إلا الله من إنسان أو حيوان ، أو نبات أو جماد ، وأن الله تجلى فى هذه الموجودات ، أو هى مظاهر ومجال لذاته[2] ، فإن معنى ذلك أنه ليس وراء الطبيعة شىء غيرها ، وليس فيها ما يدل على أنه الواحد كما قال الشاعر العربى القديم[3] ، وأنها قديمة ، وبذلك فليس لهـا حدوث ، وليس لنا أن نتصور الله فى غير ذلك[4] .

وكما استدل أصحاب مذهبي الحلول ، والاتحاد بهذا الحديث الشريف ، فقد استدل أصحاب وحدة الوجود به على مذهبهم أيضا . فهذا ابن عربى ، يرى فى قوله تعالى : « واتخذ الله إبراهيم خليلا » . بأن الحق قد تخلل العبد فصار الحق هو الباطن والعبد هو الظاهر ، وصار متخللا فيه بهيئة السمع والبصر ، واليد والرجل الخ كما تخلل الحق إبراهيم الخليل ، أو تخلل إبراهيم الحق ، كالماء يتخلل الصوفة فتربو به وتتسع فإن الحق هو الظاهر ، فالخلق مستور فيه ، فيكون الخلق جميع أسماء الحق سمعه وبصره وجميع نسبه ، وإدراكاته ، وإن كان الخلق هو الظاهر ، فالحق مستور باطن فيه ، فالحق

---

(١) دراسات فى الفلسفة الإسلامية . بحث (العقل والتقليد عند الغزالى ص ٦٣ — ٦٧) .

(٢) ينظر فصوص الحكم لابن عربى ، فستجد هذا المعنى ماثلا فى كل فص من فصوصه .

(٣) وفى كل شىء له آية تدل على أنه الواحد .

(٤) قارن نقض المنطق لابن تيمية ص ٥٠ ، ومجموعة الرسائل والمسائل جـ ٤ ص ٣٣ — ٨٢ ، ص ١٧ ، ١٨ وفصوص الحكم ص ٢١٠ .

سمع الخلق وبصره ويده ورجله ، وجميع قواه كما ورد في الخبر »[1] ، وهذا هو إدراك العارفين عنده بعد اجتيازهم مراحل الطريق[2] ، فهم يدركون أن الوجود كله واحدا ، الخلق هو الحق ، والحق هو الخلق ، والعارفون أيضا لا يرون الله شيئا سواهم ولا غير ما يحيط بهم من عوالم المخلوقات ، وهم تعينات ظهر فيها الحق ، فهو عينهم ، وسمعهم ويدهم .. الخ

ولكن الإمام الشوكاني يرى أن طبيعة الحديث لا تحتمل هذا الاستدلال وتدفعه ، وتثبت وجود الله ، وجوداً معيناً منفرداً فيه عن الخلق ، لا ذلك الوجود المطلق الذي يدعيه ابن عربي وأمثاله ، وأن هذا واضح في الحديث من أوله إلى آخره ، فإن قوله : « من عادى لي ولياً » يثبت وجود معاد ، ومعادى ، ويقتضي وجود موال ، وموالى . وهكذا إلى آخر الحديث فإننا نلحظ الأثنينية واضحة فيه ، حتى بعد وصول العبد إلى درجة حب الله له ، وهي الحالة التي يدعي ابن عربي ومن نحا نحوه أنها مظهر فناء لاثنينية والبقاء بالواحدية ، والتي بها يدركون أن الوجود واحداً ، وأن الحق هو الخلق[3] .. الخ ، نلحظ الأثنينية في ذلك الجزء الأخير من الحديث :

---

(١) الفصوص ص ٨١ ، وينظر صفحات : ١٨٩ ، ١٢١ ، ١٠٧ ، ١١٠ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، قطر الولي : في العنوان السالف مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية ص ٦١ ، ٦٢ .

(٢) فصوص الحكم ص ١١٣ ، ١٨٦ ، والفص النوحي ، والفص العزيري ، والموسوي .

(٣) قارن ، الفتوحات المكية ج ٤ ص ٥١٤ ، إحياء علوم الدين ص ٢٤٩٥ ، ٢٤٩٨ ، جواهر القرآن ص ٧٥ ، ١٦ ، الرد الأقوم على ما في كتاب فصوص الحكم ص ٤٧ ، الأحلام للدكتور الطويل ص ٨٨ ، فلسفة الأخلاق في الإسلام ص ٢٨٦ ، ٢٨٧ .

« وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس عبدى المؤمن ، يكره الموت وأكره إساءته » .

وبهذا التصريح بالاثنينية ، يكون الحديث قد رد على كل تلك المذاهب ابتداء من الفناء إلى وحدة الوجود[١] .

ويرى الإمام الشوكانى ، أن الأولى لهم ، أن يعترفوا بأنهم متأثرون فى القول بوحدة الوجود ، بمذهب التنويه من المجوس والغنوصيين فى أصل العالم وأنه إلهان ، إله النور وإله الظلمة ، وأنهما مندمجان مع بعضهما ، وعنهما ما صدرت الموجودات[٢] ، بدلا من أن يتكلفوا ذلك فى آيات القرآن الكريم أو أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم .

والإمام الشوكانى بهذا ، يلقى لنا ضوءاً على أصل ذلك المذهب ، فالمرجع فيه غير إسلامى ، وقد تأثر إلى — جانب التأثر بالمصدر الغنوصى — بنظرية الفيض عند أفلوطين[٣] ، وعند أتباع الأفلوطونية من الباطنية الإسماعيلية وإخوان الصفا ، وفلاسفة الإسلام[٤] .

فنظرية الفيض سواء أ كانت عند أفلوطين ، أو عند الفارابى ، رائد فلاسفة الأفلاطونية المحدثة من المسلمين ومن الباطنية تقوم على أن الكون

---

(١) قطر الولى : العنوان السالف ، الرد الأقوم ص ٤٨ .

(٢) قطر الولى : العنوان السالف .

(٣) تاريخ الفلسفة اليونانية ص ٢٩١ — ٢٩٥ .

(٤) آراء أهل المدينة الفاضلة ص ٢٤ — ٢٦ ، راحة العقل للكرمانى ص ٦٠ ، ١٣٠ — ١٣٩ (من أين استقى ابن عربى فلسفته التصوفية ص ١٥ — ٢٧) بحث نشر فى مجلة كلية الآداب مايو سنة ١٩٣٣ للدكتور « أبو العلا عفيفى » مجموعة الرسائل والمسائل جـ ٤ ص ٢٦ .

صدر عن الله ، سواء أكان بطريق التسلسل الطويل كما عند الفارابي نفسه أو التسلسل المختصر كما هو عند أفلوطين[١] وهذه النظرية تؤول في واقعها إلى القول بوحدة الوجود ، سواء قصد بذلك أصحابها ، أو قالوا ذلك بعبارة غير مباشرة[٢] ، فمنزلة العقل الكلي من الله عند أفلوطين ، هي منزلة شعاع الشمس من الشمس ، أو الحرارة من النار ، أو البرودة من الثلج ، والشعاع هو الشمس أو هو جزؤها ، وكذلك الحرارة والبرودة ، فهي هي النار ، أو الثلج[٣] ، أو هي مظاهر ومجال لتلك الأشياء ، كما يقول ابن عربي ، إن الحق هو الخلق ، والخلق هم الحق ، أو هم مظاهر ومجال ظهر فيها الحق الواحد بمظاهر الكثرة والتعدد ، فهو واحد بالذات ، كثير بالإضافات[٤] ، كما قال قائلهم :

وما البحر إلا الموج لا شيء غيره ... وإن فرقته كثرة المتعدد

وقوله :

البحر لا شك عندي في توحده ... وإن تعدد بالأمواج والزبد

فلا يغرنك ما شاهدت من صور ... فالواحد الرب سارى العين في العدد[٥]

---

(١) لأنها عند الفارابي يصل الفيض إلى إحدى عشرة درجة ، أو أحد عشر عقلا ، أما عند أفلوطين فإن الفيض يصل إلى درجتين فقط ، العقل الكلي ، والنفس الكلية .

(٢) تاريخ الفلسفة اليونانية ص ٢٩٦ ، مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية ص ٢٦ .

(٣) تاريخ الفلسفة اليونانية ص ٢٩١ ، ٢٩٢ .

(٤) فصوص الحكم ص ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٠٢ — ١٠٤ ، ٦٤ ، ٦٥ .

(٥) مجموعة الرسائل والمسائل ج ٤ ص ٢٣ .

والخلق بهذا «حق مشهود فى خلق متوهم[1]» وخلق العالم بهذا، ليس خلقا له من العدم، وإنما هو تعين للذات الإلهية أو تجل لها فى تلك الصور[2].

ونستطيع أيضاً أن نرى فى مذهب (وحدة الوجود)، صورة أخرى لمذهب الأشاعرة، فى الجوهر والأعراض، فإنهم يقولون إن العالم كله واحد بالجوهر، كثير بالأعراض، وهذا الرأى، قد قال به «ديمقريطس» آخر الفلاسفة الطبيعيين من اليونان وهذه وإن كانت نظرية فى العالم إلا أن ابن عربى وأمثاله أخذوها، وجعلوها فى الله وفى العالم معا[3]

كما أنهم تأثروا أيضاً فى القول بوحدة الوجود، بمذهب الجهمية، وللمعتزلة فى نفى الصفات والجهة عن الله سبحانه، وأنه «ليس فى جهة، ولا فى مكان، ولا هو فى السماء» أو هو فى كل مكان، وليس هو فى مكان، ولا يختص بشىء، يجمعون بين القولين المتناقضين»[4]، ومرادهم بذلك كما يقول ابن تيمية: «إنه ما فوق العرش شيء أصلا، ولا فوق السموات إلا عدم محض» فكان هذا «مما أوقع الاتحادية فى قولهم: «هو نفس الموجودات» لأنهم إذا لم يعلموا أنه ليس هناك إلا هذا الوجود المخلوق، ولا فوق العالم شىء آخر، «لزم أن يقولوا، (الله) هو هذا الوجود المخلوق»، «وهذه بعينها هى حجة الاتحادية»[5].

---

(١) ص ١٠٨.

(٢) فصوص الحكم ص ٦٠، ٢١١، ١٣٠، ١٣١، ٤٣ من التصدير.

(٣) من أين استقى ابن عربى فلسفته التصوفية ص ٣٩ — ٤٠، مجلة كلية الآداب مايو ١٩٣٣.

(٤) ينظر فصوص الحكم لابن عربى ص١١١، ١٧٧، مجموعة الرسائل والمسائل ج ٤ ص ٢٦.

(٥) نقض المنطق لابن تيمية ص ٥٠، فصوص الحكم ص ١١١، ومن =

(ب) إسناد الكرامات الأولياء :

١ — رأى الإمام الشوكانى :

من مظاهر حب الله للعبد عند الشوكانى ، أن يكرمه بإجابة دعائه[١] ، أو بتوفيقه فى إدراك شىء مجهول عن طريق إحساسه أو فراسته وهو ما يسميه بالكشف ، كما فى الحديث الشريف : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه يرى بنور الله » . وحديث « قد كان فى الأمم قبلكم محدثون ، فإن يكن فى أمتى منهم أحد ، فعمر منهم »[٢] ، أو بمعونته إياه ، على أمر أقوى من طاقته فى العادة وتسهيله له ، أو تجنيبه خطراً كان محققاً[٣] . . الخ .

وهذه الكرامات ، هى فى الواقع منحة من الله سبحانه ، وتكريم لذلك العبد الذى أحب الله واتبع رسوله فأحبه الله ، كما نطق بذلك الحديث « ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به . . الخ » فالفعل فيها لله أولا وأخيراً[٤] .

= كلام ابن عربى فى ذلك : « وما رأينا قط من عند الله فى حقه تعالى فى آية أنزلها ، أو إخبار عنه أوصله إلينا فيما يرجع إليه ، إلا بالتحديد تنزيها كان أو غير تنزيه ، أوله العماء الذى ما فوقه هواء ، وما تحته هواء ، فكان الحق فيه قبل أن يخلق الخلق ، ثم ذكر أنه استوى على العرش ، فهذا أيضاً تحديد . ثم ذكر أنه فى السماء ، وأنه فى الأرض ، وأنه معنا أينما كنا ، إلى أن أخبرنا أنه عيننا ونحن محدودون ، فما وصف نفسه إلا بالحد . الفصوص ١١١ .

(١) قطر الولى فى جواز الكرامات .

(٢) قطر الولى فى (المقياس فى قبول المكاشفات) .

(٣) نفس المصدر فى (جواز الكرامات) (المراد من أن الله صار سمع العبد وبصره) .

(٤) قطر الولى فى (جواز الكرامات) . وإلى هذا ذهب ابن تيمية أيضاً انظر (النبوات) ص ٢ ، ٧ ، الفرقان ص ١٢٨ ، ١٢٩ .

٢ — رأى الفلاسفة الإشراقيين والصوفية :

حقاً إن الفلاسفة الإشراقيين ، ومن نحـا نحوهم من الصوفية يستدلون بالحديث على وقوع الكرامات ، غير أنهم ردوها إلى طبيعة النفس ، وقوة ذاتية فيها ، حصلت لها بعد صفائها بالرياضة والمجاهدة ، ووصولها إلى درجة العرفان ، وتحولها إلى جوهر أسمى من جوهرها ، هو جوهر الملائكة ، وقربها من طبيعة الإله ، فأصبحت لها القدرة على التأثير فى الكون والتصرف فيه ، كقدرتها على تأثيرها فى جسمها وتصرفها فيه[1] .

فكأن الرياضة والمجاهدة عندهم ليست ، من باب التقرب إلى الله ، وإنما هى ، لتغيير جوهر النفس كما قالوا ، وجعلها فى عدد نفوس الملائكة بحيث تستطيع الإتيان بتلك الخوارق[2] . وهنا يظهر الفارق بينهم ، وبين طريقة

(١) راحة العقل للكرمانى ص ٤١٧ ، والإشارات والتنبيهات لابن سينا ص ٨٢٨ — ٨٨٦ ، ص ٨٩٢،٨٩٩ . قسم ٣ ، ٤ طبعة دار المعارف،السهروردى مجموعة فى الحكمة الإلهية ، (كتاب التلويحات ص ٢٢ ، ٩٧ ، هياكل النور ص ٨٥ — ٨٧ . ومن تعليل السهروردى لذلك » . . اعلم أن النفس غير منطبعة فى البدن ، وقد خضعها البدن . . . وإذا كان كذلك فلا عجب أن يكون لبعض النفوس قوة إلهية ، تكون بقوتها كأنها نفس العالم ، يطيعها العنصر ، طاعة بدنها لها سيما وقد علمت أن جميع العنصريات ، وجميع الأجرام ، مطيعة للمجردات فإذا زادت النفس فى التجرد والتشبه بالمبادىء ازدادت قوة . « فيكون لها التأثير بكثير من الغرائب ، وأيضاً ، قد يحركون أجساما يعجز عن تحريكها النوع » ص١٢ التلويحات . ينظر أيضاً ص ٥٠٣ — ٥٩٥ من نفس المجموعة .

(٢) السهروردى : مجموعة فى الحكمة الإلهية ص ١٠٦ ، ١١٢ ، ١١٣ ، وابن سينا ، الإشارات والتنبيهات قسمى ٣ ، ٤ ص ٧٥١ — ٧٦٧٨ ، ٨٢٨ — ٨٣٤ وآراء أهل المدينة الفاضلة للفارابى ص ٦٦ ، ٦٧ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٨٤ — ٨٧ ، رسائل إخوان الصفا جـ٤ ص ١٦٤ ، ١٦٥ .

القرآن التي يدين بها الإمام الشوكاني ، فإن هذه الأخيرة ، تغلب النظرة فيها إلى إظهار طاعة الله سبحانه ، والتقرب إليه ، وما فيها من نظرة إلى النفس ، لا يعدو أن يكون نظرة تأديبية ، وأثراً أخلاقياً ليس غير . وعلى قدر الفارق بين الطريقتين كان الفارق بين النتيجتين ، والاختلاف بين الغايتين .

والنفس التي تغيرت ، أو تطورت هذا التطور ، عن طريق الرياضة والمجاهدة ، هناك نفس أخرى تشبهها ، هي نفس السحرة والكهان ، كما أن هناك نفس ثالثة قد تغيرت هذا التغير ، ولكن بطريق المرض أو الجنون ، وهم يعتبرون تلك النفوس الثلاثة ، في مستوى يكاد يكون واحداً ، في الإتيان بالكرامات والخوارق من كشف ، أو قدرة على التأثير في الغير ، وفي مظاهر الطبيعة [١] ، فسووا بذلك بين الولاية وبين السحر والكهانة ، والجنون ، وما إليه من الأمراض النفسية الأخرى ، بل وبين النبوة . وجعلوا المعجزات من باب السحر والكهانة والنجامة ، كلها ترجع إلى سيطرة النفس على البدن ، وفقد العقل والفكر قوته على سيطرته على الوجدان والخيال [٢] .

وبهذا فلا مظهر للولي أو النبي يختلف عن مظهر الساحر والكاهن ، وصارت الكرامات من أفعال الشخص ، وكذلك المعجزات من أفعال النبي ، ولم يعد هناك تكريم من الله للولي ، ولا تأييد منه للنبي ، بل ضاعت الولاية والنبوة ، في شعوذة السحر والكهانة ، وحالات الجنون واختلاط الأعصاب .

---

(١) آراء أهل المدينة الفاضلة ص ٧٧ ، التلويحات ص ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠٣ ضمن مجموعة في الحكمة الإلهية للسهروردي ، الإشارات لابن سينا قسمي ص ٤٤٣ ، ص ٧٨٧ — ٨٩٩ ، ٨٧١ ، ٨٧٢ ، ٨٧٦ ، معارج القدس المنسوب إلى الغزالي ص ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٥٧ — ١٤٩ .

(٢) نفس المصادر المتقدمة وصفحاتها ، هياكل النور للسهروردي ص ٨٢

وحينئذ ، فلا صلة بينهم وبين ما يستدلون به من الحديث : « ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه . . . إلخ » ، وإنما يمكن أن نتلمس تلك الصلة فى نظرية المعرفة الإشراقية ، التى يدينون بها فى نظريتهم فى الولاية والنبوة ، والتى تقوم على نظرية الفيض سواء كانت فارابية أم أفلوطينية [١] ، فكلتا النظريتين ترى أن للإنسان جوهراً إلهياً ومتى ما عمل على الخلاص من هذا العالم فقد ظهر فيه هذا الجوهر ، وغلبت إلهيته ، أو ملائكيته على بشريته وصارت نفسه من القوة بحيث تستطيع أن تتصرف تصرف الإلهيين أو الملائكة [٢] ، وهو ما دعا الصوفية الذين غلبت عليهم الفلسفة ، إلى إدعاء الألوهية ، والقول بالحلول أو الاتحاد ، أو وحدة الوجود ، ثم ادعاء القدرة على إظهار الخوارق أو الكرامات [٣] .

(١) آراء أهل المدينة الفاضلة ص ٨٢٦٢ ، تاريخ الفلسفة اليونانية ، يوسف كرم ص ٢٨٨ — ٢٩٥ ، ابن سينا الاشارات ص ٨٦٢ — ٨٧١ قسمي ٣ ، ٤ ، ٨٧٤ — ٨٨٦ من نفس المصدر ، ومعارج القدس المنسوب إلى الغزالى ص ٢٣٤ ، ص ٥٦ — ١٦٧ ، السهروردى ، مجموعة فى الحكمة الالهية ص ٥١ — ٩٧ ، هياكل النور ص ٨٥ ، راحة العقل للكرمانى ص ٤٠١ — ٤٠٥ .

(٢) نفس المصادر المتقدمة والصفحات ، راحة العقل للكرمانى ص ٤١٧

(٣) السهروردى مجموعة فى الحكمة الالهية ص ٦٧ — ٩٩ ، ٥٠٣ ، ٥٠٤ تلبيس إبليس لابن الجوزى ص ٢٣١ — ٣٠٤ ، ٢٣٦ — ٢٣٨ ، ٣٧٧ — ٣٨٦ الصلة بين التصوف والتشيع ج ٢ ص ٤٦ — ٤٩ وقارن أيضاً ص ٣٣ ، ٨٦٢٤ فقد جعلوا تلك القوة النفسية مظهراً لمعرفة اسم الله الأعظم الذى عن طريقة يحيلون الأجسام النوعية من صورة إلى أخرى ، وهو ما شاع فى أوساطهم بمعرفة الكيمياء ، وتعلمها فهى ليست كيمياء مادية ، وإنما هى كيمياء نفسية ، ويعلق الدكتور الشيبى على ذلك بقوله : ولهذا وجدنا الكيمياء مقترنة دائما بعلم الباطن والأشراف على كثير من علم الفلسفة ويبدو أن الهدف من هذه الكيمياء تحقيق

ولأنهم يفسرون الكرامات بقوى النفس ، ويلبسونها إلى ذلك التخصص فقد أشملوا نظريتهم فى المعرفة أعمال السحرة والكهان ، وفسروها بها . وبهذا فقد سجلوا على أنفسهم ، أنهم لا يستقون آراءهم من هذا الحديث الذى معنا ، وإنما من تلك النظرية التى تمت بسبب كبير إلى الغنوصية ، وفى واقعها الإلحادى[1] كما أشار إلى ذلك الإمام الشوكانى .

أما الإمام الشوكانى ، فلأنه لا يؤمن بشىء من ذلك ، فقد رفض أن تكون أعمال السحرة والكهان أو المجانين والمرضى ، من قبيل كرامات الأولياء ؛ لأن كرامات الأولياء إنما أكرمهم الله بها ، لأنهم أحباؤه وأولياؤه وأما أولئك فنهم من أبعد عن هذا التكريم ؛ لأنه عدو لله[2] ، ومنهم من لم يأبه الله له ، لبلوغه من اختلال العقل وعدم أحقيته للتكاليف أن لا يكون لله ولياً ، ولا عدواً[3] ، وحينئذ فلا مجال لإسناد أعمالهم بهذا الحديث ، وإنما يمكن أن يلتمس هذا الإسناد فى نظرية المعرفة عند الحكماء من أتباع الأفلاطونية الحديثة[4] .

القدرة الروحية على التصرف فى الأشياء على نحو يماثل تغير الإكسير للمعادن الخسيسة إلى شريفة ، وإكسير الكيمياء النفسية هو اسم الله الأعظم الذى يحقق كل المعجزات مادية ومعنوية مما لا يصل إليه الإكسير المادى فى تأثيره ص ٣٣ ينظر أيضا فى التصوف الإسلامى وتاريخه ص ١٨ ، ٢٢ — ٢٦ فيما يتصل بوحدة الوجود .

(١) شرح العقيدة الأصفهانية لابن تيمية تبع جـ د ص ٩٣ ، ٩٤ الفرقان له أيضاً ص ٨٨ — ٩٣ .

(٢) قطر الولى فى (خوارق غير الأولياء) .

(٣) قطر الولى فى نفس العنوان المتقدم .

(٤) نفس المصدر .

الفصل الخامس

أفضل الأولياء

(ا) رأى الإمام الشوكانى :

يرى الإمام الشوكانى أن أفضل أولياء الله من البشر هم الأنبياء ، وأفضل الأنبياء ، الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وأن أولياء الله غير الأنبياء لايزالون فى درجتهم مع الأنبياء والرسل كدرجة التابع من المتبوع[1] .

(ب) رأى الصوفية :

ولكن الصوفية والشيعة كما تقدم لنا يصفون الأولياء بصفات[2] ، أباحت لمن رام الدخول فى مفاضلة بين الأولياء والأنبياء ، من متفلسفى الصوفية ، أن يفضل الأولياء على الأنبياء ، ويرى فى الأولين تفوقا فى البحث الفكرى ، والعلم الذوقى مما ليس للآخرين[3] ، ولعل أبرز مظاهر هذا التفضيل ، مايدعيه بعض الصوفية من حلول الله فيهم أو اتحادهم به ، مما يتضمن القول بألوهيتهم ، وتصرفهم فى الأكوان وفى الناس[4] .

---

(١) قطر الولى فى (أفضل الأولياء) .

(٢) ينظر ما مضى من هذه الدراسة .

(٣) ينظر على سبيل المثال ، فصوص الحكم ص ١٣٣ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٥٦ ، التعليقات ص ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٦٤ .

(٤) الصلة بين التصوف والتشيع ج ٢ ص ٤٦ — ٤٩ ، الإشارات قسم ٤ ، ٣ لابن سينا ص ٨٩٢ — ٨٩٩ مجموعة فى الحكمة الإلهية للسهروردى ص ٩٧ .

هـذا فى التصوف المتقدم[1] ، وفى التصوف المتأخر رأينا الذين غلب عليهم التفلسف ينحون هـذا النحو ، وإن كان بصورة غير سافرة ، فقد حاولوا تقنيعها ، بتظاهرهم أنهم يشيدون بالنبوة ويثبتونها فى النفوس[2] ، ولكنهم رغم هـذا لم يفعلوا أكثر من إثبات تحاملهم على النبوة وتفضيل الولاية عليها ، أو مساواتها بها على الأقل ، فالسهروردى المقتول ، قد جعل النبوة طريقا يماثل طريق الولاية وهو شدة الاتصال بالعقل الفعال ؛ وإن كان يميز النبي عن الولى بأن يشترط فيه ؛ أن يكون مأموراً من السماء بإصـلاح النوع[3] ؛ كما أنه يجعل النبوة دائمة غير منقطعة ، ويرى أنها لم تختم بمحمد صلى الله عليه وكأنه يرمى بذلك إلى أن الفلاسفة أو الأولياء المتألهين ، ليسوا فى الواقع إلا أنبياء فإن عقيدته ، أن الأرض لا تخلو من متوغل فى التأله ، لأنها لا تستغنى عن إمام . وما دام قد جعل طريق الإثنين واحداً فمن بالمنطق عنده أن النوعين متساويان ، بل يبلغ به الأمر إلى أن يفضل الولى على النبي ، لأن الولى عنده أكمل من النبي ، فالأولياء ، أو الفلاسفة الحـكماء ، وإن كانوا يتساوون مع الأنبياء فى التأله ، إلا أن النبي يقصر عن الفلاسفة المتألهين فى البحث والحـكمة ، ومن هنا كان الصنف الأخير أحق من الأول بالخلافة عن الله والتلقى عنه[4] ، وبهذا فقد أنكر نصاً من نصوص الدين

---

(١) ينظر ما تقـدم من هذه الدراسة .

(٢) ينظر فى ذلك مثلا ، هيا كل النور للسهروردى ، الهيكل السابع وخاصة ص ٨٧ من الطبعة الأولى تحقيق الدكتور (أبو ريان) .

(٣) مجموعة فى الحـكمة الإلهية ص٩٥ ، قارن : أصول الفلسفة الاشراقية عند السهروردى ص ٣٠٦ .

(٤) أصول الفلسفة الإشراقيه ص ٨٩ نقلا عن مقدمة حـكمة الإشراق للسهروردى .

وأصلا من أصوله ، وهو اكتمال النبوة والرسالة بمحمد ﷺ فضلا عن إزرائه بمقام النبوة مما تسبب فى مقتله على يد صلاح الدين الأيوبى (١) ، الذى قضى على الخلافة الإسماعيلية فى مصر .

والسهروردى فى هذا متأثر بالقرامطة والباطنية الذين يرون أن الإمام أرقى الواصلين فى عصره ، وأكثرهم استعداداً لتلقى إشراق الأنوار العليا ، وهو مأمور من هذه العقول ، ومفوض منها لتولى الإمامة (٢) ، وأن الأرض لا تستغنى ضرورة عن الإمام ، لأن الفيض دائم وباق مستمرة (٣) وبهذا الفيض فإن الإمام يفوق درجة النبي فى كثير من الأحوال .

وهذا الاتجاه هو أبرز ما يميز فلسفة ابن عربى وتصوفه ، فإن النبوة عنده أيضا لم تنقطع ولم تنته عند محمد ﷺ ، ويستخدم فى ذلك مبدأهم الباطنى فى التأويل الذى يحرفون به الكلم عن مواضعه ، فيرى فى تسمية الله سبحانه نفسه فى كثير من آيات القرآن الكريم بالولى وعدم تسميته بالنبي ، دليلا على عدم انقطاع النبوة أو الرسالة ، فإن لفظ النبي أو الرسول فيه مظهر للعبودية والقرب والتواضع من الله ، فلا ينهض ذلك الاسم أن يرتفع بصاحبه إلى درجة مشاركته لله سبحانه فى اسمه ، أما لفظ الولى ففيه مشاركة العبد للرب فى الإسم ، وهذا يشق على المخلصين من الأولياء ، أن يزاحموا البارى تعالى فى اسمه تواضعاً منهم ، فلذا أبقى لهم النبوة والرسالة دون انقطاع إكراماً لهم ، والرسول صلى الله عليه وسلم وإن كان قد نفاها بعده ، أو جاء هذا فى القرآن

---

(١) أصول الفلسفة الإشراقية ص٩١ ، هيا كل النور ص١٢ (السهروردى) لسامى الكيالى ص ٢٧ — ٣٠ .

(٢) أصول الفلسفة الإشراقية ص ٨٨ .

(٣) نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام ص ١٨٢ ، ١٨٣ ، ص ١٨٨

الـكريم ، فإنها ما انقطع منها إلا الإسم ، وإلا « الوحى الخاص بالرسول والنبي من نزول الملك على أذنه وقلبه » ، وأما هى من حيث عينها وحـكمها فما نسخت ، بل باقية فى الأولياء والعلماء والمجتهدين ولهم الأنباء العام[1]. باقية فى الأولياء والعلـــماء بالنسبة لعلمهم الباطن ، وبالنسبة أيضاً لوراثة التشريع[2]. وهذا يلبنى عنده على أن النبوة نوعان : نبوة تشريع ، وهى

---

(١) فصوص الحكم ص ١٣٤ — ١٣٥ ، الفتوحات المكية جـ٢ ص ٣٣٥، ومن قوله فى ذلك : « وللأولياء فى هذه النبوة مشرب عظيم ولا سيما النبى ﷺ قد قال فيمن حفظ القرآن « إن النبوة قد أدرجت بين جنبيه ، فإنها له غيب ، وللنبي شهادة » ، ولـكن الإمام الشوكانى قـــد ذكر فى الفوائد المجموعة فى الأحاديث الموضوعة « باب فضائل القرآن » حديث رقم (٢١) ونصه : « من قرأ ثلث القرآن أعطى ثلث النبوة ، ومن قرأ ثلثيه أعطى ثلثى النبوة ، ومن قرأ القرآن فـكأنما أعطى النبوة كلها » فذكر فى سنده من هو كذاب ، ومن يروى الأباطيل مما يحمل على القول بـكذب حديث ابن عربى الذى يستدل به ، وهذ لأن شرط الفضل ليس العلم ولا الحفظ وإنما الشرط العمل .

(٢) فصوص الحـكم ص ١٣٥ ، ومن قوله فى ذلك : « إلا أن الله لطف بعباده ، فأبقى لهم النبوة العامة التى لا تشريع فيها . . . . وأبقى لهم الوراثة فى التشريع فقال : « العلماء ورثة الأنبياء » وما ثم ميراث فى ذلك ، إلا فيما اجتهدوا فيه من الأحكام فشرعوه » . ويعنى بالاجتهاد ، اجتهاد الأولياء والأئمة الخلفاء ، على مقتضى الذوق والـكشف ، لا اجتهاد العلماء المعروف ، المبنى على النظر والاستدلال ، والبحث فى القرآن والسنة ، ينظر الفصوص ص ١٦٣ ، ١٦٤ ، والتعليقات ص ٢١٥ ، والفتوحات جـ ٢ ص ٦٦٦ . وهو بهذا ينسخ حـكم الشريعة المحمدية ، بحـكم علم الباطن الذى أتى به الأولياء عن طريق الإجتهاد المبنى على الذوق ، خاصة وأنه جعلهم أنبياء ورسلا ، بعد محمد ﷺ ولهم الزيادة فى إثبات حـكم أو نسخه حسب ما يصح لهم من الأحاديث بناء على ذوقهم وكشفهم ، انظر الفصوص ص ١٦٤ ، ١٦٣ .

النبوة الخاصة التي أتى بها المرسلون عن طريق جبريل ، أو العقل الفعال وهى التي ختمت فقط بمحمد صلى الله عليه وسلم ، ونبوة علم وهى النبوة العامة التي يتصف بها الأولياء والأئمة وهى التي لم تلته بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وعلمها ليس عن جبريل ولا عن طريق العقل الفعال ، وإنما علمها عن الله مباشرة ، ومن نفس المعدن الذى يأخذ منه جبريل ليوحى بالذى يأخذه إلى الرسول[1] ، ويستدل لذلك بقول أبي يزيد البسطامى فى مقارنته بين الكتاب والسنة — وأنهما وصلا إلينا عن طريق الصحابة ثم التابعين ثم تابعيهم ... الخ — وبين علمهم اللدنى الذى أخذوه عن الله مباشرة « أخذتم علمكم ميتاً عن ميت ، وأخذنا علمنا عن الحى الذى لا يموت »[2].

فإلى جانب المقابلة بين التأويل والتنزيل ، وتفضيل الأول على الثانى ، نجد حطاً من قدر الصحابة (رضى الله عنهم) وهو اتجاه رافضى وباطنى ملحوظ.

ويفصح عن هذا الإتجاه عند ابن عربى ، ما يراه فى الشرائع السماوية ، وانها إنما يحتاج اليها ، للتعرف بأمور الدار الآخرة ، وأن أمور الدنيا يستوى فيها تشريع الفلاسفة والحكماء مع تشريع الأنبياء[3] ، بل لقد ذهب إلى أن الولى يصل فى علمه إلى ما يقصر الرسول عنه فيما يتصل بالله وأسمائه وصفاته، وذلك لأن النبي صاحب شرع وتشريع فقط ولا صلة له بالعلميات ، « فإذا رأيت النبي يتكلم بكلام خارج عن التشريع فمن حيث هو ولى وعارف ،

---

(١) فصوص الحكم ص ٦٢ ، ٦٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥، ١٦٢، ١٩٦، ٢٣٤، التعليقات على الفصوص ص ٢٢٢ . انظر أيضا ما مضى من هذه الدراسة .

(٢) الفتوحات المكية ج ٢ ص ٣٣٥ .

(٣) الفتوحات المكية ج ٢ ص ٣٢٧ ، ٣٢٨ .

ولهذا مقامة من حيث هو عالم أتم وأكمل من حيث هو رسول»[1] ، فإذا كانت النبوة قد انقطعت ، والرسالة قد ختمت فمن حيث هى نبوة تشريع ، وأما النبوة بالمعنى العام الذى يفهمه ابن عربى وقرناؤه ، أى نبوة الأولياء التى يتلقون فيها عن الله مباشرة ، فإنها لم تنقطع[2]. ولهذا قال ابن سبعين : لقد زدت حديث : « لا نبي بعدى » : « نبيا عربيا »[3]

ويعلل ابن عربى هذا التفوق الذى ينسبه إلى الأولياء ، بذلك الذوق الصوفى أو الوحى الداخلى ، وذلك النظر العقلى ، الذى يتمتع به الأولياء[4] دون الأنبياء ، والذى يقوم بمهمة التأويل . وقد اعتبره أسمى مرتبة من الوحى الخارجى الذى يصفه بالسذاجة والقصور عن إدراك مالا ينال إلا بالذوق والعقل[5] . فالأولياء عنده يتلقون الوحى ، كما يتلقاه الأنبياء ، ولكن وحى

---

(١) فصوص الحكم ص ١٣٤ ، ١٣٥ .

(٢) نفس المصدر والصفحة ، والتعليقات ص ٢٢٥ ، الفتوحات ج٢ ص ٦٦٦ .

(٣) شرح العقيدة الأصفهانية لابن تيمية ص ٩٣ ، ٩٤ .

(٤) الفصوص ٦٢ ، التعليقات عليها ص ٢٤ .

(٥) ومن قوله فى ذلك : « فلما كانت الأنبياء لا تأخذ علومها إلا من الوحى الخارجى الآلهى ، فقلوبهم ساذجة من النظر العقلى ، لعلمهم بقصور العقل من حيث نظره الفكرى عن إدراك الأمور على ماهى عليه . والأخبار أيضاً يقصر عن إدراك مالا ينال إلا بالذوق فلم يبق العلم الكامل إلا فى التجلى الإلهى ، وما يكشف الحق عن أعين البصائر والأبصار من الأغطية فتدرك الأمور قديمها وحديثها على ماهى عليه فى حقائقها وأعيانها » فصوص الحكم ص ١٣٣ ، وفى تعبيره هنا بالوحى الخارجى إشارة إلى مذهبه فى الوحى ، وأنه قسمين : خارجى وهو الوحى الخاص بالأنبياء الذى ينزل بالشريعة الظاهرة مع جبريل عليه السلام ، وداخلى وهو ما تدركه نفس الولى — بطريق الذوق والتجلى — عن الله مباشرة ، وهو الوحى الخاص بالأولياء الذى به يتلقون الشريعة الباطنة عن

الأولياء يأتيهم بتجلي الحق لهم ومشاهدته ، وفي مجيء الوحي بهذه الطريقة عصمة من الشيطان ، « فهو وحي خالص لا يشوبه ما يفسده »[1] . بسبب أنه من الذات الهية مباشرة على عكس وحي الأنبياء في نظره الذي يأتيهم عن طريق جبريل — وهو بذلك لا يعدو أن يكون مجرد إخبار لا ذوق ، ولا اجتهاد للنبي فيه . كما أنه يرى أن مرجع الفضل عند الأنبياء ، هو مدى نصيبهم من العلم ، الباطني الذي عليه الأولياء : « فمرجع الرسول والنبي المشرع إلى الولاية والعلم ، ألا ترى الله تعالى قد أمره بطلب الزيادة من العلم ، لا من غيره ، فقال له آمراً (وقل رب زدني علما) وذلك أن الشرع تكليف بأعمال مخصوصة محلها هذه الدار ، والولاية ليست كذلك »[2] .

ويصف ابن تيمية هذا الاتجاه الذي نجده أيضاً عند إخوان الصفاء ، وابن سيناء وغيرهم فيقول : « فإن هؤلاء الملاحدة من المتفلسفة ومن سلك سبيلهم من المخالفين لما جاء به الرسول في الأمور العلمية ، كالتوحيد والمعاد وغير ذلك يقولون : إن الرسول أحكم الأمور العملية المتعلقة بالأخلاق والسياسة المنزلية والمدنية ، وأتى بشريعة عملية هي أفضل شرائع العالم »[3] . « وأما الأمور العلمية التي أخبر بها من صفات الرب وأسمائه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر — فلما رأوها تخالف ما هم عليه ، صاروا في الرسول فريقين : فغلاتهم يقولون : إنه لم يكن يعرف هذه المعارف وإنما كماله في الأمور العملية .

الله ، أو عن النفس مباشرة لأن مذهبه في وحدة الوجود لا يفرق بين ذات الله وذات الولي أو الإنسان فهذا الأخير عنده جزء الأول أو صورة من صوره .

(١) الفتوحات المكية ج ٢ ص ٦٠ ، ٦١ .

(٢) فصوص الحكم ص ١٣٥ ، ١٣٦ .

(٣) نقض المنطق ص ٨٥ .

وأما الأمور العلمية ، فالفلاسفة أعلم بها منه ومن غيره من الأنبياء »[١] .

« ويبين صلة هؤلاء بالشيعة الغلاة فيقول : وهؤلاء يقولون : إن عليا كان فيلسوفا ، وإنه كان أعلم بالعلميات من الرسول ، وإن هارون كان فيلسوفا ، وكان أعلم بالعلميات من موسى »[٢]

والفريق الثانى منهم يقولون : « إن الرسول كان يعلم علمهم ، فيعرف أن الرب ليس له صفة ثبوتية ، ولا يرى ولا يتكلم ، وإن الأبدان لا تقوم إلى آخر ما يقول به الباطنية فى الباطن ، ولكن ما كان يظهر ذلك للعامة »[٣]

ويعلق على هذا أستاذنا الدكتور محمود قاسم بقوله : « نلاحظ أن النتيجة واحدة رغم وصف الرسول بالجهل عند الفريق الأول ، ووصفه بالكذب عند الفريق الثانى ، وهى أن التأويل ينسخ التنزيل»[٤] أو يعلو عليه على الأقل .

وهكذا نجد الولاية الصوفية التى تقوم على العلم الباطنى الآتى عن طريق الفيض الإلهى ، والتى رأى فيها الفارابى السعادة الكاملة[٥] ، والتى قال فيها أحد الغلاة من أولياء الشيعة : « إن الله أرسل محمداً بالتنزيل ، وأرسله هو بالتأويل[٦] » تقصر العلم على نفسها ، وتخلى الأنبياء والرسل منه ، وهو اتجاه

---

(١) نفس المصدر ص ١٣١ ، قارن رسائل إخوان الصفا ج ٤ ص ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٨٨ ، ١٨٩ إلى ١٩٦ .
(٢) نقض المنطق ص ١٣١ .
(٣) نفس المصدر ص ١٣٢ .
(٤) من إضافاته أثناء مراجعة الرسالة .
(٥) آراء أهل المدينة الفاضلة ص ٦٦ .
(٦) قائل هذا هو أبو منصور العجلى . الصلة بين التصوف والتشيع ج ٢ ص ٥٧ ، ١٣٤ ، ١٣٦ .

فعلى كذلك التقيا فى تصوف ابن عربى .

ومما يظهر غلو ابن عربى تشيعه ، تفسيره للنبأ العظيم ، فى قوله تعالى : (عم يتساءلون عن النبأ العظيم) بعلى بن أبى طالب وظهوره فى الوجود[١] وهى فكرة الشيعة الغلاة الذين وصلوا به إلى درجـــة الألوهية ، وفكرة الباطنية على العموم .

فكرة خاتم الأولياء عند ابن عربى ومناقشتها :

وترتبط فكرة ابن عربى فى العلم الباطن بفكرة خاتم الأولياء قياساً على خاتم الأنبياء ، وفى رأى ابن عربى أن خاتم الأولياء ، يعلو على الأنبياء وعلى الرسول صلى الله عليه وسلم[٢] لأنه يستقى من الله مباشرة ، أى « من المعدن الذى يأخذ منه الملك الذى يوحى به إلى الرسول»[٣] فى حين يعد خاتم الأولياء أيضاً مصدراً يستقى منه الأولياء والأنبياء ، الذين يتاح لهم علم الباطن[٤] .

وذلك راجع عنده إلى « أن الرسالة والنبوة — أعنى نبوة التشريع ورسالته — تنقطعان ، والولاية لا تنقطع أبداً» فهذا مظهر أفضليته عنده ؛ جعل

---

(١) سورة النبأ آية : ١ ، تفسير ابن عربى ج ٢ ص ١٨٤ ، قارن الصلة بين التصوف والتشيع ج ١ ص ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، الكافى ج ٢ ورقة ٣٧ مخطوط بدار الكتب (رقم ٢١٢٢٦ ب) لصاحبه أبو جعفر محمد بن يعقوب الكلينى .

(٢) يلاحظ أن ابن عربى يتكلم هنا عن ختم الولاية المحمدية ، لأنه يرى أن الختم ختمان : ختم الولاية المطلقة ، وهو عيسى عليه السلام ، وختم الولاية المحمدية وهو ما نتكلم عنه هنا (انظر الفتوحات ج ٢ ص ٦٤) .

(٣) فصوص الحكم ص ٦٢ .

(٤) نفس المصدر والصفحة .

خاتم الأنبياء والأنبياء يأخذون من خاتم الأولياء[1] ، علمهم الباطن الذي يتصل بالله ولكون ؛ — إن كان عندهم شيء من هذا العلم . ويعلل ذلك بتعليل ، مبنى على المغالطة وتنقيص الرسل عليهم الصلاة والسلام ، فيرى أن ختم الله سبحانه نبوة التشريع بمحمد صلى الله عليه وسلم « صيّر من كان نبيا عند بعثته صلى الله عليه وسلم وليا بحسن الاستماع وحكم الاتباع ، والتحق بالأمة ، كذلك جرى الحكم فى هذا الولى الآتى بهذا الختم العلى ، فليس الختم بالزمان ، وإنما هو باستيفاء مقام العيان »[2] . فالمعروف أن مرتبة الرسل والأنبياء ، باقية فى الدنيا والآخرة (ومن يطع الله والرسول ، فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين . . .) ثم إن هؤلاء الرسل ، كانوا المثل العليا التى أمر الله رسوله بالتمثل بها « فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل » . « أولئك الذين هدى الله فبهداهم ، اقتده » . . فكيف يكون جزاؤهم على حسن طاعتهم وصبرهم على أذى قومهم فى تبليغ رسالتهم ، أن يمحى اسمهم من ديوان النبوة[3] ويلحقون بالأولياء العاديين من الأمة ؟ . ثم بعد ذلك يأخذون من مشكاة خاتم أولياء الصوفية ؟ .

ولقد ذهب فى تكميل نظريته هذه ، وتأكيد اتجاهه الفلسفى المخالف لروح الإسلام ، إلى أن مثل خاتم الأولياء بلبنتين ، إحداهما فضة ، ويشير

---

(١) نفس المصدر ص ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ .

(٢) عنقاء مغرب ص ٧١ .

(٣) كما صرح بذلك فى جانب العزير فى جعله العبارة التى ينسبها إلى الله « لأمحون اسمك من ديوان النبوة » وعداً لا وعيداً ، أى وينقله إلى ديوان الولاية ، حيث يأتيه الأمر والوحى على التجلى ، بعد أن كان يأتيه بالتلقين والإخبار فقط ينظر الفصوص (الفص العزيرى) ص ١٦٤ ، ١٣٦ .

بها إلى الظاهر الذى يتبع فيه الرسول صلى الله عليه وسلم ، والأخرى ذهبا ويشير بها إلى علم الباطن الذى يأخذه عن الله مباشرة . « ولما كان الذهب أفضل فالتأويل أفضل من التنزيل ، أى أنه ناسخ له فى التحليل الأخير »[1] .

ولعله من الواضح أن فكرة خاتم الأولياء هذه فكرة باطنية ، قصد بها الموازاة بين الشرع الظاهر والشرع الباطن ، وليست من الإسلام فى شىء ، ويؤكد هذا ما يرويه ابن عربى من أن الله قد أكرم محمداً صلى الله عليه وسلم فجعل من أمته رسلا بعده (يقصد بهم الأولياء) وأن خاتم الأولياء هذا ليس فى هؤلاء الرسل من هو أرقى منه[2] ، وهو إن لم يكن علويا فى النسب ، فهو علوى فى المشهد والولاية ، ومقامه فوق مقام الصديق لأنه « أخذ نوره من مشكاة النبوة بالوراثة الروحية » وهى « أكبر من مشكاة الصديقية »[3] .

والوراثة الروحية هذه هى الأخذ عن الله مباشرة ، لأن فى رأيه أن كل نبى يموت ، يرفع الله شريعته عنده ، ويرثها عنه ، وقد جاد بهذه الشرائع على أولياء علم الباطن . « فهم أتباع الرسل بمثل هذا السند العالى المحفوظ الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد »[4] .

---

(١) من تعليقات أستاذى الدكتور محمود قاسم أثناء مراجعة هذه الرسالة ، وأنظر من باب التقابل بين هذا التحليل ، وبين تصريح ابن عربى بوجهته هذه فى موضع آخر . الفصوص ص ١٦١ — ١٦٤ .

(٢) نفس المصدر جـ ٢ ص ١١ .

(٣) عنقاء مغرب ص ١٨ ، ١٩ نقلا عن الصلة بين التصوف والتشيع جـ ٢ ص ١٧٥ ، ١٧٧ ، ينظر كذلك عنقاء مغرب ص ١٧ ، ٢٠ ، ٧٧ ، ٧٩ المطبعة الرحمانية سنة ١٣٥٣ .

(٤) الفتوحات جـ ٢ ص ٣٣٥ .

ونلاحظ أن فى تفضيل هذه الوراثة المدعاة ، على رتبة الصديقية مظهر من مظاهر (الرفض) والباطنية ، كما يقول الإمام الشوكانى[١] .

وهذا الذى يقوله فى علم الأولياء ، هو ماتذهب إليه الشيعة الغالية فى علم (على) رضى الله عنه والأئمة من بعده[٢] .

وفكرة خاتم الأولياء ، فكرة باطلة لم يرد بها شرع ، ولا يوافق عليها عقل ، وهى من اختراع الحكيم الترمذى ، ثم صار يقول بها ويدعيها لنفسه ، كل من تسوّل له نفسه الطعن على الأنبياء ، أو إبطال الشريعة الإسلامية ، من اتباع الباطنية الغنوصية[٣] .

ومقصدهم الذميم فى هذا أن يصلوا فى نظر أتباعهم إلى رياسة خاتم الأنبياء[٤] ، فإن كون الرسل والأنبياء بما فيهم النبي الخاتم ، يأخذون مامعهم من ولاية من مشكاة خاتم الأولياء ، معناه أن خاتم الأولياء أفضلهم وأرقى منهم فى العلم والمعرفة ، وأن العلم الباطن هو السائد ، وناسخ للشرع الظاهر كما تقدم ، وهذا الذى ابتدع ذلك قد تناقض هذا الابتداع وأبطله بنفسه ، فإنه لما ذكر هذا فى كتاب (ختم الولاية) ادعى بأنه يكون فى المتأخرين بناء على هذا من درجته عند الله أعظم من درجة أبى بكر وعمر ، ثم قال بعد ذلك بعدم أفضلية أحد على أبى بكر وعمر ، كرد لبعض الآراء التى تشترط فى الولاية العزلة

---

(١) قطر الولى فى : (مبدأ الباطنية) .

(٢) الصلة بين التصوف والتشيع ج ٢ ص ٥٧ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ١٣٤ ، ١٣٦ ، وقارن صدر هذه الدراسة فى (فصل مفهوم الولاية عند الشيعة والصوفيا ص ٧٢ — ٧٤).

(٣) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص ٨٤ ، ٨٥ ، مجموعة الرسائل والمسائل ج ١ ص ٥١ ، ج ٤ ص ٥٩ .

(٤) نفس المصدر ج ١ ص ٥١ .

عن الناس[١] .

وآخر الأولياء فى الحقيقة ، كما يدل عليه المعنى اللغوى لهذين اللفظين ، وكما يفهم من سكوت الدين عن هذا الاسم وعدم ورود شىء بشأنه ، هو آخر مؤمن تقى تقوم عليه القيامة ، وليس هو بخير الأولياء ولا أفضلهم ، لعدم ورود نص فى هذا ، بل أفضلهم أبو بكر ، ثم عمر اللذان ما طلعت الشمس ، وما غربت على أحد بعد النبيين والمرسلين أفضل منهما بنص الرسول صلى الله عليه وسلم على ذلك[٢] .

كما أن رتبة الصديق — وهى رتبة أبى بكر رضى الله عنه — هى أعلى رتبة بعد النبى ، وهى فوق رتبة المحدث ، « لأن الصديق يتلقى عن الرسول المعصوم كل ما يقوله ويفعله ، والمحدَّث يأخذ عن قلبه أشياء ، وقلبه ليس بمعصوم ، فيحتاج أن يعرضه على ما جاء به النبى المعصوم صلى الله عليه وسلم « وهو ما كان يفعله عمر بن الخطاب رضى الله عنه مع الصحابة رضى الله عنهم ولا يقوله لهم أنا محدث ملهم مخاطب فينبغى لكم أن تقبلوا منى ، ولا تعارضونى » فكان يحتج لهم ، ويحتجون عليه بالكتاب والسنة[٣] .

---

(١) نفس المصدر ج ٤ ص ٥٩ .

(٢) المصدر المتقدم ج ١ ص ٥٢ ، ج ٤ ص ٦٠ ، ويروى ابن تيمية فى ذلك عن الترمذى وغيره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فى أبى بكر وعمر : « هذان سيدا كهول أهل الجنة من الأولين والآخرين إلا النبيين والمرسلين » قال الترمذى حديث حسن . وفى صحيح البخارى عن على (رضى الله عنه) أنه قال له ابنه : يا أبت ، من خير الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : « يا بنى ، أبو بكر » قال ثم من ؟ قال : « عمر » . وروى بضع وثمانون نفساً عنه أنه قال : « خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر » . نفس المصدر والصفحة [illegible]

(٣) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص ٧٠ .

فليس هناك خاتم للأولياء بهذا المعنى الباطنى ، « فإن الولى لا يأخذ عن الله إلاّ بواسطة الرسول إليه » وحتى إذا كان محدّثاً قد ألقى إليه شيء عن طريق الإلهام فإنه يجب عليه أن يزنه بميزان الكتاب والسنة ، وهما واسطة الرسول صلى الله عليه وسلم[١] .

وعلى هذا فكل « من بلغه رسالة رسول لا يكون وليا لله ، إلا إذا اتبع ذلك الرسول الذى أرسل إليه » . وكل من بلغته رسالة محمد صلى الله عليه وسلم لا يكون ولياً لله إلا باتباع محمد صلى الله عليه وسلم[٢] . « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله »[٣] . « قل أطيعوا الله والرسول ، فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين »[٤] .

وعلى هذا فليس هناك مجال للمفاضلة بين الأولياء والأنبياء ، فضلا عن أن يقول أحد بفضل الأولياء على الأنبياء ، لأن هؤلاء نوع ، وهؤلاء نوع آخر ، والمفاضلة لا تكون إلا بين أبناء نوع واحد ، كالمفاضلة بين الأولياء بعضهم وبعض ، أو بين الأنبياء بعضهم وبعض ، وكل اتجاه يخالف ذلك فهو يحمل بين ثناياه روافد خبيثة ، قد أمدته بها عناصر إلحادية لا تؤمن بدين[٥] .

---

(١) نفس المصدر ص ٧٠ ، ٧١ ، ٨٦ ، ٨٧ ، مجموعة الرسائل والمسائل جـ ٤ ص ٦٤ .

(٢) الفرقان لابن تيمية ص ٨٦ .

(٣) سورة آل عمران آية : ٣١ .

(٤) نفس السورة آية : ٣٢ .

(٥) ينظر : قطر الولى فى (نصيب العاملين من الولاية) وقارن : نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام للدكتور النشار ص ٤٥ .

نهاية المطاف

وبهذا ، نلتهى إلى أن الولاية الصوفية ، والإمامة عند الغلاة من الشيعة ، لا تصلح كلتاهما أن تـكون قدوة لنا ، ولا أن يكون طريقهما طريقا يوصل إلى درجة الولاية لله سبحانه ، التى شغفنا بها فى حديث الأولياء ، أو فى غيره من آيات القرآن الـكريم .

وإنما الطريق إلى ذلك ، هو الطريق الذى رسمه القرآن الكريم ، وجاءت به السنة الصحيحة .

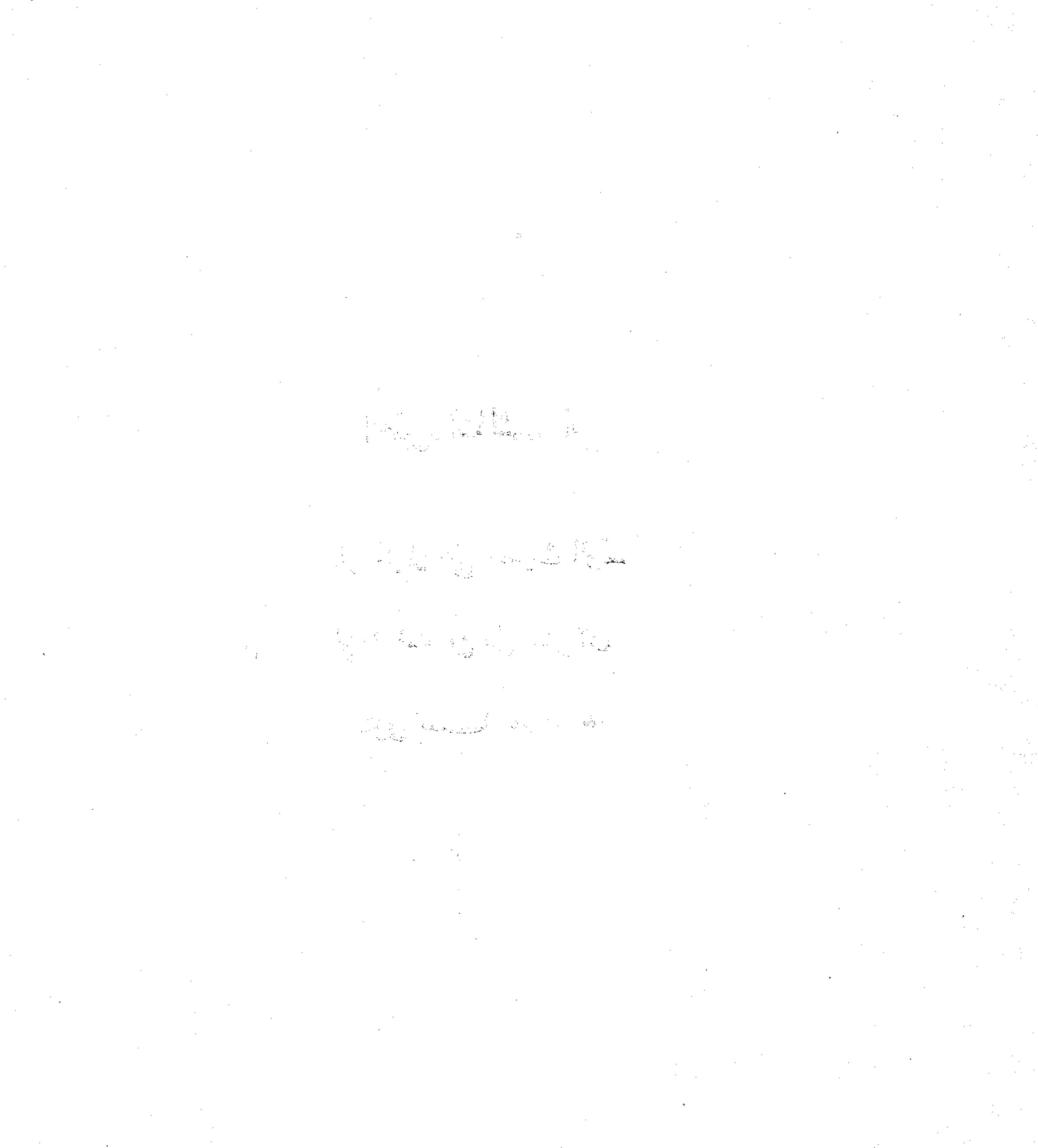
وقد تقدم الإمام الشوكانى ، فساهم ضمن من ساهموا من العلماء السلفيين، وغيرهم من أئمة السنة الصحيحة الخالصة من كل شوب ، فى كشف هذا الطريق وتمهيده ، لمن لم يستطع وحده تبين معالمه ، وسط هذه الأدغال ، وتلك البدع ، التى حاول بها هؤلاء الصوفية ومن نحا نحوهم من الفلاسفة ، أن يطمسوا تلك المعالم ، وأن يطفئوا نور الله بأفواههم ، وقدم لنا كتابه : (قطر الولى على حديث الولى) الذى هو موضع التحقيق ، وهذه الدراسة .

الفقرة الثالثة

قطر الولى على حديث الولى

للإمام محمد بن على الشوكانى

المتوفى سنة ١٢٥٠ هـ



النسخ التي رجعت إليها في التحقيق

بعد البحث والجهد ، لم أجـد إلا مخطوطتين اثنتين ، لـكتاب : (قطر الولي) .

الأولى — نسخة بخط المؤلف (محمد بن علي الشوكاني) وتوجد بمكتبة الجامع الـكبير بصنعاء في مجلد واحد مع (نثر الجوهر على حديث أبي ذر) للمؤلف تحت (رقم ٨٦٦ . حديث) وقد انتهى من كتابتها سنة ١٢٣٩ هـ وهي بحجم متوسط ، وقد أحضرت هذه النسخة ، وأخذت لها صورة على (ميكروفيلم) عن طريق معهد المخطوطات بالجامعة العربية بالقاهرة ، فاستبطأت موعد خروج هذه الصورة ، فأخذت لتلك النسخة صورة أخرى (بالفوتوستات) بدار الـكتب المصرية . وهذه الصورة الأخيرة ، موجودة الآن بدار الكتب المصرية تحت رقم (٢٣٤٧٤ ب) إلى جانب الصورة التي معي ، والتي أخذتها أخيراً من معهد المخطوطات بالجامعة العربية . وكانت هذه النسخة بحالة جيدة ، حينما أحضرتها للتصوير ، ليست بها خروم ، ولا تآكل ، أو تلف ، أو تشويه يؤثر على وضوح الـكتابة ، أو عدم اتصال الـكلام .

وعدد صفحات هذه النسخة ١٣٦ صفحة ، ومكتوبة بخط الرقعة الخالي من النقط في أكثر الأحوال ، وكتابتها تتسم بطابع التسرع ، ففيها كثير من الشطب إلى جانب الخطأ في كثير من الآيات القرآنية ، وتـكرار بعض الـكلمات أو نقصها ، ونقص بعض الحروف ، وتصحيف البعض وعدم التبويب ، مما يعطي أنها مسودة لم تبيض بعد كما أشار إلى ذلك ، كاتب النسخة الثانية حين نقلها عن هذه النسخة .

وفى بعض الأحيان ، يكتب الإمام الشوكانى ، الضاد (ظ) حسب نطقهم ، وكذلك قد يصل كلمتين ، من شأنهما أن يفصلا مثل : (ما) اسم موصول بعد (كل) فى قوله (كلما يناله)

والإمام الشوكانى فيها يكاد يلتزم قصر للممدود وتسهيل الهمزة وعدم كتابتها إذا جاءت فى الوسط ، كما أن فيها بعض الأخطاء الإملائية ، والنحوية ، رغم أن الإمام الشوكانى ، يعتبر حجة فى النحو وفى آخر صفحة فيها (ص١٣٦) تعليق لثلاثة من القراء العلماء وتقريظهم وتوقيعهم ، إلى جانب توقيع الإمام الشوكانى .

وقد اعتبرت هذه النسخة الأصل ورمزت إليها ، بحرف (أ) .

الثانية : مخطوط بدار الكتب المصرية ، رقم (٥٦٤ حديث) بالمكتبة التيمورية كتبت عن النسخة (أ) بخط رقعة واضح ، منقوط إلا فى القليل ، بخط مجهول (سنة ١٢٤٠ هـ) ، وقد قرأها وأجازها بعد الكتابة تلميذ المؤلف (محمد بن أحمد الشاطبي) .

وهى فى حجم متوسط ، صفحاتها (٢٢٤) وحالتها جيدة ، لولا أن بها بعض الخروم ، التى كادت أن تضيع معالم بعض الحروف .

وكاتبها ، يلتزم تسهيل الهمزة مثل الشوكانى ، وقصر الممدود ، وأخطاء (أ) تكاد تكون كلها فيها ، وتزيد عليها (ب) ، فى أن بها بعض حالات سقوط الكلمة أو الكلمتين ، أو السطر بأكمله ، أو الآية القرآنية كلها ، التى أثبتتها مسودة الشوكانى ، إلى جانب بعض التصحيف من الناسخ ، وهى تمتاز بإثبات بعض الكلمات التى يقتضيها المقام أو الأسلوب ، والتى سقطت من المؤلف فى (أ) وكذلك بعض الحروف ، أو إثبات بعض الحروف التى

تتمشي مع الأسلوب ، والتي يكون الشوكاني ، قد وضع في مقابلها ، حرفاً لا يتمشى مع السياق ، أو لا يستقيم به الأسلوب .

كما أن بهوامشها بعض تعليقات من القراء ، لتوضيح كلمة ، أو ذكر مناسبة .

وقد نقل الناسخ هذه النسخة دون تبويب أيضاً ، على غرار الأصل .

وقد رمزت إليها بالحرف (ب) .

منهج تحقيق النص

١ — وضعت أرقام صفحات الأصل ، بالهامش الأيمن من التحقيق .

٢ — قد يسقط فى الأصل ، كلمة أو حرف من كلمة ، أو يأتى (بمن) فى موضع (على) ، أو (فيه) بدل (فيها) ، أو يخطىء خطأ إملائيا أو نحويا ، فأضع الساقط أو ما أراه ، هو الصواب بين معقوفتين، وأنبه عليه فى الهامش.

٣ — الأخطاء ، أو الزيادات ، فى كلتا النسختين ، أو النقص فى (ب) نبهت عليها أيضاً .

٤ — ما جاء من خطأ من المؤلف فى الآيات القرآنية أصلحته دون أن أنبه عليه ، أما ما جاء منه من تغير بعض ألفاظ الأحاديث أو زيادتها ، أو نقصها ، فقد نبهت عليه عند العثور على هذه الأحاديث فى مصادرها الأصلية .

٥ — لاحظت أن الناسخ، فى (ب) يذكر كلمة تعالى دائما ، بعد لفظ الجلالة ، مخالفا بذلك الأصل ، فكنت أنبه عليه فى البدء ، فلما وجدته مبدأ مطرداً ، اكتفيت بإثبات لفظ الجلالة فقط كما جاءت فى الأصل ، دون أن أنبه على المخالفة فى (ب) .

٦ — ما وجد من اختلاف بين النسختين ، وازنت بينه ، وأمضيت ماهو أقرب إلى الصواب ، فإن كان الصواب فى (أ) ، أشرت إلى الاختلاف فى (ب) ، وإن كان فى (ب) أثبته بين معقوفتين ، بدلا من الخطأ فى (أ) ونبهت على ذلك .

٧ — حققت النصوص التى نقلها الشوكانى عن غيره ، فى مصادرها التى نقلها عنها ، إلا ما تعذر الوصول إليه ، وهو قليل جداً .

٨ — يلاحظ أن الإمام الشوكانى قد خرج كل الأحاديث التى استدل بها فكفانى بذلك مؤنة هذا العمل .

٩ — ترجمت للأعلام ، إلا ما تعذر الوصول إليه ، وهو قليل جداً وغالبه من رجال السند فى الأحاديث ، وقد عرف بهم الشوكانى نفسه إما بالتضعيف أو التوثيق ، وما ترجمت له ثم تكرر ذكره ، لم أشر إلى مكان الترجمة ، اعتمادا على إمكان الوصول إليه — لمن لم يقف على ترجمته السابقة — من فهرس الأعلام المثبت فى النهاية .

هذا ، وقد قمت بتبويب أجزاء الكتاب وعنونتها ، حسبما هو موجود فى التحقيق .

وقف على المكتبة العامة بجامع صنعاء اليمن

قطر الولي على حديث الولي

للعبد الفقير إلى رحمة القدير

محمد بن علي الشوكاني

جعل الله [illegible]

٢٠٥

والبدر الجوهر على حديث أبي ذر للشوكاني

من جملة خزانة الفقير [illegible] محمد بن [illegible]

[illegible] ربيع [illegible]

ثم صار بعد ذلك في دول [illegible]

[illegible] عليه [illegible] قاسم [illegible]

[illegible] ١٢٥٦

الحمد لله

هذا القطر الولي من جملة الكتب التي [illegible]

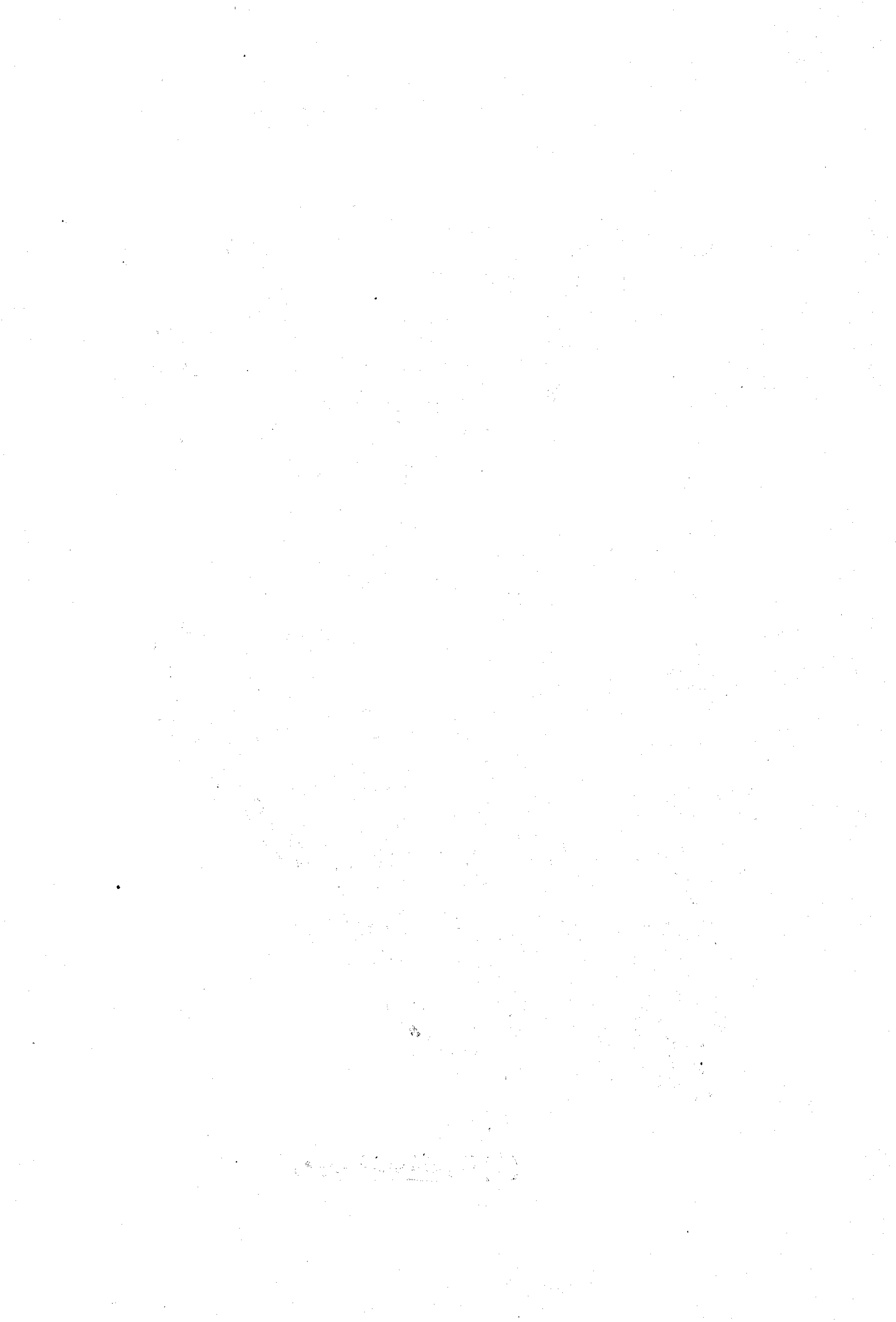
مولانا أمير المؤمنين المتوكل على الله رب العالمين بوضعها في

مكتبة الجامع المقدس بصنعاء لعموم الانتفاع

وعلى أن [illegible]

[illegible] شهر ربيع الثاني سنة [illegible]

صورة لغلاف المخطوطة (أ)



صورة لصفحات النسخة التى كتبها

الإمام الشوكانى بخطه وهى المرموز إليها بحرف (ا)

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على سيد المرسلين وآله الأكرمين
ورضي الله عن صحابته الأفضلين وبعد فإنه لما كان حديث من عادى لي
وليا فقد اشتمل على فوائد كثيرة النفع جليلة القدر لمن فهمها حق فهمها
وتدبرها كما ينبغي أحببت أن أفرد هذا الحديث الشريف بمؤلف مستقل
أنثر من جواهره ما يبهج إليه الناظر ويجلب إليه الفهم وما أحقه بأن
يفرد بالتصنيف فإنه قد اشتمل على كلمات كلها درر الواحدة منها
يكفيها من الفوائد ما ستقف على البعض منه وكيف لا يكون كذلك
وقد حكاه عن الرب سبحانه من أوتي جوامع الكلم ومن هو أفصح من نطق بالضاد
وخير العالم بأسره وأجل خلق الله وسيد ولد آدم صلى الله عليه
وسلم ولم يستوف شراح الحديث رحمهم الله ما يستحقه هذا
الحديث من الشرح فإن الحافظ رحمه الله لم يشرحه في فتح الباري
إلا بنحو ثلاث ورق مع أن شرحه أكمل شروح البخاري وأكثرها
كشفا وأعمها نفعا ولا حاجة لنا في الكلام على رجال إسناده
فقد أجمع أهل هذا الشأن أن أحاديث الصحيحين أو أحدهما
كلها من المعلوم صدقه المتلقى بالقبول المجمع على ثبوته وعند هذه
الإجماعات تندفع كل شبهة ويزول كل تشكيك وقد دفع أكابر
الأئمة من تعرض للكلام على شيء مما فيهما وردوه أبلغ رد وبينوا
صحته أكمل بيان فالكلام على إسناده بعد هذا لا يأتي بفائدة
يعتد بها فكل رواته قد جازوا القنطرة وارتفع عنهم القيل والقال
وصاروا أكبر من أن يتكلم فيهم بكلام أو يتناولهم طعن طاعن أو توهين
موهن وسيأتيك وهو من حديث أبي هريرة ولفظه في البخاري هكذا
قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله تبارك وتعالى قال من عادى لي وليا
فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت
عليه وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته
كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده
التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها وإن سألني أعطيته
وإن استعاذني لأعيذنه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي
عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته انتهى
قوله

قطر الولي على حديث الولي

صورة للصفحة الأولى من المخطوطة (أ)

قوله ان الله تعالى قال هذا من الاحاديث الالهية القدسية وهو يحتمل
ان يكون مما تلقاه صلى الله عليه وسلم عن ربه بلا واسطة ويحتمل ان يكون مما تلقاه صلى الله عليه وسلم
عن ربه بواسطة الملك قال الكرماني يحتمل ان يكون من الاحاديث القدسية
ويحتمل ان يكون لبيان الواقع والراجح الاول وقد وقع في بعض طرق
هذا الحديث انه صلى الله عليه وسلم حدث به عن جبريل عن الله عز وجل قوله
من عادى لي وليا قال في الصحاح والولي ضد العدو والاسم الولاية
ضده العداوة واصل الولاية المحبة والقرب
كما ذكره اهل اللغة واصل العداوة البغض والبعد قال ابن حجر
في فتح الباري المراد بولي الله العالم بالله تعالى المواظب على
طاعته المخلص في عبادته انتهى وهذا التفسير للولي هو المناسب
لمعنى الولي المضاف الى الرب سبحانه وتعالى وقد ذكر
ما في الآيات القرآنية كقوله سبحانه الا ان اولياء الله لا خوف
عليهم ولا هم يحزنون الذين امنوا وكانوا يتقون لهم البشرى
في الحياة الدنيا وفي الاخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز
العظيم وكقوله عز وجل الله ولي الذين امنوا يخرجهم من الظلمات
الى النور وكقوله سبحانه يا ايها الذين امنوا من يرتد منكم عن دينه
فسوف ياتي الله بقوم يحبهم ويحبونه اذلة على المومنين اعزة
على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك
فضل الله يوتيه من يشاء والله واسع عليم انما وليكم الله ورسوله
والذين امنوا الذين يقيمون الصلاة ويوتون الزكاة وهم راكعون
ومن يتول الله ورسوله والذين امنوا فان حزب الله هم الغالبون
ونحو ذلك من الآيات فاولياء الله هم خلص عباده القائمون
بطاعاته المخلصون له وافضل اولياء الله هم الانبياء وافضل الانبياء
هم المرسلون وافضل الرسل هم اولو العزم نوح وابرهيم وموسى
وعيسى ومحمد صلى الله عليهم وسلم وافضل اولي العزم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم

صورة للصفحة الثانية من المخطوطة (أ)

وأخرج مسلم وغيره من حديث ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال لا يدخل الجنة
من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر وأخرج البخاري وغيره من حديث ابن عمر أن
رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال بينما رجل ممن كان قبلكم يجر إزاره من الخيلاء
خسف به فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة وأخرج نحوه
أحمد والبزار برجال الصحيح من حديث أبي سعيد وأخرج نحوه
البزار بإسناد رجاله ثقات من حديث جابر رضي الله عنه وفي الصحيحين
وغيرهما من حديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال بينما رجل
يمشي في حلة تعجبه نفسه مرجل رأسه يختال في مشيته إذ خسف
الله به فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة وأخرج الترمذي والنسائي
وابن ماجه وابن حبان في صحيحه والحاكم وصححه من حديث ثوبان قال
قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من مات وهو بريء من الكبر والغلول والدين
دخل الجنة وإلى هنا انتهى الشرح للحديث القدسي في نهار الاثنين
لعله سابع شهر القعدة من شهور سنة [illegible] بقلم مؤلفه محمد بن علي الشوكاني

[illegible]

صورة للصفحة الأخيرة من المخطوطة (أ)

وعليها توقيع المؤلف وتقريظ بعض العلماء ممن قرأوا هذه النسخة



تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وآله الأكرمين، ورضى الله عن صحابته الأفضلين وبعد :

فإنه لما كان حديث : (من عادى لى ولياً) قد اشتمل على فوائد كثيرة النفع، جليلة القدر لمن فهمها حق فهمها، وتدبرها كما ينبغى، أحببت أن أفرد هذا الحديث الجليل بمؤلف مستقل، أنشر من فوائده ما تبلغ إليه الطاقة ويصل إليه الفهم، وما أحقه بأن[1] يفرد بالتأليف، فإنه قد اشتمل على كلمات كلها درر، الواحدة منها تحتها من الفوائد ما ستقف على البعض منه. وكيف لا يكون كذلك وقد حكاه عن الرب سبحانه من أوتى جوامع الكلم، ومن هو أفصح من نطق بالضاد، وخير العالم بأسره، وأجل خلق الله، وسيد ولد آدم صلى الله[2] عليه[3] وسلم ؟.

ولم يستوف شراح الحديث رحمهم الله ما يستحقه هذا الحديث من الشرح.

---

(١) فى ب (أن يفرد) .

(٢) فى ب (صلى الله تعالى) .

(٣) فى ب : زيدت (وعلى آله) .

فإن ابن حجر(*) رحمه الله لم يشرحه فى فتح البارى(**) إلا بنحو ثلاث ورق[1] مع أن شرحه أكمل شرح البخارى(***)، وأكثرها تحقيقا، وأعمها نفعا. ولا حاجة لنا[2] فى الكلام على رجال إسناده، فقد أجمع أهل هذا الشأن أن أحاديث الصحيحين أو أحدهما كلها من المعلوم صدقه بالقبول المجمع على ثبوته. وعند هذه الإجماعات تندفع كل شبهة، ويزول كل تشكيك.

وقد دفع أكابر الأئمة من تعرض للكلام على شىء مما فيهما، وردوه أبلغ رد، وبينوا صحته أكمل بيان. فالكلام على إسناده بعد هذا، لا يأتى بفائدة يعتد بها. فكل رواته قد جازوا القنطرة، وارتفع عنهم القيل والقال،

---

(١) وذلك من نصف ص ١٩٢ إلى نهاية ص ٢٩٨ جـ ١١ من الطبعة الأولى الميرية سنة ١٣٠١ هـ.

(٢) فى ب: سقطة كلمة (لنا).

الأعلام

(*) هو قاضى القضاة شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن على بن محمد بن على بن أحمد الكنانى العسقلانى الأصل المصرى الشافعى، المعروف بابن حجر، لم يكن فى عصره حافظ سواه وزادت مصنفاته على مائة وخمسين، وهو صاحب فتح البارى بشرح صحيح البخارى: (٧٧٣ — ٨٥٢ هـ).

(**) تقدم التعريف به. ينظر: معجم المطبوعات العربية والمعربة (لسركيس) ص ٧٧ — ٨١.

(***) هو أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخارى، صاحب (الجامع الصحيح) أجل كتب الإسلام وأفضلها بعد كتاب الله العزيز (القرآن) ولد ببخارى سنة ١٩٤هـ، ومات فى (خرتنك) إحدى قرى سمرقند سنة ٢٥٦ هـ.

وصارو أكبر من أن يتكلم فيهم بكلام، أو يتناولهم طعن طاعن، أو توهين موهن.

وسميته (قطر الولى على حديث الولى). قال فى الصحاح: والولى المطر بعد الوسمى، سمى ولياً لأنه يلى الوسمى. وهو من حديث أبى هريرة (*). ولفظه فى البخارى هكذا: قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله تبارك وتعالى قال: من عادى لى وليا، فقد آذنته بالحرب، وماتقرب إلى عبدى بشىء أحب إلى مما افترضت عليه، وما يزال[1] عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحببته فإذا أحببته، كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده الذى[2] يبطش بها، ورجله الذى يمشى بها، وإن سألنى أعطيته، وإن استعاذنى أعذته، وما ترددت عن شىء أنا فاعله ترددى عن نفس المؤمن يكره الموت، وأكره إساءته»[3]. انتهى.

(١) فى ب: (مازال).

(٢) فى ب (يده التى ورجله التى) وقد أجاب الشوكانى عن ذلك التذكير فى موضع التأنيث حين شرحه لهذه العبارة.

(٣) بين ألفاظ الحديث هنا وفى فتح البارى فى الصفحات المشار إليها فيما تقدم، وفى طبعة (الشعب ص ١٣١ جـ ٨)، اختلاف يسير فى الألفاظ، وليس له تاثير فى المعنى. وقد قال ابن تيمية عن هذا الحديث: إنه أصح حديث روى فى الأولياء. الرد الأقوم على ما فى كتاب فصوص الحكم ص ٤٧، الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص ٢٣.

وقد خرجه السيوطى من عدة طرق فقال فيها: كل رجال أسانيد هذه الطرق

الأعـــلام

(*) هو الإمام الفقيه المجتهد عبد الله بن عامر الدوسى صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأكثر الصحابة رواية للحديث، توفى سنة ٥٧ هـ.

قوله : « إن الله [تبارك][1] وتعالى » ، قال[2] : هذا من الأحاديث الإلهية القدسية[3] ، وهو يحتمل أن يكون مما تلقاه صلى الله عليه وآله وسلم ، عن ربه بلا واسطة ، ويحتمل أن يكون مما تلقاه صلى الله عليه وآله وسلم عن ربه[4] بواسطة الملك .

= قد حازوا القبول، إلا (خالد بن مخلد) فى رواية (الذهبى) فى الميزان فإن الذهبى لم يقبله منه إلا لمجيئه من طريق البخارى ، وإلا عبد الواحد فى رواية أحمد بن حنبل فقد اختلف فيه ، وثقة البعض ، وضعفه البعض . وقد ذكر السيوطى زيادة فى آخره ، تبدأ من قوله : « وإن من عبادى المؤمنين لمن يسألنى الباب من العبادة ، فأكفه عنه أن لا يدخله عجب فى فيفسده ذلك » . (القول الجلى فى حديث الولى) ص ٢٥٩ ضمن مجموعة رسائل السيوطى رقم ٢٥ مجاميع مخطوط بدار الكتب المصرية . وقد خرجه أيضاً ، الأستاذان : الدكتور عبد الحليم محمود ، وطه عبد الباقى سرور . ضمن الأحاديث التى خرجاها فى كتاب (اللمع) للسراج ، فقال عنه : « هو حديث قدسى ، رواه البخارى عن أبى هريرة ، وأحمد عن عائشة ، والطبرانى فى الكبير ، عن أبى أمامة ، وابن السنى عن ميمون . وقد أخطأ من زعم أن البخارى انفرد بروايته » . اللمع للسراج ص ٥٦٥ رقم (٣٠) . وبعد هذا ، فلا اعتداد بقول من قال : إن هذا الحديث من غرائب البخارى ، مثل السيد محمد رشيد رضا وغيره .

(١) (تبارك) سقطت فى نسخة (أ) ، ولا بأس من وجودها .

(٢) القائل : ابن حجر .

(٣) الحديث القدسى : هو ما كان لفظه من عند الرسول صلى الله عليه وسلم، ومعناه من عند الله بالإلهام ، أو بالمنام ، دون واسطة جبريل عليه السلام، وأضاف الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الرب عز وجل ورواه عنه ، وليس منظوراً فى نظمه إلى إعجاز . أما سائر أحاديثه صلى الله عليه وسلم غير القدسية ، فلم يضفها إلى الله تعالى ولم يروها عنه . (قواعد التحديث لمحمد جمال الدين القاسمى ص ٦٦).

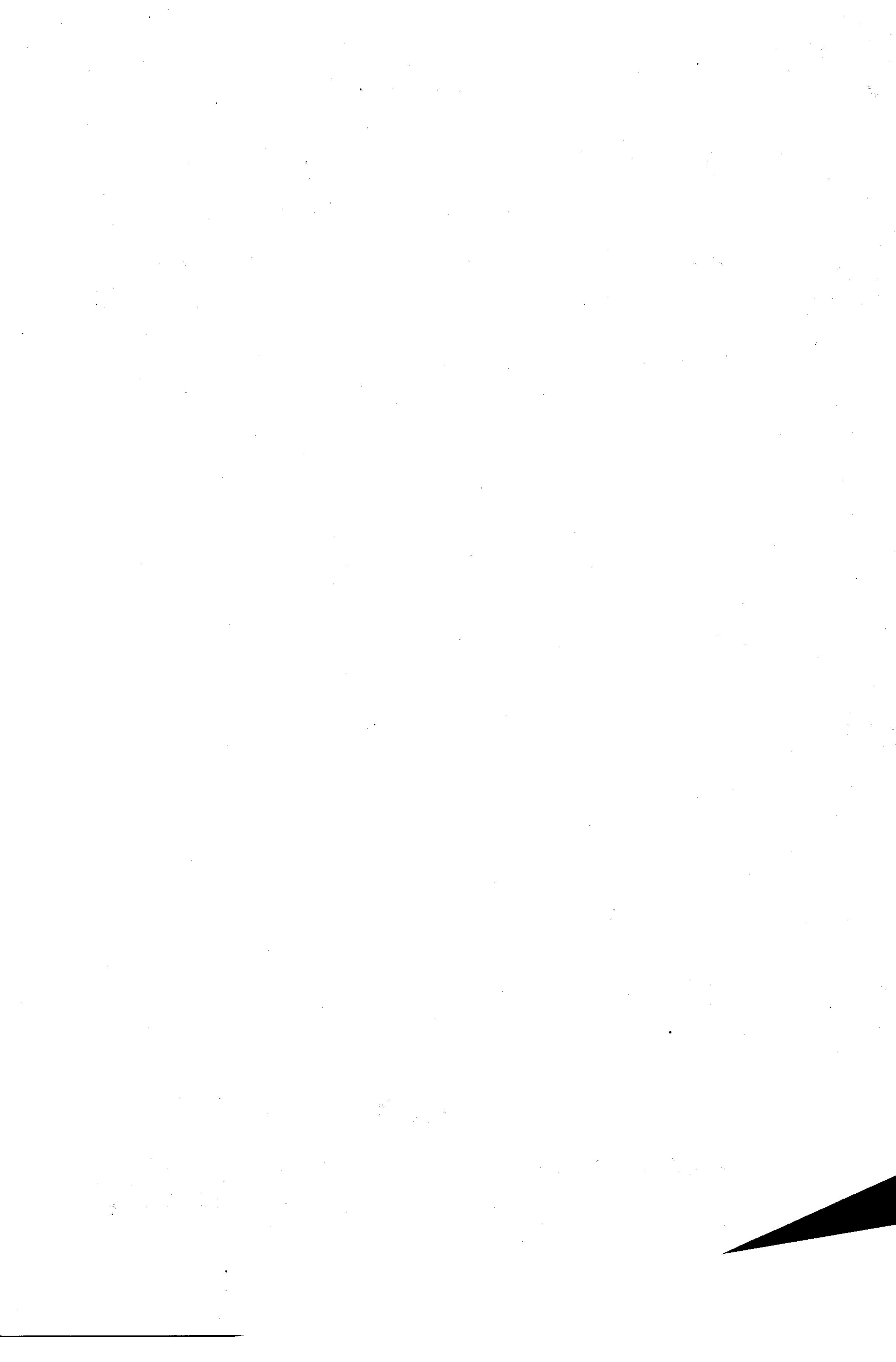
(٤) (عن ربه) سقطت فى : (ب) .

قال الكرمانى(*) : « يحتمل أن يكون من الأحاديث القدسية ، ويحتمل أن يكون لبيان الواقع . والراجح الأول » .

وقد وقع فى بعض طرق هذا الحديث أنه صلى الله عليه وآله وسلم حدث به عن جبريل عن الله عز وجل .

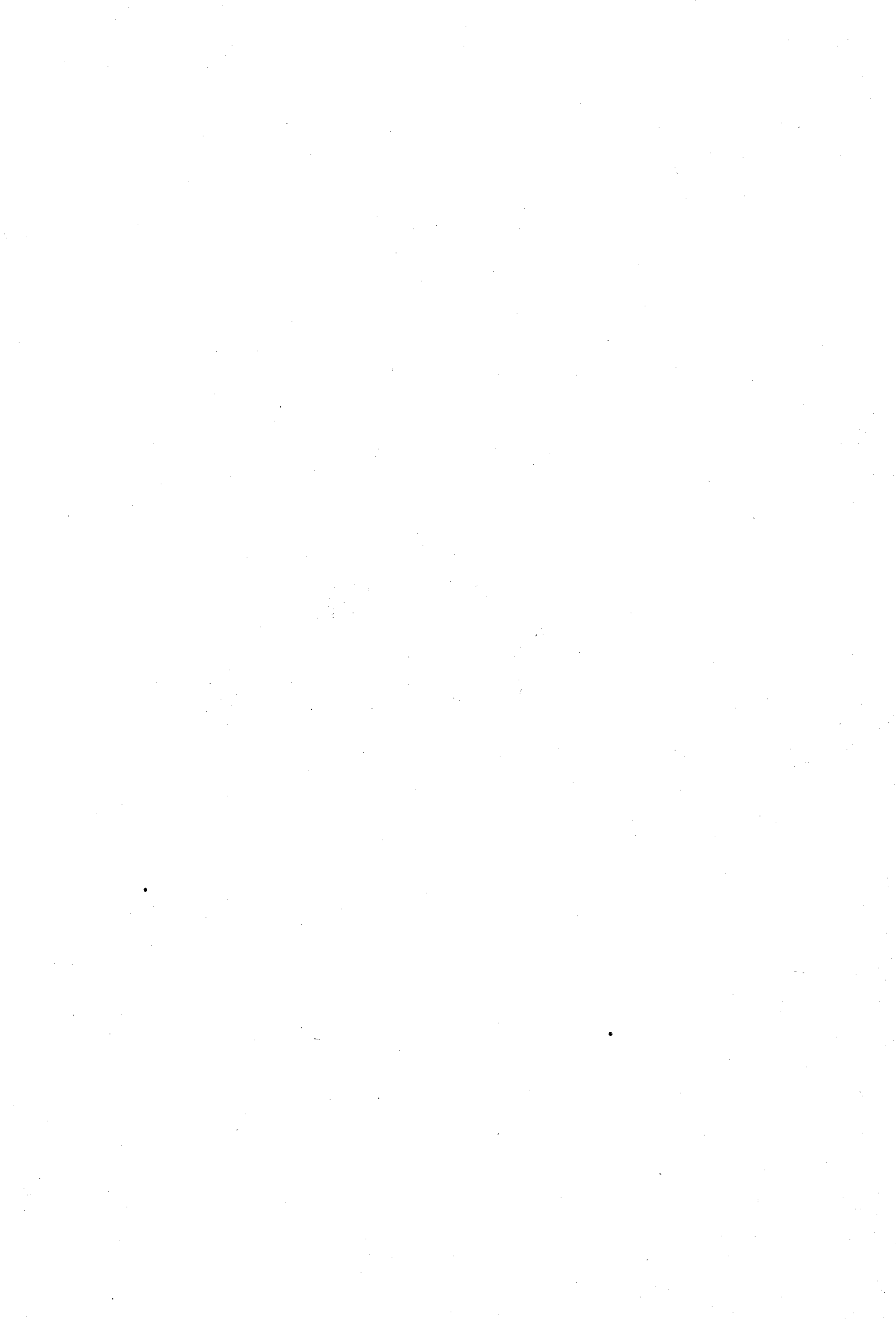
الأعــلام

(*) محمد بن يوسف بن على الكرمانى ثم البغدادى ، له شرح على البخ يسمى بالكواكب الدرارى . (٧١٧ — ٧٨٦ هـ) .



الفصل الأول

من هو الولى ؟



تعريف الولى :

قوله : من عادى لى وليا . قال فى الصحاح : والولى ضد العدو انتهى ـ والولاية ضد العداوة . وأصل الولاية المحبة والتقرب كما ذكره أهل اللغة ـ وأصل العداوة البغض والبعد . قال ابن حجر فى فتح البارى : المراد بولى الله العالم بالله تعالى [المواظب][1] على طاعته المخلص فى عبادته » انتهى[2] .

وهذا التفسير للولى ، هو المناسب لمعنى الولى المضاف إلى الرب سبحانه . ويدل على ذلك ما فى الآيات القرآنية . كقوله سبحانه[3] : (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . الذين آمنوا وكانوا يتقون . لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، لاتبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم)[4]

وكقوله عز وجل : (الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور)[5] .

وكقوله سبحانه : (يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه ، أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ، يجاهدون فى سبيل الله ، ولا يخافون لومة لائم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله واسع عليم . إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون

---

(١) فى أ ، ب والأصل الذى نقل عنه الشوكانى ، وهو (فتح البارى) : (المواضب) بالضاد .

(٢) جـ ١٣ ص ٢٩٣ .

(٣) فى ب (تعالى بدل سبحانه) .

(٤) سورة يونس ، آية : ٦٢ — ٦٤ .

(٥) سورة البقرة ، آية : ٢٥٧ .

الزكاة وهم راكعون. ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون)[١] . وغير ذلك من الآيات . فأوليا الله هم[٢] خاص عباده القائمون بطاعاته المخلصون له .

أفضل الأولياء :

وأفضل أولياء[٣] الله هم الأنبياء ، وأفضل الأنبياء هم المرسلون ، وأفضل الرسل هم أولو العزم : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ، ومحمد صلى الله عليهم وسلم وأفضل أولى العزم نبيعا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وهو الذى أنزل الله سبحانه[٤] عليه : (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله)[٥] . فجعل سبحانه صدق محبة الله عز وجل متوقفة على اتباعه ، وجعل اتّباعه سبب حصول المحبة من الله سبحانه .

وقد ادعت اليهود والنصارى أنهم أبناء الله وأحباؤه وأولياؤه[٦] . (قل فلم يعذبكم بذنوبكم ، بل أنتم بشر ممن خلق ، يغفر لمن يشاء ، ويعذب من يشاء ، ولله ملك السموات والأرض ، وما بينهما وإليه المصير)[٧] . بل

---

(١) سورة المائدة آية ٥٤ — ٥٦ .

(٢) وهم المسلمون الذين آمنو بالله سبحانه وبأنبيائه ، وملائكته وكتبه ورسله ... ألخ .

(٣) فى (ب) (أولياء الله سبحانه) .

(٤) فى (ب) بعد سبحانه : (وتعالى) .

(٥) سورة آل عمران ، آية : ٣١ .

(٦) فى(ب) لا توجد (وأولياؤه) .

(٧) سورة المائدة آية : ١٨ .

ادعوا أنه لا يدخل الجنة إلا من كان منهم[١] . (وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى تلك أمانيهم، قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين. بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن ، فله أجره عند ربه ، ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون)[٢] . بل قد ادعى ذلك مشركو العرب كما حكى الله سبحانه ذلك عنهم بقوله : (وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك ، أو يقتلوك ، أو يخرجوك ، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين) إلى قوله : (وما كانوا أولياءه ، إن أولياؤه إلا المتقون ، ولكن أكثرهم لا يعلمون)[٣] . وهم في الحقيقة أولياء الشيطان ، كما قال عز وجل: (الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله، والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت ، فقاتلوا أولياء الشيطان ، إن كيد الشيطان كان ضعيفا)[٤] وقال سبحانه : (فإذا[٥] قرأت القرآن، فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم، إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون . إنما سلطانه على الذين يتولونه ، والذين هم به مشركون)[٦] . وقال سبحانه: (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا ، إلا إبليس كان من الجن، ففسق عن أمر ربه ؛ أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني، وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا)[٧] .

---

(١) يظهر أنه أخذ هذه الفكرة عن ابن تيمية . انظر الفرقان بين أولياء الرحمن ، وأولياء الشيطان ص ٢٧ — ٢٩ . طبعة صبيح سنة ١٩٥٨ .

(٢) سورة البقرة آية : ١١١ ، ١١٢ .

(٣) سورة الأنفال آية : ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ .

(٤) سورة النساء آية : ٧٦ .

(٥) في أ ، ب (وإذا قرأت) وهي خطا .

(٦) سورة النحل آية : ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ .

(٧) سورة الكهف آية : ٥٠ .

[وقال سبحانه[1]] : (ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً) [2] وقال سبحانه : (الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات) [3] .

وقال سبحانه : (إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه ، فلا تخافوهم ، وخافون إن كنتم مؤمنين) [4] . وقال : (إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون) [5] وقال: (اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله، ويحسبون أنهم مهتدون) [6] وقال سبحانه:(إن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم) [7] . وقال الخليل ﷺ [8] : (يا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون الشيطان ولياً) [9] . وثبت عنه صلى الله عليه وآله وسلم فى الصحيحين وغيرهما أنه قال : « إن آل أبى فلان ليسوا لى بأولياء ، إنما وليىّ الله وصالح المؤمنين » . وهو كقول الله سبحانه : (وإن تظاهرا عليه ، فإن الله

---

(١) لا توجد فى (ا) ولعلها سهو من المؤلف إذ بها تتميز الآيات بعضها من بعض خصوصاً وأنها من سور مختلفة ، وأن المؤلف سلك ذلك المسلك قبل هذه الآيات وبعدها .

(٢) سورة النساء : ١١٩ .

(٣) سورة البقرة : ٢٥٧ .

(٤) سورة آل عمران : ١٧٥ .

(٥) سورة الأعراف: ٢٧ .

(٦) سورة الأعراف : ٣٠ ؛

(٧) سورة الأنعام : ١٢١ .

(٨) فى (ب) سقطت من الناسخ (صلى الله عليه واله وسلم) .

(٩) سورة مريم : ٤٥ .

هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين ، والملائكة بعد ذلك ظهير)[1] .

طبقات الأولياء :

قال الإمام تقى الدين ابن تيمية * رحمه الله : « (فصل) وأولياء الله على طبقتين : سابقون مقربون ، وأبرار أصحاب يمين مقتصدون . ذكرهم الله سبحانه فى عدة مواضع من كتابه ، فى أول الواقعة ، وآخرها ، وفى سورة الإنسان ، والمطففين ، وفى سورة فاطر ، فإنه سبحانه ذكر فى الواقعة ، القيامة الكبرى فى أولها ، وذكر القيامة الصغرى[2] فى آخرها ، فقال فى أولها : (إذا وقعت الواقعة ، ليس لوقعتها كاذبة ، خافضة رافعة ، إذا رجت الأرض رجا ، وبست الجبال بساً ، فكانت هباء منبثاً ، وكنتم أزواجا ثلاثة ، فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة والسابقون السابقون أولئك المقربون فى جنات النعيم . ثلة من الأولين وقليل من الآخرين[3]) فهذا تقسيم الناس إذا قامت القيامة الكبرى التى يجمع الله فيها الأولين والآخرين كما وصف فى كتابه فى غير موضع . ثم قال فى آخر السورة

---

(١) سورة الطلاق : ٤ .

الأعلام

(*) هو أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الدمشقى . نشأ فى بيئة علم وأدب ، ولد فى ربيع الأول سنة ٦٦١ هـ . درس فى دمشق ونضج فى دراسته ، حتى صار أحد الأئمة الأعلام ، وزادت مؤلفاته على الثلاثمائة ، وكان له فضل كبير فى جهاد التتار ، وإنزال الهزيمة بهم . توفى سنة ٧٢٨ هـ .

(٢) القيامة الكبرى : هى يوم القيامة عند انتهاء الدنيا . والصغرى : هى موت الإنسان فى دار الدنيا .

(٣) سورة الواقعة : ١ — ١٤ ، من ٨٣ — ٩٦ .

« فلولا » ، أى فهلا ، (إذا بلغت الحلقوم وأنتم حينئذ تنظرون . ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون فلولا إن كنتم غير مدينين . ترجعونها إن كنتم صادقين . فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم . وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين وأما إن كان من المكذبين الضالين فنزل من حميم وتصلية جحيم . إن هذا لهو حق اليقين . فسبح باسم ربك العظيم) . وقال فى سورة الإنسان : إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا . إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيراً ، إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيراً . يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيراً . ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا . إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا)[1] الآيات .

وكذلك فى سورة المطففين : (كلا إن كتاب الفجار لفى سجين ، وما أدراك ما سجين . كتاب مرقوم . ويل يومئذ للمكذبين . الذين يكذبون بيوم الدين . وما يكذب به إلا كل معتد أثيم . إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين . كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون . كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون . ثم إنهم لصالوا الجحيم . ثم يقال هذا الذى كنتم به تكذبون ، كلا إن كتاب الأبرار لفى عليين . وما أدراك ما عليون . كتاب مرقوم يشهده المقربون . إن الأبرار لفى نعيم . على الأرائك ينظرون . تعرف فى وجوههم نضرة النعيم . يسقون من رحيق مختوم ختامه مسك . وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ومزاجه من تسنيم . عيناً يشرب بها المقربون)[2] .

---

(١) آية : ٣ ، ٤ – ٩ .

(٢) من آية ٧ – ٢٨ .

عن ابن عباس(*) وغيره من السلف : قالوا يمزج لأصحاب اليمين مزجا . ويشرب بها المقربون صرفا . وهو كما قالوا ، فإنه قال يشرب بها المقربون ولم يقل منها . لأنه ضمن قوله يشرب معنى يروى ، فإن الشارب قد يروى وقد لا يروى . فإذا قيل يشرب منها لم يدل على الرى ، وإذا قال[1] يشرب بها كان المعنى يروون بها فلا يحتاجون معها إلى ما هو دونها . فلهذا شربوها صرفاً . بخلاف أصحاب اليمين فإنها مزجت لهم مزجا . وهو كما قال فى سورة الإنسان : (كان مزاجها كافورا . عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا) » .

فعباد الله هم المقربون المذكورون فى تلك السورة .

وهذا لأن الجزاء من جنس العمل ، فى الخير والشر ، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم : « من نفس [عن[2]] مؤمن كربة ، من كرب الدنيا نفس الله

---

(١) فى ب (قيل) وهى علاوة على الخطأ فى النسخ خطأ فى الفهم أيضاً فإن المراد ، قال لله تعالى يشرب بها كما تقدم فى الآية : (يشرب بها المقربون) . أما قيل التى قبلها ، فالمراد بها قول أى أحد غير الله ، لأن مثل هذا التعبير غير الدقيق (يشرب منها) لا يجوز أن يسند إلى الله ، ولا أن يكون من أسلوب القرآن ، فى مثل هذا المقام .

الأعـــلام

(*) ابن عم النبى ﷺ ولد فى الشعب وبنو هاشم محصورون قبل خروجهم منه بيسير وذلك قبل الهجرة بثلاث سنين ، وتوفى النبى ﷺ وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، وكان يسمى البحر لغزارة علمه ، وكان عمر وعثمان (رضى الله عنه) يدعوانه فيشير عليهما مع أهل بدر ، وكان يفتى فى عهدهما إلى أن مات سنة ٦٨ هـ (صفوة الصفوة لابن الجوزى جـ ١ ص ٣١٤ – ٣١٩) .

(٢) فى أ ، ب (على) ، ولكن الأصح عن ، كما ورد فى نص الحديث ، وكما نقل ذلك ابن تيمية .

الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة ومن ستر مسلما ، ستره الله في الدنيا والآخرة . والله في عون العبد ما كان [العبد[1]] في عون أخيه ، ومن سلك طريقاً يلتمس (فيها[2]) علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة ، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ، [ويتدارسونه][3] بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله تعالى[4] فيمن عنده ، ومن بطأ عمله ، لم يسرع به نسبه » . رواه مسلم* في صحيحه[5] وقال : « الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء » . قال الترمذي : حديث صحيح . وفي الصحيح[6] : « يقول الله تعالى : خلقت الرحم ، وشققت لها

---

(١) سقطت من (أ،ب) وهى موجودة في نص الحديث، وفي رواية ابن تيمية .

(٢) في نص الحديث ، وفي رواية ابن تيمية (فيه) بالتذكير .

(٣) هكذا وردت في(ب) وهى مطابقة ، لما جاء في نص الحديث، وفي رواية ابن تيمية ، ولكن الذى جاء في (ا) (يتدارسون) فقط دون الضمير .

(٤) لا توجد في (ب) كلمة (تعالى) ، كما أنها غير موجودة في نص الحديث ، ولا في رواية ابن تيمية .

(٥) الجزء الثامن : كتاب الذكر ص ٧١ .

(٦) في الفرقان الذى نقل عنه الشوكاني : (وفي الحديث الآخر الصحيح الذى في السنن) ويرى المحقق أن في تصحيح الترمذي لهذا الحديث نظر . أنظر الفرقان تحقيق : (محمود عبد الوهاب فايد) ص ٤٣ .

الأعــلام

(*) هو الإمام مسلم بن الحجاج بن مسلم بن ورد بن كرشان القشيري النيسابوري صاحب الصحيح المشهور باسمه ، ثاني كتب الحديث ، بعد صحيح البخاري توفي سنة ٢٦١ هـ .

اسمها من اسمى ، فمن وصلها ، وصلته ، ومن قطعها ، قطعته » . وقال : « من وصل صنا وصله الله ، ومن قطعه قطعه الله » . ومثل هذا كثير »[1] .

أصناف المؤمنين أو الأولياء :

« وقد ذكر الله[2] أولياءه المقتصدين ، والسابقين ، فى سورة فاطر بقوله : (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ، فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير . جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب ، ولؤلؤا ولباسهم فيها حريراً . وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور . الذى أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ، ولا يمسنا فيها لغوب »[3] .

وهذه الأصناف[4] الثلاثة هم أمة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) خاصة[5] كما قال تعالى : (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا) الآية . وأمة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) هم الذين أورثوا الكتاب بعد الأمم المتقدمة . وليس ذلك مختصاً بحفاظ القرآن بل كل من آمن بالقرآن فهو من هؤلاء . وقسمهم إلى ظالم لنفسه ، ومقتصد ، وسابق بالخيرات . بخلاف الآيات التى فى الواقعة والمطففين ، والانفطار والإنسان[6] . فإنه دخل فيها جميع الأمم المتقدمة كافرهم ، ومؤمنهم .

---

(١) انتهى كلام ابن تيمية فى المصدر المتقدم من ص ٤١ — ٤٤ .

(٢) فى (ب) يوجد (وقد ذكر الله تعالى أولياءه) بزيادة (تعالى) .

(٣) آية ٣٢ — ٣٥ .

(٤) فى (ب) توجد « الأوصاف » بدل (الأصناف) .

(٥) أى كل من آمن فهو من الأولياء .

(٦) هذه الكلمة وهى اسم سورة (الإنسان) ليست موجودة فى (الفرقان) ص ٤٨ .

وهذا التقسيم لأمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم . فالظالم لنفسه أصحاب الذنوب المصرون عليها . والمقتصد المؤدى الفرائض المجتنب المحارم، والسابق بالخيرات هو المؤدى الفرائض والنوافل المجتنب المحرمات والمكروهات كما فى تلك الآيات[1] .

ثم ذكر[2] الله سبحانه المفاضلة بين أوليائه المؤمنين ، فقال : (أنظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا)[3] . بل بين سبحانه التفاضل بين أنبيائه فقال : (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ، منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس)[4] . وقال تعالى : (ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتينا داود زبورا)[5] .

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كل خير ، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز ، وإن أصابك شىء فلا تقل لو أنى فعلت كذا لكان كذا وكذا ، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل ، فإن لو تفتح عمل الشيطان » .

---

(١) انتهى أيضاً من الفرقان لابن تيمية ص ٤٧ — ٤٨ ، ببعض التصرف من جانب الإمام الشوكانى .

(٢) لا يوجد لفظ الجلالة فى (ب) .

(٣) سورة الإسراء آية : ٢١ .

(٤) البقرة : ٢٥٣ .

(٥) الإسراء : ٥٥ .

وفى سنن[1] أبى داود عن عوف * بن مالك أنه حدثهم أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قضى بين رجلين ، فقال المقضى عليه لما أدبر : حسبي الله ونعم الوكيل ، فقال[2] النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « إن الله يلوم على العجز ولكن عليك بالكيس فإذا غلبك[3] أمر فقل[4] حسبي الله ونعم الوكيل »

وفى الصحيحين وغيرهما عن أبى هريرة وعمرو[**] بن العاص عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : « إذ اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر » . وروى من طرق خارج الصحيحين « أن للمصيب عشرة أجور » .

وقال الله سبحانه : (لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين انفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى)[5] وقال سبحانه : (لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على

---

(١) ينظر ص ٢٦٤ .

(٢) فى الأصل بعد فقال كلمة (إن) ولا داعى لها .

(٣) فى ب (عليك) بالعين ، والياء ، وهو خطأ .

(٤) فى (ب) سقطت تلك الكلمة : (فقل) .

الأعـــلام

(*) هو عوف بن مالك الأشجعى الحبيب الأمين إلى رسول الله ﷺ وكان ممن شهد فتح مكة توفى سنة ٧٣ هـ . شذرات الذهب جـ ١ ص ٧٩ .

(**) من كبار الصحابة رضى الله عنه فاتح مصر فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، وكان له دور خطير فى السياسة الإسلامية فى الخلاف بين على بن أبى طالب ومعاوية ابن أبى سفيان .

(١) الحديد (١٠) .

القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى . وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيما . درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفوراً رحيما)[١] . وقال : (أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله لا يستوون عند الله والله لا يهدى القوم الظالمين . الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون . يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم . خالدين فيها أبدا إن الله عنده أجر عظيم)[٢] ، وقال : (أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب[٣]) . وقال : (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير)[٤] .

الأولياء غير الأنبياء ليسوا بمعصومين :

واعلم أن أولياء الله غير الأنبياء ليسو بمعصومين ، بل يجوز عليهم مايجوز على سائر عباد الله المؤمنين . لكنهم قد صاروا فى رتبة رفيعة ومنزلة عالية . فقلّ أن يقع منهم ما يخالف الصواب وينافى الحق . فإذا وقع ذلك فلا يخرجهم عن كونهم أولياء لله[٥] . كما يجوز أن يخطىء المجتهد وهو مأجور على خطئه حسبما تقدم أنه إذا اجتهد فأصاب فله أجران ، وإن اجتهد فأخطأ فله أجر .

(١) النساء : ٩٥ ـ ٩٦ .

(٢) براءة : من الآية ١٩ ـ ٢٢ .

(٣) الزمر : ٩ .

(٤) المجادلة : ١١ .

(٥) فى (ب) (أولياء الله) .

وقد تجاوز الله سبحانه لهذه الأمة عن الخطأ والنسيان ، كما قال سبحانه : ﴿ ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ﴾[1] . وقد ثبت فى الصحيح « أن الله سبحانه قال : بعد كل دعوة من هذه الدعوات : قد فعلت » وحديث « رفع عن أمتى الخطأ والنسيان » قد كثرت طرقه حتى صار من قسم الحسن لغيره كما هو معروف عند أهل هذا الفن .

المقياس فى قبول الواقعات والمكاشفات .

ولا يجوز للولى أن يعتقد فى كل ما يقع له من الواقعات والمكاشفات أن ذلك كرامة من الله سبحانه . فقد يكون من تلبيس الشيطان ومكره .

بل الواجب عليه أن يعرض أقواله وأفعاله على الكتاب والسنة ، فإن كانت موافقة لها فهى حق وصدق وكرامة من الله سبحانه . وإن كانت مخالفة لشىء من ذلك ، فليعلم أنه مخدوع ممكور به ، قد طمع منه الشيطان فلبس عليه .

إمكان وقوع المكاشفات :

وليس لمنكر أن ينكر على أولياء الله ما يقع منهم من المكاشفات الصادقة الموافقة للواقع . فهذا باب قد فتحه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، كما ثبت فى الصحيحين عنه صلى الله وسلم أنه قال : « قد كان فى الأمم قبلكم محدثون فإن يكن فى أمتى أحد منهم فعمر منهم » . وفى لفظ فى الصحيح : « إن فى هذه الأمة محدثين وإن منهم عمر » . والمحدّث الصادق الظن المصيب الفراسة . وحديث : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه يرى بنور الله »

---

(١) البقرة : ٢٨٦ .

أخرجه الترمذى(*) وحسنه .

الواجب على الولى فيما يصدر من أعمال :

وقد كان عمر رضى الله عنه مع كونه مشهوداً له بأنه من المحدثين بالنص النبوى[1] يشاور الصحابة ويشاورونه ، ويراجعهم ويراجعونه ، ويحتج عليهم بالكتاب والسنة ، ويرجعون جميعاً إليهما ، ويردون ما اختلفوا فيه إلى ما أمر الله[2] بالرد إليه من الرد إلى الله سبحانه وإلى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، فالرد إلى الله هو الرد إلى كتابه والرد إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد موته هو الرد إلى ماصح من سنته .

فحق على الولى وإن بلغ فى الولاية إلى أعلى مقام وأرفع مكان ، أن يكون مقتديا بالكتاب والسنة ، وازناً لأفعاله وأقواله بميزان هذه الشريعة المطهرة ، واقفا على الحد الذى رسم فيها ، غير زائغ عنها فى شىء من أموره ، فقد ثبت عنه صلى الله عليه وآله وسلم فى الصحيح أنه قال : « كل أمر ليس على[3] أمرنا فهو رد » . وإذا ورد عليه وارد يخالف للشريعة رده ، واعتقد

---

(١) فى (ب) لا توجد كلمة (النبوى) .

(٢) فى (ب) توجد كلمة (تعالى) بعد لفظ الجلالة .

(٣) فى (ب) (عليه أمرنا) .

الأعـلام

(*) هو أبو عيسى بن محمد بن سورة بن الطحال السلمى البوفوى الترمذى نسبة إلى (ترمذ) بإقليم خراسان . (معجم المطبوعات العربية والمصرية جـ ٤ ص ٦٣٢ ، ٦٣٣) أحد الأئمة الذين يقتدى بهم فى علم الحديث ، وصنف كتاب الجامع (جامع الترمذى (أو) الجامع الصحيح) ثالث الكتب الستة من أمهات الحديث ، ويقال له السنن أيضاً . وكان سبب شهرته . توفى سنة ٢٧٩ هـ .

أنه من الشيطان ، ويدافع[1] ذلك بحسب استطاعته ، وبما تبلغ إليه قدرته. قال الله سبحانه « فاتقوا الله ما استطعتم[2] » . وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته)[3] . وقال تعالى : (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت)[4] . وقال تعالى : (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا نكلف نفساً إلا وسعها أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون)[5]. وقال سبحانه : (وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفسا إلا وسعها)[6] ومن خالف هذا من يطلق عليه اسم الولى فليس من أولياء الله عز وجل .

وما أحسن ما قاله (أبو سليمان[*] الدارانى) : (إنها لتقع فى قلبى النكتة من نكت القوم فلا[7] أقبلها إلا بشاهدين عدلين الكتاب والسنة)[8] .

---

(١) فى (ا) (وبدافع ذلك) بالباء . ولكن يدافع هى المقصودة وهو واضح.

(٢) التغابن : ١٦ .

(٣) آل عمران : ١٠٢ .

(٤) البقرة : ٢٨٦ .

(٥) الأعراف : ٤٢ .

(٦) الأنعام : ١٥٢ .

الأعلام

(*) أبو سليمان الدارانى نسبة إلى داريا وهى قرية من غوطة دمشق وهو عبد الرحمن بن أحمد بن عطية الدارانى الزاهد المشهور . روى الحديث عن الربيع ابن صبيح وعن أهل العراق . (اللباب فى تهذيب الأنساب ج ١) وهذه العبارة وردت فى تلبيس إبليس لابن الجوزى ص ١٦٢ .

(٧) فى (ب) (فما أقبلها) .

(٨) الفرقان ص ٣٢ وتلبيس إبليس ص ١٦٢ .

وقال (الجنيد)(*) رحمه الله : « علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة ، فمن لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث لا يصح له أن يتكلم فى علمنا » . وقال « أبو عثمان(١) النيسابورى » : « من أمّر على نفسه الشريعة قولا وفعلا نطق بالحكمة ، ومن أمّر على نفسه الهوى قولا وفعلا نطق بالبدعة ، لأن الله تعالى يقول : « وإن تطيعوه تهتدوا »(٢) . وقال (أبو عمرو بن(**) نجيد) « كل [وجد] لا يشهد له الكتاب والسنة فهو باطل »(٣) .

خوارق غير الأولياء :

وإذا عرفت أنه لابد للولى من أن يكون مقتدياً فى أقواله وأفعاله بالكتاب والسنة ، وأن ذلك هو المعيار الذى يعرف به الحق من الباطل ، فمن ظهر منه

---

(١) فى (ب) (أبو موسى) وهو خطأ . وستأتى ترجمته فى الفصل الثالث باسم الحيرى ينظر أيضاً حلية الأولياء ص ٢٢٩ ج ١٠ .

(٢) سورة النور : ٥٤ .

(٣) الفرقان ص ٣٢ وفى (ا) (كل واجد) والألف ليست واضحة ووجد هى الصحيحة كما نرى من السياق .

الأعلام

(*) هو الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادى الخزاز لأنه كان يعمل الخز صوفى من العلماء بالدين مولده ومنشأه ووفاته ببغداد . قال أحد معاصريه : (ما رأت عيناى مثله : الكتبة يحضرون مجلسه لألفاظه ، والشعراء لفصاحته ، والمتكلمون لمعانيه) وهو أول من تكلم فى التوحيد ببغداد . وعده العلماء شيخ مذهب التصوف لضبط مذهبه بقواعد الكتاب والسنة توفى سنة ٢٩٧ هـ (الأعلام ج ٢ ص ١٣٧) .

(**) هو أبو عمرو بن نجيد من كبار الملامتية ، وتلميذ أبى عثمان الحيرى شيخهم توفى سنة ٣٦١ هـ .

شيء مما يخالف هذا المعيار فهو رد عليه ، ولا يجوز لأحد أن يعتقد فيه أنه ولى الله ، فإن أمثال هذه الأمور تكون من أفعال الشياطين ، كما نشاهده فى الذين لهم تابع من الجن . فإنه قد يظهر على يده مايظن من لم يستحضر هذا المعيار أنه كرامة . وهو فى الحقيقة مخارق شيطانية وتلبيسات إبليسية .

ولهذا تراه يظهر من أهل البدع[1] ، بل من أهل الكفر وممن يترك فرائض الله سبحانه ويتلوث بمعاصيه . لأن الشيطان أميل إليهم للاشتراك بينه وبينهم فى مخالفة ماشرعه الله سبحانه لعباده .

وقد يظهر شيء مما يظن أنه كرامة من أهل الرياضة وترك الاستكثار من الطعام والشراب على ترتيب معلوم ، وقانون معروف . حتى ينتهى حاله إلى[2] أن لايأكل إلا فى أيام ذوات العدد ، ويتناول بعد مضى[3] أيام شيئاً يسيراً . فيكون له بسبب ذلك بعض صفاء من الكدورات البشرية ، فيدرك مالا يدركه غيره ، وليس هذا من الكرامات فى شيء . ولو كان من الكرامات الربانية ، والتفضلات الرحمانية ، لم يظهر على أيدى أعداء الله ، كما يقع كثيراً من المرتاضين من كفرة الهند الذين يسمونهم الآن (الجوكية) .

وقد يظهر شيء مما يظن أنه كرامة على لسان بعض المجانين . وسبب ذلك كما ذكره الحكماء أنه قد ذهب عنه ما يصنعه الفكر من التفصيل والتدبير ، الذين يستمران للعقلاء . فيكون لعقله إدراك لايكون للعقلاء ، فيأتى فى بعض الأحيان بمكاشفات صحيحة ، وهو مع ذلك متلوث بالنجاسة مرتبك فى القاذورات قاعد فى المزابل ، وما يشابهها فيظن من لاحقيقة عنده أنه من

---

(١) فى (ب) (من أهل الكفر) دون (بل) .

(٢) لا توجد (إلى) فى ب .

(٣) لا توجد كلمة (مضى) فى ب .

أولياء الله ، وذلك ظن باطل ، وتخيل مختلى ، وهو فى الحقيقة مجنون قد رفع الله عنه قلم التكليف ، ولم يكن ولياً لله ، ولا عدواً .

المكاشفات الصحيحة وأولياء المؤمنين :

وقد تكون المكاشفة من رجل جعله الله سبحانه من المحدثين حسبما سبق تحقيق ذلك وهذه طريقة أثبتها الشرع وصح بها الدليل .

والغالب أن ذلك لايكون إلا من خاص المؤمنين كما سبق فى حديث « اتقوا فراسة المؤمن » .

وهذا التحديث هو شىء يوقعه الله[1] فى روع من كتب له ذلك ، فيلقيه إلى الناس فيكون مطابقاً للواقع ، وليس من الكهانة ، ولا من باب النجامة والرمل ولا من باب تلقين الشيطان كما كان يقع لعمر بن الخطاب رضى الله عنه.

وسيأتى فى هذا الحديث الذى نحن بصدد شرحه أنه لايزال العبد يتقرب إلى الله سبحانه بالنوافل حتى يحبه ، فإذا أحبه كان سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، وسنتكلم إن شاء الله على معانى هذه الألفاظ النبوية .

وفى القرآن الكريم من ذلك الكثير الطيب كقوله سبحانه : « ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين ، والصديقين ، والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً)[2] .

والصحابة ، رضى الله عنهم ، النصيب الوافر من طاعة الله سبحانه ومن

---

(١) توجد فى (ب) كلمة (تعالى) بعد لفظ الجلالة .

(٢) النساء : ٦٩ .

التقرب إليه بما يحبه ، ولهذا صاروا خير القرون كما ثبت فى الأحاديث الصحيحة المروية من وجوه كثيرة ، وثبت عنه صلى الله عليه وآله وسلم فى الصحيح من طرق كثيرة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، قال : « لا تسبوا أصحابى فوالذى نفسى بيده لو أنفق أحدكم مثل أحـــد ذهباً ما بلغ مُدَّ أحدهم ، ولا نصيفه » فانظر إلى هذه المزية العظيمة ، والخصيصة الكبيرة التى لم تبلغ من غيرهم إنفاق مثل الجبل الكبير من الذهب نصف المُدِّ الذى ينفقه الواحد منهم ، فرضى الله[1] عنهم وأرضاهم .

فهم أفضل أولياء الله سبحانه وأكرمهم عليه ، وأعلاهم منزلة عنده ؛ وهم الذين عملوا بكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم .

فمن جاء بعدهم ممن يقال له إنه من الأولياء ، لا يكون ولياً لله إلا إذا اتبع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واهتدى بهديه واقتدى به فى أقواله وأفعاله .

شخصية الولى :

واعلم أن من أعظم ما يتبين به من هو من أولياء الله سبحانه أن يكون مجاب الدعوة ، راضياً عن الله عز وجل فى كل حال ، قائما بفرائض الله سبحانه ، تاركا لمناهيه ، زاهداً فيما يتكالب [عليه[2]] الناس من طلب العلو فى الدنيا ، والحرص على رياستها ، لا يكون لنفسه شغل بملاذ الدنيا ولا بالتكاثر منها ولا بتحصيل أسباب الغنى ، وكثرة اكتساب الأموال والعروض إذا وصل إليه القليل صبر ، وإن وصل إليه الكثير شكر ، يستوى عنده المدح والذم ، والفقر والغنى ، والظهور والخمول ، غير معجب

---

(١) فى (ب) توجد (تعالى) بعد لفظ الجلالة .

(٢) لا توجد فى الأصل ولكن سلاسة الأسلوب تقتضيها .

بما من الله به عليه من خصال الولاية، إذا زاده الله رفعة ، زاد فى نفسه تواضعاً وخضوعا . حسن الأخلاق كريم الصحبة عظيم الحلم كثير الاحتمال .

وبالجملة فمعظم اشتغاله بما رغب الله فيه ، وندب عباده إليه فمن كملت له هذه الخصال ، واتصف بهذه الصفات ، واتسم بهذه السمات ، فهو ولى الله الأكبر الذى ينبغى لكل مؤمن أن يقر له بذلك ، ويتبرك بالنظر إليه والقرب منه .

ومن كان فيه بعض هذه الخصال ، واشتمل على شطر من هذه الصفات[1] فله من الولاية بقدر ما رزقه الله سبحانه منها ، ووهب له من محاسنها .

والباب الأعظم للدخول إلى سُوح[2] الولاية هو الإيمان بالله كما ندب إليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حيث قال لما سئل عن الإيمان : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، والقدر خيره وشره) .

وأصعب هذه الخصال الإيمان بالقدر فإنه إذا حصل له ذلك[3] على الوجه المعتبر هانت عليه جميع الأمور[4] ، وفرغ من شغل قلبه بما نزل عليه من المقادير خيرها وشرها .

ولا ينافى ذلك تعوذه (صلى الله عليه وآله وسلم)[5] من سوء القضاء . فقد ثبت فى الصحيح أن من الدعوات النبوية قوله صلى الله عليه وآل وسلم :

---

(١) فى (ب) (الخلال) بدل الصفات . .

(٢) ساحة .

(٣) فى (ب) لا توجد كلمة (ذلك) .

(٤) فى الأصل سهى المؤلف عن (الراء) .

(٥) لا توجد فى الأصل : وهى ضرورية أو نحوها ، لبيان المتعوذ أو من الذى تعوذ .

« اللهم إنى أعوذ بك من سوء القضاء ، ودرك الشقاء ، وجهد البلاء ، وشماتة الأعداء » وثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول فى قنوت الوتر : « وَقِنِي شَرَّ ما قضيت » .

وأولياء الله سبحانه يتفاوتون فى الولاية بقوة ما رزقهم الله سبحانه من الإيمان ، فمن كان أقوى إيمانا كان فى باب الولاية أعظم شأناً ، وأكبر قدراً وأعظم قرباً إلى الله ، وكرامة لديه .

ومن لازم الإيمان القوى العمل [١] السوى ، والتحبُّبُ إلى الله بمحبته عز وجل ومحبة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم (قل إن كنتم تحبون الله ، فاتبعونى يحببكم الله)[٢] وكلما ازداد بَعْدَ التهرب إلى الله بفرائضه ، واجتناب مناهيه . بفعل النوافل ، والاستكثار من ذكره عز وجل ، زاده الله محبة وفتح له أبواب الخير كله دِقِّهِ وَجِلِّه كما سيأتى من الكلام على شرح هذا الحديث الذى نحن بصدد شرحه وبيان معانيه الشريفة ونكاته اللطيفة .

جواز الكرامات :

ومن وُهِبَ له هذه الموهوبات الجليلة وتُفُضِّلَ[٣] عليه بهذه الصفات الجميلة فغير بعيد ، ولا مستنكر أن تظهر على يده من الكرامات التى لا تنافى الشريعة والتصرفات فى مخلوقات الله عز وجل[٤] الوسيعة ، لأنه إذا دعاه أجابه وإذا سأله أعطاه ، ولم يصب من جعل ما يظهر من كثير من الأولياء

---

(١) فى الأصل (والعمل) بزيادة الواو ولا داعى لها لأن وجودها يفسد الأسلوب .

(٢) سورة آل عمران آية : ٣١ .

(٣) فى (ب) يوجد لفظ الجلالة بعد (تفضل) .

(٤) فى (ب) تعالى بدل (عز وجل) .

من قطع المسافات البعيدة ، والمكاشفات المصيبة ، والأفعال ، التى تعجز عنها غالب القوى البشرية ، من الأفعال الشيطانية والتصرفات الإبليسية .

فإن هذا غلط واضح ، لأن من كان مجاب الدعوة لا يمتنع عليه أن يسأل الله سبحانه أن يوصله إلى أبعد الأمكنة التى لا تقطع طريقها إلا فى شهور فى لحظة يسيرة ، وهو القادر القوى الذى ما شاءه[1] كان ، وما لم يشأه[1] لم يكن ، وأى بُعد فى أن يجيب الله دعوة من دعاه من أوليائه فى مثل هذا المطالب وأشباهه . وفى مثل هذا يقال ما قاله الشاعر :

والناس ألف منهم كواحدٍ وواحد كالألف إن أمر عَنَا

وقول الآخر :

ولم أر أمثال الرجال تفاوتاً من الناس حتى عُدَّ ألفٌ بواحد

بل هذا الذى تفضل الله[2] عليه بهذه التفضلات لا يعدِلُه[3] الألف ولا الآلاف ممن لم ينل ما نال ، ولا ظفر بشىء من هذه الخصال .

فذالك والتلدد[4] حول نجد وقد غَصت تهامة بالرجال

ومن نظر فى مثل الحلية (*) لأبى نعيم ،

---

(١) فى (ب) (شاء) ، و (مالم يشا) .

(٢) فى (ب) (تعالى) بعد لفظ الجلالة .

(٣) فى (ب) (لا يساويه) بدل لا يعدله .

(٤) التلدد : التحير والتلفت يمينا وشمالا . فى القاموس : تلدد : تلفت يمينا وتحير متبلدا وتلبث .

الأعـلام

(*) هو كتاب : (حلية الأولياء وصفوة الأصفياء) لأحمد بن عبد الله بن أحمد الأصبهانى حافظ مؤرخ من الثقات فى الحفظ والرواية : من تصانيفه هذا =

وصفوة الصفوة(**) لابن الجوزى عرف صحة ما ذكرناه ، وما كان عطاء ربك محظوراً .

وكم للصحابة ، رضى الله عنهم ، من الكرامات التى يصعب حصرها وسنشير إلى بعضها قريباً ، ولو لم يكن منها إلا إجابة دعاء كثير منهم . وقد عرفناك أن إجابة الدعاء هى أكبر كرامة ، ومن أكرمه الله[1] بذلك دعا بما يشاء كيف يشاء من جليل الأمور ، وحقيرها وكبيرها ، وصغيرها .

وفى كتب الحديث والسير من ذلك الكثير الطيب ، وكذلك فى أمم الأنبياء السابقين من أولياء الله سبحانه[2] الصالحين العدد الجم حسبما نقل إلينا عن نبينا صلى الله عليه وآله وسلم ، وحسبما تحكيه التوراة والإنجيل ، ونبوات أنبياء بنى إسرائيل التى[3] من جملتها الزبور .

والحاصل أن الله سبحانه يتفضل على عباده بما يشاء ، والفضل بيده ، من شاء أعطاه ، ومن شاء منعه .

---

(١) فى (ب) توجد كلمة (تعالى) بعد لفظ الجلالة .

(٢) فى (ب) سقطت من الناسخ (سبحانه) .

(٣) فى (ب) لاتوجد كلمة (التى) .

الأعـــلام

= الكتاب ، و (معرفة الصحابة) كبير بقيت منه أجزاء مخطوطة فى مجلد واحد توفى سنة ٤٣٠ هـ الأعلام جـ ١ ص ١٥٠ .

(**) هو مختصر كتاب حلية الأولياء لأبى نعيم بطريقة نفت مالايتفق مع العقل ، ولا مع الكتاب والسنة . وابن الجوزى هو جمال الدين ابو الفرج عبد الرحمن بن على بن محمد بن الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧ هـ من العلماء العاملين الذين لم يرضوا من التصوف إلا بما وافق العقل والسنة ، ومن كتبه فى ذلك (تلبيس إبليس) وهذا الكتاب الذى معنا .

وليس لنا أن ننكر إلا ما أنكرته الشريعة المطهرة . فمن جاء بما يخالفها دفعناه ومنعناه .

وأما مجرد استبعاد أن يهب الله سبحانه لبعض عباده أمراً عظيما ويعطيه ماتتقاصر عنه قوى غيره من المنح الجليلة ، والتفضلات الجزيلة فليس مرادات المتصفين بالإنصاف ، وكثيراً ما ترى[1] الجبان إذا حكيت له أفعال الأفراد من أهل الشجاعة من مقارعة الأبطال ، وملابسة الأهوال ومنازلة العدد الكثير من الرجال يستبعد عقله ذلك ويضيق ذهنه عن تصوره ويظنه باطلا ، ولا سبب لذلك إلا أن غريزته المجبولة على الجبن الخالع تقصر عن أقل قليل من ذلك وتعجز عن الملابسة لأحقر منه .

وهكذا البخيل إذا سمع ما يحكى عن الأجواد من الجود بالموجود والسماحة بالكثير الذى تشح نفوس من لم يهب الله له غريزة الكرم المحمودة بعشر معشاره ظن أن تلك الحكايات من كذب الوراقين ومن مُخَرِّقة المُتَخَرِّقين[2] استبعد عقله ، ونبا فهمه عن قبول ما منح الله[3] به أكابر علماء هذه الأمة من التوسع فى المعارف والاستكثار من العلوم المختلفة وفهمها كما ينبغى ، وحفظها حق الحفظ ، والتصرف الكامل فى كل ما يرد عليه منها فيورده موارده ، ويصدره مصادره .

فاعرف هذا ، واعلم أن مواهب الله عز وجل لعباده ليست بموضع لاستبعاد

---

(١) فى (ب) (ترى) دون نقط هكذا (برى) .

(٢) فى القاموس : (أخرقه : أدهشه ، والتخريق .. التمزيق : وكثرة الكذب والتخرق خلق الكذب) .

(٣) فى (ب) (تعالى) بعد لفظ الجلالة .

المستبعدين ، وتشكيكات المشككين ، فقد تفضل على بعض عباده بالنبوة واصطفاه لرسالته ، وجعله واسطة بينه وبين عباده .

وتفضل على بعض عباده بالملك ، وجعله فوق جميع رعيته ، واختاره على من سواه منهم وهم العدد الجم ، والسواد الأعظم ، وقد يكون غير شريف الأصل ، ولا رفيع المحتد ، كما أعطى ملك مصر والشام والحرمين وغيرها للملوك الجراكسة(*) ، وهم عبيد يجلب الواحد منهم إلى سوق الرقيق ، وبعد حين يصير ملكا كبيراً ، وسلطانا جليلا .

وهكذا من ملك قبلهم من الأتراك المماليك كبنى قلاوون(**) ، وأعطى بنى بويه(***) ، وهم أولاد سماك غالب(١) ، للممالك الإسلامية ، وجعلهم الحاكمين على الخلفاء العباسية . وعلى سائر العباد فى أقطار الأرض .

دع عنك التفضلات على هذا النوع الإنسانى للكرم بالعقل ، وانظر إلى ما من به على أنواع من مخلوقاته(٢) ، فإن الشجاعة التى جعلها فى الأسد

---

(١) فى (ب) لاتوجد كلمة غالب .

(٢) فى (ب) (المخلوقات) .

الأعلام

(*) هم الذين حكموا مصر من سنة ١٣٨٢ م — سنة ١٥١٧ م .

(**) أبناء الملك المنصور سيف الدين قلاوون من المماليك البحرية حكموا مصر من سنة ١٢٧٩ م — سنة ١٣٥٤ م .

(***) وهم على والحسن وأحمد أولاد بويه الذى كان يعمل فى صيد السمك هم الذين أسسوا الأسرة البويهية التى امتلكت ناصية بلاد العراق وما يحيط بها من بلاد الدولة الإسلامية من سنة ٣٣٤ — سنة ٤٤٧ هـ . وأصبح لهم النفوذ الفعلى فى تلك الفترة من حياة الدولة العباسية فى عهد الخلفاء : المستكفى والمطيع والطائع والقادر والقائم . ص ٣٧١ وما بعدها . من (محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية ، فى الدولة العباسية) .

لا يقوم لها من بنى آدم العدد الكثير ، وتلك موهبة من الله سبحانه ، وهكذا كثير من أنواع الحيوان يختص هذا بالقوة الباهرة ، وهذا بالجسم الوافر وهذا بحسن التركيب ، وهذا بالطيران فى الهواء ، وهذا بالمشى فى قعر البحر، والتصرف لما يحتاج إليه فى أمواج الماء .

وكم يعد العاد من تفضلات الملك الجواد جلت قدرته ، فسبحانه ما أعظم شأنه وأعز سلطانه وأجل إحسانه .

وهذا عارض من القول اقتضاه تقريب ما يتفضل الله به على خلص عباده إلى الأذهان الجامدة ، والطبائع الراكدة حتى تتزلزل عن مركز الإنكار ، وربك يخلق ما يشاء ويختار .

ومن نظر إلى ما وهبه الله سبحانه للصحابة رضى الله عنهم ، لم يستبعد شيئا مما وهبه الله عز وجل لأوليائه ويصعب الإحاطة بأكثر ذلك فضلا عن كله . وقد قدمنا الإشارة إلى كراماتهم إجمالا ، ونذكر الآن بعض كراماتهم على التفصيل والتعيين .

فمنها أن أسيد بن(*) حضير رضى الله عنه كان يقرأ سورة الكهف فنزلت

الأعلام

(*) هو أسيد بن حضير بن سماك بن عتيك من الأنصار، شهد أحداً والمشاهد بعدها مع رسول الله ﷺ وثبت فى أحد حين انكشف الناس ، وتوفى فى شعبان سنة عشرين من الهجرة . وروى له البخارى : عن أنس قال : « كان أسيد ابن حضير وعباد بن بشر عند رسول الله ﷺ فى ليلة ظلماء حندس فتحدثا عنده حتى إذا خرجا أضاءت لهما عصا أحدهما فمشيا فى ضوئها فلما تفرق بهما الطريق أضاءت لكل واحد منهما عصاه فمشى فى ضوئها » انفرد بإخراجه البخارى. (صفوة الصفوة جـ ١ ص ٢٠١ ، ٢٠٢) .

عليه السكينة من السماء مثل الظلة فيها أمثال السرج وهى الملائكة ، وأخبر بذلك النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال له [1] : « لو استمر على تلاوته لاستمرت تلك السكينة واقفة عليه باقية عنده » .

وكانت الملائكة تسلم على عمران بن(*) حصين ، وكان سلمان(**) الفارسى وأبو الدرداء(***) يأكلان فى صحفة فسبحت [2] أو سبح ما فيها ،

---

(١) فى (ب) سقطت من الناسخ (له) .

(٢) فى (ب) (الواو) بدلا من (أو) .

الأعلام

(*) هو عمران بن حصين بن عبيد أسلم قديماً وغزامع رسول الله ﷺ غزوات ولم يزل فى بلادقومه ثم تحول إلى البصرة فرض بها فسقى بطنه فبقى ثلاثين سنة على سرير منقوب . وذكر ابن الجوزى عدة روايات فى تسليم الملائكة على عمران . صفوة الصفوة جـ ١ ص ٢٨٣ .

(**) يكنى أبا عبد الله من أصبهان سافر يطلب الدين مع قافلة فباعوه لليهود بالمدينة ثم كوتب فأعانه النبي ﷺ على ذلك وأسلم حين قدم النبي ﷺ المدينة ومنعه الرق من شهود بدر وأحد ثم شهد الخندق وما بعدها وولاه عمر المدائن. وقصة إسلامه عجيبة تنظر فى كتب السير وصفوة الصفوة ص ٢١٠ وما بعدها جـ ١ . وتوفى سنة ٣٢ هـ وكان من المعمرين .

(***) وأبو الدرداء هو : عويمر بن زيد وقيل ابن عامر كما ذكر صاحب الصفوة وقد شهد مع رسول الله ﷺ مشاهد كثيرة وولاه عمر بن الخطاب القضاء بدمشق ومن مأثوراته : (عن معاوية بن صالح عن أبى الدرداء قال : إذا أصبح الرجل اجتمع هواه وعمله ، فإن كان عمله تبعا لهواه فيومه يوم سوء ، وإن كان هواه تبعا لعمله فيومه يوم صالح) وتوفى سنة ٤٢ ، أو سنة ٣١ هـ . صفوة الصفوة ص ٢٥٧ .

وخرج عباد(*) ابن بشرو أسيد بن حضير من عند رسول الله[1] صلى الله عليه وآله وسلم في ظلمة الليل فأضاء لهما أطراف السوط، فلما افترقا افترق الضوء معهما. وكان الصديق(**) رضى الله عنه يأكل هو وأضيافه من القصعة، فلا يأكلون لقمة إلا ربا من أسفلها أكثر منها فشبعوا، وهي أكثر مما كان فيها قبل أن يأكلوا.

وخبيب بن عدى(***) رضى الله[2] عنه لما أسره المشركون كان يؤتى بقطف من العنب في غير وقته[3].

وعامر(****) بن فهيرة[4] التمسوا جسده

---

(١) في (ب) (صلى الله عليه وآله وسلم)، وليست في (أ).

(٢) في (ب) توجد كلمة (تعالى).

(٣) روى البخاري ذلك على لسان إحدى بنات الحارث بن عامر بن نوفل قتله خبيب يوم بدر، صفوة الصفوة جـ ١ ص ٢٥٤.

(٤) في (ب) (رضى الله تعالى عنه).

الأعلام

(*) صحابي جليل وقد تقدم ذكره في الصحيفة السابقة أسيد بن حضير.

(**) هو الخليفة الأول للمسلمين بعد رسول الله ﷺ أبو بكر رضى الله عنه.

(***) هو خبيب بن عدى بن مالك رضى الله عنه شهد أحداً مع النبي ﷺ وكان فيمن بعثه رسول الله ﷺ مع بني لحيان من هذيل ليرشدهم إلى تعاليم الدين الإسلامي فغرروا بهم فاسروه هو وزيد بن دثنه فباعوهما إلى قريش فقتلوهما وصلبوهما بمكة بالتنعيم. صفوة الصفوة جـ ١ ص ٢٥٣. مكرر عن رقم ٣ أعلى الهامش.

(****) مولى أبي بكر رضى الله عنه وصديقه ورفيقه هو ورسول الله ﷺ في حادث الهجرة قتل يوم بئر معونة سنة ٤ هـ.

فحمته الدبر[1] ، ولم يقدروا على الوصول إليه . وخرجت أم أيمن(٠) ، وهي صائمة وليس معها زاد ولا ماء فعطشت حتى كادت تتلف ، فلما كان وقت الفطر سمعت حساً على رأسها فرفعته فإذا هو دلو برشاء[2] أبيض معلق فشربت منه حتى رويت وما عطشت بعدها[3] .

وأخبر سفينة(٠٠) مولى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الأسد أنه مولى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فمشى معه الأسد حتى أوصله إلى مقصده[4] .

والبراء بن(٠٠٠) مالك[5] كان إذا أقسم على الله أبر قسمه وكان الحرب

---

(١) حينما قتله جبار بن سلمى وقيل إن الملائكة دفنته ، المرجع السابق ص ١٧١ والدبر : جماعات النحل أو الزنابير .

(٢) أي معلق بحبل ، قال في القاموس : الرشاء كـكساء : الحبل .

(٣) كان ذلك حين خرجت مهاجرة من مكة إلى المدينة . المرجع السابق .

(٤) المصدر السابق .

(٤) في (ب) رضى الله عنه .

الأعلام

(٠) اسمها بركة مولاة رسول الله ﷺ وحاضنته ورثها عن أبيه فأعتقها حين تزوج خديجة وشهدت أحدا وكانت تسقى الماء وتداوى الجرحى وشهدت خيبر وتوفيت في آخر خلافة عثمان (رضى الله عنه) صفوة الصفوة جـ ٢ ص ٢٩، في (ب) توجد كلمة (رضى الله تعالى عنها) .

(٠٠) واسمه مهران ، ويكنى أبا عبد الرحمن من مولدى الأعراب اشترته أم سلمة وأعتقته واشترطت عليه أن يخدم النبي ﷺ ماعاش ، فقال لها : « ما أحب أن أفارق النبي ﷺ ماعشت » . صفوة الصفوة جـ ص ٢٧٨ .

(٠٠٠) في (ب) (البر) وصحتها: البراء بن مالك بن النضر بن ضمضم شهد=

إذا اشتد على المسلمين فى الجهاد يقولون : يابراء أقسم على ربك . فيقول : أقسم عليك يارب لما منحتنا أكتافهم[1] ، وجعلتنى أول شهيد فمنحوا أكتافهم وقتل شهيداً .

وحاصر خالد بن الوليد(٠) رضى الله [عنه][2] حصنا فقالوا : لا نسلم حتى تشرب السم فشربه ، ولم يضره .

وأرسل عمر(٠٠) بن الخطاب رضى الله عنه جيشاً مع رجــل يسمى

(١) فى الفرقان بعد ذلك فيهزم العدو فلما كان يوم القاسية قال : (أقسمت عليك يارب لما منحتنا أكتافهم وجعلتنى .. الخ ص ٦٩ .

(٢) فى (أ) رضى الله فقط دون (عنه) وهى لأزمة لتمام المراد ، ولعل المؤلف سها عنها . وفى (ب) رضى الله تعالى عنه .

الأعلام

= أحدا وما بعدها مع رسول الله ﷺ وتوفى فى المناسبة التى أشار إليها المؤلف وهى بعبارة أوضح : عن أنس بن مالك قال . إن البراء لقى زحفا من المشركين وقد أوجع المشركون فى المسلمين فقالوا له : يابراء ، إن رسول الله ﷺ قال إنك لو أقسمت على الله لأبرك فأقسم على الله ، فقال أقسمت عليك يارب لما منحتنا أكتافهم وألحقتنى بنبى ﷺ فمنحوا أكتافهم وقتل البراء شهيداً . المصدر السابق . وفى الفرقان لابن تيمية إن ذلك كان فى موقعة القادسية ص ٦٩ . فى (ب) رضى الله عنه .

(٠) هو خالد بن الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم من كبار الصحابة والفاتحين فى الإسلام ، وكان له الفضل فى تثبيت أركان الإسلام فى حروب الردة بعد وفاة الرسول ﷺ أول خلافة أبى بكر رضى الله عنه توفى فى حمص فى خلافة عمر بن الخطاب سنة ٢١ هـ .

(٠٠) الخليفة الثانى بعد أبى بكر رضى الله عنه. وكان مثالا فى العدل والحزم والسهر على مصالح الرعية .

سارية(٠) فبينما عمر يخطب جمل[1] يصيح على المنبر : ياسارية الجبل ، ياسارية الجبل ، فقدم رسول الجيش فسأله عمر فقال : (يا أمير المؤمنين لقينا عدونا فهزمونا ، فإذا بصائح يقول : ياسارية الجبل ، ياسارية الجبل . فأسندنا ظهورنا بالجبل فهزمناهم) .

ولما عذبت بعض الصحابيات ذهب بصرها ، فقال المشركون ما أصاب بصرها إلا اللات والعزى ، فقالت : كلا والله ، فرد الله عليها بصرها[2] وكان سعد بن أبي وقاص(٠٠) رضى الله عنه مجاب الدعوة مادعا قط إلا استجيب له . وكذلك سعيد بن زيد(٠٠٠) رضى الله عنه دعا على المرأة لما كذبت عليه

---

(١) فى (ب) توجد (عمر) بعد جمل .

(٢) فى الفرقان اسمها (الزبيرة) ص ٦٩ وفى السيرة لابن هشام جـ١ ص٣٤٠ زنيرة .

الأعـــلام

(٠) هو سارية بن زنيم الكنانى . صحابى ، من الشعراء القادة الفاتحين كان فى الجاهلية لصاً كثير الغارات يسبق الفرس عدواً على رجليه . ولما ظهر الإسلام أسلم ، وجعله عمر أميراً على ذلك الجيش المذكور . الأعلام ص ١١٢ جـ٣ .

(٠٠) واسمه مالك بن وهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة من السابقين فى الإسلام وأول من رمى بسهم فى سبيل الله وعنه رضى الله عنه « أن ﷺ دعا الله من أجله وقال : اللهم سدد رميته وأجب دعوته » روى عن طارق ابن شهاب قال: كان بين خالد وسعد كلام فذهب رجل يقع فى خالد عند سعد فقال مه « إن ما بيننا لم يبلغ ديننا » . توفى سنة خمس وخمسين ، أو خمسين من الهجرة . ص ١٣٨ صفوة الصفوة جـ ١ .

(٠٠٠) هو أبو الأعور سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزى من

فقال : اللهم إن كانت كاذبة فأعم بصرها ، واقتلها فى أرضها فعميت، ووقعت فى حفيرة فى أرضها فماتت[١] .

ودعا الله العلاء[*] بن الحضرمى بأن يسقوا ، ويتوضئوا ، لما عدموا الماء ولا يبقى بعدهم فأجيب ، ودعا لما اعترضهم البحر ، ولم يقدروا على المرور ، فمروا بخيولهم على الماء ما ابتلت سروج خيولهم[٢] .

ودعا الله بأن لا يروا جسده إذا مات ، فلم يجدوه فى اللحد[٣] .

وكان للتابعين من الكرامات ما هو معروف فى كتب هذا الشأن حسبما قدمنا الإشارة إليه ، وكذلك من بعدهم .

وقد كان فى التابعين من ألقى فى النار فوجد قائماً يصلى ، وهو أبو مسلم

---

(١) فى الفرقان : هى (أروى بنت الحكم) ص ٦٩ .

(٢) صفوة الصفوة ج ١ ص ٢٩٠ .

(٣) المصدر السابق .

الأعـــلام

السابقين إلى الإسلام وشهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ماعدا بدراً . وهذه هى قصة دعائه على المرأة : (عن هشام بن عروة عن أبيه أن أروى بنت أويس استعدت مروان على سعيد وقالت سرق من أرضى فأدخله فى أرضه فقال سعيد : (اللهم إن كانت كاذبة .. الخ) ص ١٤١ ، ١٤٢ المصدر السابق . وتوفى سنة ٥٠ أو ٥١ من الهجرة .

(*) هو عبد الله بن عماد بن سلمى من حضر موت من السابقين إلى الإسلام وولى البحرين فى عهد الرسول ﷺ وعهد أبى بكر رضى الله عنه وأراد عمر أن يوليه البصرة فسار إليها فمات فى الطريق سنة ٢١ أو ١٤ أو ١٥ هـ .

الخولانى(*) ، ولما قدم المدينة جعله عمله بينه وبين أبى بكر . وقال الحمد لله الذى لم يمتنى حتى أرانى من أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم من فعل به كما فعل بإبراهيم . ودعا على امرأة أفسدت عليه زوجته فعميت فتابت ، فدعا لها فرد الله عليها بصرها .

ومنهم من وضع رجله على رقبة الأسد حتى مرت القافلة ، وهو عامر(**) ابن عبد قيس ، ومنهم من مات فرسه فى الغزو فقال: اللهم لا تجعل لمخلوق على منة ، ودعا الله فأحياه ، فلما وصل إلى بيته[1] قال يا بنى خذ سرج الفرس فإنه عارية ، فأخذ سرجه فمات ، وهو (صلة بن أشيم (***) .

وكان سعيد(****) بن المسيب لما خلى فى المسجد

---

(١) فى (ب) لاتوجد كلمة (إلى بيته) .

الأعلام

(*) هو العالم الربانى العابد الزاهد التابعى الكبير الشأن ريحانة الشام هاجر فى خلافة الصديق وروى عن عمر ومعاذ وغيرهما وله كرامات كثيرة فى حروب المسلمين مع الروم ، مات فى خلافة معاوية أو ابنه . ص ٨٧ الكواكب الدرية فى تراجم الصوفية ١ .

(**) هو عامر بن عبد الله المعروف بابن عبد قيس العنبرى البصرى المراقب المستحيي ، كان مالك بن دينار يقول فيه (هو راهب هذه الأمة) مات فى خلافة معاوية ودفن ببيت المقدس (الكواكب الدرية جـ ١ ص ١٢٩ ، ١٣٠) .

(***) الكواكب الدرية جـ١ ص١٢٥ ، ١٢٦ وهو أبو الصهباء أحد زهاد الدنيا كان عند النوازل محتسباً صابراً وله كرامات ظاهرة وأحوال باهرة ، مات سنة ٩٥ هـ بمصر ودفن بالقرافة ، وفى صفوة الصفوة أنه ابن (أشيم) ولكن فى (ب) والكواكب بالباء وفى (أ) غير منقوطة .

(****) هو سعيد بن المسيب بن حزن ولد لسنتين خلتا من خلافة عمر بن

أيام الحرة[١] سمع الأذان من قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

وكان عمر (*) بن عتبة بن فرقد يصلي يوماً فى شدة الحر [فأظلته][٢] غمـامة .

وكان مطرف(**) بن عبد الله الشخير إذا دخل بيته سبحت معه آنيته .

ولمـا مات الأحنف (***) بن قيس ، وقعت قلنسوة رجل فى قبره فأهوى

---

(١) أيام الحرة هى أيام حصار المدينة من جهة الحرة وهى مكان بظاهر المدينة وقد حاصرها (يزيد بن متاوية) سنة ٦٩ لما طرد أهلها عامله عليها ، فبعث إليهم (مسلم بن عقبة المرى) ثم دخلها عنوة وأسرف هو وجنوده فى القتل والسلب والنهب ثلاثة أيام .

(٢) فى (أ) (فاصلته) بدل أظلته وهو سهو من المؤلف .

الأعـلام

= الخطاب رضى الله عنه ، كان من العلماء الأفذاذ العاملين بعلمهم ومن مأثوراته : (ما أكرمت العباد أنفسها بمثل طاعة الله عز وجل ولا أهانت بمثل معصية الله). (وكفى بالمؤمن نصرة من الله عز وجل أن يرى عدوه يعمل بمعصية الله). ومات رضى الله عنه بالمدينة وهو ابن أربع وثمانين سنة على خلاف فى ذلك . صفوة الصفوة ص ٤٤ ، ٤٥ ج ٢ .

(*) هو عمر بن عتبة بن فرقد السكوفى ، وفى (أ) ، (ب) (عمرو) صاحب الأحوال الخارقة والكرامات الظاهرة منها أن السبع كان يحرسه وهو يرعى ركاب أصحابه لأنه كان يشترط على أصحابه فى الغزو أن يخدمهم . استشهد فى غزوة أذربيجان فى خلافة عثمان ص ١٤٧ المصدر السابق .

(**) هو مطرف بن عبد الله الشخير المتعبد المتنسك كان لنفسه مذلا ، ولذكر ربه مجلا ، مات سنة ٩٥ هـ . ص ١٧٦ المصدر السابق .

(***) الأحنف بن قيس بن معاوية بن حصين المرى التميمى سيد بنى تميم =

ليأخذها فوجد القبر قد فسح فيه مد البصر .

وأويس القرنى(*) وجدوا لما مات فى ثيابه أكفانا لم تكن معه من قبل ، ووجدوا له قبرا محفوراً فى صخرة فدفنوه فيه ، وكفنوه فى تلك الأثواب .

وكان إبراهيم التيمى(**) يقيم الشهر والشهرين لا يأكل شيئاً ، وخرج يمتار لأهله طعاما فلم يقدر عليه ، فأخذ من موضع تراباً أحمر ثم رجع إلى أهله ففتحوها فإذا هى حنطة حمراء وكان إذا زرع منها تخرج السنابل من أصلها إلى فرعها حباً متراكباً

وأصاب عبدالواحد (***) بن زيد الفالج فسأله ربه أن يطلق أعضاءه وقت

الأعـــلام

وأحد العظماء الدهاة الفصحاء الشجعان الفاتحين، يضرب به المثل فى الحلم أدرك النبى (ﷺ) ولم يره ووفد على عمر حين آلت الخلافة إليه فأعجب عمر بعقله. توفى سنة ٧٢ هـ . الأعلام جـ ١ ص ٢٦٢ .

(*) هو أويس بن عامر المرادى من اليمن روى عن عمر وعلى وعن ابن أبى ليلى وغيره ، ينظر : الموافقات للشاطبى جـ ٢ ص ٨٤ ، الكواكب الدرية جـ١ ص ٨٠و ٨١ ، حلية الأولياء جـ ٢ .

(**) إبراهيم بن يزيد بن شريك بن طارق التيمى ، يروى عن أنس ، ومات فى سجن الحجاج سنة ثلاث وتسعين ، وقيل أثنتين وتسعين ، وكان عابداً صابراً على الجوع أرسلت عليه الكلاب فى السجن تنهشه حتى مات ، وكان هو وأبوه ثقتين (اللباب فى تهذيب الأنساب ص ١٩٠ جـ ١) .

(***) هو عبد الواحد بن زيد البصرى توفى سنة ١٧٧ هـ . حلية الأولياء جـ٦ ص ١٥٥ ، شذرات الذهب جـ ١ ص ١٨٧ .

الوضوء ، فكان وقت الوضوء تطلق له أعضاؤه ، تعود بعده ، وغير ذلك كثير[1] .

متى يكون الخارق كرامة :

والحاصل أن من كان من المعدودين[2] من الأولياء إن كان من المؤمنين بالله وملائكته وكتبه ورسله ، والقدر خيره وشره مقيما لما أوجب الله عليه ، تاركا لما نهاه الله عنه مستكثراً من طاعاته ، فهو من أولياء الله سبحانه وما ظهر عليه من الكرامات التي لم تخالف الشرع فهي موهبة من الله عز وجل لا يحل لمسلم أن ينكرها

ومن كان بعكس هذه الصفات ، فليس من أولياء الله سبحانه وليست ولايته رحمانية بل شيطانية ، وكراماته من تلبيس الشيطان عليه وعلى الناس

وليس هذا بغريب ولا مستنكر ، فكثير من الناس من يكون مخدوما بخادم من الجن ، أو بأكثر فيخدمونه في تحصيل ما يشتهيه ، وربما كان محرما من المحرمات ، وقد قدمنا أن المعيار الذي لا يزيغ ، والميزان الذي لا يجور ، هو ميزان الكتاب والسنة .

فمن كان متبعاً لهما معتمداً عليهما فكراماته ، وجميع أحواله رحمانية ، ومن لم يتمسك بهما ويقف عند حدودهما فأحواله شيطانية ، فلا نطيل الكلام في هذا المقام ، ولنعد إلى شرح الحديث الذي نحن بصدد الكلام عليه ، فنقول :

---

(١) نلاحظ أن الشوكاني نقل هذه الكرامات من الفرقان لابن تيمية ، انظر ص ٢٣١ — ١٣٧ .

(٢) في (ب) (من كان معدوداً) .

المعاداة من الولى كما يمكن أن تتصور :

قال ابن حجر فى فتح البارى : « وقد استشكل وجود أحد يعاديه يعنى الولى ، لأن المعاداة ، إنما تقع من الجانبين ، ومن شأن الولى الحلم والصفح عن يجهل عليه !!؟ .

وأجيب بأن المعاداة لم تنحصر فى الخصومة ، والمعاملة الدنيوية مثلا بل قد تقع[1] عن بغض ينشأ عن التعصب ، كالرافضى فى بغضه لأبى بكر والمبتدع فى بغضه السنى فتقع المعاداة من الجانبين .

أما من جانب الولى : فلله تعالى وفى الله . وأما من جانب الآخر فلما تقدم .

وكذا الفاسق المتجاهر ببغضه للولى ، ويبغضه الآخر لإنكاره عليه وملازمته لنهيه عن شهواته .

وقد تطلق المعاداة ، ويراد بها الوقوع من أحد الجانبين بالفعل ، ومن الآخر بالقوة[2] انتهى » .

وأقول معلوم أن غالب المداوات الدينية لا تكون إلا بين المتبع والمبتدع ، والمؤمن والفاسق ، والصالح والطالح ، والعالم والجاهل ، وأولياء الله سبحانه وأعدائه .

ومثل هذا من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى سؤال ، ولا ينشأ عنه إشكال .

والولى لا يكون ولياً لله حتى يبغض أعداء الله ويعاديهم ، وينكر

---

(١) فى (أ) ، (ب) التاء دون نقط هكذا (بقع) .

(٢) ص ٢٩٣ .

عليهم ، فمعاداتهم والإنكار عليهم هو من تمام ولايته ، ومما تترتب صحتها عليه .

وأولياء الله سبحانه هم أحق عباد الله بالقيام في هذا المقام اقتداء برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فإنه كان إذا غضب لله أحمر وجهه وعلا صوته حتى كأنه منذر جيش يقول : صبحكم ومساكم ، وهكذا المعاداة من المؤمن للفاسق ومن الفاسق للمؤمن .

فإن المؤمن يعاديه لما أوجب الله عليه من عداوته ، ولكراهته لما هو عليه من الوقوع في معاصي الله سبحانه ، والانتهاك لمحارمه ، وتعدى حدوده .

والفاسق قد يعاديه لإنكاره عليه ولخوفه من قيامه عليه ، وقد يكون ذلك لما جرت به عادة الفساق من الإزراء بمن يكثر من طاعة الله والسخرية بهم ، كما يعرف ذلك من يعرف أحوالهم ، فإنهم يعدون ما هم فيه من اللعب واللهو ، هو العيش الصافي ، والمنهج الذى يختاره العقلاء ، ويعدون المشتغلين بطاعة الله من أهل الرياء والتلصص لاقتناص الأموال .

وأما المعاداة بين العالم والجاهل فأمرها واضح ، فالعالم يرغب عنه ويعاديه لما هو عليه من الجهل للدين ، وعدم القيام بما يحتاج إليه من كان من المسلمين .

والجاهل يعاديه لكونه قد فاز بتلك المزية الجليلة ، والخصلة النبيلة التي هي أشرف خصال الدين[1] :

فمنزلة السفيه من الفقيه كمنزلة الفقيه من السفيه
فهذا زاهد في حق هذا وهذا فيه أزهد منه فيه

---

(١) في (ب) توجد (المؤمن) بدل الدين .

وأما العداوة بين المتبع والمبتدع فأمرها أوضح من الشمس فإن المتبع يعادى المبتدع لبدعته ، والمبتدع يعادى المتبع لإتباعه وكونه على الصواب ، والتمسك بالبدع يعمى بصائر أهلها فيظن أن ما هو عليه من الضلالة هو الحق الذى لا شبهة فيه ، وأن المتبع للكتاب والسنة على ضلالة .

وقد تبلغ عداوات أهل البدع لغيرهم من أهل الاتباع فوق عداواتهم لليهود والنصارى ، ولا شك أن أولياء الله سبحانه لهم من منصب الإيمان والعلم والاتباع النصيب الأوفر .

فأعداؤهم يكثرون لكثرة ما منحهم الله من الخصال الشريفة ، ويحسدونهم زيادة على ما يحسدون أهل الفضائل لاجتماعها لديهم ، مع فوزهم بالقرب من الله بما فتح الله عليهم به[1] من طاعاته ، فرائضها ، ونوافلها .

وهم أيضا يكرهون أعداء الله لوجود المقتضيات لديهم لكراهتهم ؛ من الإيمان والعلم والعمل الصالح ، وتقوى الله سبحانه على الوجه الأتم .

وإذا التبس عليك هذا فانظر فى تمثيل يقربه إليك وهو أن من كان له حظ من سلطان كثر أعداؤه حسدا له على تلك المنزلة الدنيوية .

ومن كان رأسا فى العلم عاداه غالب المنصرين ، لا سيما إذا خالف ما يعتقدونه حقاً . وجمهور العامة تبعاً لهم ، لأنهم ينظرون إلى كثرتهم ، والقيام بما يحتاجون إليه من الفتاوى والقضاء ، مع تلبيسهم عليهم بعيوب مفتراة لذلك العالم الذى وصل إلى ما لا يعرفونه ، وبلغ إلى ما يقصرون عنه ، أقل الأحوال أن يلقوا إليهم بأنه يخالف ما هم عليه هم وآباؤهم وما مضى عليه سلفهم .

---

(١) يوجد فى (ب) كلمة (سبحانه) بين (به) ومن (طاعته) ، ولا يوجد لفظ الجلالة بعد (فتح) .

وهذه وإن كانت شكاة ظاهر[1] عن ذلك العالم عارها ، لكنها تقع من قبول العامة لها فى أعلى محل ، وتثير من شرهم ما لا يقادر قدره . وهذا كائن فى غالب الأزمان من غالب نوع الإنسان .

قال ابن هبيرة(*) فى الإيضاح : « قوله : « عادى لى ولياً » ، أى اتخذه عدواً . ولا أرى المعنى إلا أنه عاداه من أجل ولايته وهو وإن تضمن التحذير من إيذاء قلوب أولياء الله تعالى ، فليس على إطلاقه ، بل يستثنى منه ما إذا كانت الحال تقتضى نزاعا بين وليين فى مخاصمة أو محاكمة ، وترجع إلى استخراج حق ، أو كشف غامض . فإنه جرى[2] بين أبى بكر وعمر مشاجرة وبين العباس وعلى إلى غير ذلك من الوقائع » .

وتعقبه الفاكهانى(**) . « بأن معاداة الولى لا تفهم إلا إذا [كانت][3] على طريق الحسد الذى هو تمنى زوال ولايته » ، وهو بعيد جداً فى حق الولى فتأمله . قال ابن حجر : « والذى قدمته أولى أن يعتمد »[4] انتهى .

---

(١) فى (ب) (طاهر) بنفس النقط .

(٢) فى (ب) (فإنها جرت) .

الأعلام

(*) من (٥٦٠ – ٦٠٧ هـ) مسعود بن يحيى بن محمد ابن هبيرة . أديب من بيت وزارة مولده ووفاته ببغداد . حدث وصنف . الأعلام جـ ٨ ص ١١٩ .

(**) هو عمر بن على بن سالم بن صدقة اللخمى الإسكندرى تاج الدين الفاكهانى له كتب : منها (الإشارة) (خ) فى النحو و (المنهج المبين) فى شرح الأربعين النووية ، و (رياض الأفهام فى شرح عمدة الأحكام) (خ) فى الحديث توفى سنة ٧٣٤ هـ الأعلام جـ ٥ ص ٢١٧ .

(٣) فى (أ) (كان) ، ولكن السياق يقتضى (كانت) .

(٤) ص ٢٩٣ فتح البارى .

قلت : أما المخاصمة فى الأموال والدماء ، فهى مستثناة سواء كانت بين وليين ، أو بين الولى وغيره ، فمن ادعى عليه بما يلزمه التخلص عنه شرعا ، ولم يكن ذلك لمجرد التعنت ، فحق على ذلك الولى[1] ، أن يتخلص مما يجب عليه ، ولا يحرج به صدره ، ولا يتأذى به قلبه ، فإن التأذى من التخلص عن الحقوق الواجبة ؛ ليس من[2] دأب الأولياء . (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ؛ ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ؛ ويسلموا تسليما[3]) .

---

(١) هذا خروج من الشوكانى على المبدأ العام فى عدم إمكان تحديد شخص الولى لا من جهة الشخص نفسه ولا من جهة من حوله ، فإن الرسول ﷺ كان دائم الاستغفار ، كما قال عن نفسه أيضاً « إنى لأخشاكم الله وأتقاكم له » . « وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم » بلسانه مرة وبلسان القرآن مرة أخرى . فهو ﷺ ظل فى موقف الخائف والحريص إلى آخر لحظة من حياته ، ولم يخطر بباله أنه قد فاز أو اقتحم العقبة أو أنه ليس له من الأعمال ما يحاسب عليه، فإذا كان ﷺ كذلك فالأولى بمن بعده أن يخاف ولا يركن إلى فكرة أنه قد صار من الأولياء ، فلا يظن أنه قد وصل إلى درجة الولاية ، بل يظل طول حياته يعمل على الوصول إليها وفى سبيلها ، فلا يجوز له أن يعتقد فى نفسه الولاية. ولا لغيره أن يعتقد فيه كما قال (ﷺ) « إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها ذارع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار » ، إلا إذا اشتهر بين الناس بصفات الأولياء وأعمالهم ، فحينئذ يجوز لغيره أن يغلب فيه الظن بالولاية لا لنفسه . ينظر مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية ص٤٣ فهناك يقول : أولياء الله المحددون هم العشرة المبشرون بالجنة ولا يجوز التهجم بالقطع على غيرهم .

(٢) فى (ب) لا توجد كلمة (من) .

(٣) النساء : ٦٥ .

وتحكيم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو تحكيم ما جاء به من الشريعة المطهرة . وهى موجودة فى كتاب الله سبحانه ، وفى سنة رسوله[1] صلى الله عليه وآله وسلم وهما باقيان إلى هذه الغاية بين أظهر المسلمين . والعلماء العارفون بما فيهما ، موجودون فى كل أقطار الأرض ، فإذا حكم حاكم منهم على الولى بما يجب عليه فى كتاب الله سبحانه ، وفى سنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، فالامتثال عليه أوجب من الامتثال على غيره لارتفاع رتبته ومزيد [خصوصيته][2] بكونه وليا لله سبحانه ، فإذا حرج صدره من ذلك وتأذى به فهو قادح فى ولايته ، وليس على الخاصم له ولا على الحاكم الذى حكم عليه شىء من الإثم

عودة إلى مقياس الولاية :

وقد قدمنا أن المعيار الذى تعرف به صحة ولايته ، هو أن يكون عاملا بكتاب الله سبحانه وبسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم مؤثراً لهما على كل شىء مقدما لهما فى إصداره وإيراده ، وفى كل شئونه ، فإذا زاغ عنهما زاغت عنه الولاية .

وانظر ما اشتملت عليه هذه الآية[3] الشريفة مما هو موعظة للمتعظين وعبرة للمعتبرين ، فإنه أولا بدأ فيها بالقسم الربانى ، وأقسم بنفسه عز وجل وتقدس مشرفا له صلى الله عليه وآله وسلم بإضافة الربوبية إليه ، جازما بنفس

(١) فى (ب) (رسول الله) .

(٢) فى (ب) ، (أ) (خصوصية) ولعلها سهو كتابى من المؤلف . وقد سها الناسخ فى (ب) أيضاً عن النظر فى أسلوبها فنقلها كما هى .

(٣) المتقدمة فى الصفحة السابقة .

الإيمان عمن خالف هذا القسم الربانى ، فقال : لا يؤمنون . ثم جعل لذلك غاية هى تحكيمه صلى الله عليه وآله وسلم فيما شجر بين العباد .

ثم لم يكتف بذلك حتى قال : « ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت » فلا ينفع بمجرد التحكيم لكتاب الله سبحانه ولسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، حتى لا يكون فى صدر المحكم لهما حرجا من ذلك القضاء .

ثم لم يكتف بذلك ، حتى قال : « ويسلموا » فلا ينفع بمجرد التحكيم لهما مع عدم الحرج من الحكم عليه بهما حتى يسلم ما عليه مما أوجبه القضاء[1] بهما ، ثم جاء بالتأكيد لهذا التسليم المفيد أنه أمر لا مخاص عنه ، ولا خروج منه .

فكيف يجد من كان ولياً لله سبحانه حرجاً فى صدره على خصمه المطالب له بحق يحق عليه التخلص منه ، أو على حاكمه الذى حكم به عليه ؟ !

فإن هذا ليس بصنيع أهل الإيمان بالله ، فكيف بأوليائه الذين ضموا إلى الإيمان ما استحقوا به اسم الولاية ، والعزة الربانية ؟!![2] .

ولكن هذا إذا كان الخصم[3] يعلم أنه محق فى طلبه ، وأن ذلك الحق ثابت له لا محالة ، فإن القاضى : إنما يقضى له بالظاهر الشرعى[4] ، كما ثبت عنه صلى الله عليه وآله وسلم فى الصحيحين وغيرهما أنه قال : « إنكم تختصمون إلىّ ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، وإنما أقضى بنحو ما أسمع فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً ، فلا يأخذه ، فإنما أقطع له قطعة من النار » .

---

(١) فى (ب) (لهما) وهو خطأ واضح .

(٢) هذا أبلغ توضيح لما يجب أن يكون عليه الولى فى مواقف الخصومة .

(٣) فى (ب) (إذا كان يعلم الخصم) وهو تعبير ضعيف فى هذا المقام) .

(٤) فى (أ) كلمة الشرعى تكررت وهو سهو طبعاً من المؤلف .

فهذا يقوله[١] الصادق المصدوق سيد ولد آدم ، المبعوث إلى جميع العالم إنسهم وجنهم ، وقد أخبرنا بأنه[٢] إذا قضى بشيء مما سمعه ، وكان الباطن بخلافه لم يجز للمحكوم له أن يأخذه بل هو قطعة من النار فكيف بمن هو مظنة للخطأ ، ومحل للإصابة تارة ولغيرها أخرى ، وبمن لا عصمة له ، ولا وحى ينزله عليه ؟!! .

وقد صح عنه صلى الله عليه وآله وسلم فى الصحيحين وغيرهما أنه قال : إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإن اجتهد فأخطأ فله أجر فكل حاكم من حكام المسلمين [يتردد][٣] حكمه بين الصواب والخطأ ، ولكنه مأجور على كل حال ، لأن ذلك فرضه الواجب عليه ، ولا يحل للمحكوم له أن يستحل مال خصمه بمجرد الحكم ، كما قضى به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى أحكامه الشريفة فكيف بأحكام غيره من حكام أمته ؟!! .

وقد ثبت فى السنن(*) وغيرها عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « إن القضاة ثلاثة قاضيان فى النار وقاض فى الجنة ، فالذى فى الجنة رجل علم بالحق[٤]

---

(١) فى (ب) تكررت (يقوله) .
(٢) فى (ب) (أنه) فقط دون الباء .
(٣) فى الأصل (يترد) وهو سهو من المؤلف .

الأعلام

(*) هى سنن أبى داود : سليمان بن أشعث السجستانى المتوفى سنة ٢٧٥ هـ وسننه : إحدى كتب الحديث الست الصحيحة ، وقد قال فيها : كتبت عن رسول الله ﷺ وآله وسلم خمسمائة ألف حديث ، انتخبت ما ضمنته وجمعته فى كتابى هذا وهو أربعة آلاف حديث، وثمانية أحاديث فى الصحيح ، وما يشبهه (ص١٠٠٤ كشف الظنون ج ٢) .

(٤) فى (ب) (علم الحق) دون الباء .

وقضى به والقاضيان [اللذان][1] هما فى النار : رجل قضى للناس بجهل فهو فى النار ، ورجل علم الحق وقضى بخلافه فهو فى النار » .

وبهذا تعرف أن الخصم المحاكم للولى ، إذا كان يعلم أنه لا حق له عليه وأن دعواه باطلة ، فهو داخل تحت قوله : « من عادى لى ولياً » لأن دعواه الباطلة على الولى معاداة له ظاهرة ، فاستحق الحرب الذى توعده الله سبحانه به فى هذا الحديث .

وأما القاضى إذا قضى عليه بما هو فى ظنه [حق][2] [موافق][3] للكتاب والسنة ، واجتهد فى البحث والفحص ، وكان أهلا للحكم فليس ذلك منه معاداة للولى ، وليس عليه من تأذيه بحكمه شىء ، فهو قد حكم بالشريعة المطهرة واستحق أجرين أو أجراً . وامتثل ما أرشده[4] إليه الصادق المصدوق صلى الله عليه وآله وسلم .

المراد بالشريعة :

وها هنا نكتة ينبغى التنبه لها من كل أحد من أهل العلم ، وهى أن لفظ الشريعة إن أريد به الكتاب والسنة ، لم يكن لأحد من أولياء الله تعالى ولا من غيرهم أن يخرج منه ، ولا يخالفه بوجه من الوجوه ، وإن أريد به حكم الحاكم فقد يكون[5] صوابا ، وقد يكون خطأ كما بينه رسول

---

(١) فى (أ) (الذين) بالنصب وهو سهو .

(٢) فى (أ) (حقا) بالنصب وهو خلاف القاعدة النحوية .

(٣) وكذلك (أ) فيها (موافقاً) بالنصب .

(٤) فى (ب) (أرشد) .

(٥) فى (أ) تكررت (فقد يكون) وهو سهو من المؤلف .

الله صلى الله عليه وآله وسلم فى الحديث السابق[1] بالمعنى الأول . [و][2] ليس لأحد أن يخرج عنه[3] ، ومن خرج عنه فهو كافر :

ومن ظن أن لأحد من أولياء الله سبحانه طريقا إلى الله تعالى غير الكتاب والسنة ، واتباع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فهو كاذب .

وقد غلط كثير من الناس فجعلوا الشريعة شاملة القسمين ، وما أقبح هذا الغلط ، وأشد عاقبته ، وأعظم خطره .

الكونيات ، والدينيات فى القرآن الكريم :

وكما وقع الاشتباه بين هذين القسمين ، وقع الاشتباه أيضا بين شيئين آخرين ، وإن كانا خارجين عما نحن بصدده وهو الفرق بين الإرادة الكونية ، والإرادة الدينية ، وبين الأمر الكونى والأمر الدينى ، وبين الإذن الكونى والإذن الدينى ، وبين القضاء الكونى والقضاء الدينى ، والبعث الكونى ، والبعث الدينى ، والإرسال الكونى ، والإرسال الدينى ، والجعل الكونى ، والجعل الدينى ، والتحريم الكونى ، والتحريم الدينى ، وبين الحقيقة الكونية ، والحقيقة الدينية .

والفرق بين هذه الأمور واضح ، وإن اشتبه على طائفة من أهل العلم فخبطوا ، وخلطوا .

---

(١) فى الصفحة السابقة ص ٢٨٠ : (إذا اجتهد الحاكم .. الخ) .

(٢) فى (أ) لا توجد (الواو) قبل (ليس) ، ولكنها ضرورية لأنه استئناف كلام المراد منه الحض على لزوم الكتاب والسنة ، والعمل بالحديث الذى يحض على مبدأ الاجتهاد .

(٣) أى عن ذلك الحديث المشار إليه كما يفهم من المقام ، فالواجب على القضاة الاجتهاد ولزوم الحديث ، وغير القضاة فى النظر إلى أحكامهم على هذا الأساس.

وبيان ذلك أن الله سبحانه له الخلق والأمر، كما قال: «إن ربكم الله[1] الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا، والشمس والقمر، والنجوم مسخرات بأمره، ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين»[2].

فهو سبحانه خالق كل شئ وربه ومليكه[3] لا خالق غيره ولا رب سواه، ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن. وكل ما في الوجود من حركة وسكون بقضائه وقدره ومشيئته وقدرته وإرادته وخلقه، وهو سبحانه أمر بطاعته وطاعة رسوله، ونهى عن الشرك بالله سبحانه.

فأعظم الطاعات التوحيد له والإخلاص، وأعظم المعاصي الشرك «إن الله لا يغفر أن يشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء[4]» وقال سبحانه «ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله، والذين آمنوا أشد حبا لله»[5].

وفي الصحيحين وغيرهما عن ابن مسعود[*] قال: «قلت يا رسول الله

---

(١) في (أ) سقط لفظ الجلالة سهوا من المؤلف.

(٢) الأعراف: ٥٤.

(٣) في (ب) (ومالكه).

(٤) النساء: ٤٨.

(٥) البقرة: ١٦٥.

الأعـــلام

(*) أحد أصحاب رسول الله (ﷺ) وأحبهم إليه وكان من أوائل الناس إسلاما، وأحفظهم للقرآن الكريم والحديث الشريف. وقال فيه الرسول ﷺ كما روى عن زر بن حبيش عن ابن مسعود: أنه كان يجتني سواكا من=

أى الذنب أعظم ؟ قال : أن تجعل لله نداً وهو خلقك قلت : ثم أى ؟ قال . أن تقتل ولدك خشية أن تطعمه معك . قلت ثم أى ؟ قال : أن تزنى بحليلة جارك » . فأنزل الله[1] تصديق ذلك : والذين لايدعون مع الله إله آخر ، ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ولايزنون ومن يفعل ذلك يلق آثاماً ، يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحاً ، فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ، وكان الله غفوراً رحيما[2]) .

وأمر الله سبحانه بالعدل والإحسان ، وإيتاء ذى القربى ؛ ونهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، وأخبر أنه يحب المتقين[3] ، [و] المحسنين، ويحب التوابين ويحب المتطهرين ؛ ويحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص ، وهو يكره مانهى عنه ؛ كما قال : (كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروهاً) . وقد نهى عن الشرك وعقوق الوالدين ، وأمر بإيتاء ذى الحقوق ، ونهى عن التبذير والتقتير ، وأن يجعل يده مغلولة إلى عنقه ، وأن لايبسطها

---

(١) فى (ب) كلمة (تعالى) بعد لفظ الجلالة .

(٢) ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ الفرقان .

(٣) فى (أ) لا توجد (واو) قبل المحسنين .

الأعلام

= الأراك وكان دقيق الساقين فجعلت الريح تكفؤه فضحك القوم منه، فقال رسول الله (ﷺ) مم تضحكون ، قالوا يانبى الله من دقة ساقيه ، فقال : « فوا الذى نفسى بيده لهما أثقل فى الميزان من أحد » . ومن مأثوراته : « لايقلدن أحدكم دينه رجلا فإن آمن آمن وإن كفر كفر » ولى قضاء الكوفة وبيت المال لعمر ، وصدراً من خلافة عثمان ثم صار إلى المدينة فمات بها سنة اثنتين وثلاثين هـ ودفن بالبقيع ص ١٥٥ جـ صفوة الصفوة) .

كل البسط . ونهى عن قتل النفس بغير حق وعن[1] قربان مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن إلى أن قال : (كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها)[2] .

وهو سبحانه لا يحب الفساد ولا يرضى لعباده الكفر .

والعبد مأمور أن يتوب إلى الله سبحانه ، وقال : فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره)[3] . وقال : (وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ، الذين ينفقون أموالهم فى السراء والضراء ، والكاظمين الغيظ ، والعافين عن الناس والله يحب المحسنين ، والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ، ومن يغفر الذنوب إلا الله ، ولم يصروا على مافعلوا وهم يعلمون)[4] .

فما خلقه الله سبحانه وقدره وقضاه فهو يريده ، وإن كان لا يأمر به ولا يحبه ولا يرضاه ، ولا يثيب أصحابه ، ولا يجعلهم من أوليائه .

وما أمر به وشرعه وأحبه رضيه وأحب فاعليه وأثابهم وأكرمهم عليه فهو الذى يحبه ويرضاه ، ويثيب فاعله عليه .

فالإرادة الكونية ، والأمر الكونى ، وهى مشيئته لما خلقه من جميع مخلوقاته إنسهم وجنهم ، مسلمهم وكافرهم ، حيوانهم وجمادهم ، ضارهم ونافعهم .

والإرادة الدينية والأمر الدينى : هى محبته المتناولة لجميع ما أمر به وجعله شرعاً وديناً ، فهذه مختصة بالإيمان والعمل الصالح .

---

(١) فى (ب) لا توجد كلمة (عن) .
(٢) الإسراء : ٣٨ .
(٣) الزلزلة ٧، ٨ .
(٤) آل عمران من ١٣٣ — ١٣٥ .

أمثـــلة:

فمن الإرادة الأولى : أعنى الـكونية قول الله سبحانه : (فمن يُرِدِ الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً ، كأنما يصعد فى السماء)[١] . وقول نوح[٢] : (ولا ينفعكم نصحى إن أردت أن أنصح لـكم إن كان الله يرد أن يغويكم)[٣] . وقال تعالى : (وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له ومالهم من دونه من وال)[٤] .

ومن الإرادة الدينية . قوله : (فمن كان منـكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر ، يريد الله بكم اليسر ، ولا يريد بكم العسر)[٥] وقوله تعالى : ﴿ ما يريد الله ليجعل عليـكم[٦] من حرج ، ولـكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليـكم لعلـكم تشكرون)[٧] . وقوله سبحانه : (يريد الله ليبين لـكم ويهديكم سنن الذين من قبلـكم ، ويتوب عليـكم ، والله عليم حكيم ، والله يريد أن يتوب عليـكم ، ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما ، يريد الله أن يخفف عنكم ، وخلق الإنسان ضعيفا)[٨] . وقوله سبحانه : (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ، ويطهركم تطهيرا)[٩] .

---

(١) الأنعام : ١٢٥ .
(٢) فى (ب) يوجد (عليه السلام) بعد نوح .
(٣) هود : ٣٤ .
(٤) الرعد : ١١ .
(٥) البقرة : ١٨٥ .
(٦) فى (ا) ، (ب) كلمة (فى الدين) وهى سهو من المؤلف والناسخ .
(٧) المائدة : ٦ .
(٨) النساء : من ٢٦ — ٢٨ .
(٩) الأحزاب : ٣٣ .

ومن الأمر الكونى : قوله سبحانه[١] (إنما قولنا[٢] لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون)[٣] وقوله : (وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر)[٤] وقوله : (أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس)[٥].

ومن الأمر الدينى : قوله سبحانه : (إن الله يأمر بالعدل ، والإحسان وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر ، والبغى)[٦] وقوله سبحانه : (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعاً بصيراً)[٧].

ومن الإذن الكونى : قوله تعالى : (وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله)[٨] أى بمشيئته وقدرته ، وإلا فالسحر لا يبيحه الله . وقال تعالى فى الإذن الدينى : (إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيرا وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيرا)[٩] وقال : (وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله)[١٠] وقال : (ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله)[١١].

ومن القضاء الكونى : قوله تعالى : (فقضاهن سبع سموات)[١٢] وقوله : فإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون)[١٢].

---

(١) فى (ب) (قوله سبحانه) .

(٢) وكانت فى الأصل وفى (ب) إنما (أمرنا) وهو سهو منهما أيضاً .

(٣) النحل : وكانت فى الأصل : « إنما أمرنا » ولكن صحتها ، (قولنا) فخرجت بذلك عن موضع الاستشهاد .

(٤) القمر : ٥٠ . (٥) يونس : ٢٤ . (٦) النحل : ٩٠ .

(٧) النساء : ٥٨ . (٨) البقرة : ١٠٢ . (٩) الأحزاب : ٤٦ .

(١٠) النساء : ٦٤ . (١١) الحشر : ٥ . (١٢) فصلت : ١٢ .

ومن القضاء الدينى : قوله سبحانه (وقضى ربك ألاّ تعبدوا إلا إياه)[1] أى أمر وليس المراد قدر فإنهم قد عبدوا غيره كقوله : (ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ، ويقولون : هؤلاء شفعاؤنا عند الله)[2]. وقول الخليل عليه السلام (أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون فإنهم عدو لى إلا رب العالمين)[3] وقوله سبحانه : (قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم : إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم ، وبدا بيننا وبينكم العداوة ، والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده)[4] وقوله سبحانه : (قل ياأيها الكافرون لا أعبد ماتعبدون)[5] إلى آخر السورة .

ومن البعث الكونى : قوله سبحانه : (فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولا)[6] .

ومن البعث الدينى : قوله سبحانه : « هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم[8] يتلو عليهم آياته ، ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة »[9] .

وقوله عز وجل : (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت)[10] .

---

(١) الإسراء ٢٣ .　　(٢) يونس : ١٨ .

(٣) الشعراء : من ٧٥ — ٧٧ .　　(٤) الممتحنة : ٤ .

(٥) سورة (الكافرون) .　　(٦) الإسراء : ٥ .

(٧) فى (ب) سقطت من الناسخ كلمة (منهم) .

(٨) الجمعة : ٢ .

(٩) النحل : ٣٦ .

(١٠) فى (أ) ، (ب) سقطت من المؤلف والناسخ كلمة (ألم تر) .

ومن الإرسال الكونى : قوله تعالى : (ألم تر[١] أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً)[٢] وقوله : (وهو الذى يرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته)[٣] .

ومن الإرسال الدينى : قوله سبحانه[٤] : (يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً)[٥] .

وقوله تعالى : (إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهداً عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا)[٦] .

ومن الجعل الكونى : قوله سبحانه : (وجعلناهم أئمة يدعون إلى النـــار)[٧] .

ومن الجعل الديني : قوله سبحانه: (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا)[٨] وقوله تعالى : « ماجعل الله من بحيرة ، ولاسائبة ، ولا وصيلة ولا حام »[٩] .

ومن التحريم الكونى : قوله تعالى : (وحرمنا عليه المراضع من قبل)[١٠] وقوله سبحانه : (محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض)[١١] .

ومن التحريم الدينى : قوله عز وجل : « حرمت عليكم الميتة والدم ولحم

---

(١) فى (ا) ، (ب) سقطت من المؤلف والناسخ كلمة (ألم تر) .
(٢) مريم : ٨٣ .
(٣) ٥٧ الأعراف .
(٤) فى (ب) (تعالى) .
(٥) الأحزاب : ٤٥ .
(٦) المزمل : ١٥ .
(٧) القصص : ٤١ .
(٨) المائدة : ٤٨ .
(٩) المائدة : ١٠٣ .
(١٠) القصص : ١٢ .
(١١) المائدة : ٢٦ .

الخنزير وما أهل لغير الله به)[١] وقوله (حرمت عليكم[٢] أمهاتكم ؛ وبناتكم[٣] وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت)[٤] وقوله سبحانه : (قل لا أجد فيما أوحى إلى محرما على طاعم يطعمه)[٥] وقوله تعالى : (قل إنما حرم ربى الفواحش)[٦] .

فجميع ما تقدم يقال لما كان كونيا منه حقيقة كونية ، ولما كان دينيا منه حقيقة دينية .

القدر ونفى احتجاج العصاة به :

وإذا عرفت هذا فاعلم أن من ظن أن القدر حجة لأهل المعاصى فقد غلط غلطا بينا ، واقتدى بأهل الكفر الذين حكى الله عنهم ، أنهم قالوا : (لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شىء)[٧] ثم قال : (كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل[٨] هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ، إن تتبعون إلا الظن ، وإن أنتم إلا تخرصون . قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين)[٩] .

---

(١) المائدة : ٣ .
(٢) فى (أ) تكررت كلمة (عليكم) .
(٣) فى (أ) سقطت من الناسخ (وبناتكم وأخواتكم) وهو سهو وخطأ
(٤) النساء : ٢٣ :
(٥) الأنعام : ١٤٥ .
(٦) فى (ب) زاد الناسخ (ماظهر منها وما بطن) وهى من الآية .
(٧) الأنعام : ١٤٨ ، ١٤٩ .
(٨) فى (أ) غلط المؤلف وقال (فهل) بدل (قل هل) .
(٩) فى (ب) خطأ فى الآية القرآنية .

ولو كان القدر حجة لم يعذب الله سبحانه المكذبين للرسل كقوم نوح وعاد وثمود وقوم فرعون وغيرهم . ولم يأمر بإقامة الحدود على العصاة المرتكبين لها ، ولا يحتج أحد بالقدر إلا إذا كان متبعاً لهواه بغير هدى من الله . ومن ظن ذلك فعليه أن لا يذم كافراً ، ولا عاصياً ، ولا يعاقبه إذا اعتدى عليه ، ولا يفرق بين من يفعل الخير ، ومن يفعل الشر ، وهذا خلاف ما تقتضيه عقول جميع العقلاء ، وما تقضيه جميع كتب الله المنزلة وما تقتضيه كلمات أنبياء الله عليهم السلام[1] .

فلا تمسك بعقل ولا شرع ، وقد قال الله سبحانه[2] : « أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون »[3] . وقال تعالى : « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون »[4] . وغير ذلك من الآيات القرآنية والأحاديث الصحيحة ، ومن ظن أن في محاجة آدم وموسى حجة للمحتجين بالقدر حيث قال موسى : أنت أبو البشر خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأسجد لك ملائكته ، أخرجتنا ونفسك من الجنة . فقال له آدم : أنت الذى اصطفاك الله بكلامه[5] ، وكتب لك التوراة بيده ، فلم تلومنى على أمر قدره الله على قبل أن أخلق ؟ . قال : فحج آدم موسى » . هكذا فى الصحيحين وغيرهما .

---

(١) فى (ب) (الصلاة والسلام) .

(٢) فى (ب) (تعالى) بعد (سبحانه) .

(٤) الجاثية : ٢١ .

(٦) المؤمنون : ١١٥ .

(٥) فى (ب) (لكلامه) .

ووجه الحديث : أن موسى عليه السلام[1] ، إنما لام أباه آدم عليه السلام لأكله الشجرة التى كانت سبباً لإخراجه ، وذريته من الجنة ، ولم يلمه على كونه أذنب ذنبا وتاب منه فإن موسى يعلم أن التائب من الذنب لا يلام . وقد ثبت فى الصحيح فى الحديث القدسى أنه صلى الله عليه وآله وسلم قال[2] : «ياعبادى إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله سبحانه ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه »[3] .

الصحابة رضى الله عنهم ومركزهم من الولاية :

ولنرجع إلى شرح الحديث الذى نحن بصدد شرحه فنقول : اعلم أن الصحابة[4] لاسيما[5] أكابرهم الجامعين بين الجهاد بين يدى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، والعلم بما جاء به ، وأسعدهم الله سبحانه من مشاهدة النبوة وصحبة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى السراء والضراء ، وبذلهم أنفسهم وأموالهم فى الجهاد فى سبيل الله سبحانه حتى صاروا خير القرون بالأحاديث الصحيحة . فهم خيرة الخيرة ، لأن هذه الأمة هى كما أكرمهم الله به بقوله : كنتم خير أمة أخرجت للناس، وكانوا الشهداء على العباد كما فى القرآن العظيم

---

(١) فى (أ) السلام هكذا (السلا) دون الميم .

(٢) فى (ب) بعد قال : (يقول الله تعالى ياعبادى الخ) وهى لازمة ، لأن القائل الله سبحانه وتعالى وليس الرسول صلى الله عليه وسلم .

(٣) قد علق ابن القيم على هذا الحديث ، وبين آراء المتكلمين فيه ، وبأى وجه احتجوا به على آرائهم فى القدر ص ٢٩ — ٣١ من شفاء العليل فى مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل .

(٤) فى (ب) يوجد (رضى الله عنهم) .

(٥) فى (ب) (هم) بعد لاسيما .

قوم خير العباد جميعا ، وخير الأمم سابقهم ولاحقهم ، وأولهم وآخرهم . وهؤلاء الصحابة رضى الله عنهم ، هم خير قرونهم ، وأفضل طوائفهم إلى يوم القيامة .

فتقرر بهذا أن الصحابة رضى الله عنهم خير العالم بأسره من أوله إلى آخره ، لا يفضلهم أحد إلا الأنبياء والملائكة ، ولهذا لم يعدل مثل أحد ذهبا مد أحدهم ، ولا نصيفه .

فإذا لم يكونوا رأس الأولياء ، وصفوة الأتقياء ، فليس لله أولياء ، ولا أتقياء ، ولا بررة ، ولا أصفياء .

وقد نطق القرآن الكريم[1] بأن الله[2] قد رضى عن أهل بيعة الشجرة وهم جمهور الصحابة إذ ذاك .

وثبت عنه صلى الله عليه وآله وسلم ثبوتا متواترا أن الله سبحانه اطلع على أهل بدر فقال : (اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم) . وشهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم لجماعة منهم بأنهم من أهل الجنة .

فقوله صلى الله عليه وآله وسلم فى هذا الحديث : « من عادى لى ولياً » ، يصدق عليهم صدقا أولياء ، ويتناولهم بفحوى الخطاب .

فانظر أرشدك الله إلى ما صارت الرافضة أقأم[3] الله تصنعه بهؤلاء الذين هم رؤس الأولياء ورؤساء الأتقياء ، وقدوة المؤمنين ، وأسوة المسلمين ، وخير عباد الله أجمعين من الطعن واللعن والثلب والسب والشتم والثلم ، وانظر إلى أى مبلغ بلغ الشيطان الرجيم بهؤلاء المغرورين المجترئين على هذه الأعراض

---

(١) فى (ب) (العظيم) .
(٢) فى (ب) (سبحانه وتعالى) بعد لفظ الجلالة .
(٣) صغرهم وأذلهم .

المصونة المحترمة المكرمة !!! .

فيالله العجب من هذه العقول الرقيقة ، والأفهام الشنيعة ، والأذهان المختلة والإدراكات المعتلة ، فإن هذا التلاعب الذى تلاعب بهم الشيطان يفهمه أقصر الناس عقلا ، وأبعدهم فطانة ، وأجمدهم فهما ، وأقصرهم فى العلم باعا ، وأقلهم اطلاعا .

فإن الشيطان لعنه الله سول لهم بأن هؤلاء الصحابة رضى الله عنهم الذين لهم المزايا التى لا يحيط بها حصر ، ولا يحصيها حد ولا عد ، أحقاء بما ينتهكون من أعراضهم الشريفة ، ويجحدون من مناقبهم المنيفة ، حتى كأنهم لم يكونوا هم الذين أقاموا أعمدة الإسلام بسيوفهم ، وشادوا قصور الدين برماحهم ، واستباحوا الممالك الكسروية ، وأطفأوا الملة النصرانية والمجوسية ، وقطعوا حبائل الشرك من الطوائف المشركة من العرب وغيرهم ، وأوصلوا دين الإسلام إلى أطراف المعمور من شرق الأرض وغربها ، ويمينها وشمالها ، فاتسعت رقعة الإسلام وطبقت الأرض شرائع الإيمان ، وانقطعت علائق الكفر وانفصمت حباله ، وانفصمت أوصاله ، ودان بدين الله سبحانه الأسود والأحمر ، والوثنى ، والملى .

فهل رأيت أو سمعت بأضعف من هؤلاء تمييزا ، وأكثر[1] منهم جهلا ، وأزيف منهم رأيا !! يالله العجب يعادين خير عباد الله وأنفعهم للدين ، الذى بعث به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وهم لم يعاصروهم ، ولا عاصروا من أدركهم ، ولا أذنبوا إليهم بذنب ، ولا ظلموهم فى مال ، ولا دم ولا عرض ، بل قد صاروا تحت أطباق الثرى وفى رحمة واسع الرحمة منذ مئين من السنين .

وما أحسن ما قاله بعض أمراء عصرنا ، وقد رام كثير من أهل الرفض أن

(١) فى (ب) (أكثرهم) .

يغتنوه ويوقعوه فى الرفض : « مالى ولقوم بينى وبينهم زيادة على اثنى عشرة مائة من السنين » . وهذا القائل لم يكن من أهــل العلم بل هو عبد صيره مالــكه أميراً ، وهداه عقله إلى هذه الحجة العقلية التى يعرفها بالفطرة كل من له نصيب من عقل ، فإن عداوة من لم يظلم المعادى فى مال ولا دم ولا عرض ، ولا كان معاصرا له حتى ينافسه فيما هو فيه ، يعلم كل عاقل أنه لا يعود على الفاعل بفائدة .

هذا على فرض أنه لا يعود عليه بضرر فى الدين فكيف وهو من أعظم الذنوب التى لا ينجى فاعلها إلا عفو الغريم الجنى عليه بظلمه فى عرضه ؟ ! ! .
أنظر عافاك الله ، ما ورد فى غيبة المسلم من الوعيد الشديد مع أنها ذكر الغائب بما فيه[1] كما صح عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى بيانها لمــا سأله السائل عن ذلك ثم سأله عن ذكره بما ليس فيه جعل ذلك من البهتان ، كما هو ثابت فى الصحيح ، ولم يرخص فيها بوجه من الوجوه .

وقد أوضحنا ذلك فى الرسالة[2] التى دفعنا بها ، ما قاله النووى وغيره من جواز الغيبة فى ست صور ، وزيفنا ما قالوه تزييفا لا يبقى بعده شك ولاريب ، ومن بقى فى صدره حرج وقف عليها ، فإنها دواء لهذا الداء الذى هلك به كثير من عباد الله سبحانه .

فإذا كان هذا حراما بينا ، وذنباً عظيما فى غيبة فرد من أفراد المسلمين الأحياء الموجودين ، فـكيف غيبة الأموات التى صح عن رسول الله صلى الله

---

(١) فى (ب) (بما فى المغتاب) فتـكون الغائب من غاب : بمعنى اغتاب ، ولـكن على ماهنا فإن الغائب على معناها الأصلى وهو غير الحاضر .

(٢) وهى رسالة (رفع الريب فيما يجوز ولايجوز من الغيب) أنظر ص ٥٤ .

عليه وآله وسلم النهى عنها بقوله : « لا تسبوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا » ؟ ! .

فكيف إذا [كان][1] هؤلاء المسبوبين الممزقة أعراضهم المهتوكة حرماتهم هم خير الخليقة ، وخير العالم كما قدمنا تحقيقه ؟ ! ! .

فسبحان الصبور الحليم ! ! ! .

فيا هذا المتجرىء على هذه الكبيرة المتقحم على هذه العظيمة ، إن كان الحامل لك عليها والموقع لك فى وبالها هو تأميلك الظفر بأمر دنيوى ، وعرض عاجل ، فاعلم أنك لا تنال منه طائلا ، ولا تفوز منه بنقير ولا قطمير .

فقد جربنا وجرب غيرنا من أهل العصور الماضية ، أن من طلب الدنيا بهذا السبب [الذى][2] فتح بابه الشيطان الرجيم ، وشيوخ الملاحدة من الباطنية والقرامطة والإسماعلية تنكدت عليه أحواله وضاقت عليه معايشه ، وعاندته مطالبه وظهر عليه كآبة المنظر ، وقماءة[3] الهيئة ورثاثة الحال ، حتى يعرفه غالب من رآه أنه رافضى ، وما علمنا بأن رافضيا أفلح فى ديارنا هذه قط .

وإن كان الحامل لك على ذلك الدين فقد كذبت على نفسك ، وكذبك شيطانك وهو كذوب .

فإن دين الله هو كتابه وسنة رسوله فانظر هل ترى فيهما إلا الإخبار

---

(١) فى (أ) ، (ب) كانوا) على لغة يتعاقبون .

(٢) فى (أ) (التى) وهو سهو من المؤلف .

(٣) فى (ب) و (قمأة) .

لنا[1] بالرضى عن الصحابة ، [وأنهم][2] أشداء على الكفار ، وأن الله يغيظ [بهم] الكفار ، وأنه لا يلحق بهم غيرهم ، ولا يماثلهم سواهم ؟ ! ! .

وهم الذين أنفقوا من[3] قبل الفتح وقاتلوا ، وأنفقوا بعده كما حكاه القرآن الكريم ، وهم الذين جاهدوا في الله حق جهاده ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيله .

وهم الذين قاموا بفرائض الدين ، ونشرها في المسلمين ، وهم الذين وردت لهم في السنة المطهرة المناقب العظيمة ، والفضائل الجسيمة عموما وخصوصا . ومن شك في هذا نظر في دواوين الإسلام ؛ وفيما يلتحق[4] بها من المسندات والمستدركات والمعاجيم ، ونحوها فإنه سيجد هنالك ما يشفى علله ويرى غلله ويرده عن غوايته ، ويفتح له أبواب هدايته .

هذا إذا كان يعرف أن الشريعة الإسلامية هي الكتاب والسنة وأنه لاشريعة بين أظهرنا من الله ورسوله إلا ذلك .

فإن كان لايدرى بهذا ويزعم أن له سلفاً في هذه المعصية العظيمة والخصلة الذميمة ، فقد غره الشيطان بخذول مثله ، ومفتون مثل فتنته ، وقد نزه الله عز وجل علماء الإسلام سابقهم ولاحقهم ومجتهدهم ومقلدهم عن الوقوع في هذه البلية الحالقة للدين المخرجة لمرتكبها من سبيل المؤمنين إلى طريق الملحدين .

---

(١) في (ب) سقطت (لنا) من الناسخ .
(٢) في (أ) (أنه) ، (به) وهو سهو من المؤلف .
(٣) في (ب) سقطت (من الناسخ .
(٤) في (ب) (يلحق) .

موقف أهل البيت من الصحابة :

فإن زعم أنه قد قال بشيء من هـذا الضلال المبين قائل من أهل البيت المطهرين ، فقد افترى عليهم الـكذب البين ، والباطل الصراح فإنهم مجمعون سابقهم ولاحقهم ، على تعظيم جانب الصحابة الأكرمين ، ومن لم يعلم بذلك فلينظر فى الرسالة التى ألفتها فى الأيام القديمة التى سميتها (إرشاد الغبي إلى مذهب أهل البيت فى صحب النبي) فإنى نقلت فيها نحو أربعة عشر إجماعا عنهم من طرق مروية عن أكابرهم وعن المتابعين لهم المتمسكين بمذهبهم .

فيا أيها المغرور بمن اقتديت ، وعلى من اهتديت ، وبأى حبل تمسكت وفى أى طريق سلـكت يالك الويل والثبور ، كيف أذهبت دينك فى أمر يخالف كتاب الله سبحانه ، وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، ويخالف جميع المسلمين منذ قام الدين إلى هذه الغاية ، وكيف رضيت لنفسك بأن تـكون خصما لله سبحانه ولـكتابه ولرسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، ولسنته ولصحابته ولجميع المسلمين ؟!!! أين يتاه بك ، وإلى أى هوة يرمى بك ، أما تخرج نفسك من هذه الظلمات المتراكمة إلى أنوار هذا الدين الذى جاءنا[1] به الصادق المصدق عن رب العالمين ، وأجمع عليه المسلمون أجمعون ، ولم يخالف فيه مخالف يعتد به فى إجماع المسلمين ، اللهم إلا أن يكون رافضيا خبيثا ، أو باطنيا ملحدا ، أو قرمطيا جاحداً[2] أو زنديقياً معانداً .

---

(١) فى (ب) (جاء) فقط دون الضمير .

(٢) الرافضة الذين رفضوا الإمام زيداً وفارقوه لأنه لم يتبرأ من (أبى بكر وعمر) رضى الله عنهما وقال هما وزيرا جدى . والباطنية هم طوائف الشيعة ومن نحا نحوهم من الصوفية فى الاعتقاد فى باطن للدين يخالف ذلك الظاهر الذى جاء به القرآن والحديث ، ويتفق مع مبادئهم الدخيله على الإسلام . =

وها هنا دقيقة نرشدك إليها إن بقى لك طريق إلى الرشاد وفهم [إلى ما ينقاد إليه العقلاء تنقاد][1] .

مبدأ الباطنية ، وكيف قاموا :

أعلم أن بقايا المجوس ، وطوائف الشرك والإلحاد لما ظهرت الشريعة الإسلامية وقهرتهم الدولة الإيمانية والملة المحمدية ، ولم يجدوا سبيلا إلى دفعها بالسيف ولا بالسنان ، ولا بالحجة والبرهان ، ستروا ما هم فيه من الإلحاد والزندقة بحيلة تقبلها الأذهان ، وتذعن لها العقول[2] .

فانتموا إلى البيت المطهرين ، وأظهروا محبتهم وموالاتهم ، كذبا وافتراء وهم في الباطن أعظم أعدائهم ، وأكبر المخالفين [لهم][3] . ثم كذبوا على أكابرهم الجامعين بين العلم والدين ، المشهورين بالصلاح والرشد ، فقالوا : قال الإمام فلان كذا ، وقال الإمام فلان كذا ، وجذبوا جماعة من العامة الذين لا يفهمون ولا يعقلون ، فتدرجوا معهم بدعوات معروفة ، وسياسات شيطانية وما زالوا ينقلونهم من رتبة إلى رتبة ، ومن درجة إلى درجة حتى أخرجوهم

= والقرامطة هم أتباع أبي سعيد القرمطي مؤسس دولة القرامطة . وهم شعبة من الباطنية ، وسيأتي توضيح المؤلف لذلك أكثر .

(١) في الأصل (وفهم إلى ما ينقاد إليه العقلاء انقياد) بسكون انقياد ، وأسلوب (ب) هنا أقوم .

(٢) وأرى أن التصوف المتأخر بعد القرن الثاني الهجري حيلة أخرى لستر إلحادهم ، ومحاولة لتقويض الإسلام بطريق التظاهر بخدمته .

(٣) في الأصل لا توجد كلمة (لهم) ولكن الأسلوب يقتضيها ، وهي موجودة في (ب) .

إلى الكفر البواح ، والزندقة المحضة ، والإلحاد الصُّرَاح .

فعند ذلك ظهرت لهم دول : منها دولة اليمن التى قام بهـــا (على(*) ابن الفضل) الملحد الكافر كفراً أقبح من كفر اليهود والنصارى والمشركين . ونعق بالإلحاد على منابر المسلمين فى غالب الديار اليمنية ، وصيرها كفرية إلحادية باطنية .

وكذلك (منصور بن حسن) (**) الخارج معه من عند رأس الملحدة :

الأعلام

(*) على بن الفضل الجدنى اليمانى وهو رجل من اليمن أصله من سبأ وكان من دعاة القرامطة عاهد الناس على القيام بدعوة المهدى المنتظر ، وكان مبدأ أمره سنة ٢٩٠ هـ وتبعه خلق كثير ، وملك ملكا عظيما وقتل خلقا كثيرا واستولى على بلاد اليمن ودخل زبيد وقتل أربعة آلاف عذراء غير الرجال ، ولما دخل صنعاء أظهر مذهبه الخبيث وارتكب المحظورات وادعى النبوة فكان المؤذن يؤذن (أشهد أن على بن الفضل رسول الله) وأباح لأصحابه شرب الخمر ونكاح البنات والأخوات وسائر المحارم ، وكان يكتب : (من باسط الأرض وداحيها ، ومزلزل الجبال ومرسيها ، على بن الفضل إلى عبده فلان) واستمر أمره ثلاث عشرة سنة ثم دسوا له سمـــاً فمات سنة ثلاثمائة وثلاث سنين هـ (فرجة الهموم والحزن) ص ٢٢ ، كشف أسرار الباطنية ص ٢٠ .

(**) فى (الصليحون) ، هو أبو القاسم الحسن بن فرج بن حوشب وفى طائفة الإسماعيلية للدكتور محمد كامل حسين (الحسين بن حوشب) بالحاء المهملة . وفى (كشف أسرار الباطنية) : (أبو القاسم بن زاذان الكوفى) ص ٢٠ ، كان يدين بمذهب الإمامية الإثنى عشرية . وقد هيىء للدعوة الباطنية ، وأرسل هو وعلى بن الفضل إلى الكوفة لتلقى الدعوة من الإمام الباطن (المستور هناك) ورجعا إلى بلاد اليمن لنشر تلك الدعوة ، ويقال له منصور اليمن ، توفى فى اليمن سنة ٣٠٣ هـ . الصليحيون ص ٢٧ — ٤٨ .

(ميمون (*) القداح) فملك بعض الديار اليمنية ، واستوطن الحصن العظيم في مغارب اليمن ، وهو حصن مَسْوَرْ ونشر الدعوة الباطنية بالسيف كما نشرها (على ابن الفضل) ولكنه كان في إظهار الكفر والإلحاد دون على بن الفضل ثم بقيت بعده بقايا يتناوبون هذه الدعوة الملعونة ، يقال لهم الدعاة . ومنهم الملك الكبير (على بن محمد الصُّليحى) (**) القائم بملك غالب الديار اليمنية . وبقيت الدولة فيهم حيناً من الدهر ، ولكن الله حافظ دينه وناصر شريعته .

فإنه كان في جهات اليمن الجبالية ، دولة لأولاد (الإمام الهادى يحيى ابن الحسين) (***) رحمه الله ، فصاولوهم ، وجاولوهم ، وقاتلوهم في معركة بعد معركة ، وموطن بعد موطن حتى كفوهم عن كثير من البلاد ، وبقى الإسلام رسم ، وللدين اسم ، ولولا أن الله حفظ دينه بذلك لصارت اليمن بأسرها قرمطية

الأعـــلام

(*) من كبار دعاة الفاطميين وأشرف على الدعوة في مرحلة من أهم مراحلها ، ويقال إنه هو محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق الإمام المنتظر . الصليحيون ص ٢٧ — ٤٨ .

(**) هو رأس الأسرة الصليحية ، وأحد من ملكوا اليمن عنوة ، صحب دعاة الفاطميين باليمن ، ومال إلى مذهبهم ، وصار إماما فيه . ملك اليمن سنة ١٠٦٣ م توفى سنة ١٠٨١ م ، وقد ظلت أسرته (الصليحيون) تحكم اليمن إلى سنة ١١٣٧ م .

(***) قال فيه صاحب فرجة الهموم والحزن ، أمام اليمن محيى الفرائض والسنن الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم إلى على بن طالب عليهم السلام ، دعوته أيام المعتضد العباسى . مولده بالمدينة ٢٤٥ هـ وكان خروجه إلى اليمن سنة ٢٨٠ هـ ودخل صنعاء وجاهد طاغى القرامطة على بن الفضل وله تسعة وأربعون مؤلفا ، منها « الأحكام ، والمنتخب » توفى سنة ٢٩٨ هـ ص ٢١ .

باطنية . ثم جاءت بعد حين من الدهر دولة الإمام الأعظم (صلاح الدين محمد بن على)(*) وولده المنصور (على بن صـــلاح) فقلقلتهم وزلزلتهم ، وأخرجتهم من معاقلهم وشردتهم فى أقطار الأرض ، وسفكت دماءهم فى كثير من المواطن . ولم يبق منهم بعد ذلك إلا بقايا حقيرة قليلة ذليلة تحت أذيال التقية وفى حجاب التستر ، والتظهر بدين الإسلام إلى هذه الغاية .

والرجاء فى الله عز وجل ، أن يستأصل بقيتهم ، ويذهبهم بسيوف الإسلام وعزائم الإيمان ، وما ذلك على الله بعزيز[1] .

هذا ما وقع من هـذه الدعوة الملعونة فى الديار اليمنية ، وأما فى غيرها ، فأرسل ميمون القداح رجلا أصله من اليمن يقال له أبو عبدالله(**) الداعى إلى بلاد المغرب فبث الدعوة هنالك ، وتلقاها رجال من أهل المغرب من قبيلة كُتامة وغيرهم من البربر فظهرت هنالك دولة قوية .

---

(١) فى (ب) سقطت (وما ذلك على الله بعزيز) من الناسخ .

الأعــــلام

(*) هو المعروف بصـلاح الدين وتكنى بالناصر ، وكان قد اتصف بخصال الكمال وتسمر بل بحلل الفضائل والجلائل ولم يزل ناعشا للدين قامعا للبغاة المتمردين حتى توفى فى قصر صنعاء سنة ٧٩٣هـ ، وكان ولده على بن صلاح الدين قدترشح للأمر، وكان إمام جهاد ثم بويع وتوفى سنة ٨٤٠هـ ص ٤٠٦٣٩ المصدر السابق ، البدر الطالع للشوكانى ج ٢ ص ٢٢٦ ، ج ١ ص ٤٨٧ .

(**) ويقال له أبو عبد الله الشيعى أحد دعاة الشيعة ذهب إلى بلاد شمال أفريقيا لينشر الدعوة لعبيد الله بن محمد من نسل جعفر الصادق ، ونجح فى إقامة الدولة الفاطمية هناك على يد عبيد الله الملقب بالمهدى وطرد الحاكم من قبل الدولة العباسية .

ولم يتم لهم ذلك إلا بإدخال أنفسهم فى النسب الشريف العلوى الفاطمى .
ثم طالت ذيول هذه الدولة المؤسسة على الإلحاد ، واستولت على مصر ثم الشام ثم الحرمين ، فى كثير من الأوقات . وغلبوا خلفـــاء بنى العباس على كثير من بلادهم حتى أبادتهم الدولة الصلاحية [دولة][1] صلاح الدين بن أيوب .

فكان من أعجب الإتفاق أن القائم بعداوتهم ومحو دولتهم فى اليمن الإمام صلاح الدين وولده ، والقـائم بمحـو دولتهم فى مصر السلطان صلاح الدين(*) ابن أيوب . وظهرت من هذه الدعوة الإلحادية دولة القرامطة ، أبو طاهر(**) القرمطى ، وأبو سعيد القرمطى(***) ، ونحوهم ووقع منهم فى الإســلام وأهله من سفك الدماء ، وهتك الحرم ، وقتل حجاج بيت الله مرة بعد مرة ، ما هو معلوم لمن يعرف علم التاريخ ، وأحوال العالم .

---

(١) لعله من المستحسن أو من الواجب لسلامة الفهم والأسلوب إضافة كلمة (دولة) قبل كلمة صلاح الدين . وهذا سهو من المؤلف فى (أ) والناسخ فى (ب) .

الأعـــلام

(*) صلاح الدين الأيوبى .

(**) هو أبو طاهر سليمان الجنابى بن الحسن بن بهرام الجنابى رئيس القرامطة بالبحرين تولى بعد أبيه سنة ٣٠١ هـ فكانت له غزوات متتابعة إلى جهة البصرة سنة ٣٢١ هـ وفى سنة ٣١٥ هـ سار إلى الكوفة وفى سنة ٣١٧ هـ سار إلى البيت الحرام الخ ، محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية (الدولة العباسية) ص ٣٥٠ — ٣٥٣ .

(***) سقط من الناسخ فى (ب) (أبو سعيد القرمطى) . وهو الحسن الجنابى والد سليمان المتقدم مؤسس دولة القرامطة فى الأحساء على الجانب الغربى من الخليج الفارسى . أنظر تاريخ العرب . المجلد الثانى ص ٥٧١ لفيليب حتى . وتاريخ الأمم الإسلامية (الدولة العباسية) للخضرى ص ٣٥٠ .

وأفضى شرهم إلى دخول الحرم المكى ، والمسجد الحرام ، وقتلوا الحجاج فى المسجد الحرام حتى ملأوه بالقتلى ، وملأوا بئر زمزم ، وصعد شيطانهم القرمطى على البيت الحرام وقال :

ولو كان هذا البيت لله ربنـا لصب علينا النار من فوقنا صباً
لأنا حججنا حجة جاهلية ، محلاة[1] لم تبق شرقا ولا غربا

وقال مخاطبا للحجاج : ياحمير أنتم تقولون من دخله كان آمنا، ثم قلع الحجر الأسود وحمله معه إلى هجر .

فانظر ما وصلت إليه هذه الدعوة الملعونة ؟ ! .

ثم أطفأ الله شرهم ، وأخذتهم فى آخر المدة جيوش التتر الخارجين على الإسلام ، فكان فى تلك المحنة منحة أذهب الله بها هذه الطائفة الخبيثة . ثم ثم عاد الإسلام كما كان . ودخل فى الإسلام ملوك التتر ، وكانت العاقبة للدين ، ودفع الله عن الإسلام جميع المارقين منه والخارجين عليه « ومكروا ومكر الله والله خـــير الماكرين »[2] . « يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم »[3] .

وإنما قصصنا عليك ما قصصناه أيها الرافضى المعادى لصحابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولسنته ، ولدين الإسلام ، لتعلم أنه لا سلف لك إلا هؤلاء القرامطة والباطنية ، والإسماعيلية الذين بلغوا فى الإلحاد وفى كياد الإسلام ، ما لم يبلغ إليه أحد من طوائف الـكفر .

---

(١) أى دخلوا الحرم المكى بملابس الحل فى أشهر الحج ودون أن يحرموا.
(٢) سورة آل عمران آية : ٥٤ .
(٣) سورة البقرة آية : ٩ ، وفى الأصل : (أ)،(ب) أيضاً (وما يخادعون) وهو سهو من المؤلف والناسخ .

فإن عرفت أنك على ضـــلال مبين ، وغرور عظيم ، وأن سلفك الذين اقتديت بهم وتبعت آثارهم هم البالغون فى الكفر إلى هذه المبالغ التى لم يطمع[1] فيها الشيطان . فربما تنتبه من هذه الرقدة ، وتستيقظ من هذه الغفلة ، وترجع إلى الإسلام وتمشى على هديه القويم ، وصراطه المستقيم .

فإن أبيت إلا العناد ، والخروج من طرق الرشاد إلى طرق الإلحاد ، فعلى نفسها براقش تجنى ، ولا يظلم ربك أحدا ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ، واختر لنفسك ما يحلو .

كراهة الرافضة للصحابة أريد به هدم السنة :

واعلم أن لهذه الشنعة الرافضية ، والبدعـــة الخبيثة ذيلا هو أشر[2] ذيل وويلا هو أقبح ويل

وهو أنهم[3] لما علموا أن الكتاب والسنة ينادیان علیهم[4] بالخسارة ، والبوار بأعلا صوت ، عادوا السنة المطهرة ، وقدحوا فيها ، وفى أهلها بعد قدحهم فى الصحابة رضى الله عنهم وجعلوا المتمسك بها من أعداء أهل البيت ومن المخالفين الشيعة لأهل البيت .

فأبطلوا السنة المطهرة بأسرها ، وتمسكوا فى مقابلها ، وتعوضوا عنها بأكاذيب مفتراة مشتملة على القدح المكذوب المفترى فى الصحابة وفى جميع

---

(١) فى (ب) (يطع) .

(٢) فى (ب) (شر) .

(٣) فى (ب) (أنه) بدل أنهم وهو ضعف .

(٤) فى (ب) (عليهما) بدل عليهم والأسلوب لايقبله .

الحاملين السنة المهتدين بهديها ، العاملين بما فيها الناشرين لها في الناس من التابعين وتابعيهم إلى هذه الغاية وسموهم بالنصب[1] ، والبغض لأمير المؤمنين[2] علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، ولأولاده .

فأبعد الله الرافضة ، وأقماهم . أيبغض علماء السنة المطهرة هذا الإمام الذي تعجز الألسن عن حصر مناقبه مع علمهم بما في كتب السنة المطهرة من قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « لا يحبك إلا مؤمن ، ولا يبغضك إلا منافق » وما ثبت في السنة من أنه يحبه الله سبحانه ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم ؟ يا لهم الويل الطويل ، والخسار البالغ . أيوجد مسلم من المسلمين ، وفرد من أفراد المؤمنين بهذه المثابة ، وعلى هذه العقيدة الخبيثة ؟!! سبحانك هذا بهتان عظيم ، ولكن الأمر كما قلت :

قبيحٌ لا يماثله قبيحُ … لعمر أبيك دين الرافضينا
أذاعوا في علي كل نكر … وأخذوا من فضائله اليقينا
وسبوا لا رعوا أصحاب طه … وعادوا من عداهم أجمعينا
وقالوا دينهم دين قويم … ألا لعن الإله الكاذبينا

وكما قلت :

تشيع الأقوام في عصرنا … منحصر في أربع من بدع

---

(١) (النواصب ، والناصبية وأهل النصب) وهم المتدينون ببغضة سيدنا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) لأنهم نصبوا له أي عادوه ، وأظهروا له الخلاف ، وهم طائفة الخوارج . تاج العروس : مادة نصب .

(٢) في (ب) لا توجد (لأمير المؤمنين) .

عـــداوة السنة والثلب للأ   سلاف والجمع[١] وترك الجمع

وكما قال بعض المعاصرين لنا :

تعالوا إلينا إخوة الرفض إن تكن   لـكم شرعة الإنصاف ديناً كديننا
مدحنا علياً ، فوق ما تمدحونه   وعاديتم أصحاب أحمد دوننا
وقلتم بأن الحق ، ما تصنعونه   ألا لمن ارحمن منا أضلنـــا

نصيب العلماء العاملين من الولاية :

ومن جملة أولياء الله سبحانه الداخلين تحت قوله : « من عادى لى وليا » العلماء العاملون .

فهم كما قال بعض السلف إن لم يـكونوا هم أولياء الله سبحانه[٢] فما لله أولياء .

فإذا فتح الله[٣] عليهم بالمعارف العلمية ، ثم منحهم العمل بها ، ونشرها فى الناس ، وإرشاد العباد إلى ما شرعه الله لأمته ، والقيام بالأمر بالمعروف ، والنهى عن المنـكر ، فهذه رتبة عظيمة ، ومنزلة شريفة ، ولهذا ورد أنهم ورثة الأنبياء .

وهم الذين قال الله سبحانه فيهم : « يرفع الله الذين آمنوا منـكم والذين أوتوا العلم درجات »[٤] .

---

(١) أى الجمع بين الصلاتين فى الحضر كسلا وإهمالا وتراخيا عن أداء الصلاة فى وقتها .

(٢) فى (ب) لا يوجد (سبحانه) .

(٣) فى (ب) لا يوجد لفظ الجلالة (الله) .

(٤) سورة المجادلة آية : ١١ .

فبيان الرفعة لهم بأنها درجات يدل أبين دلالة ، وينادى أرفع نداء ، بأن منزلتهم عند الله سبحانه[1] منزلة لا تفضلها إلا منازل الأنبياء . وهم الذين قرن الله سبحانه شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته ، فقال : « شهد الله أنه لا إله إلا هو ، والملائكة ، وأولوا العلم »[2] وهم الذين قال الله سبحانه فيهم : « إنما يخشى الله من عباده العلماء »[3] فحصر خشيته التى هى سبب الفوز عنده عليهم حتى كأنه لا يخشاه غيرهم وهم الذين أخذ الله عليهم الميثاق ، أن يبينوا لعباده ما شرعه لهم فقال : « وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه »[4] فهم أمناء[5] الله سبحانه على شريعته .

وهم المترجمون لها لعباده المبينون لمراده

فكانوا من هذه الحيثية كالواسطة بين الرب سبحانه ، وبين عباده لما اختصهم الله به من ميراث النبوة .

وهذه منزلة جليلة ، ورتبة جميلة لا تعادلها[6] منزلة ولا تساويها مزية ، فحق على كل مسلم أن يعترف لهم بأنهم أولياء الله سبحانه ، وأنهم المبلغون عن الله وعن رسوله .

---

(١) فى (ب) لا توجد كلمة (سبحانه) .

(٢) سورة آل عمران آية : ١٨ .

(٣) سورة فاطر آية : ٢٨ .

(٤) سورة آل عمران آية : ١٨٧ .

(٥) للمؤلف رسالة مستقلة فى هذا الموضوع عنوانها (بحث فى الكلام على أمناء الشريعة) مخطوطة بمكتبة صنعاء رقم ٧ من مجموع (٥٩) .

(٦) فى (ب) (لا تعادله) وهو خطأ .

وأنهم القائمون مقام الرسل فى تعريف عباد الله بشرائع الله عز وجل ، إذا كانوا على الطريقة السوية ، والمنهج القويم . متقيدين بقيد الكتاب والسنة مقتدين بالهدى المحمدى ، مؤثرين لما فى كتاب الله سبحانه ، وفى سنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم على زائف الرأى ، وعاطل التقليد .

فهؤلاء هم العلماء المستحقون للولاية الربانية ، والمزية الرحمانية ، فمن عاداهم فقد استحق ما تضمنه هذا الحديث من حرب الله عز وجل له وإنزال عقوبته به ، لأنه عادى أولياء الله ، وتعرض لغضب الله عز وجل .

أسباب رسوخ العلماء العاملين فى الولاية :

١ — ومعلوم أن الانتفاع بعلماء هذه الأمة فوق كل انتفاع ، والخير الواصل منهم إلى غيرهم فوق كل خير ، لأنهم يبينون ما شرعه الله سبحانه لعباده ، ويرشدونهم إلى الحق الذى أمر الله سبحانه به ويدفعونهم عن البدع التى يقع فيها من جهل الأحكام الشرعية ، ويصاولون أعداء الدين الملحدين ، والمبتدعين ويبينون للناس أنهم على ضلالة ، وأن تمسكهم بتلك البدع إما عن جهل أو عن عناد ، وأنهم ليس بأيديهم شىء من الدين إلا مجرد تشكيكات يوقعون فيها المقصرين ، ويجذبونهم إلى باطلهم .

٢ — ومن أعظم فوائد علماء الدين لدين الله ولعباد الله أنهم يوضحون للناس الأحاديث الموضوعة المكذوبة على رسول الله[1] كما فعله طوائف من الملحدة ، والمبتدعة والزنادقة ، ويرشدونهم إلى التمسك بما صح من السنة .

٣ — وكذلك يوضحون للناس ما وقع من أهل الزيغ ، والعناد من تفسير

---

(١) فى (ب) (صلى الله عليه الخ) بعد (رسول الله) .

كتاب الله[1] بأهويتهم وعلى ما يطابق ماهم فيه من البدعة . وذلك كثير جدا يجده الباحث عنه في تفاسير المبتدعة المحرفين لما أراد الله سبحانه ، ولما فسره به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وما فسره به الصحابة والتابعون ومن بعدهم من علماء الدين ، وما تقتضيه اللغة العربية التي نزل بها القرآن الكريم . فقد ضل كثير من العباد بتحريفات أهل الأهواء وتلاعبهم بالكتاب العزيز ، ورده إلى ماقد دعوا إليه من الباطل المبين[2] ، والزيغ الواضح .

٤ — حمايتهم للأمة من التقليد :

وكذلك اغتر كثير من المقصرين بعلم الرأى ، وآثروه على كتاب الله سبحانه ، وعلى سنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، وهما اللذان[3] أمر الله سبحانه بالرد إليهما عند الاختلاف قال الله عز وجل : (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله وإلى الرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلا) :[4] ، والرد إلى الله سبحانه ، هو الرد إلى كتابه ، والرد إلى الرسول هو الرد إلى سنته بعد موته صلى الله عليه وآله وسلم بلاخلاف في ذلك .

بل قد ذهب جمع من العلماء إلى أن أولى الأمر هم العلماء ، ومنهم حَبْرُ

---

(١) (ب) توجد (عز وجل) بعد لفظ الجلالة .

(٢) في (ب) (البين) بدل المبين .

(٣) في الأصل (اللذين) وهو خطا نحوى .

(٤) سورة النساء آية : ٥٩ .

الأمة عبد الله بن عباس ، وجابر (*) بن عبد الله ، والحسن (**) البصرى ، وأبو العالية (***) ، وعطاء (****) بن أبى رباح ، والضحاك (*****)

الأعـــلام

(*) هو جابر بن عبدالله بن عمرو بن حرام شهد العقبة مع السبعين وشهد المشاهد كلها ماعـــدا بدرا وأحد وتوفى سنة ٧٨هـ بالمدينة . صفوة الصفوة ص ٢٦٧ جـ ٢ .

(**) قال عنه أبو نعيم صاحب حلية الأولياء : (ومنهم حليف الخوف والحزن . عديم النوم والوسن ، الفقيه الزاهد أبو سعيد الحسن بن أبى الحسن) وذكر له كتابا كتبه إلى عمر بن عبدالعزيز يدعوه فيه إلى التفكر والندم ويحذره من الدنيا ، استغرق خمس صفحات من كتاب الحلية : ومن كلامه ، (إن المؤمنين شهود الله فى الأرض يعرضون أعمال بنى آدم على كتاب الله ، فمن وافق كتاب الله حمدوا الله عليه وما خالف كتاب الله عرفوا أنه مخالف لكتاب الله ، وعرفوا بالقرآن ضلالة من ضل من الخلق) . جـ ٢ ص ١٣١ — ١٥٨ طبعة الخانجى سنة ١٩٣٣ .

(***) هو رفيع بن مهران الرياحى مولاهم البصرى المفسر دخل المدينة على أبى بكر وكان ابن عباس يرفعه على السرير وقريش أسفل ، وكان ذا أحوال قال فيه صاحب الحلية (ذو الأحوال السامية وكانت وصاياه فى لزوم الاتباع ومجانبة الإحداث والابتداع توفى سنة ٩٣هـ وقيل سنة ٩٠هـ) جـ ٢ ص ٢١٧ ، شذرات الذهب جـ ١ ص ١٠٢ .

(****) كان مولى من الموالى كانت الحلقة فى الفتيا بمكة فى المسجد الحرام لابن عباس وبعد ابن عباس ، عطاء ابن أبى رباح . توفى ١١٥هـ ص ١١٩ المصدر السابق جـ ١

(*****) هو الضحاك بن مزاحم البلخى الخراسانى أبو القاسم : مفسر كان يؤدب الأطفال . له كتاب فى التفسير . الأعلام جـ ٢ ص ٢١٠ .

ومجاهد(*) فى إحدى الروايتين عنه . وهو إحدى الروايتين عن أحمد ابن(**) حنبل . وقال أبو هريرة وزيد(***) بن أسلم ، والسُّدِّى(****) ومُقاتل(*****) : هم الأمراء وهو إحدى الراويتين عن أحمد بن حنبل .

وروى أيضاً عن ابن عباس أنهم الأمراء .

فعلى القول الأول فيه الأمر بطاعة العلماء بعد طاعة الله ورسوله . وعلى القول الثانى ، فمعلوم أن الأمراء إنما يطاعون إذا أمروا بمقتضى العلم ، فطاعتهم تبع لطاعة العلماء ، فإن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد صح عنه أنه قال : « إنمـا الطاعة فى المعروف »[1] والمعروف إنما يعرفه العلماء ، وصح عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال . « لاطاعة[2] فى معصية الله » . والفرق بين

---

(١) فى (ب) نسى الناسخ الحديث الآتى وما بعده (« إنما الطاعة فى المعروف » والمعروف إنما يعرفه العلماء . وصح عنه (صلى الله عليه وسلم) وآله (أنه قال . الخ) .

(٢) فى (ب) (لاطاعة لمخلوق الخ) بزيادة (لمخلوق) .

الأعـــلام

(*) مجاهد بن جبر من الموالى ، من العلماء فى تفسير القرآن فى المصدر الأول: توفى قبل سنة ١٠٢هـ .

(**) هو الإمام أحمد بن محمد بن حنبل الشيبانى أحد الأئمة الأربعة المشهورين: (١٦٤ — ٢٤١)هـ .

(***) زيد بن أسلم العدوى العمرى مولى فقيه مفسر من أهل المدينة . له كتاب فى التفسير رواه عنه ولده عبدالرحمن، توفى سنة ١٣٦هـ الأعلام جـ٣ ص٩٥

(****) هو إسماعيل بن عبدالرحمن السدى ، تابعى صاحب كتاب فى التفسير والمغازى والسير ، توفى سنة ١٢٨هـ الأعلام جـ ١ ص ٣١٣ .

(*****) مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدى بالولاء من أعلام المفسرين . توفى سنة ١٥٠هـ . الأعلام جـ ٨ ص ٢٠٦ .

الطاعة والمعصية إنما بمعرفة العلماء . فطاعة الأمراء لا تجب إلا إذا أمروا بما بينه لهم العلماء من أنه من المعروف غير المنكر ، ومن الطاعة غير المعصية .

قال الشافعي (*) رحمه الله فيما صح عنه : « أجمع المسلمون على أن من استبانت له سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، لم يكن له أن يدعها لقول أحد من الناس . قال أبو عمر بن عبد البر (**) : « أجمع الناس على أن المُقَلِّدَ ليس معدوداً من أهل العلم » .

فإن العلم معرفة الحق بدليله . فقد تضمن هذان الإجماعان ، إخراج المتعصب المقدم للرأى على كتاب الله ، أو سنة رسوله .

وإخراج المقلد الأعمى عن زمرة العلماء .

وقد قدم الأئمة الأربعة الحديث الضعيف على الرجوع إلى الرأى كما روى عن الإمام أبى حنيفة (***) ، أنه قدم حديث القهقهة فى الصلاة على محض القياس ، مع أنه وقع الإجماع من أئمة الحديث على ضعفه ، وقدم حديث الوضوء بنبيذ التمر على القياس ، وجمهور المحدثين يضعفونه وقدم حديث : « أكثر الحيض عشرة أيام » وهو ضعيف بلا خلاف بين أهل الحديث ، وقدم حديث « لا مهر دون عشرة دراهم » وهو ضعيف باتفاق المحدثين .

الأعـــلام

(*) أحد الأئمة الأربعة المشهورين محمد بن إدريس (١٥٠هـ — ٢٠٤هـ)

(**) هو يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبدالبر النمرى القرطبى ولد سنة ٣٦٨ من كبار حفاظ الحديث ، مؤرخ أديب ، وتوفى بشاطبة سنة سنة ٤٦٣هـ من كتبه (العقل والعقلاء) ، (جامع بيان العلم وفضله) الأعلام جـ ٩ ص ٣١٦ .

(***) هو الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان بن ثابت صاحب المذهب المشهور بين المذاهب الأربعة : (٨٠ — ١٥٠) .

وقدم الإمام مالك(*) بن أنس المرسل[1] ، والمنقطع[2] ، والبلاغات[3] ، وقول الصحابى على القياس . وقدم الشافعى حديث تحريم صيد وَجّ(**) على القياس مع ضعفه .

وقدم الإمام أحمد بن حنبل ، الضعيف ، والأثر المرسل ، وقول الصحابى على القياس .

---

(١) وهو الحديث الذى سقط منه الصحابى سواء أكان الراوى المرسل تابعيا كبيراً أم صغيراً . وهو ضعيف عند الإمام الشافعى فلا يحتج به ، صحيح عند أبى حنيفة ومالك ، فيحتج به عندهما .

(٢) هو ماسقط من رواته راو واحد قبل الصحابى فى الموضوع الواحد .

(٣) اصطلاح خاص بالأحاديث التى جاءت فى موطأ الإمام مالك ، فقد سقط فى سندها من طريقه هو ، راو ، أو أكثر ، ولكن حفاظ الحديث وصلوها من طرق أخرى غير طريقه انظر (تدريب الراوى) للسيوطى ، (وتاريخ فنون الحديث) لمحمد عبدالعزيز الخولى . وقارن : مقدمة (شرح النووى على صحيح مسلم) ، (والباعث الحثيث ، شرح اختصار علوم الحديث) للحافظ ابن كثير ، تاليف أحمد محمد شاكر .

الأعلام

(*) هو مالك بن أنس بن مالك بن أبى عامر الأصبحى احد الأئمة الأربعة المشهورين فى الفقه الإسلامى : (٩٥ — ١٧٩ هـ) .

(**) (و ج) اسم جبل بالطائف وفيه يقول الرسول (صلى الله عليه وسلم): « وإن آخر وطاة ، وطئها الله بوج » ، أى وطئها جند الله أو جند رسول الله ، وعند الشافعى يحرم صيد هذا الجبل ، ونباته ، ولكنه ، لاضمان فيها قطعاً : (المجازات النبوية) للشريف الرضى ص ٦٣ طبعة سنة ١٩٦٧م ، مؤسسة الحلبى وشركاه . (والإقناع فى حل ألفاظ أبى شجاع) ، للخطيب ج ١ ص ٢٤٨ طبعة مصطفى البابى الحلبى سنة ١٩٤٠م .

وأما الصحابة الذين هم خير القرون، [والتابعون][1]، وتابعوهم، فكانوا لا يفتون إلا بما صح من النصوص، وقد يتورعون عن الفتيا مع وجود النص كما هو منقول عن غالبهم فى كتب الحديث، والتاريخ .

ويغنى الحريص على دينه قول الله سبحانه : (قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن، والإثم والبغى بغير الحق، وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا، وأن تقولوا على الله مالا تعلمون)[2] .

فقرن التقول على الله بما لم يقل، بالفواحش، والإثم والبغى بغير الحق، والشرك بالله، وهذا زَجْرٌ لمن نصب نفسه الإفتاء أو القضاء، وهو غير عالم بكتاب الله وسنة رسوله، تقشعر له الجلود وترجف منه الأفئدة .

وهو يَعُمُّ التَّقَوُّلَ على الله سبحانه بلا علم سواء كان فى أسمائه أو صفاته أو أفعاله، أو فى دينه وشرعه .

وقال الله سبحانه : (ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون، متاع قليل، ولهم عذاب أليم)[3] . فنهاهم الله سبحانه عن الكذب عليه فى أحكامه، وقولهم لما لم يحرمه[4] : هذا حرام ولما لم يحل هذا حلال .

---

(١) فى (أ) (والتابعين وتابعيهم) وهو خطأ نحوى .

(٢) سورة الأعراف . آية : ٣٣ .

(٣) سورة النحل آية، ١١٦ .

(٤) وردت فى (ب) (لما تحرمه هذا حلال، ولما لم يحله هذا حلال الخ) فجاء أحد القارئين وشطب على كلمة « حلال » وكتب فوقها كلمة « حرام » فصار المعنى مضطربا .

وبين لهم أنه لا يجوز للعبد أن يقول هذا حلال وهذا حرام إلا إذا علم بأن الله سبحانه أحله وحرمه، وإلا كان متقولا على الله بما لم يقل.

ومعلوم أن المستدل بمجرد محض الرأى لا يعلم بما أحله الله وحرمه. فإن زعم ذلك فهو كاذب على الله تعالى، وعلى نفسه التى قادته إلى هذا الافتراء وأوقعته فى هذا الذنب العظيم. والمقلد يقر على نفسه أنه لا يعقل حجج الله ولا يفهم براهينه، ولا يدرى بما شرعه الله لعباده فى كتابه، وعلى لسان رسوله. بل هو تابع لرأى من قلده مقر على نفسه بأنه لا يدرى هل الرأى الذى قلده فيه من الحق أو من الباطل.

ومن الزواجر عن التمسك بمحض الرأى، وبحت التقليد، قول الله سبحانه: (قل أرأيتم[1] ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا، قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون)[2].

وقال الإمام الشافعى فيما رواه عنه الخطيب(*)، فى كتاب الفقيه، والمتفقه له: «لا يحل لأحد أن يفتى فى دين الله، إلا رجل عارف لكتاب[3] الله ناسخه ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه، وتأويله، وتنزيله، ومكيه ومدنيه، وبعد ذلك يكون بصيراً بحديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم،

---

(١) فى (أ) (أفرأيتم).
(٢) سورة يونس اية: ٥٩.
(٣) فى (ب) (بكتاب الله).

الأعلام

(*) هو أحمد بن على بن ثابت البغدادى أبو بكر المعروف بالخطيب، أحد الحفاظ المؤرخين المقدمين. ذكر له ياقوت أسماء (٥٦) كتابا من مصنفاته منها، (الكفاية فى علم الرواية) مصطلح الحديث، و (الفقيه والمتفقه) ولد سنة ٣٩٢ وتوفى سنة ٤٦٣ هـ الأعلام جـ ١ ص ١٦٦.

وبالناسخ ، والمنسوخ منه[1] ويعرف من الحديث مثل ما عرف من القرآن ، ويكون بصيراً باللغة ، بصيراً بالشعر ، ومايحتاج إليه ، للعلم والقرآن ، ويستعمل هذا مع الإنصاف .

ويكون مشرفاً على اختلاف أهل الأمصار ، ويكون له قريحة بعد هذا ، فإذا كان هكذا فله أن يتكلم فى الحلال ، والحرام ، وإذا لم يكن هكذا فليس له أن يفتى »[2] . انتهى .

الرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله فى مسائل الدين هو الطريقة العلمية :

والحاصل أن كل مالم يأت به الكتاب والسنة فهو من هوى الأنفس كما قال[3] الله سبحانه : (فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ، ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ، إن الله لايهدى القوم الظالمين)[4] .

فقسّم سبحانه الأمر إلى قسمين لاثالث لهما : إما الاستجابة لله[5] والرسول باتباع الكتاب والسنة ، أو اتباع الهوى .

فكل مالم يكن فى الكتاب والسنة فهو من الهوى ، كما قال تعالى : (ياداود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ، إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا

---

(١) فى (ب) لاتوجد (منه) بعد (الناسخ والمنسوخ) .
(٢) فى (ب) سقطت من الناسخ (أن يفتى) .
(٣) فى (ب) سقطت لفظ الجلالة (الله) من الناسخ .
(٤) سورة القصص آية : ٥٠ .
(٥) فى (ب) توجد كلمة (سبحانه) بعد لفظ الجلالة .

يوم الحساب)[١] .

فقسم سبحانه الحكم بين الناس إلى أمرين : إما الحكم بالحق الذى جاء به الكتاب والسنة ، أو الهوى ، وهو ماخالفهما .

وقال سبحانه لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم : (ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لايعلمون . إنهم لن يُغنُوا عنك من الله شيئاً ، وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض ، والله ولى المتقين)[٢] وقال سبحانه : (اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ، ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرون)[٣] .

وقد أجمع الناس سابقهم ولاحقهم أن الرد إلى كتاب الله سبحانه وإلى سنة رسوله[٤] ، هو الواجب على جميع المسلمين . ومن رد إلى غيرهما فهو عاص لله ورسوله مخالف للكتاب العزيز ، والسنة المطهرة .

ولا فرق بين التنازع فى الحقير والكثير . فإن قوله : فإن تنازعتم فى شىء . نكرة فى سياق الشرط ، وهى[٥] من صيغ العموم فتشمل كل مايصدق [عليه[٦]] الشىء من الأشياء الشرعية .

فالواجب عند التنازع فيه رده إلى ماأمر الله بالرد إليه بقوله فردوه إلى الله والرسول ، ثم قال : (إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر)[٧] . فجعل

---

(١) سورة ص آية : ٢٦ .
(٢) سورة الجاثية آية : ١٨ .
(٣) سورة الأعراف اية : ٣
(٤) فى (أ) لا توجد (صلى الله عليه وآله وسلم) .
(٥) فى (ب) و (هو) بدل (وهى) .
(٦) فى (أ) لا توجد (عليه) وهى لازمة لكمال المعنى .
(٧) سورة النساء اية : ٥٩ .

هذا الرد من موجبات الإيمان ، وعدمه من موجبات عدمه . فإذا انتفى الرد انتفى الإيمان .

وقال سبحانه : « وما كان لمؤمن ، ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم »[١] ، فأخبر سبحانه ، أنه ما صح ولا استقام لأحد من المؤمنين والمؤمنات أن يختار غير ما قضى به[٢] الله ورسوله وقال سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله ، واتقوا الله إن الله سميع عليم »[٣] : أى لا تقدموا بأقوالكم بين يدى قول الله ورسوله ، بل قولوا كما يقول الله[٤] ورسوله . ومعلوم أن فتيا المفتى بغير الكتاب والسنة وما يرجع إليهما [هى][٥] فتيا ، بالجهل الذى حذر منه صلى الله عليه وآله وسلم ، وأنذر به ، كما فى الصحيحين وغيرهما من قوله : « إن الله لا ينزع العلم بعد إذ أعطاكموه انتزاعا ، ولكن ينزعه مع قبض العلماء بعلمهم ، فيبقى ناس جهال يستفتون فيفتون برأيهم فضلون ويضلون » .

وفى حديث عوف بن مالك الأشجعى قال : قال رسول الله صلى الله[٦] عليه وآله وسلم : « تفترق أمتى على بضع وسبعين فرقة أعظمها فتنة قوم يقيسون الدين برأيهم يحرمون ما أحل الله ، ويحلون ما حرم الله » قال أبو عمر ابن عبد البر : « هـــذا هو القياس على غير أصل ، والكلام فى الدين

---

(١) سورة الأحزاب آية : ٣٦ .
(٢) (ب) سقطت (به) من الناسخ .
(٣) سورة الحجرات اية : ١ .
(٤) فى (ب) سقط من الناسخ : (بل قولوا كما يقول الله ورسوله) .
(٥) فى (أ) (هى) بين الواضحة والمشطوبة .
(٦) فى (ب) (صلى الله تعالى عليه الخ) بزيادة تعالى .

بالخرص والظنة »[1] .

وقد ثبت عن أكابر الصحابة الخلفاء الأربعة وغيرهم ذم الرأى ومقت العامل به ، وأنه ليس من الدين فى شىء .

وقد استوفى ذلك الحافظ ابن عبد البر فى كتاب (العلم)[2] ، وجمع مالم يجمعه غيره .

والرأى إذا كان فى معارضة أدلة الكتاب والسنة أو كان بالخرص والظن مع التقصير عن معرفة النصوص ، أو كان متضمناً تعطيل أسماء الله تعالى وصفاته ، أو كان مما أحدثت به البدع وغيرت به السنن ، فلاخلاف بين المسلمين فى أنه باطل وأنه ليس من الدين فى شىء .

وإذا كان مبنياً على قياس على دليل الكتاب والسنة ، فإن كان بتلك المسالك التى لا ترجع إلى شىء ، إنما هى مجرد تظنن وتخمين فهو أيضاً باطل . وإن كان مع القطع بنفى الفارق ، أو كان ثبوت الفرع بفحوى الخطاب أو كانت العلة منصوصة ، فهذا وإن أطلق عليه اسم القياس فهو داخل تحت دلالة الأصل مشمول بما دل عليه مأخوذ منه .

وتسميته قياساً إنما هو مجرد اصطلاح وقد أوضحت الكلام على هذا فى كتابى الذى سميته (إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول) .

---

(١) يورد أبو عمرو هذه العبارة للفقهاء فى ذمهم للقياس الخاطىء ، الذى لا يدور على العلة ، أو التشابه بين الأصل وبين الفرع . أنظر (جامع بيان العلم وفضله) جـ ٢ ص ٧٧ ، إدارة الطباعة المنيرية سنة ١٣٤٦ هـ .

(٢) هو (جامع بيان العلم وفضله) المتقدم . ينظر منه صفحات ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ١٣٣ — ١٤٥ .

حقيقة المقلد والتقليد وحكمهما :

وإذا عرفت ما ورد فى ذم الرأى وذم التقول على الله بما لم يقل فاعلم أن التقليد كما قدمنا ، إنما هو قبول رأى الغير دون روايته ، فالمقلد إنما يقال له مقلد فى اصطلاح أهل الأصول والفروع إذا وقع منه التقليد للعالم فى رأيه ، وأما إذا أخذ عنه الرواية عن[1] الحكم فى كتاب الله سبحانه أو فى سنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، فليس هذا من التقليد فى شىء . وإذا كان التقليد هو ما ذكرناه فهو مذموم من جهتين :

الأولى : أنه عمل بعلم الرأى ، وقد تقدم فى ذمه وعدم جواز الأخذ به ما تقدم .

الثانية : أنه عمل بالرأى على جهل لأنه مقلد لصاحب ذلك الرأى ، وهو لا يدرى أ كان ذلك الرأى من صاحبه على صواب أم على خطأ . باعتبار علم الرأى فإن له قوانين عند أهله من وافقها أصاب الرأى ومن أخطأها أخطأ الرأى ، والكل ظلمات بعضها فوق بعض .

وقد جاءت الأدلة القرآنية بذم تقليد الآباء فقال : « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ، ولا يهتدون »[2] . وقال سبحانه « وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية[3] من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة ، وإنا على آثارهم مقتدون ، قال أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم »[4] .

---

(١) فى (ب) (من) بدل عن .

(٢) سورة البقرة آية ١٧٠ .

(٣) فى (أ) و (ب) سقطت كلمة (كذلك) وكلمة (من قبلك

(٤) سورة الزخرف آية ٢٣ ، ٢٤ .

وقال عز وجل : (وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله ، قالوا بل نتبع[1] ماوجدنا عليه آباءنا)[2] .

وفى القرآن الكريم من هذا الجنس آيات كثيرة ، وهى وإن كان موردها فى الكفار ، فالمراد بها وبأمثالها ذم من أعرض عما أنزله[3] الله سبحانه ، وأخذ بقول سلفه . واللفظ أوسع مما هو سبب النزول والاعتبار به كما تقرر فى الأصول . فمن وقع منه الإعراض عما شرعه الله[4] ، وقدم عليه ما كان عليه سلفه فهو داخل تحت عموم هذه الآيات .

ومما يدل على ذم التقليد قوله سبحانه : (ولا تقف ماليس لك به علم)[5] والمقلد قد قفا ماليس له به علم . وقال سبحانه : (اتبعوا ما أنزل إليكم من ، ولا تتبعوا من دونه أولياء)[6] والمقلد لايدرى بما أنزل الله حتى يتبعه ، أى وهو غير ما أنزل الله ، واتبع من دونه من قلده فقد اتبع من والمقلد أيضا لاعلم له ، فإذا أخذ برأى من قلده كان ذلك من ر يقل ومن الرد إلى غير الله ورسوله ، وقد قال سبحانه : احش ماظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق به سلطانا ، وأن تقولوا على الله مالا تعلمون)[7] .

الناسخ وكتبا (حسبنا) بدل (بل نتبع) .

وقال : (فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول)[١] وقدمنا تقرير معنى الآيتين ومن ذلك قوله عزوجل : (وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا)[٢] .

قال أبو عمر بن عبد البر[٣] : « قد ذم الله تبارك وتعالى التقليد فى كتابه فى غير موضع فقال : (اتخذوا أحبارهم ، ورهبانهم أربابا من دون الله)[٤] روى عن حذيفة(*) وغيره أنهم قالو : لم يعبدوهم من دون الله ، ولكنهم أحلوا لهم وحرموا لهم فاتبعوهم وقال عدى(**) بن حاتم : يارسول الله إنا لم نتخذهم أربابا ، قال : بلى ، أليس يحلون لكم ماحرم الله عليكم فتحلونه ويحرمون عليكم ما أحل الله لكم فتحرمونه ؟ فقلت : بلى . قال : فتلك

---

(١) سورة النساء آية : ٥٩ .

(٢) سورة الأحزاب آية : ٦٧ .

(٣) فى (ب) زيدت (رحمه الله تعالى) وقول ابن عبد البر هذا جاء فى كتابه المتقدم ص ١٠٩ وص ١١٠ جـ ٢ .

(٤) سورة التوبة آية : ٣١ .

الأعلام

(*) هو حذيفة بن اليمان العبسى من كبار الصحابة . واسم اليمان حسيل بن جابر ابن عمرو بن ربيعة بن الحارث بن مازن . وحذيفة معروف فى الصحابة بصاحب سر رسول الله ﷺ مات سنة ٣٦ هـ . الإصابة فى تمييز الصحابة جـ ١ ص ٤١٨ ، الاستيعاب فى أسماء الأصحاب جـ ١ ص ٢٧٧ .

(**) عدى بن حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج الطائى . أمير صحابى كان رئيس طيىء فى الجاهلية والإسلام ، وقام فى حرب الردة بأعمال كبيرة . روى عنه المحدثون ستا وستين حديثاً . الأعلام جـ ٥ ص ٨ . وقول عدى هذا ، استمرار لكلام ابن عبد البر ، كما نقله عنه الشوكانى . انظر ص ١٠٩ (جامع بيان العلم) جـ ٢ .

عبادتهم ، أخرجه أحمد والترمذى قال: وفى هؤلاء ومثلهم قال الله عز وجل: (إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب. وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرأوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم)(١) وقال تعالى (ماهذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين (٢))(٣) . وقال سبحانه : (إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا)(٤) .

ومثل هذا فى القرآن كثير من ذم التقليد . وقد احتج العلماء بهذه الآيات على إبطال التقليد ، ولم يمنعهم كفر أولئك من الاحتجاج بها لأن التشبيه لم يقع من جهة كفر أحدهما (٥) وإيمان الآخر وإنما وقع التشبيه بين المقلدين بغير حجة للمقلد ، كما لو قلد رجلا فكفر ، وقلد آخر فأذنب ، وقلد آخر فى مسألة فأخطأ وجهها ، كان كل واحد ملوما على التقليد بغير حجة ، لأن كل تقليد يشبه بعضه بعضا ، وإن اختلفت الآثام فيه .

وقال عز وجل : وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم مايتقون)(٦) قال « فإذا بطل التقليد بكل ماذكرنا وجب التسليم

---

(١) سورة البقرة آية : ١٦٦ ، ١٦٧

(٢) فى (أ) زيادة بعد «عابدين» نصها كذلك يفعلون) والظاهر أن المؤلف قد كتبها أولا على أنها جزء من الآية أو أنها تكملة الآية ، ثم بدا له فكتب التكملة الصحيحة (آباءنا لها عابدين فى الهامش) ونسى أن يشطب عليها .

(٣) سورة الأنبياء آية : ٥٢ .

(٤) سورة الأحزاب آية : ٦٧ .

(٥) فى (أ) ، (ب) (أحدها) دون الميم وسياق الكلام يقتضينا أن نقول (أحدهما) .

(٦) سورة التوبة آية : ١١٥ .

للأصول التى يجب التسليم لها ، وهى : الكتاب والسنة وما كان فى معناهما بدليل جامع » .

قال : قال على : « إياكم والاستنان بالرجال فإن الرجل يعمل بعمل أهل الجنة ثم ينقلب لعلم الله فيه فيعمل بعمل أهل النار فيموت وهو من أهل النار ، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار فينقلب لعلم الله فيه فيعمل بعمل أهل الجنة فيموت وهو من أهل الجنة » قال : وقال ابن مسعود : « لا يقلدن أحدكم دينه رجلا إن آمن آمن ، وإن كفر كفر فإنه لا أسوة فى الشر » . قال أبو عمر[1] بن عبد البر : « وهذا كله نفى للتقليد ، وأبطال له لمن فهمه وهدى لرشده[2] » .

التقليد فى نظر العلم والمعرفة :

قال « قال أهل العلم والنظر : حد العلم التبين ، وإدراك المعلوم على ما هو به فمن بان له الشىء فقد علمه » ، قالوا : « والمقلد لا علم [له][3] لم يختلفوا فى ذلك » قال : « يقال لمن قال بالتقليد لم قلت به ، وخالفت السلف فى ذلك ؟ فإنهم لم يقلدوا ؟ . فإن قال [قلدت][4] لأن كتاب الله تعالى لا علم لى بتأويله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم أحصها ، والذى قلدته علم ذلك فقلدت من هو أعلم منى ؟

---

(١) فى (أ) و (ب) نسى المؤلف والناسخ (واو) (عمرو)

(٢) فى (ب) (وهدى برشده) وهو خطأ فى الأسلوب .

(٣) فى (أ) لا توجد (له) وهى لازمة لسلامة الأسلوب .

(٤) فى (أ) ، (ب) (قلت) ولكن قلدت هى الصحيحة كما يقتضى ذلك السياق ، وكما هو فى الأصل الذى نقل عنه الشوكانى . انظر : (كتاب جامع بيان العلم وفضله ج ٢ ص ١١٧ آخر سطر) الطبعة المتقدمة .

قيل له : « أما العلماء إذا أجمعوا على شيء من تأويل الكتاب وحكاية السنة أو اجتمع رأيهم على شيء فهو لاشك فيه ، ولكن قد اختلفوا فيما قلدت فيه بعضهم دون بعض ، فما حجتك فى تقليد بعضهم دون بعض ؟ وكلهم عالم ولعل الذى رغبت عن قوله أعلم من الذى ذهبت إلى مذهبه » .

فإن قال : قلدته لأنى أعلم أنه صواب ، قيل له : « علمت ذلك بدليل كتاب أو سنة أو إجماع ؟ فإن قال نعم أبطل التقليد وطولب بما ادعاه من الدليل . وإن قال قلدته لأنه أعلم منى ، قيل له فقلد كل من هو أعلم منك فإنك تجد من ذلك خلقا كثيراً ، ولا تخص من قلدته » .

ثم قال أبو عمرو[1] بن عبد البر بعد كلام ساقه : « ولكن من كانت هذه حاله هل تجوز له الفتيا فى شرائع دين الله فيحمل غيره على إباحة الفروج وإراقة الدماء ، واسترقاق الرقاب ، وإزالة الأملاك ، وتصييرها إلى غير من كانت فى يديه بقول لايعرف[2] صحته ، ولا قام له الدليل عليه وهو مقر ، أن قائله يخطىء ويصيب ، وأن مخالفه فى ذلك ربما كان المصيب فيما خالفه فيه ، فإن أجاز الفتوى لمن جهل الأصل والمعنى لحفظه الفروع لزمه أن يجيزه العامة وكفى بهذا جهلا وردا للقرآن قال الله عز وجل (ولا تقف ماليس لك به علم)[3] . وقال سبحانه : (أتقولون على الله مالا تعلمون[4]) ! وقد أجمع العلماء أن مالم يتبين ولم يستيقن فليس بعلم ، وإنما هو ظن والظن لايغنى من الحق شيئا .

---

(١) فى (أ) و (ب) (عمر) دون الواو .

(٢) فى (ب) (تعرف) .

(٣) سورة الإسراء : آية : ٣٦ .

(٤) سورة الأعراف آية : ٢٨ .

ثم قال : « ولا خلاف بين علماء الأمصار فى فساد التقليد ، ثم صرح بأن المقلد ليس من العلماء باتفاق أهل العلم »[1] .

موقف أئمة المسلمين من المقلدين :

وقد ذكرنا فى الرسالة التى سميناها : القول المفيد فى حكم التقليد ، نهى الأئمة الأربعة أئمة المذاهب الأربعة عن تقليدهم ، فلنذكر هاهنا طرفا من ذلك .

قال المُزَنى(*) فى أول مختصره : « اختصرت هذا من علم الشافعى ومن معنى قوله ، لأقربه على من أراده مع إعلامه[2] نهيه عن تقليده وتقليد غيره لينظر فيه لدينه ، ويحتاط لنفسه »[3] .

وحكى ابن القيم(**) عن أحمد بن حنبل أنه قال : « لاتقلدنى ، ولاتقلد

---

(١) انتهى من كلام ابن عبد البر باختلاف يسير ، ومع تقديم ، وتأخير : صفحات ١٠٩ — ١١٠ ، ١١٤ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ جـ ٢ إدارة الطباعة المنيرية سنة ١٣٤٦ هـ .

(٢) فى (أ) (إعلاميه) بهذا الرسم .

(٣) ص ٢٤ .

الأعلام

(*) من (١٧٥ - ٢٦٤ هـ) هو إسماعيل بن يحيى بن إسماعيل المزنى صاحب الإمام الشافعى من أهل مصر . كان زاهداً عالما مجتهداً قوى الحجة من كتبه : (الجامع الكبير) . و (الجامع الصغير) . و (المختصر) ، و (الترغيب فى العلم) الأعلام جـ ١ ص ٣٢٧ .

(**) هو محمد بن أبى بكر بن أيوب بن سعد بن حريز الزرعى الدمشقى المعروف بابن قيم الجوزية توفى سنة ٧٥١ كان تلميذا لابن تيمية واتجه فى تأليفه وجهته من جعل الكتاب والسنة هما المرجع الأول والأخير لكل فقيه أو متكلم

مالكا ، ولا الثورى(*) ، ولا الأوزاعى(**) ، وخذ من حيث أخذوا »(١).

قال « ومن قلة فقه الرجل أن يقلد دينه الرجال »(٢) . وحكى بشر(***) ابن الوليد عن أبى يوسف(****) القاضى صاحب أبى حنيفة أنه قال لا يحل لأحد أن يقول بمقالتنا حتى يعلم من أين قلنا .

---

(١) ص ٢٥ . (٢) ص ٢٥ .

الأعلام

وأنهما لا يتعارضان مع المعقول الصريح : من مؤلفاته اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية : الدرر الكامنة ، المنهل الصافى ، بغية الوعاة . جلاء العينين .

(*) سفيان بن سعيد الثورى، مسلم له فى الإمامة فى الحديث . كان من العلماء الزاهدين ولد بالكوفة سنة ٩٧ هـ وتوفى بالبصرة سنة ١٦١ هـ . الأعلام جـ ٣ ص ١٥٨ .

(**) عبد الرحمن بن عمرو بن محمد الأوزاعى إمام الديار الشامية فى الفقه والزهد، وأحد الكتاب المترسلين عرض عليه القضاء فامتنع. له كتاب (المسائل)، (السنن) فى الفقه ولد سنة ٨٨ هـ فى بعلبك وتوفى فى بيروت سنة ١٥٧ هـ الأعلام جـ ٤ ص ٩٤ .

(***) هو بشر بن الوليد الكندى ، الفقيه ، سمع مالك بن أنس،وتفقه بأبى يوسف ، كان متعبداً ، متمسكا بالحق ، توفى سنة ٢٣٨ هـ . الميزان للذهبى جـ ١ ص ٣٢٧ .

(****) يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصارى الكوفى البغدادى ، أبو يوسف صاحب الإمام أبى حنيفة وتلميذه ، وأول من نشر مذهبه . كان فقيهاً من حفاظ الحديث ، ولزم أبا حنيفة فغلب عليه الرأى ، وهو أول من وضع الكتب فى أصول الفقه على مذهب أبى حنيفة. الأعلام جـ ٩ ص ٢٩٢ . ولد سنة ١١٣ هـ وتوفى سنة ١٨٢ هـ.

وكذلك قال الإمام أبو حنيفة : وقد صح عن الشافعى أنه قال : أجمع الناس على أن من استبانت له سنة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن له أن يدعها لقول أحد وتواتر عنه أنه قال « إذا صح الحديث فاضربوا بقولى الحائط » .

وروى جعفر (٠) الفريابى عن مالك أنه قال : من ترك قول عمر بن الخطاب لقول إبراهيم النخعى (٠٠) أنه يستتاب فقيل له : إنما هى رواية عن عمر قال مالك يستتاب .

وإذا كان هذا قوله فى ترك قول عمر فما تراه يقول فى ترك الكتاب والسنة ؟ وتقديم قول عالم من العلماء عليهما ؟ .

والحاصل أن النقل عن السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن بعدهم فى المنع من العمل بالرأى ومن تقليد الرجال فى دين الله كثير جداً لا يتسع له هذا المؤلف . ويكفى من كان يؤمن بالله واليوم الآخر بعض ما قدمناه من آيات الكتاب العزيز .

تناقض المقلد مع نفسه :

فإن قال المقلد : قد دل على ذلك دليل قلناه له : « أنت تشهد على نفسك

الأعلام

(٠) جعفر بن محمد بن الحسن بن المستفاض الفريابى (٢٠٧ — ٣٠١)هـ . قاض من العلماء بالحديث . بقى من كتبه (صفة النفاق وذم المنافقين) و (دلائل النبوة) كان يحضر مجلسه ببغداد نحو عشرة آلاف . الأعلام جـ ٢ ص ١٢٢ .

(٠٠) إبراهيم بن يزيد بن قيس بن الأسود النخعى ولد سنة ٩٦ من أكابر التابعين صلاحا وصدق رواية وحفظا للحديث . مات مختفيا من الحجاج سنة ٩٦ هـ وكان إماما مجتهداً . الأعلام جـ ١ ص ٧٦ .

ويشهد عليك غيرك بأنك لا تعقل الحجة ؟ وأنك إنما تأخذ برأى غيرك دون روايته فالك والاستدلال ، وإقامة نفسك مقاما تقر عليها بأنك لست من أهله ، فأنت كالمتشبع بما لم يعط ، وكلابس ثوبى زور » .

فإن كنت تفهم حجج الله وتعقل براهينه، فما بالك[1] إذا أوردنا عليك الحجة من الكتاب أو السنة فى إبطال ما أنت عليه رجعت إلى الالتجاء بأذيال التقليد وقلت : إنك لست ممن يفهم الحجة ، ولا ممن يخاطب بها . فما بالك تقدم فى دين الله رجلا ، وتؤخر أخرى ؟ ! !

اعتمد على أيهما شئت حتى نخاطبك خطاب من أقمت نفسك فى مقامه . وعند ذلك يسفر الصبح لعينيك ، وتعلم أنك متمسك بحبل غرور . ومصاب بخدع زور .

ومع هذا فمن صرت تقلده دون غيره يقول لك لايجوز أن تقلده ، فأنت قلدته شاء[2] أم أبى ، ثم أخبرنا ماهو الحامل لك على تقليد هذا الشخص المعين من جملة علماء الدين ، ومنهم علماء الصحابة والتابعين ؟ ! فإن قلت : لكونه أعلم الناس فما يدريك أصلحك الله بالعلم[3] وبالأعلم وأنت تقر على نفسك أنه لاعلم لك ؟ . والمسلمون أجمعون يقولون : إنك لاتعد من أهل العلم ولا تدخل فى عداد أهله .

وأيضاً علماء الصحابة أعلم من صاحبك وكذلك علماء التابعين ، فكيف اخترت صاحبك عليهم ؟ .

---

(١) فى (ب) (فالك) .

(٢) فى (ب) (شيئاً رضى أم أبى) وهو تصحيف .

(٣) فى (ب) (ولا بالأعلم) .

ثم أخبرنا هل وجد فى أيام الصحابة . والتابعين مقلد لأحدهم أو لجماعة منهم ، بل لم تحدث بدعة التقليد إلا فى القرن الرابع ، ولم يبق إذ ذاك صحابى ولا تابعى .

ثم هذا الذى قلدته خالفه غيره من أهل العلم ، وقال بخلاف ما يقول ، فأخبرنا بم عرفت أن صاحبك الحق دون المخالف له[1] ؟ فإنك تقر على نفسك بأنك لاتعرف ما هو الحق ، ولا من الحق من أهل العلم ، وغيرك من المقلدين يعتقد مثل اعتقادك فيمن قلده فمن المحق منكما ؟ . ومن المصيب للحق من إماميكما ؟ .

إن قلتما[2] : لاندرى فما بالكما تقيمان أنفسكما مقام المستدلين بحجج الله وأنتما لاتعرفانها ولا تعقلانها بإقراركما على أنفسكما ؟ .

وإن قلتما قد عقلنا الحجة على جواز التقليد فقد فتح الله لكما خوخة من هذه العماية : ويسر لكما طريقاً إلى الرشاد فأقبلا إلينا نعرفكما ما أنتما عليه من التمسك بالتقليد فى دين الله والعمل بالرأى القابل[3] المخالف الأدلة الشرعية فإنه إن صح لكما مازعمتماه لاتخالفان فى أن الكتاب والسنة ترزان على ذلك الرأى الذى قلدتما غيركما فيه . وحينئذ قد نجح الدواء وقرب البرء من ذلك المرض الذى أصابكما ، وأيضاً نقول لهذا المقلد المسكين نحن نعلم ، وتعلم أنت إن بقى لك شىء من العقل و نصيب من الفهم أن علماء المسلمين من

---

(١) فى (ب) نسى الناسخ (له) .

(٢) فى (ب) (قلت) . وهو خطأ فى الأسلوب .

(٣) قال فى المنجد (قال يفيل فيلة وفيولة وفيلولة) رأيه : أخطأ ، وضعف فهو فايل الرأى . وفى (ب) نسى الناسخ نقطتا الياء ورسمها هكذا (القال) دون نقط الياء مع أن الشوكانى فى نسخته قد نقطها .

الصحابة ، والتابعين ومن بعدهم ومن المعاصرين لمن قلدته ومن بعدهم من أئمة العلم أن التجويز فيهم من التردد فيما جاءوا به ، واختاروه لأنفسهم مثل التجويز منك في إمامك . وهذا شيء يعرفه عقلاء المسلمين .

فما بالك عمدت إلى واحـــد منهم فقلدته دينك في جميع ما جاء به من الصواب والخطأ ؟ .

إن قلت لا أدرى فنقول : لا دريت . نحن نعرفك بالحقيقة

أنت ولدت في قطر قـد قلد فيه أهله عالماً من علماء الإسلام فدنت بما دانوا وقلت بما قالوا ، فأنت من الذين يقولون عند سؤال الملـكين سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته فيقال لك : لا دريت ولا تليت وكان الأحسن بك إن كنت ذا عقل وفهم وقد أخذت بأقوال[1] الإمام الذى قلدته أن تضم إلى ذلك قوله : « إنه لا يحل لأحد أن يقلده » فما بالك تركت هـذا من أقواله ؟ !

ثم اعلم أنك مسئول يوم القيامة عن دين الله هذا الذى أنزل به كتابه العزيز وبعث به نبيه الـكريم فانظر ما أنت قائل ، وبماذا تجيب ؟ إن قلت . أخذت بقول العالم فلان ، فهذا العالم فلان معك في عرصات القيامة مسئول كما سئلت متعبد بما تعبدك الله به

فإذا قلت : قلدت فلاناً وأخذت بقوله فعبدت الله سبحانه بما أمرنى به ، وأفتيت بما قاله وقضيت بما قرره ، فأبحت الفروج وسفـكت الدماء وقطعت الأموال . فإن قيل لك : فعلت هذا بحق أو بباطل ، فما أنت قائل ؟

وإن[2] قلت : فعلت ذلك بقول فلان فلا بد أن يقال لك : علمت أن

---

(١) فى (ب) (يقول) .
(٢) فى (ب) (فإن) .

قوله صواب موافق لما شرعه الله لعباده فى كتابه وسنة رسوله فلابد أن تقول: لا أدرى فلا دريت ، ولا تليت ، ثم قيل لك فى عرصات القيامة أى دليل لك على تخصيص هذا العالم بالعمل بجميع ما قاله ، وتأثيره على قول غيره بل على الكتاب والسنة ، هل بعثته نبياً لعبادى بعد محمد بن عبد الله رسولى ؟ أم أمرت عبادى بطاعته كما أمرت عبادى باتباع رسولى ، فانظر ما أنت قائل . فإن هذا سؤال لا بد أن تسأل عنه ، فإن الله سبحانه إنما بعث إلى عباده رسولا واحداً ، وأنزل إليهم كتاباً واحداً ، وجميع الأمة أولها وآخرها ، سابقها ولاحقها ، متعبدون بما شرعه لهم الله سبحانه فى كتابه ، وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وآله وسلم .

ومن جملة من هو متعبد بهذه الشريعة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فكيف بإمامك الذى هو واحد من العالم ، وفرد من أفراد البشر ؟ ! سبحانك هذا بهتان عظيم

منهج الصحابة والتابعين :

ثم انظر يا مسكين فى أمر آخر ، وهو أنه قد انقضى ، قبل حدوث هذه المذاهب . خير القرون ثم الذين يلونهم ، ومعلوم لكل من له فهم أنهم كانوا على العمل بالكتاب والسنة ، وكان المقصرون منهم يسألون العلماء عن الحكم الذى يعرض لهم فى عبادة أو معاملة ، فيجيبون عليهم بما عندهم من الكتاب والسنة ويروون لهم ما ورد فيهما فى تلك المسألة . وأنت تقر بأنهم على هدى وحق ، فانظر فى حال من خالف ما كانوا عليه من أهل التقليد الحادث ، واجعل نفسك حيث شئت ، واختر لها ما يحلوا .

فإن قلت إمامى قد كان كما كان عليه هؤلاء ، قلنا لك فهل شاركه فى ذلك غيره أم لا ، فإن قلت نعم ، قلنا لك فما حملك على الأخذ بقول واحد من

أهل العلم دون غيره مع نهيه لك عن تقليده ؟!!

ويقال لهذا المقلد أيضاً إذا أخبرك عالم من علماء الإسلام بأن ما قلدت أمامك فيه فى المسألة الفلانية، خلاف ما فى كتاب الله أو خلاف ما فى سنة رسوله، او خلاف ما كان عليه الصحابة والتابعون، فهل أنت تارك لذلك الرأى الذى أخذت به من رأى إمامك أم لا ؟

إن قلت نعم فقد هديت ورشدت، ولا نطالب منك غير هذا. فانظر ما عند أكابر علماء عصرك فى تلك المسألة التى قلدت إمامك فيها، واسألهم عن الدليل، وعما هو الحق المطابق للكتاب والسنة، واعمل على قولهم، وعلى ما يرشدونك إليه، ولا تسأل، إلا من اشتهر بين الناس بمعرفة الكتاب والسنة.

وإن قلت لا، فاعرف ما أنت عليه، وما هو الأمر الذى وقعت [فيه][1] واعترف على نفسك بأن رأى إمامك أقدم من كتاب الله[2] ومن سنة رسوله[3]، وبعد ذلك انظر بعقلك هل أوجب الله عليك أتباع هذا العالم، والأخذ بجميع ما يقوله ؟!!! وأقل حال أن تسأل علماء الدين فى هذه المسألة بخصوصها فإنه ينفتح لك عند ذلك باب خير وطريق رشد

فإن أبيت فاعلم أنك قد جعلت إمامك ناسخاً للشريعة المحمدية رافعاً لها، وليس بعد هذا من الضلال شيء، وأنت إن انصفت اعترفت بهذا، ولم تنكره[4] فإن أنكرته فأخبرنى متى آثرت دليلا من كتاب، أو سنة على

---

(١) فى (أ) لا توجد (فيه) وهى لازمة لتمام الكلام.

(٢) فى (ب) توجد (عز وجل) بعد لفظ الجلالة.

(٣) فى (ب) صلى الله عليه واله وسلم بعد (رسوله).

(٤) فى (ب) لا توجد (فإن أنكرته).

قول إمامك وسألت علماء الكتاب والسنة عن مسألة مما أنت عليه ورجعت إلى ما أفتوك به، ورأوه لك ؟!!!.

فإن قلت : أنت لا تعرف الحجة ولا تعقلها، ولا تدري هل الصواب بيد إمامك، أو بيد من خالفه، قلنا : فأخبرنا هل أنت على قصورك وجهلك لا يسعك، ما وسع المقصرين من الصحابة والتابعين ؟؟!!! فقد كان فيهم من هو كذلك.

فإن قلت : وما كانوا يصنعونه إذا احتاجوا إلى العمل في عبادة أو معاملة؟ قلنا : كانوا يسألون المشتهرين بالعلم عن الشريعة في تلك المسألة، ويسترووتهم النصوص فيروونها لهم.

فكن كما كانوا، واعمل كما عملوا. وإن قلت : لا يسعك ما وسعهم فلا وسع الله عليك. وستعلم سوء مغبة ما أنت فيه وخسار[1] عاقبته ولا يظلم ربك أحدا.

معنى الاقتداء بالصحابة، وموقف المقلد من ذلك :

وقد احتج بعض متعصري المقلدة لجواز التقليد بحديث «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم».

وهذا الحديث لم يصح عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، كما هو معلوم عند أهل هذا الشأن، فقد اتفقوا على[2] أنه غير ثابت، ولو سلمنا ثبوته تنزلا فمعناه ظاهر واضح، وهو الاقتداء بالصحابة في العمل بالشريعة التي تلقوها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأخذوها عنه، فمن اقتدى

---

(١) في (ب) (وخسارة).
(٢) في (ب) لا توجد (على).

بواحد منهم فيما يرويه منها عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقد اهتدى ورشد ودخل إلى الشريعة من الباب الذى يدخل إليها منه .

وليس المراد الاقتداء به فى رأيه ، فإنهم رضى الله عنهم لا رأى لهم يخالف ما بلغهم من الشريعة قط .

رأى العالم عند فقد الدليل رخصة له فقط :

ولو كان مثل هذا حجة فى الاقتداء بما ينقل عنهم من الرأى الراجح إلى الكتاب والسنة بقياس صحيح أو نحوه لكان ذلك خاصاً بالصحابة للمزية التى [لا يساويهم فيها غيرهم][1] ولا يلحق بهم سواهم ، مع أنه وقع الإجماع من علماء الإسلام جميعاً أن أرى العالم عند فقد الدليل إنما هو رخصة له لا يحل لغيره العمل به حسبما قد بيناه ، فى مؤلفاتنا بأتم بيان ونقلناه أصح نقل .

ثم بعد الثنيا والتى نقول لهذا المستدل بهذا الحديث الذى لم يصح : هب أنه صحيح فهل قلدت صحابياً أم غير صحابى ، وعند ذلك يقف حماره على القنطرة .

ومثل هذا لو استدل مستدل منهم بحديث « عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى » .

فإن المراد به الاقتداء بهم فى أقوالهم وأفعالهم ، وفى عباداتهم ، ومعاملاتهم ، وهم لا يوقعونها إلا على الوجه الذى أخذوه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وعرفوه من أفعاله وأقواله ، وقد كان ذلك ديدنهم وهجيراهم لا يفارقونه قيد شبر ، ولا يخالفونه أدنى مخالفة

---

(١) فى (أ) و (ب) : (لا يساويها غيرهم) وهو غير مستقيم .

فهذا هو المراد بالحديث على ما فيه من المقال ، فإن فى إسناده مولى الربعى[1] وهو مجهول ، والمفضل الضبي * وليس بحجة .

ثم بعد الثنيا والتى نقول للمستدل بذلك فهل قلدت أحد الخلفاء الراشدين أم قلدت غيرهم ؟ .

وهو لا بد أن يعترف أنه قلد غيرهم ، وأنه أبعد الناس عن اتباع ما كانوا عليه ، وأنه لو جاءه من هديهم الذى كانوا عليه بجلد ضخم يخالف أدنى مسألة مما قلد فيها إمامه لرمى به وراء الحائط ، ولم يلتفت إليه ولا عول[2] عليه .

ثم إذا صح هذا الحديث ففيه الإرشاد إلى سنته صلى الله عليه وآله وسلم وسنة خلفائه الراشدين . ومعلوم أن ما كان قد ثبت من سنته لا يخالفه الخلفاء الراشدون ولا غيرهم من الصحابة .

بل هم عليه وليس لهم سنة تخالف ما سنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قط ، ولا سمع عن واحد منهم فى جميع عمره أنه خالف سنة ثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

---

(١) فى (أ) بهذا الرسم (لربعى) .

الأعـــلام

(*) قال عنه صاحب الأعلام : المفضل بن محمد بن يعلى بن عامر الضبي أبو العباس راوية علامة بالشعر والأدب وأيام العرب صاحب المفضليات وأوثق من روى الشعر من الكوفيين . توفى سنة ١٦٨ هـ على ما يقال . الأعلام جـ ٨ ص ٢٠٤ .

(٢) فى (ب) (يعول) .

منهج الاجتهاد، هو منهج الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه :

وإذا عرفت هذا فقد قدمنا من الآيات القرآنية، والأحاديث[١] الصحيحة ما هو منهج الحق، ومهيع الشرع، وهو الأمر الذى كان عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وخلفاؤه الراشدون، وبه تقوم الحجة على كل مسلم، ومن سننه صلى الله عليه وآله وسلم الصحيحة[٢] الثابتة المتلقاة بالقبول قوله صلى الله عليه وآله وسلم « كل أمر ليس عليه أمرنا فهو رد ».

وكل عاقل له أدنى تعلق بعلم الشريعة المطهرة يعلم علما[٣] لا شك فيه ولا شبهة أن التقليد لم يكن عليه أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وأنه حادث بعد مضى عصره صلى الله عليه وآله وسلم، وعصر أصحابه وعصر التابعين لهم. فهو رد، أى[٤] مردود مضروب به وجه صاحبه.

فإنا نعلم أن الذى كان عليه أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو العمل بكتاب الله سبحانه ثم بما سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وبينه للناس عن[٥] أمر الله كما قال : « إن هو إلا وحى يوحى »[٦]. وقال : « ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا »[٧]. وقال : « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول »[٨] وقال : « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى

---

(١) فى (ب) (الأخبار).
(٢) فى (ب) سقطت من الناسخ (الصحيحة).
(٣) فى (ب) توجد (يقينا قبل لا شك فيه).
(٤) فى (ب) سقطت (أى) من الناسخ.
(٥) فى (ب) (من).
(٦) سورة النجم آية : ٤.
(٧) سورة الحشر آية : ٧
(٨) سورة المائدة آية : ٩٢.

يحببكم الله »[1]. وقال « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة »[2].
وقال: « فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول الآية »[3]. وقال:
« إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم[4] أن يقولوا
سمعنا وأطعنا »[5] وقال: « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر
بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما »[6]. وقد
تقدم الكلام على بعض هذه الآيات الكريمة.

ومن سنته صلى الله عليه وآله وسلم التى قال فيها: « عليكم بسنتى وسنة
الخلفاء الراشدين » قوله صلى الله عليه وآله وسلم: « كل بدعة ضلالة ».
والتقليد بدعة لا يخالف فى ذلك مخالف، ولا يشك فيه شاك. فيا أيها المقلد
انزع عن غوايتك، واخرج عن ضلالتك وخلص نفسك من بدعتك. ودع
عنك التعلق بما لا يسمن ولا يغنى من جوع.

فهذا الحق ليس به خفاء ودعنى من بُنَيَّاتِ[7] الطريق
خير الأمور السالفات على الهدى وشر الأمور المحدثات البدائع

فهكذا[8] نقول فى حديث « اقتدوا بالذين بعدى أبو بكر وعمر ».
وحديث « رضيت لأمتى ما رضى لها ابن أم عبد » وحديث: « إن أبا عبيدة

---

(١) سورة آل عمران آية: ٣١
(٢) سورة الأحزاب آية: ٢١.
(٣) سورة النساء آية: ٥٩
(٤) فى (ب) سهى الناسخ عن (ليحكم بينهم)
(٥) سورة النور آية: ٥١.
(٦) سورة النساء آية: ٦٥:
(٧) بنيات الطريق بضم الباء وفتح النون: الترهات والأباطيل.
(٨) فى (ب) (وهكذا).

ابن الجراح[1] أمين هذه الأمة » ونحو ذلك من الأحاديث .

فالمراد الاقتداء بمن أمرنا[2] بالاقتداء به فى أقواله وأفعاله الواردة على الشريعة المطهرة ، وكذلك الرضى بما رضيه[3] ابن مسعود من الأفعال والأقوال الواردة على ما توجبه الشريعة المطهرة .

وكذلك كون أبى عبيدة بن الجراح أمين هذه الأمة هو[4] لما اختصه الله سبحانه به من عظم الأمانة على الأمور التى من أعظمها هذا الدين القويم والشريعة المباركة .

المطلوب من المقلد ومن عوام المسلمين :

وقد عرفت ما قدمناه من أنا لا نكلف المقلد أن يعرف نصوص الشريعة حتى يقول : لا أقدر على ذلك ولا أستطيعه ، بل قلنا له دع[5] هذه البدعة الحادثة ، وكن كما كان المقصرون من الصحابة [والتابعين] الذين اشتغلوا

(١) غلط المؤلف فوضع عبدالرحمن بن عوف بدل أبى عبيده فى هـــذا الموضع والموضع الآتى ، وكذلك الناسخ فى (ب) نقل على هذا الخطا . فجاء أحد القارئين وفطن إلى هذا الخطا فصححه فى الأول وسها عنه فى الثانى ، والحديث كما هو فى فتح البارى على صحيح البخارى لابن حجر : « .. عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن لكل أمة أميناً ، وإن أميننا أيتها الأمة أبو عبيدة بن الجراح » جـ ٧ ص ٧٥ باب فضائل الصحابة (رضى الله عنهم) .

(٢) فى (ب) (أمر) .

(٣) فى (ب) (رضى به) .

(٤) (ب) نسى الناسخ (هو) .

(٥) فى (ب) توجد (عنك) بعد دع .

(٦) فى (ب) و (أ) ، (التابعون) ولكن (التابعين) أوفق لاستقامة المعنى الذى يقصده الشوكانى .

عن حفظ العلم ، والبلوغ إلى غايته بالأعمال الصالحة من جهاد أو عبادة . ولك بهم أسوة وفيهم لك قدوة ، فاسأل أهل العلم كما أمرك الله بسؤالهم بقوله : « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » .

واطلب منهم أن يرووا لك ما جاءت به الشريعة فى الحادثة التى احتجت إلى السؤال عنها من عبادة أو معاملة .

وكل عالم يعلم وإن قل علمه — أنه لم يكن فيهم أحد منتسبا إلى أحد من كبار الصحابة الذين كانوا يروون للناس العلم ويفتونهم به ، كما ينسب بعد حدوث المذاهب كل مقلد إلى من قلده ، بل كان السائل منهم يسأل من يلقاه من المشتهرين بالعلم منهم على كيف ما يتفق له ويأخذ[1] ما يرويه له ، ويفتيه به ، وقد قدمنا الإشارة إلى هذا .

الاجتهاد ووحدة الأحكام :

وينبغى أن يعلم كل من له فهم أن دين الله واحد ، وأن ما أحله فهو حلال لا يتغير عن صفته ، وما حرمه فهو حرام لا يتغير .

وإذا قال قائل من أهل العلم فيما قد أحله بكتابه أو بسنة رسوله أنه حرام فهو مخطىء مخالف لما شرعه الله لعباده وإذا قال قائل من أهل العلم فيما قد حرمه الله سبحانه : إنه حلال ، فهو مخطىء آثم مخالف لما شرعه الله لعباده . ولكن هذا القائل الذى قال بخلاف ما تقرر فى الشريعة ، وإن كان أهلا للاجتهاد وقد بحث كاية البحث فلم يجد فهو مخطىء مأجور كما فى الحديث الصحيح الذى قدمنا ذكره أن المجتهد مع الإصابة أجرين ، والمجتهد مع الخطأ أجراً ، وهو حديث متفق عليه متلقى بالقبول .

(١) فى (ب) (يأخذ) .

وإن كان غير أهل للاجتهاد ، أو لم يبحث كما يجب عليه فهو مجازف فى دين الله آثم بمخالفته لما شرعه الله[١] لعباده .

فمن قال إن كل مجتهد مصيب [إن] أراد أنه مصيب[٢] للحق فقط فغلط غلطاً بيناً ، فإنه جعل حكم الله سبحانه متناقضاً متخالفاً لأنه إذا قال قائل هذا حرام ، وقال آخر هذا حلال ، كان حكم الله تعالى فى تلك العين عنده أنها حلال حرام . وهذا باطل من القول ، وزائف من الرأى ، وفاسد من النظر ، فإنه مع كونه باطلا فى نفسه يتنزه الله عز وجل عنه ، هو أيضا خلاف ما عند أهل العلم .

وإن أراد أنه مصيب بمعنى أنه يستحق أجرا على اجتهاده وإن أخطأ ، فهذا معنى صحيح ، ولكنه إطلاق لفظ يخالف ما أطلقه عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حيث قال : وإن اجتهد فأخطأ فله أجر ، فلا ينبغى أن يطلق لفظ المصيب عليه ، وإن كان لمن أطلق هذا اللفظ إرادة صحيحة . بل ينبغى أن يقال كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من وصفه بالخطأ مع استحقاق الأجر . أو يقال : إنه مخطىء مأجور .

وكما أن هذا الإطلاق لايحسن لما فيه من شبه الرد[٣] على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وإن كان له إرادة[٤] صحيحة ، كذلك لايجوز أن يقال فى شأن هذا المخطىء كما يقول بعض أهل الأصول : إنه مخطىء آثم ، فإن هذا

---

(١) فى (ب) (سبحانه) بعد لفظ الجلالة .
(٢) فى (ب) سقط من الناسخ : (إن أراد أنه مصيب) وفى (أ) (أى) بدل (إن) ولكن (إن) أولى لكى يستقيم الأسلوب كما سيأتى بعد .
(٣) فى (أ) تكررت (الرد) وهو سهو من المؤلف .
(٤) فى (أ) سهى المؤلف عن التاء المربوطة وكتبها هكذا (إراد) .

قول بالجهل ، ومخالفة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فإنه أثبت له الأجر وهذا القائل أثبت له الإثم .

وأما قول من قال من أهل الأصول : إنه مخطىء مخالف الأشبه عند الله فهو قول صواب ، لأنه مع الخطأ قد خالف الحق ، إذا كان يريد بالأشبه ماهو الحق عند الله .

وإن كان يريد غير هذا المعنى كأن يريد بالأشبه الأقرب ، فهو كلام غير صحيح ، لأنه لاقرب لخلاف الحق حتى يكون الحق أقرب منه .

وعلى كل حال ، فالأحسن أن يقال فى مخطىء الحق ماقاله رسول الله[1] مخطىء له أجر .

والبعيد كل [البعد][2] عن الحق قول من قال : إن كل مجتهد مصيب من الإصابة ، وإن كل واحد من العلماء قد أصاب الحق الذى يريده الله سبحانه ، فإنهم قد جعلوا مراد الله عز وجل[3] أمراً دائراً بين اجتهادات المجتهدين إلى يوم القيامة ، فكل مجتهد إذا اجتهد فذلك الاجتهاد هو مراد الله من العباد ، وإن خالف اجتهاد غيره ، وناقضه كما تقدم .

منطق المقلدين هو منطق السوفسطائيين :

وما أشبه القائل بهذه المقالة بالفرقة التى يقال لها الفرقة السوفسطائية فإنهم جاءوا بما يخالف العقل فلم يعتد بأقوالهم أحد من علماء المعقول لأنها بالجنون أشبه منها بالعقل .

---

(١) فى (ب) بعد رسول الله يوجد (صلى الله عليه . الخ) .
(٢) فى (أ) ، (ب) (كل البعيد) وهو سهو من المؤلف ثم سهو من الناسخ .
(٣) فى (ب) سقط من الناسخ (عز وجل) .

وهم ثلاثة فرق : عِنديّة ، وعِنادية ، والأدَرية[1] .

فالعندية : إذا قيل لأحدهم أنت موجود ، قال القائل : عندك لا عندى .

والعنادية : إذا قيل لأحدهم أنت موجود قال : لا ، فإذا قيل له ماهذا الشبح الذى أراه والكلام الذى أسمعه منه والجرم الذى ألمسه ، قال : لاشىء ولا وجود لى .

وأما الأدرية : فإذا قيل لأحدهم أنت موجود ، قال : لا أدرى .

وقد صرح علماء المعقول أن هؤلاء لا يستحقون جواباً إلا الضرب لهم حتى يعترفوا ؛ لأنهم لايقبلون حجة ، ولا يسمعون برهاناً .

ومن عجيب صنع المقلدة أنهم يقبلون ممن ينتسب إلى مذهبهم الترجيح بين الروايتين لإمامهم ، وإن كان ذلك المرجح مقلداً غير مجتهد ، ولا قريب من رتبة المجتهد .

ولو جاء من هو كإمامهم أو فوق إمامهم وأخبرهم عن الراجح من ذينك القولين لم يلتفتوا [إليه][2] ، ولا قبلوا قوله ولو عضد ذلك بالآيات المحكمة والأحاديث المتواترة ؛ بل يقبلون من موافقيهم مجرد التخريج على مذهب إمامهم ، والقياس على ماذهب إليه ويجعلونه ديناً ويحلون به ويحرمون .

فيالله وللمسلمين مع علم كل عاقل أن الرب واحد ، والنبي واحد ، والأمة واحدة والكتاب واحد !! .

---

(١) فى (ب) (الآدرية) . وصحتها : « اللا أدرية » ينظر ص ١٣٥ من كتاب (الله للعقاد . وهم قوم من الشكاك ، وآراؤهم منتشرة فى كتب الكلام والفلسفة ، ينظر ص ٤١ من كتاب نشأة الفكر الفلسفى فى الاسلام للدكتور على سامى النشار . الطبعة الأولى سنة ١٩٥٤ .

(٢) فى (أ) و (ب) (عليه) .

وبالجملة فكل من يعقل لا يخفى عليه أن هذه المذاهب قد صار كل واحد منها كالشريعة عند أهله يذودون عنه كتاب الله وسنة رسوله ، ويجعلونه جسراً يدفعون به كل مايخالفه كائناً ما كان .

سد باب الاجتهاد نسخ للشريعة :

والعجب أن هؤلاء مكاسير المقلدة لم يقفوا حيث أوقفهم الله من القصور وعدم العلم النافع ، فقاموا على أهل العلم قومة جاهلية . وقالوا : باب الاجتهاد قد انسد وطريق الكتاب والسنة قد ردمت .

وهذه المقالة من هؤلاء الجهال تتضمن نسخ الشريعة وذهاب رسمها وبقاء مجرد اسمها وأنه لا كتاب ولا سنة لأن العلماء العارفين بهما إذا لم يبق لهم سبيل على البيان الذى أمر الله سبحانه[1] عباده به بقوله : (وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتو الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه)[2] . وبقوله : (إن الذين يكتمون ما أنزلنا — إلى قوله — أولئك يلعنهم الله)[3] .

فقد انقطعت أحكام الكتاب والسنة ، وارتفعت من بين العباد ، ولم يبق إلا مجرد تلاوة القرآن ودرس كتب السنة ، ولا سبيل إلى التعبد بشىء مما فيهما .

ومن زعم عند هؤلاء الجهلة أنه يقضى أو يفتى بما فيهما أو يعمل لنفسه بشىء مما اشتملا عليه فدعواه باطلة وكلامه مردود .

فانظر إلى هذه الفاقرة العظمى والداهية الدهياء[4] والجهالة والجهلاء

(١) فى (ب) (تعالى) بدل سبحانه .
(٢) سورة آل عمران آية : ١٨٧ .
(٣) سورة البقرة آية ١٥٩ .
(٤) فى (ب) الصماء .

والبدعة العمياء الصماء !!! سبحانك هذا بهتان عظيم .

وإن زعموا أن هذا الصنيع منهم ليس هو بمعنى ما ذكرنا من نسخ الكتاب والسنة ورفع التعبد بهما فقل لهم فما بقى بعد قولكم هذا ؟ ! فإنكم قد قلتم ليس للناس إلا التقليد ، ولا سبيل لهم إلى غيره ، وأن الاجتهاد قد انسد بابه وبطلت دعوى من يدعيه ، وامتنع فضل الله على عباده ، وانقطعت حجته !!!

وهذا مع كونه من الإفك البين قد اختلفت فيه أنظار هؤلاء المقلدة اختلافا كثيرا ، فقالت طائفة منهم ليس لأحد أن يجتهد (بعد أبى حنيفة وأبى يوسف وزفر بن الهذيل ومحمد بن الحسن الشيبانى ، والحسن بن زياد اللؤلؤى ، وإلى هذا ذهب غالب المقلدة من الحنفية ، وقال بكر بن العلاء القشيرى المالكى : ليس لأحد أن يجتهد)[1] بعد المائتين من الهجرة .

وقال آخرون : ليس لأحد أن يجتهد بعد الأوزاعى وسفيان الثورى ووكيع ابن الجراح وعبد الله بن المبارك .

وقال آخرون : ليس لأحد أن يجتهد بعد الشافعى .

وقد ذكرنا بعض هذا الباطل البين ، والإفك الصريح فى رسالتنا التى سميناها (القول المفيد فى حكم التقليد) .

وهؤلاء وإن كانوا خارجين عن زمرة العلماء بالإجماع حسبما نقلناه فيما تقدم ، وليسوا مما يستحق الاشتغال بما قاله[2] ، وتطويل الكلام فى الرد عليه لأنهم فى عداد أهل الجهل لا يرتفعون عن طبقتهم بمجرد حفظهم لرأى من قلدوه ،

---

(١) هذه الفقرة موجودة تصحيحا فى الهامش فى (ب) .
(٢) فى (ب) (قالوه) وهو سهو من الناسخ .

لكنهم لما طبقت بدعتهم أقطار الأرض وصاروا هم السواد الأعظم ، وكان غالب القضاة والمفتين منهم وكذلك سائر أهل المناصب ، فإنهم مشاركون لهم فى الجهل بما شرعه الله[1] لعباده ، صاروا أهل الشوكة والصولة ، وليس للعامة بصيرة يعرفون بها أهل العلم وأهل الجهل ويميزون بين منازلهم . وغاية ماعندهم أنهم ينظرون إلى أهل المناصب وإلى المتجملين بالثياب الرفيعة . فإن دققوا النظر نظروا إلى المدرسين فى العلم . وهم عند هذا النظر يرون شيخ علم الرأى قد اجتمع عليه الجمع الجم من المقلدة ولهم صراخ وعويل وجلبة وقد استغرقوا ، هم وشيوخهم المدارس والجوامع ولا يرون لشيخ علم الكتاب والسنة أثراً ولا خبراً ، فإن درس شيخ من شيوخهم فى مدرسة أو جامع فهو فى [زاوية[2]] من زواياه يقعد بين يديه الرجل والرجلان وهم فى سكينة ووقار لايلتفت إليهم ملتفت ، ولا يتطلع لأمرهم متطلع فماذا [يرى[3]] العامى عند هذا النظر ما ذاك يخطر بباله ؟ ويغلب على ظنه ؟ وإلى من يميل ، ولمن يحكم بالعلم ؟ وعلى من يلقى مقاليد ماينوبه من أمر دينه ودنياه ؟ فلهذه النكتة احتجنا إلى هذا الكلام فى هذا المؤلف وغيره من مؤلفاتنا وإلا فهم أقل وأحقر من أن يشتغل بشأنهم أو يعبأ بما يصدر منهم من الجهل المكشوف ، والذى لايكاد يلتبس على من لدية أدنى علم وأقل تمييز .

جهاد الشوكانى للمقلدين :

ولقد كان لى مع هؤلاء فى أيام الاشتغال بالدرس والتدريس وعنفوان

---

(١) فى [ب] [تعالى] بعد لفظ الجلالة .

(٢) فى [أ] (زوه]

(٣) فى [أ] ، (ب) (ترى) ولكن يرى هى الموافقة .

الشباب ، وحدة الحداثة قلاقل وزلازل جمعت فيها رسائل وقلت فيها قصائد .

فمن جملة ما خاطبتهم به ماقلته من قصيدة :

يا ناقــداً لمقال ليس يفهمه من ليس يفهم قل لى كيف تنتقد

يا صاعدا فى وعر ضاق مسلكها أيصعد الوعر من السهل يرتعد ؟

يا ماشيا فى فلاة لا أنيس بها كيف السبيل إذا ما اغتالك الأسد ؟

يا خائض البحر لا يدرى سباحته ويلى عليك أتنجو إن علا الزبد ؟

ومنها :

إنى بليت بأهل الجهل فى زمن قاموا به ورجال العلم قد قعدوا

قوم يدق جليل القول عندهم فمالهم طاقة فى حــل ما يرد

وغاية الأمر عند القوم أنهم أعدى العداة لمن فى علمه[1] سدد

إذا رأوا رجلا قد نال مرتبة فى العلم دون الذى يدرونه جحدوا

أو مال عن زائف الأقوال ما تركوا بابا من الشر إلا نحوه قصــدوا

أما الحديث الذى قد صح مخرجه كالأمهات فما فيهم لهــا[2] ولد

تراهم إن رأوا من قال حدثنا قالوا له ناصبي[3] ماله رشد

وإن ترضى على الأصحاب بينهم قالوا له باغض الآل مجتهــد

يا غارقين بشؤم الجهل فى بدع ونافرين عن الهدى القويم هدوا[4]

---

(١) فى (ب) (دينه) بدل علمه ، وفى ا ، ب (أعدا) بالألف .

(٢) فى (ب) (فما فيها لهم ولد) .

(٣) أى يكره ال البيت ، وهو لقب ، كان يطلق على من يكره ال البيت ، كما تقدم ، واستغله الرافضة أسوأ استغلال .

(٤) فى الهامش فى (أ) : (ارجعوا) .

ما باجتهاد فتى فى العلم منقصة النقص فى الجهل لا حياكم الصمد
لا تنكروا مورداً عذباً لشاربه إن كان لا بد من إنكاره فردوا
وإن أبيتم فيوم الحشر موعدنا فى موقف المصطفى والحاكم الأحد

ومما قلته فى ذلك :

على عصر الشبيبة كل حين سلام ما تقهقهت الرعود
ويسقيه من السحب السوارى ملث[١] دائم التسكاب جود
زمان خضت فيه بكل فن وسدت مع الحداثة من يسود
وعدت على الذى حصلت منه فجدت به وغيرى لا يجود
وعادانى على هذا أناس وأظلم من يعاديك الحسود
رأونى لا أدين بدين قوم يرون الحق ما قال الجدود
ويطرحون قول الطهر طه وكل منهم عنه شرود
فقالوا قد أتى فينا فلان بمعضلة وفاقرة تؤود
يقول الحق قرآن وقول لخير الرسل لا قول ولود
فقلت كذا أقول وكل قول عدا هذين تطرقه الردود
وهذا مهيع[٢] الأعلام قبلى وكلهم لمورده ورود
إذا جحد امرؤ فضلى ونبلى فقدماً كان فى الناس الجحود
وكل فتى إذا ما حاز علما وكان له بمدرجة صعود
وراض جوامحاً من كل فن وصار لكل شاردة يقود
رماه القاصرون بكل عيب وقام لحربه منهم جنود

---

(٥) مطر غزير دائم .
(١) المهيع : الطريق الواضح .

فعادوا خائبين وكل كيد ... لهم فعلى نفوسهم يعود
وراموا وضع رتبته فكانوا[1] ... على الشرف الرفيع هم الشهود

* * *

إذا ما الله قدر نشر فضل ... لإنسان يتاح له حسود
ومن كثرت فضائله يعادى ... ويكثر فى مناقبه الجحود
إذا ما غاب يلمزه[2] أناس ... وهم عند الحضور له سجود[3]
وليس يضر نبح الكلب بدراً ... وليس تخاف[4] من حمر أسود
وما الشم الشوامخ عند ريح ... تمر على جوانبها تميد
ولا البحر الخضم يعاب يوماً ... إذا بالت بجانبه القرود

ومما قلته من قصيدة طويلة :

لا عيب لى غير أنى فى دياركم ... شمس ولم يعرفوا منها سوى الشهب
وأنتم كخفافيش الظلام وما ... زال الخفاش بنور الشمس فى تعب
موتوا إذا شئتم قدطار من كلمى ... فى نصرة الحق ماحررت فى الكتب
وأرتجى أن يلبى دعوتى نفر ... يسمون للدين لا يسمون للنشب
لا يعدلون بقول الله قول فتى ... ولا بسنة خير الرسل رأى[5] غبي
لا ينثنون عن الهدى القويم ولا ... يصانعون لترغيب ولا رهب

(١) فى (ب) (وكانوا) وهو سهو أدى إلى ضعف فى المعنى .
(٢) فى (ب) يلزمه .
(٣) فى (ب) ، (أ) تفسيرها فى الهامش (كناية عن الخضوع) .
(٤) فى (ب) (يخالف) ،
(٥) فى (ب) (قول) .

أبث ما بينهم من مذهبي درراً حجبتها عن ذوى التقليد والريب
يا فرقة ضيعت أعلامها سفها وصيرت رأس أهل العلم كالذنب
ما قام رب علوم فى دياركم إلا وجرعته أكؤس الكرب
من قال : قال رسول الله بينكم غداً بذا عندكم من جملة النصب

ومنها :

عاديتم السنة الغرا فكان بذا دعوى خصومكم موصولة السبب
كم ظن ذو حمق فى الضر منفعة
(وظل)(١) يرجو نجاحا من يد العطب
سودتم جيل جهل بالعلوم وذا رأى يجر بذيل الويل والحرب
والاجتهاد غدا فى كتب فقهكم شرط الإمام فإن يعدوه لم يجب
وشرط حال أعباء القضاء مع الإفتاء فلم تعرفوا ما خط فى الكتب

ومنها :

وإننى حزت أضعاف الذى شرطوا قبل الثلاثين من عمرى بلا كذب
ألم أضمخ أرجاء الجوامع بالتدر يس فى كل فن معشر الطلب
ألم أصنف فى عصر الشبيبة ما يغدو له محكم العرفان فى طرب
لو كان مطلع شمسى غير أرضكم ما حال دون سناها عارض السحب
ولا غدت لعشا الناظرين لها كأنها طلعت فى مظلم الحجب

ومما قلته من قصيدة طويلة :

وما سد باب الحق عن طالب الهدى ولكن عين الأرمد الفدم سدت

---

(١) فى (ب) (ظل) ، ولكنها فى (أ) (ضل) .

رجال كأمثال الخفافيش ضوءها يلوح لدى الظلماء وتعمى بضحوة
وهل ينتقص الحسناء فقدان رغبة إلى حسنها ممن أصيب بعنة
وهل حط قدر البدر عند طلوعه إذا ما كلاب أنكرته فهرت
وما إن يضر البحر أن قام أحمق على شطه يرمى إليه بصخرة
فخض فى غمار الاجتهاد وعد عن رجال سلت عن سناء بقرية

ومنها .

وإن كنت شهماً ناقداً متبصراً فدع ما به عين من العمى قرت
فما جاءنا نقل بقصر ولا أتى بذلك حكم للعقول الصحيحة
وما فاض من فضل الإله على الأولى مضوا فهو فياض عليك بحكمة
ولا تك مطواعا ذلولا لرايض[1] تصير بهذا مشبها للبهيمة

وما قلته من الأشعار الجارية فى هذا المضمار فهو كثير جداً يحتاج إلى مؤلف مستقل .

وقد حكيت بعض ما وقع لى مع هؤلاء المقلدة فى الكتاب الذى سميته (أدب الطلب ومنتهى الأرب) . وكيدهم المتين وحسدهم الشديد مستمر إلى الآن والله ناصر دينه ، ورافع أعلام شريعته ، وكاسر من رام أهلها ، أو رام الحاملين لها بكيد ومكر . ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله . (يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون[2] إلا أنفسهم وما يشعرون)[3] . (ومكروا

---

(١) فى (ب) (لرافض) وصححت (لرايض) وهى من راض يروض بمعنى علم ، أو درب .
(٢) فى (أ) ، (ب) سهى المؤلف والناسخ وكتبها : (ومايخادعون) .
(٣) سورة البقرة اية : ٩ .

ومكر الله والله خير الماكرين[1]) . (يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم[2]) (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل . فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء[3]) .

وما أصدق هذه المواعيد التي وعد الله بها عباده ، وأبين حصولها وأظهر وقوعها وهو صادق الوعد فلله[4] الحمد [فإنه][5] ما قام قائم في معارضة المحقين إلا وكبه الله على منخره ، وحاق به مكره وعاد على نفسه خداعه وأحاط به بغيه وكم قد رأينا من هذا وسمعنا في عصرنا وممن قبلنا ، فكانت العاقبة للمتقين ، كما وعد به رب العالمين والحمد لله .

من أخطار التقليد والمقلدين :

وكما أن قول هذه[6] المقلدة الذين ردوا باب الاجتهاد وسدوا طرقه قد استلزم[7] رفع الكتاب والسنة والتعبد بغيرهما ، فكذلك استلزم رد ما صح عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « من أنها لا تزال طائفة من هذه الأمة على الحق ظاهرين » . وكذلك استلزم رد ما صح أنه لا تزال في هذه الأمة قائم بحجة الله ، وكذلك استلزم رد ما ورد « من أن الله سبحانه يبعث لهذه الأمة في رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها » .

---

(١) آل عمران آية : ٥٤ (٢) يونس آية : ٢٣ .
(٣) آل عمران : ١٧٣ ، ١٧٤ (٤) في (ب) (فله) .
(٥) في (أ) لا توجد (فإنه) وهي لازمة لسلامة الأسلوب .
(٦) في (ب) لا يوجد (قول هذه) .
(٧) في (ب) (عملهم) بعد استلزم .

وجود الاجتهاد فى المذاهب حجة على المقلدين :

ومع هذا فكل طائفة من طوائف المذاهب الذين كدر مشارب مذاهبهم وجود هؤلاء المقلدة الذين لا يعقلون حجة ، ولا يعرفون برهاناً ولا يفهمون من العلم إلا مجرد صور وقفوا عليها فى مختصرات المفرعين ، قد جعل الله سبحانه فيهم من العلماء المبرزين العارفين بالكتاب والسنة وبما هو كالمقدمة لهما من العلوم الآلية وغيرها ، عدداً جماً كما يعرف ذلك من يعرف أخبار الناس ويدرى بأحوال العالم ، وفيهم من كمل الله سبحانه لهم علوم الاجتهاد وفوقها ، ولكنهم امتحنوا بهؤلاء العمى البكم من المعاصرين لهم مقلدة المذاهب الذين اشتركوا فيه بمجرد الانتماء إليه فغلبوهم على أنفسهم وصانعوهم وداروهم لما يخشونه من معرتهم ويتوقعونه من إغراء العامة بهم .

ومنهم من كتم اجتهاد نفسه ، ولم يستطع أن ينسب إلى نفسه الاجتهاد ولا تظهر بما يدين به ويعتقده من تقديم ما يعرفه من الأدلة على ما يخالفه من الرأى .

ومنهم من تظهر بعض التظهر فلقى من متفقهة المقلدة من إغراء[1] العامة به ما هو معروف لمن نظر فى التواريخ العامة ، أو[2] الخاصة بمذهب من المذاهب وطائفة من الطوائف .

ومن كان لا يعرف التاريخ ، ولا ينشط إلى الإطلاع على أخبار العالم وتحقيق أحوال الطوائف فلينظر إلى مثل مؤلفات ابن عبد السلام(*) ،

(١) فى (ب) (من أذى العامة له) .
(٢) فى (ب) (و) بدل (أو)

الأعــلام

(*) عبد العزيز بن عبد السلام بن أبى القاسم السلمى الدمشقى (٥٧٧-٦٦٠هـ)

وابن دقيق العيد (**) ، وابن سيد الناس (***) ، والذهبي (****) وزين الدين العراقي (*) ، وابن حجر العسقلاني والسيوطي (**) وأمثالهم من الشافعية .

وإلى مثل مؤلفات ابن قدامة (***) ومن في طبقته من المقادسة ومن بعدهم مثل تقي الدين ابن تيمية ، وتلميذه ابن القيم وأمثالهم من الحنابلة .

عز الدين الملقب بسلطان العلماء فقيه شافعي بلغ رتبة الاجتهاد . كان صاحب رأي صريح وثورة على كل مايخالف الإسلام من كتبه (حل الرموز) رسالة في التصوف و « التفسير الكبير » و « قواعد الشريعة » . الأعلام جـ٤ ص ١٤٤ ، ١٤٥ .

(**) محمد بن علي بن وهب بن مطيع أبو الفتح المعروف بابن دقيق العيد (٦٢٥ ـ ٧٠٢ هـ) قاض من أكابر العلماء بالأصول مجتهد أصل أبيه من منفلوط (الأعلام جـ ٧ ص ١٧٤) .

(***) محمد محمد محمد أحمد بن سيد الناس اليعمري الربعي (٦٧١ ـ ٧٣٤ هـ) من حفاظ الحديث مؤرخ عالم أديب مولده ووفاته بالقاهرة من كتبه (المقامات العلية في الكرامات الجلية) الأعلام جـ ٧ ص ٢٦٣ .

(****) محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي شمس الدين . حافظ مؤرخ علامة محقق تصانيفه كبيرة كثيرة تقارب المائة (ولد سنة ٦٧٣ وتوفي سنة ٧٤٨ هـ) الأعلام جـ ٦ ص ٢٢٢ .

الأعـــلام

(*) عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن المعروف بالحافظ العراقي ، أو الزين (زين الدين) (٧٢٥ — ٨٠٦ هـ) .

(*) عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد الجلال الأسيوطي . اشتهر بالتفسير والتصنيف في الحديث له نحو (٦٠٠) مؤلف إمام حافظ مؤرخ أديب . الأعلام جـ ٤ ص ٧١ .

(*) محمد بن أحمد بن عبد الهادي بن عبد الحميد ابن قدامة المقدسي (٧٠٥ ـ ٧٤٤ هـ) حافظ للحديث من كبار الحنابلة صنف مايزيد على ٧٠ كتابا . الأعلام جـ ٦ ص ٢٢٢ .

ومثل ابن عبد البر والقاضي عياض (٭) وابن العربي (٭) وأمثالهم من المالكية .

وبالجملة ففي كل مذهب العدد الكثير غالبهم يذم التقليد وينكر على أهله ولكنهم كما عرفناك لا يصرح منهم بذلك تصريحاً إلا الأقل لتلك العلة وغالبهم يلوح به تلويحاً ويعرض به تعريضاً .

أهل اليمن والاجتهاد :

وأما قطرنا اليمني بارك الله فيه فغالب من توسع في العلوم وأدرك من نفسه ملكة الاجتهاد الرجوع إلى الدليل ، ويرمى بالتقليد وراء الحائط ويلقى عن عنقه قلادته .

عرفنا هذا من شيوخنا ، وعرفوه من شيوخهم وعرفه الأول عن الأول وعرفناه من أترابنا ، والمرافقين لنا في الطلب ، بل غالب الآخذين عنا وهم العدد الجم هم[1] بهذه الصفة ، وعلى هذه الخصلة المحمودة .

بل غالب من كان له إنصاف من الذين لم يكثر اشتغالهم بالعلم في ديارنا هذه يصنع كما كان يصنع السلف الصالح من الصحابة ، وتابعيهم ، ومن بعدهم

(٭) توفي سنة ٤٧٦ هـ في مراكش وولد في سبته وهو : عياض بن موسى بن عياض ابن عمرون اليحصبي السبتي عالم المغرب وإمام أهل الحديث في وقته من كتبه (شرح صحيح مسلم) الأعلام جـ ٥ ص ٢٨٢ .

(٭) محمد بن عبد الله بن محمد المعافري الأشبيلي المالكي أبو بكر بن العربي قاض، من حفاظ الحديث . بلغ رتبة الاجتهاد صنف في الحديث والفقه والتفسير والأصول والأدب والتاريخ . من كتبه (العواصم من القواصم) . الأعلام جـ ٧ ص ١٠٦ من (٤٦٨ هـ — ٥٤٣ هـ) .

(١) في (ب) (لا توجد « هم ») .

عن عدم التقيد بالتقليد، والتعويل على سؤال العلماء بالكتاب والسنة عن الدليل الراجح فيعملون به ويقفون عنده، ولا يبالون بما يخالفه مما عليه المقلدة، وصاروا منتسبين إلى السنة المطهرة غير منتمين إلى مذهب من المذاهب، فأصابوا أصاب الله بهم، وضاعف أجرهم، وصرف عنهم معرة المقلدة أتباع كل ناعق.

تعصب المقلدين أساسه الجهل :

وقد عرفناك أن هؤلاء المقلدة ذموا مالم يعرفوه، وعابوا مالم يدروا به، وهذا أمر يستقبحه كل عاقل، ويزرى بصاحبه كل فاهم، فإن من تعرض للكلام فيما لا يعرفه فهو جاهل من جهتين :

الجهة الأولى : كونه لا يعرف ذلك الشيء.

الجهة الثانية : كونه تكلم فيما لا يعرفه، كما يفعله أهل الجهل المركب.

هذا على فرض أنه لم يتعرض للقدح فيه، ولا أوقعته نفسه الأمارة في الطعن على المتمسكين به، فإن فعل أخطأ من ثلاث جهات هذه الثالثة.

وما أحسن ما قاله الشاعر :

أتانا أن سهلا ذم جهلا ... علوما ليس يعرفهن سهل

علوما لو دراها ما قلاها ... ولكن الرضى بالجهل سهل

ولقد صدق هذا الشاعر فإن العلة الباعثة للجاهل على هذا الفضول هي الرضى بالجهل، ويكفيه ما رضى به لنفسه نقصاً وعيباً وغباوة ومهانة.

واجب العلماء وأولى الأمر نحو المقلدين :

فواجب على كل من له ولاية يأمر فيها بمعروف أو ينهى عن منكر أن

يجعل نهي المنكر الذي عليه هؤلاء عنوان كل نهي ينهى به عن منكر ، فإنهم في الحقيقة إنما يطعنون على كتاب الله[١] وسنة رسوله[٢] بأن ما فيهما من الشريعة قد صار منسوخا ، ويطعنون على علماء الدين من السلف الصالح ، ومن مشى على هديهم القويم ، ويدعون بالرأي الذي هو ضد الشريعة ، ما شرعه الله لعباده ، وهم بهذه المنزلة من الجهل البسيط أو المركب .

فهل سمعت أذناك بمنكر مثل هذا المنكر ، وبلية في الدين مثل هذه البلية ورزية في الملة الإسلامية مثل هذه الرزية ؟ ؟ فإن النيل من[٣] عرض فرد من أفراد المسلمين منكر لا يخالف فيه مسلم إذا كان على طريق الغيبة أو[٤] البهتان ، أو على طريق الشتم مواجهة ، ومكافحة .

فكيف بمن جاء بما هو من[٥] أعظم البهتان ، وأقبح الشتيمة للشريعة المحمدية ، والدين الإسلامي ، ولعلماء المسلمين سابقهم ولا حقهم ؟ ! . فيالله وللمسلمين بالله وللمسلمين ، يالله وللمسلمين ؟ !! .

فإن هؤلاء لما رأوا كثيرا من العلماء يداهنونهم ويدارونهم اتقاء لشرهم مازادهم ذلك إلا شرا ، [ولا][٦] أثر فيهم إلا تجرءاً على ما هم فيه .

ولو تكلم أهل العلم بما يجب عليهم من نصر الشريعة والذب عن أهلها

---

(١) في (ب) (تعالى) بعد لفظ الجلالة .

(٢) في (ب) يوجد (صلى الله إلخ) بعد رسوله .

(٣) في (ب) (في) بدل (من) .

(٤) في (ب) (و) بدل (أو) لأن الحشرة قد أكلت الهمزة .

(٥) في (ب) سقطت (من) من الناسخ .

(٦) في (أ) (وإلا) بهمزة قبل (لا) وهو سهو .

بما يجب عليهم لكانوا أقل شراً وأحقر ضراً[1] .

وأقل حال أن يعرفوهم بأنهم من أهل الجهل [الذين][2] لا يستحقون خطابا ولا يستوجبون جوابا ، فإن فى هـذا كفاً لبعض ما صاروا عليه من الظن بأنفسهم الباطل والخيال المختل لما يرونه من سكوت أهل العلم عنهم والصبر على ما يسمعونه منهم ، ويبلغهم عنهم .

وقد يتسبب عن هذه الإهانة لهم بالتجهيل ، والتضليل فائدة يندفع بها بعض تجرئهم على كتاب الله وسنة رسوله ، وعلماء أمته ، فإن من الناس من يصلح بالهوان ويفسد بالإكرام ، كما هو معلوم لكل من يعرف أحوال الناس واختلاف طبائعهم .

ولقد أحسن الشاعر حيث قال :

أكرم تميماً بالهوان فإنهم   إن أكرموا فسدوا على الاكرام

وكما قال الآخر :

أهن عامراً تكرم عليه فإنما   أخو عامر من مسه بهوان

وينبغى لمن سمع أحدهم يفتى فى التحليل والتحريم ، وينصب نفسه لما ليس من شأنه ، أن يقول له كما قال الشاعر :

تقولون هـذا عندنا غير جائز   ومن أنتم حتى يكون لكم عند ؟ !

وإن سمع أحداً منهم يتكلم فى غير ما يعلم على تقدير أن علمه بطرف من الرأى يعد علماً كما فى اصطلاح العامة ، وإلا فهو ليس[3] يعلم بالإجماع كما قدمنا

---

(١) فى (ب) (أحقر ضرا ، وأقل شرا) .
(٢) فى (أ) سها المؤلف وكتب (الذى) بدل (الذين) .
(٣) فى (ب) (وإلا فليس هو الخ) .

وقل ذلك ، فليتل عليه قول الله سبحانه (ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم ، فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون) وليتل عليه قوله عز وجل[1] : (ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون . متاع قليل ولهم عذاب أليم)[2] . وقوله عز وجل : (قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والإثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون)[3] .
وقوله تعالى : (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون)[4] (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون)[5] (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون)[6] ويتلو عليه الآيات التى فيها الحكم بالحق وبالعدل وبما أرى الله ورسوله .

مدى تكريم الله سبحانه الأولياء :

ولنرجع الآن إلى شرح الحديث الذى نحن بصدد شرحه .

قال الكرمانى : « إن قوله (لى)[7] فى من عادى لى وليا هو فى الأصل

---

(١) آل عمران آية : ٦٦ ، وقد سها المؤلف فنسى (هؤلاء) بعد أنتم وقد نسى الناسخ فى (ب) الآية بأكملها ، والتقديم الآية التالية .
(٢) النحل آية : ١١٦ ، ١١٧ .
(٣) الأعراف آية : ٣٣ .
(٤) المائدة آية : ٤٤ ، ٤٧ (٥) المائدة آية : ٤٥ .
(٦) فى (ب) (هذه) قبل الآيات . وهى زيادة من الناسخ لا داعى لها .
(٧) فى (ب) نسى الناسخ (لى) فأحدث اضطرابا فى فهم المعنى .

صفة لقوله ولياً لكنه لما تقدم عليه صار حالا » انتهى[١] .

أقول ولا يختلف المعنى بذلك لأن المعنى على الوصف : من عادى[٢] وليا كائناً لى وهو على الحال كذلك لكن التقدم فيه فائدة جليلة ، وهى الإشعار[٣] باختصاص الولى به لا بغيره ، كما هو معروف فى كتب المعانى والبيان ، ثم فى نسبته الولى إلى نفسه تشريف له عظيم ورفع لشأنه بليغ .

قال ابن هبيرة : ويستفاد من هذا الحديث تقديم الإعذار على الإنذار » قلت ووجهه أنه لما قدم معاداة من هو بهذه الصفة من الولاية لله فكأنه أعذر إلى[٤] كل سامع أن من هذا شأنه لا ينبغى أن يعادى بل على كل من عرف أن[٥] هذه صفته ، أن يواليه ويحبه ، فإذا لم يفعل فقد أعذر الله إليه ، ونبهه على أن من عادى يستحق العقوبة البالغة على عداوته فقال منذراً له : فقد « آذنته بالحرب » على ما صنع مع وليي .

ووقع فى حديث عائشة عند أحمد فى الزهد ، وابن أبى الدنيا وأبى نعيم فى الحلية والبيهقى فى الزهد بلفظ : « من أذل لى وليا » وفى أخرى منه من آذى ، وفى إسناده عبد الواحد بن(٠) ميمون عن عروة ، وهو منكر الحديث لكن ، أخرجه الطبرانى من طريق يعقوب(٠٠) [عن][٦] مجاهد

---

(١) فتح البارى ص ٢٩٣ .

(٢) فى (ب) زاد الناسخ من عنده (لى) بعد من عادى وليست لازمة ولا من مراد المؤلف .

(٣) فى (ب) إشعار اختصاص) .

(٤) فى (ب) (نسى الناسخ « كل سامع إلى بل على كل من عرفه الخ ») .

(٥) فى (ب) زيادة (من) بين (أن وهذه) . وهو سهو .

(٦) فى (أ) (يعقوب بن مجاهد) .

عن[1] عروة(*) قوله : « فقد آذنته » بالمد[2] وفتح المعجمة بعد[3] نونه أى أعلمته .

وقال فى الصحاح : « وآذنتك بالشىء » أعلمتك ، والآذن الحاجب . قال الشاعر : تبدل بإذنك المرتضى .

وقد آذن وتأذن بمعنى كما يقال أيقن وتيقن ، وتقول تأذن الأمير فى الناس أى نادى فيهم يكون فى التهدد ، والنهى أى تقدم وأعلم . وقوله تعالى : (وإذ تأذن ربك)[4] أى أعلم ، انتهى .

فعرفت بهذا أن فى قوله : فقد آذنته معنى التهديد لمن عادى الولى والنهى له عن أن يقدم على معاداته لأنه قد[5] تقدم إليه بأن لا يعاديه وأنه وليه وأعلمه بذلك وأ ا المتصور فيجىء بمعنى علم ومنه قوله تعالى : (فأذنوا بحرب من الله ورسوله)[6] : أى اعلموا ، وبمعنى الاستماع يقال أذن له[7] إذا استمع منه . قال الشاعر :

---

(١) فى (أ) تكررت (عن) وهو سهو من المؤلف .
(٢) فى (ب) (والفتح للمعجمة)
(٣) فى (ب) (بعدها) بزيادة (ها) .

الأعــلام

(*) سنأتى ترجمتهما أول الفصل الثالث .
(*) عروة بن الزبير بن العوام وأمه أسماء بنت أبى بكر الصديق من رجاله السند المشهورين فى تحمل الحديث وروايته ، توفى سنة ٩٤ هـ . صفوة الصفوة جـ ٢ صـ ٤٩

(٤) سورة الأعراف آية : ١٦٧ ، سورة إبراهيم آية : ٧
(٥) فى (ب) (فقد تقدم) (٦) سورة البقرة آية : ٢٧٩
(٧) فى (ب) ، (به)

إن يسمعوا ريبة طاروا بها فرحاً   عنى وما سمعوا من صالح دفنوا
صم إذا سمعوا خيراً ذكرت(١) به   وإن ذكرت بشر عندهم أذنوا

ومنه ما أذن الله لشيء كأذنه لنبي يتغنى بالقرآن أى استمع ، والأذان الإعلام ، ومنه الأذان للصلاة .

قوله : « بالحرب » : فى رواية الكشميهنى(١) : « فقد أذنته بحرب . وفى حديث معاذ عند ابن ماجه(*) ، وأبى نعيم فى الحلية بلفظ : « فقد بارز الله بالمحاربة » وفى حديث أبى أمامة عند الطبرانى(**) ، والبيهقى(***) فى الزهد بسند ضعيف بلفظ : « فقد بارزنى بالمحاربة » . ومثله لفظ حديث أنس عند أبى يعلى والبزار(****) والطبرانى ، وفى سنده ضعف . وفى حديث ميمونة(*****) بلفظ « فقد استحل محاربتى(٢) . وفى رواية وهب(******) بن منبه بلفظ : « من أهان ولى المؤمن فقد استقبلنى بالمحاربة » .

قال ابن حجر فى الفتح « وقد استشكل وقوع المحاربة ، وهى مفاعلة من الجانبين مع كون المخلوق فى أسر الخالق .

والجواب : بأنه من المخاطبة بما يفهم . فإن الحرب تنشأ عن العداوة ،

---

(١) فى (ب) (وصفت) .

الاعـــلام

(*) فى (ب) الكشمهينى والصواب (الكشميهنى) بضم الكاف وسكون الشين ، وكسر الميم ، وسكون الياء تحتها نقطتان ، آخرها نون نسبة إلى قريه من قرى (مرو) القديمة ، وقد خربت : (أبو الهيثم) محمد بن مكى بن زراع ، بن هارون بن زراع ، الأديب ، اشتهر بروايته صحيح البخارى عن الفربرى ، وتوفى سنة ٣٨٩ هـ . (اللباب) لابن الأثير ج ٣ ص ١٣٠ .

(٢) فى (ب) (محارمى) .

والعداوة تنشأ عن المخالفة . وغاية الحرب الهلاك ، والله عز وجل لا يغلبه غالب فكأن المعنى قد تعرض لإهلاكي إياه فأطلق الحرب وأريد لازمه ، أي أعمل به ما يعمل العدو المحارب »[1] انتهى .

قلت : فقد جعل ذلك من الكناية : وهي لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادته كما حققه أهل علم البيان .

الأعــــلام

(*) هو أبو عبد الله محمد بن يزيد بن عبدالله بن ماجه القزويني مولى ربيعة أحد الأعلام المشاهير ، ألف سننه المشهورة ،وهي إحدى السنن الأربع ،وإحدى الأمهات الست (٢٠٩ – ٢٧٣ أو ٢٧٥ هـ)

(*) سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الشامي . من كبار المحدثين أصله من طبرية الشام ولد بعكا سنة ٣٦٠ هـ وتوفي سنة ٣٦٠ هـ بأصبهان . له ثلاثة معاجم في الحديث ، الأعلام جـ ٣ صـ ١٨١ ؟ .

(*) هو الإمام أبو بكر أحمد بن الحسن الشافعي الحافظ . له السنن الكبرى والصغرى وكتاب (الأسماء والصفات) والزهد ، توفي سنة ٤٥٨ . شذرات الذهب جـ ٢ ص ٣٠٤ ، ٣٠٥ .

(*) هو أحمد بن عمرو بن عبد الخالق أبو بكر البزار ، حافظ من العلماء بالحديث له مسندان أحدهما كبير (وسماه البحر الزاخر) ، والثاني صغير . توفي سنة ٢٩٢ . الأعلام جـ١ ص ١٨٢ .

(*) هي ميمونة بنت الحارث الهلالية ، إحدى زوجات الرسول ﷺ

(*) في (ب) (ابن منبه دون (وهب) . وهو الحافظ أبو عبد الله الصنعاني ، ولد بصنعا سنة ٣٤ هـ . ونشأ بها قال عنه صاحب الكواكب الدرية : عالم أهل اليمن جد واجتهد غالب أخذه عن ابن عباس من أكابر الزهاد والعباد . كان جده أحد الأكاسرة . مات بصنعا سنة ١١٤ هـ . الكواكب الدرية ص ١٨٦ .

(١) ٢٩٤ فتح الباري .

ويمكن أن يقال إن المفاعلة قد تطلق ولا يراد بها وقوعها من الجهتين كما فى كثير من الاستعمالات العربية ، فيكون المراد بالمحاربة هنا الحرب من الله عز وجل كما يدل عليه لفظ فقد آذنته بالحرب .

ويمكن أن يجعل العبد لما كان معانداً لله عز وجل بعداوة أوليائه بمنزلة من أقام نفسه مقام المحارب لله سبحانه ، وإن كان فى أسره وتحت حكمه باعتبار الحقيقة ، وأنه أحقر وأقل من أن يحارب ربه لكنها خيلت له نفسه الأمارة بالسوء هذا الخيال الباطل ، فمادى من أمره الله بموالاته ومحبته مع علمه بأن ذلك مما يسخط الرب ويوجب حلول العقوبة عليه وإيقاعه فى المهالك التى لا ينجو منها .

قال الفاكهانى : « فى هذا الحديث تهديد شديد لأن من حاربه الله تعالى[1] أهلكه وهو من المجاز البليغ لأن من كره من[2] أحبه الله تعالى خالف الله سبحانه ومن خالف الله عز وجل عانده ، ومن عانده أهلكه . وإذا ثبت هذا فى جانب المعادة ثبت فى جانب الموالاة .

فمن والى أولياء الله عز وجل أكرمه الله عز وجل[3] انتهى .

قلت : لا مقتضى لهذا المجاز بهذه الوسائط والانتقالات ، فإن بمجرد وقوع الحرب من الرب للعبد ، إهلاك له بأبلغ أنواع الإهلاك وانتقام منه بأكمل أنواع الانتقام فالحديث خارج هذا المخرج

ومثله فى وعيد أهل الربا : (فأذنوا بحرب من الله ورسوله)[4] .

---

(١) فى (ب) سقطت (تعالى) .
فى (ب) (ما أحبه) .
(٣) ٢٩٤ فتح البارى مع عدم وجود كلمات : «عز وجل» المكررة فى نقل الشوكانى .
(٤) سورة البقرة آية : ٢٧٩ .

قال الطوفى(*) : « لما كان ولى الله سبحانه من[1] تولى الله سبحانه بالطاعة والتقوى تولاه الله تعالى بالحفظ والنصرة . وقد أجرى الله تعالى[2] العادة بأن عدو العدو صديق ، وصديق العدو عدو ، فعدو ولى الله تعالى عدو الله سبحانه فمن عاداه كان كمن حاربه ، ومن حاربه فكأنما حارب الله تبارك وتعالى »[3] .

قلت : وهذا هو مثل كلامنا المتقدم فى توجيه المفاعلة .

---

(١) فى فتح البارى (من) فقط .

(٢) فى (ب) (سبحانه) بدل (تعالى) .

(٣) فى فتح البارى دون بعض الزيادات التى هنا مثل تكرير كلمة (سبحانه بعد لفظ الجلالة ، وكلمة « تبارك وتعالى ») .

الأعـــلام

(*) (٦٥٧ – ٧١٦ هـ) سليمان بن عبد القوى بن عبد الكريم الطوفى الصرصرى فقيه حنبلى من العلماء . له مختصر (الجامع الصحيح) للترمذى الإكسير فى قواعد التفسير) : الأعلام جـ ٣ ص ١٨٩ :

الفصل الثانى

الطـــــريق إلى ولاية الله



(د) أداء الفرائض :

قوله : « ما تقرب إلى عبدى بشىء أحب إلى مما افترضت عليه » . لفظ التقرب المنسوب إلى الله من عبده يفيد أنه وقع ذلك على جهة الإخلاص . لأن من لم يخلص العبادة لله سبحانه لا يصدق عليه معنى التقرب . وهكذا من فعل العبادة المفترضة لخوف[1] العقوبة فإنه لم يكن متقربا على الوجه الأتم .

قال ابن حجر فى الفتح : « ويدخل تحت هذا اللفظ جميع فرائض العين والكفاية وظاهره [الإختصاص][2] بما ابتدأ الله تعالى فريضته ، وفى دخول ما أوجبه المكلف على نفسه نظر ، للتقييد بقوله : افترضت عليه إلا إن أخذ من جهة المعنى[3] الأعم »[4] ، انتهى .

قلت : إن كان ما أوجبه العبد على نفسه مما أوجب الله عليه الوفاء به ، فهذا الإيجاب هو من فرائض الله سبحانه ، وحكمه حكم ما أوجبه الله ابتداء على عباده . بل هو فرد من أفرادها لا يحتاج إلى إدراجه تحت معنى أعم قال: « ويستفاد منه أن أداء الفرائض أحب الأعمال إلى الله تعالى »[5] . انتهى .

قلت . وجه ذلك أن النكرة وقعت فى سياق النفى فعم كل ما يصدق عليه معنى الشىء فلا يبقى شىء من القرب إلا وهو داخل فى هذا العموم ، لأن كل قربة كائنة ما كانت يقال لها شىء سواء كانت من الأفعال أو الأقوال أو

---

(١) فى (ب) (خوف) .
(٢) فى (أ) (الإخلاص) ولا تستقيم فى هذا السياق .
(٣) ص ٢٩٤ مع زيادة كلمة الأعم هناك .
(٤) فى (ب) سقطت الأعم من الناسخ .
(٥) نفس الصفة .

مضمرات القلوب ، أو الخواطر الواردة على العبد أو التروك للمعاصى التى هى ضد لفعلها :

قال الطوفى : « الأمر بالفرائض جازم ، ويقع بتركها المعاقبة بخلاف النفل فى الأمرين وإن اشترك مع الفرائض فى تحصيل الثواب فكانت الفرائض أكمل ، فلذا كانت أحب إلى الله[1] وأشد تقرباً .

فالفرض كالأصل والأس ، والنفل كالفرع والبناء ، وفى الإتيان بالفرائض على الوجه المأمور به امتثال الأمر واحترامه وتعظيمه بالانقياد إليه وإظهار عظمة الربوبية وذل العبودية فكان التقرب بذلك أعظم العمل .

والذى يؤدى الفرض قد يفعله خوفا من العقوبة ، ومؤدى النفل لا يفعله إلا إيثاراً للخدمة فيجازى بالمحبة التى هى غاية مطلوب من يتقرب بخدمته[2] انتهى

قلت : إذا كان أداء الفرائض أعظم العمل لتلك العلل التى ذكرها من امتثال الأمر واحترامه وتعظيمه ، وإظهار عظمة الربوبية وذل العبودية كان ثوابها أكثر ، والجزاء عليها أعظم ، ولا يخالفه ما ذكره من أن العبد لا يفعل النفل إلا إيثاراً للخدمة وأنه يجازى بالمحبة فذلك سببه وقوع التقرب منه بما لم يوجبه الله عليه ، وإن كان الثواب عليه دون ثواب الفرائض ، وسيأتى لهذا مزيد تحقيق عند الكلام على قوله أحببته

---

(١) فى (ب) (سبحانه) بعد لفظ الجلالة .

(٢) فتح البارى مع زيادات طفيفة فى نقل الشوكانى .

١ — من أداء الفرائض ترك المعاصى :

واعلم أن من أعظم فرائض الله سبحانه ترك معاصيه التى هى حدوده التى من تعداها كان عليه من العقوبة ما ذكره الله سبحانه فى كتابه العزيز . ولا خلاف أن الله[1] افترض على العباد ترك كل معصية كائنة ما كانت ، فكان ترك المعاصى من هذه الحيثية داخلا تحت عموم قوله : « وما تقرب إلى عبدى بشىء أحب إلى مما افترضت عليه » . بل دخول فرائض الترك للمعاصى أولى من دخول فرائض الطاعات كما يدل عليه حديث « إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شىء فلا تقربوه » .

٢ — من المعاصى إبطال الفرائض بالحيل :

واعلم أن من أعظم البدع الحادثة فى الإسلام ما فتح بابه أهل الرأى للعباد من الحيل[2] التى زحلقوا بها كثيراً من فرائض الله سبحانه فأخرجوها عن كونها فريضة ، وكأن الله لم يفرضها على عباده ، وحللوا بها كثيراً من معاصى الله التى نهى عباده عنها وتوعدهم على مقارفتها والوقوع فى شىء منها .

ومن تأمل أكثر ما ورد عن الشارع من الامن وجد غالبه فى المستحلين لما حرمه الله ، والمسقطين لفرائضه بالحيل . كقوله صلى الله عليه وآله سلم :

---

(١) فى (ب) (سبحانه) بعد لفظ الجلالة .

(٢) تكلم الإمام الشوكانى فى بدعة (الحيل) هنا ، لبيان قيمة الفرض وأهميته ، وأنه من الواجب أداؤه على وجهه دون تهرب منه ، وأن التحيل عليه يعتبر إسقاطاله . فأصحاب الحيل ليسوا مؤدين للفرض ، فليسوا من العلماء العاملين ولا من الأولياء . وبذلك يلحقون بالمتحللين من التكاليف والمسقطين لها ، من غلاة الصوفية ، وأصحاب المذاهب الباطنية من غلاة الشيعة على ماسيأتى فى الصفحات القادمة . وينظر) ضلال المدعين لرفع التكليف) فى الفصل الرابع .

« لعن الله المحلل والمحلل له » ، « لعن الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فجملوها وباعوها وأكلوا أثمانها » . « لعن الله الراشى والمرتشى » ، « لعن الله آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهده » . « ولعن عاصر الخمر ومعتصرها ولعن الواصلة والمستوصلة والواشمة والمستوشمة » .

ومسخ الله الذين استحلوا محارمه بالحيل قردة وخنازير . و « ذم أهل الخداع والمكر » وأخبر أن المنافقين يخادعونه وهو يخادعهم . وأخبر عنهم بمخالفة ظواهرهم لبواطنهم ، وسرائرهم لعلانيتهم .

وثبت عن ابن عباس أنه جاءه[1] رجل فقال : إن عمى طلق امرأته ثلاثا أيحلها له رجل ، فقال : من يخادع الله يخدعه : وصح عن ابن عباس وأنس أنهما سئلا عن العينة فقالا إن الله لا يخدع .

وقد عاقب الله المتحيلين على المساكين وقت [الجذاذ][2] بإهلاك ثمارهم حتى أصبحت كالصريم : وصح أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : (البيعان بالخيار حتى يتفرقا إلا أن تكون صفقة خيار ، ولا يحل له أن يفارقه خشية أن يستقيله) . وصح عنه صلى الله عليه وآله وسلم النهى لمن عليه الزكاة أن يجمع بين متفرق ، أو يفرق بين مجتمع خشية الصدقة .

والأدلة فى منع الحيل وإبطالها كثيرة جداً . ومجرد تسميتها حيلة يؤذن بدفعها وإبطالها فإن التحيل على عمومه قبيح شرعاً وعقلا . وهذا المتحيل لإسقاط فرض من فرائض الله أو تحليل ما حرمه الله سبحانه هو ناصب لنفسه فى مدافعة ما شرعه الله سبحانه لعباده ، مريد لأن يجعل ما حرمه الله حلالا ،

---

(١) فى (ب) (أن رجلا جاءه) .

(٢) فى (ب) (الجداد) بالدالين . ومعناها الجنى وقطع الثمار . وفى (أ) كتبها المؤلف قابلة للنطقين هكذا (الجذاذ) .

وما أحله حراما. فهو من هذه الحيثية معاند لله مخادع لعباده، مندرج تحت عموم قوله سبحانه : (يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون[1] إلا أنفسهم وما يشعرون)[2] . وقوله : (يخادعون الله وهو خادعهم)[3] . وقوله : (ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين)[4].

ومعلوم لكل عاقل أن الشريعة قد كملت وانقطع الوحي بموته صلى الله عليه وآله وسلم ، ولم يبق لأحد من عباد الله مجال في تشريع غير ما شرعه الله ولا رفع شيء مما قد شرعه الله سبحانه .

وكل العباد متعبدون بهذه الشريعة لم يجعل الله سبحانه لأحد منهم أن يحلل شيئاً مما حرم فيها ، ولا يحرم شيئاً مما[5] حل فيها فمن جاء إلى عباد الله ، وقال قد لقنني الشيطان أن أحل لكم الحرام الفلاني أو أحرم عليكم الحلال الفلاني ، أو أسقط عنكم واجب كذا ، فهذا مما يفهم كل عاقل أنه أراد تبديل الشريعة المطهرة ومخالفة ما فيها فحق على كل مسلم أن يأخذ على يده ويحول بينه وبين ما أراد ارتكابه من المخالفة لدين الإسلام ، والمعاندة لما قد ثبت في كتاب الله أو في سنة رسوله فهذا بمجرده يصك وجه كل محتال ، ويرغم أنف كل متجرىء على دين الله بإسقاط ما هو واجب فيه أو تحليل ما هو من محرماته .

---

(١) في (ب) و (أ) (وما يخادعون) وهو سهو من المؤلف والناسخ .
(٢) سورة البقرة آية : ٩ (٣) سورة النساء آية : ١٤٢ .
(٤) سورة آل عمران آية : ٥٤ (٥) في (ب) (أحل) .

(أ) إبطال حجج القائلين بالحيل :

وأما تمسك أهل الرأى المحتالين على الإسلام وأهله بمثل قوله[1] سبحانه لنبيه أيوب عليه السلام : (وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث)[2] وأنه سبحانه أذن له أن يتحلل من يمينه بالضرب بالضغث وبمثل ماأخبر الله سبحانه عن نبيه يوسف عليه السلام أنه جعل صواعه فى رحل أخيه ليتوصل بذلك إلى أخذه من إخوته وأخبر سبحانه أنه فعل ذلك برضاه وإذنه ، كما قال : (كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك إلا أن يشاء الله[3]) . وبمثل ما صح عنه صلى الله عليه وآله وسلم : « أنه استعمل رجلا على خيبر فجاءهم بتمر جنيب فقال صلى الله عليه وآله وسلم : أ كل تمر خيبر هكذا ؟ قال : إنا لنأخذ الصاع من هذا بالصاعين ، والصاعين بالثلاثة . فقال : لا تفعل ، بع الجميع بالدراهم ثم ابتع بالدراهم جنيباً[4] » .

« وقد[5] لقى النبي صلى الله عليه وآله وسلم طائفة من المشركين . فى نفر من أصحابه فقال المشركون : من أنتم ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : من ماء فنظر بعضهم إلى بعض وقالوا : أحياء اليمن كثير ، فلعلهم منهم وانصرفوا » .

وجاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال : « احملنى ، فقال : ما عندى إلا ولداً لناقة فقال : ما أصنع بولد الناقة ؟ فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : وهل تلد الإبل – إلا النوق ؟ » .

فيجاب عنه بأن ما ذكروه من قصة أيوب خارج عما نحن بصدده ، فإن

---

(١) فى (ب) (قول الله) (٢) سورة (ص) آية : ٤٤ .

(٣) سورة يوسف آية : ٧٦

(٤) فى (ب) خبيبا ، بالخاء هو تصحيف والجنيب نوع جيد من أنواع التمر .

(٥) فى (ب) سقطت (قد) من الناسخ .

أيوب نذر أن يضربها مائة عصى وقد ضربها كذلك بمائة عصى . وأيضاً لو سلم أنه نذر أن يضرب بمائة عصى مفرقة ، أو مائة ضربة مفرقة فذلك الذى أذن الله له به تخفيف على المرأة ونسخ لما كان قد أوجبه[1] على نفسه على تقدير أنه كان[2] يجب فى شريعته الوفاء بالنذر ، وأنه لما نذر أوجب الله ذلك عليه ثم خفف عليه ونسخ ما كان قد أوجبه الله عليه بإيجابه على نفسه .

وما المانع من أن يوجب الله شيئاً ثم ينسخه وليس النزاع فى مثل هذا فإن شريعتنا هذه فيها الناسخ والمنسوخ

وإنما النزاع فى شريعة كملت وأخبرنا الله[3] بكمالها فقال : (اليوم أكملت لكم دينكم)[4] ثم انقطع الوحى بموت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . ثم جاء جماعة حولوا الشريعة وبدلوها فحللوا حرامها ، وأسقطوا فرائضها بأكاذيب لم يأذن الله بها ، بل هى ضد لشريعته ودفع لها ورفع لأحكامها .

فأين قصة أيوب من صنيع هؤلاء المحتالة على الله وعلى رسوله وعلى الشريعة الإسلامية ، وعلى عباد الله المسلمين ؟ .

وأى جامع يجمع بين هذا وبين قصة أيوب ؟ ثم هذه القصة الأيوبية هى من التحلل من الأيمان والخروج من المأثم ، فلو فرضنا أن لها دخلا فيما قصدوه لكان ذلك خاصاً بما فيه خروج من المأثم والتحلل من الأيمان . وقد ثبت فى شرعنا أن اليمين إذا كان غيرها خيراً منها كان الحنث أولى من البر كما صح

---

(١) (ب) زيادة الآتى (الله عليه بإيجابه) بعد أوجبه .

(٢) فى (ب) (لا توجد « كان ») .

(٣) (ب) (سبحانه) بعد لفظ الجلالة .

(٤) سورة المائدة آية : ٣ .

عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : « من حلف على شيء فرأى غيره خيراً منه ، فليأت الذى هو خير وليكفر عن يمينه » وصح عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : « والله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذى هو خير و كفرت عن يمينى » .

فقد ثبت فى شرعنا أن الحالف على يمين غيرها خير منها يكفر عن يمينه من غير حاجة إلى ضرب فى مثل صورة يمين أيوب لا مفرقاً ولا مجموعاً وقد ثبت أن امرأة أيوب كانت ضعيفة لايحتمل ضعفها لوقوع مائة ضربة مفرقة .

ومثل هذا قد سوغت شريعتنا التخفيف فيه خروجاً من المأثم ، ولا سيما إذا صح ماروى أن مريضاً أقر بالزنا وكان ضعيفاً لايحتمل الحد الشرعى فأمر النبى صلى الله عليه وآله وسلم بأن[1] يضرب بشمراخ من النخل فيه مائة عثكول . فهذا ليس بحيلة بل شريعة ثابتة .

وليس النزاع إلا فيما فعله المحتالون من زحلقة أحكام الشريعة بالأقول الكاذبة المفتراة ، لا فيما قد[2] ثبت فى الشريعة .

وبهذا يتقرر لك أن استدلالهم بقصة أيوب خارج عن محل النزاع ، مع أن هذه القصة هى أعظم ما عولوا عليه وبنوا عليه القناطر التى ليست من الشريعة فى قبيل ودلا بير . بل هى ضد الشريعة وعناد لها .

وأما قصة يوسف فالجواب عنها واضح لأنها واقعة وقعت لنبى من أنبياء الله سبحانه ، صنعها الله سبحانه له لغير أراد به لأحد .

---

(١) فى (ب) (أن يضر) دون الباء .

(٢) فى (ب) نسى الناسخ (قد) .

فإن كان مثل ذلك ممنوعاً فى شريعتنا فقد نسخ ما كان فى تلك الشريعة بما كان فى شريعتنا[1]، وشريعتنا هى الشريعة الناسخة للشرائع ، ومعلوم أنه لا يؤخذ مما كان من الشرائع السابقة إلا ما قررته شريعتنا منها لا ما خالفته وأبطلته ، فما لنا والتعلق بشريعة منسوخة ؟! .

وإن كان مثل ذلك جائزاً فى شريعتنا فليس النزاع فيما هو جائز فيها . بل النزاع فى حيل المحتالين ودنس المدنسين المحللين لأحكام الشريعة من عند أنفسهم المسقطين لفرائض الله سبحانه بآرائهم القابلة وتدليساتهم الباطلة

(ب) الحيلة والشريعة :

والحاصل أن كل ما ثبت فى الشريعة من تخفيف أو خروج من مأثم فنحن نقول هو شريعة بيضاء نقية ، فمن زعم أنه حيلة فقد افترى على الله وعلى رسوله وعلى كتاب الله[2] وعلى سنة رسوله الكذب الصراح والباطل البواح . فأين هذا من صنع هؤلاء المعاندين لله ولرسوله المخالفين للكتاب والسنة الدافعين لما هو ثابت فيها بعد كمالها وتمامها وموت نبيها وانقطاع الوحى منها ؟! يا لله العجب من هؤلاء الذين تجرءوا أولا على عناد الشريعة ومخالفتها !! . وثانياً الاستدلال بما شرعه الله لعباده ، أو كان فى شريعة نبى من الأنبياء قد رفعت شريعتنا حكمه ونسخته وأبطلته !! .

وهكذا يجاب عنهم فى حديث التمر وبيع الجميع بالدراهم وشراء الجنيب بها . فإن ذلك شريعة واضحة وسنة قائمة متضمنة لبيع الشىء بقيمته التى يقع

---

(١) فى (ب) سقط من الناسخ الآتى : (فقد نسخ ما كان فى تلك الشريعة بما كان فى شريعتنا) .

(٢) فى (ب) (كتابه) .

التراضي عليها ، فكان ذلك مما أذن الله سبحانه به بقوله تعالى : (تجارة عن تراض)[1] ويقول رسوله[2] صلى الله عليه وآله وسلم : « لا يحل مال امرىء مسلم إلا بطيبة من نفسه » . وليس مما نهى الله عنه بقوله سبحانه: (لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل)[1]، ويقول رسوله[2] صلى الله عليه وسلم[3]: « إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام » .

(هـ) الحيلة من الإضافات للشريعة المبطلة لفرائضها :

وليس النزاع إلا في صنع المحتالين المخالفين للشريعة المزلزلين لأحكامها المستبدلين بها غيرها بعد كمالها وانقطاع الوحي منها وموت نبيها صلى الله عليه وآله وسلم .

فأنتم أيها المحتالون إذا عملتم بهذا الحكم الثابت في السنة فليس ذلك من العمل بالحيلة في شيء ، بل من العمل بالشريعة الإسلامية ، ولا نطلب منكم إلا العمل بها والثبوت على ما فيها ، وترك تحليل حرامها وإبطال فرائضها .

فاشدد يديك على ما ذكرناه ها هنا من الجواب على المحتالين فإنك إن جاريتهم به ألقمتهم حجراً وقطعتهم قطعاً لا يجدون عنه محيصاً .

وقد أجاب عنهم أهل العلم بجوابات لم نرتضها وتركنا ذكر شيء منها لاحتمالها المعارضة والمناقضة وفتح باب المقال للمحتالين .

(د) المعاريض من الشريعة :

وأما ما ذكروه من قوله صلى الله عليه وآله وسلم لمن سألهم : من هم ؟ فقال

---

(١) سورة النساء آية : ٢٩ (٢) في (ب) (رسول الله) .
(٣) في (ب) (صلى الله عليه وآله وسلم) .

صلى الله عليه وآله وسلم : « من ماء » ، وقوله صلى الله عليه وآله وسلم : « أحملك على ولد الناقة » فليس فى هذا من الحيلة المحرمة شىء ، بل هو من باب المعاريض فى الكلام ، وقد ثبت الإذن بها فى هذه الشريعة كما صح عنه صلى الله عليه وآله وسلم : « أنه كان إذا أراد غزوة يورى بغيرها » مع كون قوله صلى الله عليه وآله وسلم)[1] « نحن من ماء » كلام صحيح صادق فإنه قصد صلى الله عليه وآله وسلم ما ذكره الله سبحانه من قوله سبحانه : (وهو الذى خلق من الماء بشرا)[2] ونحوها من الآيات وكذلك قوله « أحملك على ولد الناقة » فإن الجمل هو ولد الناقة ، وكذلك ماروى صلى الله عليه وآله وسلم من قوله : « لاتدخل الجنة عجوز » : وكذلك ماروى عن أبى بكر رضى الله عنه فى حديث الهجرة أنه كان إذا سئل عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من هو ؟ : قال : « هذا يهدينى السبيل » .

[فالمعاريض][3] باب آخر ليست من التحيل فى شىء : لكن هؤلاء قد صاروا مثل الغريق بكل حبل يلتوى .

فيامعشر المحتالين على الله وعلى كتابه وعلى رسوله وعلى سنته وعلى المسلمين

دعوا كل قول عند قول محمد فما آمن فى دينه كمخاطر
فدع عنك بهتاً صيح فى حجراته وهات حديثاً ما حديث الرواحل
يقولون أقوالا ولا يعرفونها ولو قيل هاتوا حققوا لم يحققوا

---

(١) فى (ب) (وسلم دون آله) .
(٢) سورة الفرقان آية : ٥٤ .
(٣) فى (أ) المعارض (وهو سهو من المؤلف) .

(ه) من الحيل المكفرة والمنافية للدين :

إذا عرفت هذا فاعلم أن من هذه الحيل الشيطانية ما يستلزم كفر فاعله وكفر من أفتاه ، وذلك كمن يفتي المرأة بأن ترتد عن الإسلام لأجل تبين من زوجها .

وكمن يفتي الحاج إذا خاف الفوت وخشي وجوب القضاء عليه من قابل أن يكفر بالله ويرتد عن الإسلام ، فإذا عاد إلى الإسلام لم يلزمه القضاء .

فاسمع واعجب من حيلة أوجبت كفر فاعلها وكفر من أفتاه بها فكانت ثمرة هذه الحيلة الملعونة هي خروج رجلين مسلمين من الإسلام إلى الكفر . فهل شيء من الشر[1] يعدل هذا الشر ؟ ! وهل نوع من معاصي الله يعدل الكفر بالله والخروج عن دين الإسلام ؟ .

وهذا المفتي وإن كان قد ظلم نفسه ابتداء وخرج من الإسلام إلى الكفر فعلى نفسها براقش تجني . ولكن الشأن في ظلمه لهذه المسكينة وهذا المسكين الذين استفتياه عن الشريعة الإسلامية فأخرجهما منها بادىء بدء .

ومن جملة الحيل الملعونة ما قالوه في إسقاط القصاص الشرعي أنه إذ جرح رجلا فخشي أن يموت من الجرح فإنه يدفع إليه دواء مسموماً يموت به فيسقط عنه القصاص .

ومما قالوه في إسقاط حد السرقة أن السارق يقول هذه ملكي وهذه داري وهذا عبدي .

ومن هذه الحيل الملعونة أنه إذا اغتصب شيئاً فادعاه المغصوب عليه

---

(١) في (ب) (من الشريعة) وهو خطأ .

فأنكره فطلب تحليفه قالوا : إنه يقر به لولده الصغير ، فيسقط عنه اليمين ويفوز بالمغصوب .

وقالوا : إذا أراد إخراج زوجته من الميراث في مرضه أقر بأنه قد طلقها ثلاثاً .

وقالوا : إذا كان في يده نصاب فباعه أو وهبه قبل الحول ثم استرده سقطت عنه الزكاة . بل قالوا : إذا كان عنده نصاب من الذهب والفضة وأراد إسقاط زكاته في جميع عمره ، فالحيلة أن يدفعها إلى محتال مثله في آخر الحول ، ويأخذ منه نظيره فيستأنفا الحول ، ثم إذا كان آخر الحول فعلا كذلك فلا تجب عليهما زكاة ما عاشا . وهكذا إذا كان له عروض للتجارة قالوا : ينوى آخر الحول أنها القنية ثم ينقض هذه النية بعد ساعة ، فلا تجب عليه زكاة ما عاش .

وهكذا قالوا إذا أراد أن يجامع في نهار رمضان يبتدىء بالأكل والشرب ثم يجامع بعد ذلك ، فلا يجب عليه الكفارة . بل قالوا إنه إذا نوى قبل الجماع قطع الصوم لم تجب عليه الكفارة .

وهكذا قالوا إذا كان له نصاب من السائمة فأراد إسقاط زكاتها ، فالحيلة في ذلك أن يعلفها يوماً واحداً ثم تعود إلى السوم .

وكم نعد من هذه الحيل الطاغوتية لهؤلاء الشياطين فإنها في الغالب في كل باب من أبواب الشريعة .

ومن لم يعرف أنها حيل باطلة معاندة للشريعة لا يجوز التعلق بشيء منها ، ولا يتحلل فاعلها مما هو عليه فهو بهيمة ليس من هذا النوع الإنساني ولا يستحق أن يخاطب خطاب العقلاء فضلا عن خطاب المتشرعين .

ويجب على كل مسلم أن يعاقب فاعل هذه الحيل[1] الملعونة بما يليق به من العقوبة حتى يرجع عن فعله، ويلتزم بما[2] يلزمه شرعا، ويتوب إلى الله سبحانه من الذنب الذى أوقعه فيه المفتى له[3].

وأما المفتى له فينبغى إغلاظ العقوبة له حتى يعترف أولا ببطلان ما خيله له الشيطان، وأوقعه فيه من أن تلك الحيلة المعاندة لدين الإسلام ليس لها وجه صحة أو شائبة من[4] قبول، ثم يتوب إلى الله من أن يعود إلى شىء من تلك الفتاوى الملعونة، فإن فعل ذلك، وإلا فأقل الأحوال تطويل حبسه حتى تصح توبته، وإشهاره فى الناس بأنه معاند للشريعة فيما قد فعله وتحذير الناس من قبول ما يدليهم به من الغرور ويوقعهم فيه من الباطل.

(ب) « التقرب بالنوافل » :

قوله: «وما زال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل» «فى رواية الكشميهنى[5]» وما يزال «بصيغة المضارع»[6]. ووقع فى حديث أبى أمامة «يتحبب إلى» بدل يتقرب. وكذا حديث ميمونة.

والتقرب التفعل وهو طلب القرب. والنوافل هى ما عدا الفرائض التى افترضها الله سبحانه على عباده من جميع أجناس الطاعات من صلاة وصيام وحج وصدقة وأذكار، وكل ما ندب الله سبحانه إليه ورغب فيه من غير حتم وافتراض.

---

(١) فى (ب) (الحيلة). (٢) فى (ب) (ما يلزمه)

(٣) فى (ب) (المفتى) (٤) فى (ب) نسى الناسخ (من).

(٥) فى (ب) (الكشهينى بتأخير الياء: (تحتها نقطتان) عن الهاء، وهو خطأ كما تقدم.

(٦) فى فتح البارى (المضارعة).

وتختلف النوافل باختلاف ثوابها فما كان ثوابه أكثر كان فعله أفضل . وتختلف أيضاً باختلاف ما ورد في الترغيب فيها : فبعضها قد يقع الترغيب فيه ترغيباً مؤكداً . وقد يلازمه صلى الله عليه وآله وسلم مع الترغيب للناس في فعله .

١ — من نوافل الصلاة :

ومن نوافل الصلاة المرغب فيها المؤكد في استحبابها رواتب الفرائض وهي كما في الصحيحين وغيرهما من حديث عبد الله(*) بن عمر قال : « حفظت عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ركعتين قبل الظهر وركعتين بعد الظهر وركعتين بعد المغرب وركعتين بعد العشاء وركعتين قبل الغداة » .

وأخرجه الترمذي وصححه من حديث عائشة(**) . وأخرجه أحمد ومسلم وأبو داود بمعناه ، لكن زادوا : « قبل الظهر أربعا » .

وأخرج مسلم وأهل السنن من حديث أم حبيبة(***) بنت أبي سفيان عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « من صلى في يوم وليلة اثنتى عشرة سجدة سوى المكتوبة بنى له بيت في الجنة » . زاد الترمذي : « أربعا قبل الظهر

الأعــــلام

(*) هو عبد الله بن عمر بن الخطاب ، أسلم مع أبيه بمكة قبل سن البلوغ ، كان من أعبد الناس ومن أورعهم ومن علماء الصحابة ، وعن نافع أنه مات بمكة سنة ٧٤ أو ٧٣ هـ .

(**) أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق (رضى الله عنه) والزوجة الثانية لرسول الله ﷺ بعد السيدة خديجة (رضى الله عنها) توفيت سنة ٥٧ أو ٥٨ (صفوة الصفوه جـ ٢) .

(***) اسمها رملة بنت أبي سفيان بن حرب أم المؤمنين إحدى زوجات الرسول ﷺ توفيت سنة ٤٤ في خلافه معاوية (رضى الله عنه) المصدر السابق.

وركعتين بعدها وركعتين بعد المغرب » وزاد النسائي : « وركعتين قبل العصر ولم يذكر ركعتين بعد العشاء » .

وأخرج أحمد وأهل السنن من حديثها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « من صلى أربع ركعات قبل الظهر وأربعا بعدها حرمه الله على النار » وصححه الترمذي ، ولكنه من رواية مكحول (٠) عن عنبسة (٠٠) بن أبي سفيان عن أم حبيبة ولم يسمع مكحول من عنبسة ، وفي إسناد الترمذي عبد الرحمن بن القاسم بن عبد الرحمن صاحب أبي أمامة، وقد اختلف فيه فنهم من يضعف روايته ، ومنهم من يوثقه . ووجه تصحيح الترمذي له أنه قد تابع مكحولا (الشعبي)[1] وهو ثقة وقد صحح هذا الحديث أيضاً ابن حبان . وأخرج أحمد وأبو داود والترمذي عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : (رحم الله أمرأ صلى قبل العصر أربعا) حسنه الترمذي ،وصححه ابن حبان (٠٠٠) وابن خزيمة(٠٠٠٠)،وفي

---

(١) في (أ) (الشعيثي) وهو سهو من المؤلف .

الأعلام

(٠) مكحول بن أبي مسلم شهراب بن شاذل أبو عبد الله الهذلي بالولاء ،فقيه الشام في عصره ،من حفاظ الحديث توفي توفيسنة ١١٢ هـ. الأعلام جـ٨ص٢١٢

(٠٠) عنبسة بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية أمير ، وكان أخوه معاوية يوليه . توفي بالطائف سنة ٥٠ هـ الأعلام جـ ٥ ٢٦٩ .

(٠٠٠) أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد بن حبان التميمي. كان إماما فاضلا ، سافر الكثير في طلب الحديث ، وتصانيفه مشهورة ، روى عن ابن خزيمة والنسائي ، وغيرهم ، وروى عنه الحاكم أبو عبد الله وغيره ، وروى عنه الدارقطني إجازة ، وتوفي ببست سنة ٣٥٤ هـ. (اللباب) في تهذيب الأنساب .

(٠٠٠٠)من(٢٢٣ — ٣١١هـ) محمد بن إسحق بن خزيمة السلمي إمام نيسابور في عصره . كان فقيهاً مجتهدا عالما بالحديث تزيد مصنفاته على ١٤٠ . الأعلام جـ ٦ ص ٢٥٢ .

إسناده محمد بن مهران وفيه مقال وقد وثقه ابن حبان وابن عدى(*).

وأخرج أحمد وأبو داود من حديث عائشة قالت « ما صلى[1] ، صلى الله عليه وآله وسلم العشاء قط فدخل على إلا صلى أربع ركعات أو ست ركعات » ورجال إسناده ثقات ، ومقاتل بن بشير العجلى ، وقد وثقه ابن حبان وقد أخرجه النسائى ، وأخرجه البخارى ، وأبو داود والنسائى من حديث ابن عباس وقال : « بت عند خالتى ميمونة(**) الحديث » وفيه « فصلى[2] النبي صلى الله عليه وآله وسلم العشاء ثم جاء إلى منزله فصلى أربع ركعات » وقد ثبت فى الصحيحين وغيرهما من حديث عائشة قالت : « لم يكن النبي صلى الله عليه وآله وسلم على شىء من النوافل أشد تعاهداً منه على ركعتى الفجر » وأخرج أحمد ومسلم والترمذى وصححه من حديثها عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قالت :[3] « ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها » وأخرج أحمد وأبو داود من[4] حديث أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « لا تدعوا ركعتى الفجر ولو طردتكم الخيل »

(١) فى (أ) : (ما ﷺ الخ) وهو سهو من المؤلف .
(٢) فى (ب) : (وصلى) .
(٣) فى (ب) (قال) .
(٤) فى (ب) (عن أبى هريرة) .

الأعـــلام

(*) (٢٧٧ — ٣٦٥ هـ) عبد الله بن عدى بن عبد الله بن محمد بن المبارك بن القطان الجرجانى علامة بالحديث ورجاله كان يعرف فى بلده بابن القطان واشتهر بين علماء الحديث بابن عدى له (الكامل فى معرفة الضعفاء والمتروكين من الرواة) ، من الثقات فى الحديث . الأعلام جـ٤ ص٢٣٩ .

(**) ميمونة بنت الحارث الهلالية أم المؤمنين وإحدى زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم .

وفى إسناده عبد الرحمن بن إسحاق (*) المدنى ، ويقال : عباد ابن إسحق . قال أبو حاتم الرازى (**) : لا يحتج به ، وهو حسن الحديث وليس بثبت ولا قوى : قلت : قد أخرج له مسلم واستشهد به البخارى ووثقه يحيى بن معين .

ومن النوافل المؤكدة صلاة الليل مع الوتر فى آخرها : وقد ثبت فى الصحيحين وغيرهما من حديث ابن عمر قال : قام رجل فقال : يا رسول الله : « كيف صلاة الليل ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : صلاة الليل مثنى فإذا خفت الصبح فأوتر بواحدة » .

وثبت فى الصحيحين وغيرهما من حديث عائشة قالت : « كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يصلى ما بين أن يفرغ من صلاة العشاء إلى الفجر إحدى عشرة ركعة يسلم بين كل ركعتين ويوتر بواحدة » .

وثبت فى الصحيحين وغيرهما من حديثها قالت : « كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يصلى من الليل ثلاث عشرة ركعة يوتر من ذلك بخمس لا يجلس فى شيء منهن إلا فى آخرهن » .

وثبت [فى](١) الصحيح « أنه كان يصلى فى الليل أربعاً ثم أربعاً ثم يوتر بركعة » وثبت الإيتار بسبع وتسع .

---

(١) فى (أ) (فى) غير واضحة وعليها شطب .

الأعـلام

(*) عبد الرحمن بن اسحق بن محمد السدوسى ، أبو على الجوهرى من (٢٥١ — ٣٢٠) قاض كان فقيهاً حاسبا . الأعلام ج ٤ ص ٦٩ .

(**) من (١٩٥ — ٢٧٧) محمد ابن إدريس بن المنذر بن داود بن مهران الحنظلى حافظ للحديث من أقران البخارى ومسلم ولد فى الرى وإليها نسبته وتنقل فى العراق والشام ومصر (الأعلام ج ٦ ص ٢٥٠) من كتبه طبقات التابعين (خ) .

ومن النوافل المؤكدة صلاة الضحى : والأحاديث فى مشروعيتها متواترة حسبما أوضحنا ذلك فى شرحنا للمنتقى ومنها ما هو فى الصحيحين كحديث أبى هريرة : « أوصانى خليلى صلى الله عليه وآله وسلم بثلاث : صيام ثلاثة أيام من كل شهر ، وركعتى الضحى وأن أوتر قبل أن أنام » . وفيهما من حديث أم هانى (*) « أنه صلى الله عليه وآله وسلم صلى سبحة الضحى ثمانى ركعات يسلم بين كل ركعتين » ، ومنها ما هو فى أحدهما كحديث أبى ذر قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « يصبح على كل سلامى صدقة إلى أن قال : ويجزى من ذلك ركعتين تركعهما من الضحى » أخرجه مسلم وغيره

وأخرج مسلم وغيره من حديث عائشة قالت : « كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يصلى الضحى أربع وثمان ركعات ويزيد ما شاء » ومنها ما هو فى غيرهما وهو أحاديث كثيرة

ومن النوافل المؤكدة صلاة تحية المسجد ، والأحاديث فيها كثيرة صحيحة ، ومنها حديث أبى قتادة (**) فى الصحيحين وغيرهما قال : قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم : « إذا دخل أحـــدكم المسجد فلا يجلس حتى يصلى ركعتين » .

الأعـــلام

(*) هى هند بنت عبد المطلب عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن السابقات إلى الاسلام ومن بيتها أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم . السيرة النبوية لابن هشام ج ٢ ص ٤٣ .

(**) هو أبو قتادة الحارث بن ربعى (رضى الله عنه) شهد أحداً وما بعدها وكان من الفرسان المذكورين توفى سنة ٥٤ هـ . صفوة الصفوة ص ٢٦٨ ج ١ .

ومن النوافل المؤكدة الصلاة عقب الوضوء كما فى حديث بلال (*) فى الصحيحين وغيرهما أنه قال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: « حدثنى بأرجى عمل عملته فى الإسلام فإنى سمعت دو(١) نعليك بين يدى فى الجنة قال: ما عملت عملا أرجى عندى إنى لم أتطهر طهورا فى ساعة من ليل أو نهار إلا صليت بذلك الطهور ما كتب لى أن أصلى » . ومن النوافل المؤكدة الصلاة بين الأذان والإقامة كما فى حديث عبد الله بن مغفل (**) « بين كل أذانين صلاة ، بين كل أذانين صلاة ثم قال فى الثالثة لمن شاء » . وهو فى الصحيحين وغيرهما . والمراد بالأذانين الأذان والإقامة . وفى لفظ من حديثه متفق عليه أنه صلى الله عليه وآله وسلم قال: « صلوا قبل المغرب ركعتين ثم قال صلوا قبل المغرب ركعتين ثم قال عند الثالثة: لمن شاء كراهية أن يتخذها الناس سنة أى راجبة » وفى البخارى وغيره من حديث أنس (***)

---

(١) أى صوت مشيك ، وحركته . انظر (المنجد) فى اللغة : (مادة دوى) وقد جاء هذا الحديث فى صحيح مسلم برواية : « . . . فإنى سمعت الليلة خشف نعليك بين يدى فى الجنة » والمعنى واحد . جـ٨ ص ١٤٦ باب من فضائل بلال (رضى الله عنه) ، كتاب فضائل الصحابة (رضى الله عنهم) طبعة التحرير .

الأعــلام

(*) هو بلال بن رباح مؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يؤذن بعد دفن الرسول صلى الله عليه وسلم وذهب إلى الشام مع البعوث التى خرجت إليها . ومات بها سنة ١٨ هـ .

(**) هو عبد الله بن مغفل أبو سعيد رضى الله عنه كان من البكائين ومن الذين بعثهم عمر إلى البصرة يفقهونهم مات فى البصرة فى عهد يزيد بن معاوية المصدر السابق .

(***) هو أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم (رضى الله عنه) خدم النبى صلى الله عليه وسلم تسع سنين ودعا له الرسول بالدعاء المشهور « اللهم اكثر ماله وولده وأطل عمره واغفر ذنبه » قال أنس : لقد تحققت الثلاثة وأنا أرجو الرابعة . مات سنة ٩١ هـ صفوة الصفوة جـ١ ص ٨٢٩ .

قال : « كان إذا أذن المؤذن قام ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يبتدرون السوارى حتى يخرج النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهم كذلك » .

تذييل — محبة الله والاستكثار من تلك النوافل :

والحاصل أن جميع التقرب إلى الرب عز وجل بنوافل الصلاة فى جميع الأوقات من أحسن العبادات إلا فى الأوقات المكروهات ، فمن استكثر منها قرب [(١)] إلى الله بقدر ما فعل منها فأحبه وليس بعد الظفر بمحبة الله سبحانه[(٢)] لعبده شىء .

٢ — من نوافل الصيام :

وأما نوافل الصيام المؤكدة فهى كثيرة ، ومنها[(٣)] صوم شهر الله المحرم فإنه صلى الله عليه وآله وسلم سئل أى الصيام بعد رمضان أفضل ؟ فقال : « شهر الله المحرم » كما ثبت فى صحيح مسلم وأحمد وأهل السنن من حديث أبى هريرة . ولا يعارض هذا ما أخرجه الترمذى من حديث أنس قال : « سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أى الصوم أفضل بعد رمضان ؟ قال شعبان » . لأن فى إسناده صدقة بن موسى وليس بالقوى . ويؤيد أفضلية صوم المحرم ما أخرجه الترمذى وحسنه من حديث على[(*)] أنه سمع رجلا

(١) فى (ب) (سبحانه) . بعد لفظ الجلالة .
(٢) فى (ب) (تعالى) .
(٣) فى (ب) (فنها) .

الأعلام

(*) على بن أبى طالب (رضى الله عنه) ابن عم النبى (صلى الله عليه وسلم) وزوج ابنته فاطمة (رضى الله عنها) رابع الخلفاء الراشدين وأكثر الصحابة علما وورعا .

يسأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو قاعد فقال . يا رسول الله : أى شهر تأمرنى أن أصوم بعد شهر رمضان فقال « إن كنت صائماً بعد شهر رمضان فصم المحرم فإنه شهر الله فيه يوم تاب فيه على قوم ويتوب فيه على قوم يعنى يوم عاشوراء » .

وقد ثبت من حديث ابن عباس وعائشة وسلمة (*) بن الأكوع وابن مسعود فى الصحيحين وغيرها « أنه كان صلى الله عليه وآله وسلم يصوم يوم عاشوراء قبل أن يفرض رمضان ، فلما فرض رمضان قال : من شاء صامه ومن شاء تركه » .

وثبت فى صحيح مسلم وغيره أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال : « لئن بقيت إلى قابل لأصومن التاسع » وفى لفظ لأحمد : « صوموا يوم عاشوراء ، وخالفوا اليهود صوموا قبله يوماً وبعده يوماً » .

ومن نوافل الصيام المؤكدة : صيام ست من شوال كما فى حديث أبى [1] أيوب (**) عند أحمد ومسلم وأهل السنن عن رسول الله صلى الله عليه

---

(١) فى (ب) (أيوب) فقط وسهى الناسخ عن (أبى) .

الأعلام

(*) غزا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبع غزوات وقال فيه الرسول صلى الله عليه وسلم : « خير فرساننا اليوم أبو قتادة وخير رجالتنا سلمة » توفى بالمدينة سنة ٧٤ هـ . صفوة الصفوة جـ١ .

(**) هو خالد بن زيد بن كليب الأنصارى المشهور بأبى أيوب الأنصارى شهد العقبة مع السبعين ونزل الرسول صلى الله عليه وسلم فى بيته أول هجرته إلى المدينة . توفى سنة ٥٢ حين كان يريد معاوية فتح القسطنطينية ودفن بأصل حصنها : صفوة الصفوة جـ١ ص ١٨٦ .

وآله وسلم أنه قال : « من صام رمضان ثم أتبعه ستا من شوال فذلك صيام الدهر » . وأخرج أحمد وابن ماجه والنسائى والدارمى (٠) والبزار (٠٠) من حديث ثوبان (٠٠٠) عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : «من صام رمضان وستة أيام بعد الفطر كان تمام السنة من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها » .

وفى الباب أحاديث :

ومن نوافل الصيام المؤكدة : صوم عشر ذى الحجة فقد ثبت فى الصحيح عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : « ما من أيام العمل الصالح فيها أحب إلى الله عز وجل من هذه الأيام — يعنى أيام العشر ، قالوا يا رسول الله ولا الجهاد فى سبيل الله ؟ ولا الجهاد فى سبيل الله إلا رجل خرج بنفسه وماله ثم لم يرجع من ذلك شىء » .

ومن العشر يوم عرفة وقد ثبت فى صحيح مسلم وغيره من حديث أبى قتادة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « صوم يوم عرفة يكفر سنتين ماضية ومستقبلة ، وصوم يوم عاشوراء يكفر سنة ماضية » .

الأعـلام

(٠) عبد الله بن عبـد الرحمن بن الفضل بن بهرام التميمى الدرامى السمرقندى من حفاظ الحديث له (المسند) ، (فى الحديث) و (كتاب التفسير) ، (الجامع الصحيح جـ ١ . الأعلام جـ ٤ ص ٢٣٠ (١٨١ — ٢٥٥ هـ) .

(٠٠) أحمد بن عمرو بن عبد الخالق أبو بكر البزار حافظ من العلماء بالحديث من أهل البصرة له مسندان أحدهما كبير سماه (البحر الزاخر) والثانى صغير توفى سنة ٢٩٢ هـ . الأعلام جـ١ ص ١٨٢ .

(٠٠٠) هو أبو عبد الله ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم اشتراه الرسول صلى الله عليه وسلم فاعتقه فلم يزل معه حتى قبض ثم نزل حمص فمات سنة ٥٤ هـ ; المصدر السابق ص ٢٧٨ .

ومن نوافل الصيام المؤكدة صوم شعبان كما أخرج أحمد وأهل السنن من حديث أم سلمة « أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن يصوم من السنة شهراً تاماً إلا شعبان يصل به رمضان » وحسنه الترمذي .

ويكفي في مشروعية : مطلق التنفل بالصيام ، حديث : « الصوم لي وأنا أجزي به » وهو حديث صحيح .

٣ — من نوافل الحج :

وأما نوافل الحج ، فيكفي في ذلك حديث أبي هريرة « قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : أي الأعمال أفضل ؟ قال : إيمان بالله وبرسوله قال ثم ماذا ؟ قال الجهاد في سبيل الله قال : ثم ماذا ؟ : حج مبرور » وهو في الصحيحين وغيرهما ، وقد احتج به من فضل نفل[1] الحج على نفل الصدقة . وفي الصحيحين وغيرهما من حديثه أيضاً : أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « العمرة [كفارة][2] لما بينهما ، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة » . وفي الصحيحين وغيرهما من حديثه[3] قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه » .

٤ — « من نوافل الصدقة :

وأما نوافل الصدقة فقد ورد فيها الترغيب العظيم ، ولو لم يكن من ذلك

---

(١) في (ب) سهى الناسخ عن كلمة (نفل) قبل (الحج) .
(٢) في (أ) (كفان) بهذا الرسم تقريبا .
(٣) في (ب) (أيضاً) بعد (حديث) .

إلا قول الله عز وجل : « وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين »[1] وفى الصحيحين وغيرهما من حديث أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان من السماء فيقول أحدهما : اللهم اعط منفقا خلفا ، ويقول الآخر : اللهم اعط ممسكا تلفاً » . وفى صحيح مسلم وغيره من حديث أبى أمامة(*) قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « يا ابن آدم إنك إن تبذل الفضل خير لك ، وإن تمسكه شر لك ، ولا تلام على كفاف ، وابدأ بمن تعول واليد العليا خير من اليد السفلى » وفى الصحيحين وغيرهما من حديث أبى هريرة أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد من ثديهما إلى تراقيهما فأما المنفق فلا ينفق إلا [سبغت][2] عليه ووفرت على جلده حتى تخفى بنانه وتعفو أثره وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئاً إلا لزمت كل حلقة مكانها فهو يوسعها فلا تتسع » .

وأخرج البخارى وغيره من حديث ابن مسعود قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله ؟ قالوا يا رسول الله مامنا أحد إلا ماله أحب إليه من مال وارثه قال : فإن ماله ما قدم ومال وارثه ما أخر » .

---

(١) جواب (لو) مفهوم من المقام ، تقديره : (لكفى) .

(٢) فى (أ) ، (ب) (شبعت) وهو سهو خاطىء .

الأعلام

(*) هو أبو أمامة الباهلى واسمه عدى بن عجلان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وغزا معه غزوات متتابعة كان يكثر الصيام والصدقة والزهد فى الدنيا .

وفى الصحيحين وغيرهما من حديث أسماء(٠) بنت أبى بكر قالت : قال لى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « لا توكى(١) فيوكى الله عليك » وفى رواية « أنفقى أو انفحى(٢) أو انضحى ولا تحصى فيحصى الله عليك ولا توعى فيوعى الله عليك » .

وفى الصحيحين وغيرهما من حديث ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال : لا حسد إلا فى اثنتين : رجـل أتاه الله مالا فسلطه على هلـكته فى الحق ورجل أتاه الله حكمة فهو يقضى بها ويعلمها » وفى رواية « لا حسد إلا فى اثنتين : رجل أتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار ورجل آتاه الله مالا فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار » .

والأحاديث فى الترغيب فى الصدقة وعظيم(٣) أجرها كثيرة جداً وأفضلها صلة الرحم كما فى البخارى وغيره من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « من سره أن يبسط له فى رزقه وأن ينسأ له فى أثره فليصل رحمه » وفى الصحيحين وغيرهما من حديث عائشة قالت : « قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : الرحم معلقة بالعرش تقول : من وصلنى وصله الله ، ومن قطعنى قطعه الله » . وفى الصحيحين وغيرهما من حديث ميمونة « قالت يارسول الله : أشعرت أنى أعتقت وليدتى قال :

---

(١) لا تبخلى .

(٢) النفاح النفاع المنعم على الخلق قاموس (نفح) وفى (ب) عطف الناسخ بالواو دون (أو) وهو سهو منه .

(٣) فى (ب) (وعظم) .

الأعـلام

(٠) بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنه وأم عبـد الله بن الزبير صاحبة المواقف المشهودة مع الحجاج بجانب ولدها عبد الله . وذات النطاقين .

وفعلت ؟ قالت نعم قال أما أنك لو أعطيتها أخوالك كان أعظم لأجرك »
وأخرج النسائي من حديث سلمان ابن عامر قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : الصدقة على المسكين صدقة وعلى ذى الرحم ثنتان ، صدقة وصلة » .

(ج) التقرب بالأذكار :

ترغيب الكتاب ، والسنة فيها :

وأما نوافل الأذكار فقد ورد فى الترغيب فيها وعظيم[١] أجرها الكتاب والسنة . أما الكتاب فمن ذلك قوله[٢] عز وجل : «ولذكر الله أكبر »[٣] أى أكبر مما سواه من الأعمال الصالحة . وقال سبحانه : « فاذكرونى أذكركم »[٤] وقال سبحانه : « واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون »[٥] وقال : « ألا بذكر الله تطمئن القلوب »[٦] وقال عز وجل : « والذاكرين الله كثيراً والذاكرات »[٧] .

وفى السنة الكثير الطيب ، فمن ذلك حديث أبى هريرة قال : قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « أنا عندظن عبدى بى وأنا معه إذا ذكرنى ، فإن

---

(١) فى (ب) (عظم) .
(٢) فى (ب) (قول الله) .
(٣) سورة العنكبوت آية : ٤٥ .
(٤) سورة البقرة آية : ١٥٢ .
(٥) سورة الجمعة آية : ١٠ :
(٦) سورة الرعد آية : ٢٨ .
(٧) سورة الأحزاب آية : ٣٥ .

ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه ، وإن اقترب إلى شبراً اقتربت منه[1] ذراعا ، وإن اقترب إلى ذراعاً اقتربت إليه باعا ، وإن أتانى مشياً أتيته هرولة » وأخرجه البخارى أيضاً من حديث أنس ومن حديث أبى ذر(٠) وفى الصحيحين وغيرهما من حديث أبى موسى(٠٠) « الذى يذكر ربه والذى لا يذكر مثل الحى والميت » .

وأخرج أحمد والترمذى ومالك فى الموطأ وابن ماجه والحاكم فى المستدرك والطبرانى فى الكبير من حديث أبى الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « ألا أخبركم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها فى درجاتكم ، وخير لكم من إنفاق الذهب والفضة ، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ، ويضربوا أعناقكم قالوا : بلى قال : ذكر الله » وصححه الحاكم ، وقال الهيثمى(٠٠٠):

---

(١) فى (ب) (إليه) .

الأعلام

(٠) هو أبو ذر الغفارى جندب بن جنادة اهتدى إلى دين التوحيد قبل مبعث الرسول صلى الله عليه وسلم ، أسلم حين علم برسول الله صلى الله عليه وسلم وقال كنت رابعا فى الاسلام وحسن إسلامه وكان من الزاهدين فى زخرف الحياة . توفى سنة ٣٢ هـ صفوة الصفوة جـ١ ص٢٤٤ .

(٠٠) هو أبو موسى الأشعرى عبد الله بن قيس بن سليم من السابقين إلى الإسلام وأحد الحكمين فى الفتنة التى كانت بين معاوية وعلى (رضى الله عنه) قيل مات سنة ٤٢ أو ٤٤ ، أو سنة ٥٢ هـ . المصدر السابق ص٢٢٥ .

(٠٠٠) (٧٣٥ — ٨٠٧ هـ) على بن أبى بكر بن سليمان الهيثمى حافظ فقيه له كتب وتخاريج فى الحديث منها : (مجمع الزوائد ومنبع الفوائد « ط ») عشرة أجزاء . الأعلام جـ ٥ ص ٧٤ .

إسناده حسن ، وأخرجه أحمد من حديث معاذ(٠)، وقال المنذرى (٠٠) بإسناد جيد إلا أن فيه انقطاعا ، وقال الهيثمى : رجاله رجال الصحيح إلا أن زياد(٠٠٠) بن أبى زياد مولى ابن [عياش](١) لم يدرك معاذا

وأخرج مسلم من حديث أبى هريرة وأبى سعيد (٠٠٠٠) معاً عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : « لا يقعد قوم يذكرون الله تعالى إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ، ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله

---

(١) فى (أ) ، (ب) (عباس) بالباء والسين والأصح (عياش) .

الأعلام

(٠) هو معاذ بن جبل أو ابن عمر بن أوس أسلم وهو ابن ثمانى عشرة سنة وشهد العقبة مع السبعين والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعثه الرسول قاضيا إلى اليمن وشيعه ماشياً فى مخرجه وهو راكب توفى سنة ١٨ هـ وكان من أعبد الناس وأزهدهم فى الدنيا وأعقلهم . صفوة الصفوة جـ١ ص ١٩٥ .

(٠٠) من (٥٨١هـ — ٦٥٦) عبد العظيم بن عبد القوى بن عبد الله أبو محمد زكى الدين المنذرى صاحب (الترغيب والترهيب « ط ») مولده ووفاته بمصر . الأعلام جـ٤ ص ١٥٦ .

(٠٠٠) كان مولى لعبد الله بن عياش بن أبى ربيعة القرشى ، واسم أبيه ميسرة وكان عمر بن عبد العزيز يستزيره ويكرمه وبعث إلى مولاه ليبيعه إياه فابى وأعتقه . وقد روى زياد عن أنس بن مالك وقال مالك بن أنس كان زياد عابدا معتزلا لا يزال يذكر الله تعالى ويلبس الصوف ولا يأكل اللحم . صفوة الصفوة جـ٢ ص ٩ .

(٠٠٠٠) هو أبو سعيد الخدرى (رضى الله عنه) واسمه سعد بن مالك بن سنان استصغر يوم أحد فرد وشهد الخندق وما بعدها روى كثيراً من الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . صفوة الصفوة جـ١ .

سبحانه فيمن عنده ». وأخرجه غير مسلم من حديثهما ، منهم أبو داود الطيالسي(٠) وأحمد في المسند ، وأبو يعلى(٠٠) الموصلي وابن حبان وأخرجه أيضاً من حديثهما ابن أبي(١) شيبة والترمذي في الدعوات ، وابن شاهين(٠٠٠) في الذكر وأخرج مسلم والترمذي والنسائي من حديث معاوية « أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خرج على حلقة في المسجد من أصحابه فقال : ما أجلسكم ؟ قالوا جلسنا نذكر الله نحمده على ما هدانا للإسلام ومن به علينا . فقال آلله ما أجلسكم إلا ذلك ؟ قالوا : الله ما أجلسنا إلا ذلك قال : أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم ولكنه أتاني جبريل فأخبرني أن الله عز وجل يباهي بكم الملائكة ».

وأخرج الترمذي وحسنه من حديث أنس من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا قالوا يا رسول الله وما رياض الجنة ؟ قال حلق الذكر » وأخرجه أيضاً من حديثه أحمد في المسند والبيهقي في الشعب قال المناوي(٠٠٠٠) : وإسناده وشواهده ترتقي إلى الصحة

---

(١) غير محدد ينظر الأعلام جـ٤ ص ٣٢٦ ، ٢٦٠ ، جـ٧ ص ١٤٢ .
الأعلام

(٠) سليمان بن داود بن الجارود مولى قريش من كبار حفاظ الحديث فارسي الأصل كان يحدث من حفظه سمع يقول أحفظ ثلاثين ألف حديث ولا فخر، له مسند (ط).

(٠٠) أحمد بن علي المثنى التميمي الموصلي أبو يعلى حافظ من علماء الحديث له كتب منها : المعجم في الحديث ، ومسندان (كبير) و (صغير) توفي سنة ٣٠٧ هـ الأعلام جـ١ ص ١٦٤ .

(٠٠٠) عمر بن أحمد بن عثمان بن شاهين . توفي سنة ٣٨٥ هـ . الأعلام جـ ٥ ص ١٩٦ .

(٠٠٠٠) عبد الرؤف المناوي ، شارح الجامع الصغير ، وصاحب طبقات الصوفية، أو (الكواكب الدرية ، في تراجم السادة الصوفية) توفي سنة ١٠٢٩ هـ البدر الطالع للشوكاني .

وأخرجه الطبراني من حديث ابن عباس وفى إسناده رجل مجهول .

والأحاديث فى فضائل الذكر كثيرة جداً قد ذكرنا منها فى شرحنا لعدة الحصن الحصين أحاديث كثيرة وذكرنا المفاضلة بينها وبين سائر الأعمال فليرجع إليه .

أعظم الأذكار أجراً :

وينبغى أن نذكر هنا ما عظم أجره من الأذكار لينتفع به المطلع على هذا الشرح .

فأفضل الذكر ما كان فى دعاء الرب عز وجل فإنه مطلوب منه سبحانه كما قال : « ادعونى أستجيب لكم »[1] وعقبه بقوله : « إن الذين يستكبرون عن عبادتى » الآية » ، فجعل الدعاء له فى حوائج العبد عبادة ، وجعل تارك الدعاء مستكبراً عن عبادته : فسبحان الله العظيم ذى الكرم الفياض ، والجود [المتتابع][2] . جعل سؤال عبده لحوائجه وقضاء مآربه عبادة له وطلبه منه وذمه على تركه بأبلغ أنواع الذم ، فجعله مستكبراً على ربه : فشكراً لك يا رب على هذه النعمة شكراً يليق بك لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك .

وقال عز وجل : « أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء »[3]

وقال : « وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان»[4]

---

(١) سورة غافر آية ٦٠

(٢) فى (أ) تحريف للباء إلى اللام هكذا (المتتالع) وهو سهو خطى من المؤلف .

(٣) سورة النمل آية ٦٢ .

(٤) سورة البقرة آية : ١٨٦ .

ومما قلته من النظم فى شكره عز وجل على نعمه التى هذه النعمة العظمى فرد من أفرادها :

لو كان لى كل لسان لما　　وفيت بالشكر لبعض النعم

فكيف لا أعجز عن شكرها　　وليس لى غير لسان وفم ؟

هذا هو الإفضال هذا العطاء　　الفياض هذا الجود هذا الكرم

وأخرج ابن أبى شيبة فى مصنفه وأهل السنن الأربع وابن حبان [1] من حديث النعمان (•) بن بشير قال : قال صلى الله [2] عليه وآله وسلم : « الدعاء هو العبادة » ثم تلا الآية : وقال ربكم ادعونى أستجيب لكم ، إن الذين يستكبرون عن عبادتى — الآية » . وصححه الترمذى وابن حبان والحاكم .

وأخرج الترمذى من حديث أنس قال قال رسول [الله صلى [3] الله عليه وآله وسلم] : « الدعاء مخ العبادة »

وأخرج الترمذى وابن حبان من حديث سلمان عنه صلى الله عليه وآله وسلم قال « لا يرد القضاء إلا الدعاء ولا يزيد العمر إلا البر » وصححه ابن حبان .

---

(١) فى (ب) سقط من الناسخ (وابن حبان) .

(٢) فى (ب) « صلى الله تعالى عليه الخ » .

(٣) فى (أ) سها المؤلف عن الصلاة على النبى وكتب لفظة «رسول» مجردة من الإضافة إلى « الله » .

الأعلام

(•) النعمان بن بشير بن سعد بن ثعلبة الخزرجى الأنصارى أبو عبد الله أمير خطيب شاعر من أجلاء الصحابة من أهل المدينة له ١٢٤ حديثا من [٢ — ٦٥ هـ] الأعلام ج ٩ ص ٤ .

وأخرجه أيضا الحاكم وصححه . وقال الترمذى حسن غريب . وأخرجه أيضاً الطبرانى فى الكبير ، والضياء(*) فى المختارة .

وأخرج ابن أبى شيبة والطبرانى فى الكبير(١) والحاكم فى المستدرك وابن حبان فى صحيحه من حديث ثوبان أنه صلى الله عليه وآله وسلم قال « لا يرد القدر إلا الدعاء ولا يزيد فى العمر إلا البر ، وأن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه » .

وأخرج الحاكم فى المستدرك والبزار والطبرانى فى الأوسط والخطيب من حديث عائشة عنه صلى الله عليه وآله وسلم : « لا يغنى حذر من قدر، والدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل وأن البلاء لينزل فيتلقاه الدعاء فيعتلجان إلى يوم القيامة » . قال الحاكم صحيح وتعقبه الذهبي فى التلخيص ، بأن زكريا بن منصور أحد رجاله مجمع على ضعفه . وقال فى الميزان ضعفه ابن معين(**) ، ووهاه أبو زرعة(***) ، وقال البخارى منكر الحديث وقال ابن الجوزى :

---

(١) فى (ب) سقطت (فى الكبير) .

الأعلام

(*) المتوفى سنة ٦٤٣ هـ ضياء الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد بن أحمد ابن عبد الرحمن السعدى المقدسى الصالحى الحنبلى محدث عصره . ولد سنة ٥٦٩ هـ ولم يكن فى وقته مثله . من مصنفاته (الأحاديث المختارة) من مسموعاته : كتب منها تسعين جزءا ولم تكمل . شذرات الذهب جـ ٥ ص ٢٢٤ ، ٢٢٥ .

(**) من (١٥٨ — ٢٣٣) يحيى بن معين بن عوف زياد المرى بالولاء البغدادى من أئمة الحديث ومؤرخى رجاله . قال فيه العسقلانى : « إمام الجرح والتعديل » جـ ٩ ص ٢١٨ الأعلام .

(***) المتوفى سنة ٢٨٠ هـ عبد الرحمن بن عمرو أبو زرعة الدمشقى من أئمة زمانه فى الحديث ورجاله . له كتاب فى التاريخ وعلل الرجال . الأعلام جـ٤ ص ٩٤٠ .

حديث لا يصح ، وقال الهيثمي (*) في مجمع الزوائد : « رواه أحمد وأبو يعلى بنحوه ، والبزار والطبراني في الأوسط ، ورجال أحمد وأبي يعلى وأحد إسنادي البزار ، رجاله رجال الصحيح ، غير علي بن أحمد الرفاعي وهو ثقة »

قلت : وبهذا يعرف أن الحديث إذا لم يكن صحيحاً كما قال الحاكم فأقل أحواله أن يكون حسناً .

وأخرج الترمذي وابن حبان من حديث عائشة[1] عنه صلى الله عليه وآله وسلم : « ليس شيء أكرم على الله من الدعاء » قال الترمذي : حسن غريب ، وأخرجه أيضاً من حديثها أحمد في المسند والبخاري في التاريخ ، وابن ماجه والحاكم في المستدرك . وقال صحيح وأقره الذهبي ، وقال ابن حبان : حديث صحيح .

قلت : وإنما لم يصححه الترمذي لأن في إسناده عنده[2] عمران القطان ضعفه النسائي وأبو داود ومشاه أحمد قال ابن القطان : رواته كلهم ثقات إلا عمران وفيه خلاف .

وأخرج الترمذي من حديث أبي هريرة عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: « من لم يسأل الله يغضب عليه » وأخرجه ابن أبي شيبة في المصنف بلفظ « من لم يدع الله يغضب عليه » . وأخرجه باللفظ الأول الحاكم وكذلك أخرجه باللفظ الثاني[3] في المستدرك وصححه ، وما أحسن قول الشاعر :

---

(١) في (ب) سها الناسخ عن (عائشة) .
(٢) في (ب) سها الناسخ عن (عنده) .
(٣) في (ب) تكررت (الحاكم) قبل في المستدرك .

الأعـــلام

(*) أحمد بن محمد حجر الوائلي السعدي ، الهيثم المصري ، ثم المكي ، ولد سنة ٩٠٠ هـ وتوفي سنة ٩٧٣ هـ .

الله يغضب إن تركت سؤاله　　وإذا سألت بنى آدم يغضب

وأخرج ابن حبان والحاكم والضياء فى المختارة من حديث أنس مرفوعا : « لا تعجزوا فى الدعاء فإنه لن يهلك مع الدعاء أحد » وصححه ابن حبان والحاكم والضياء فهؤلاء ثلاثة[1] أئمة صححوه .

وأخرج الترمذى والحاكم من حديث أبى هريرة عنه صلى الله عليه وآله وسلم : « من سره أن يستجيب الله له عند الشدائد والكرب فليكثر الدعاء فى الرخاء » وصححه الحاكم وأقره الذهبى ، وأخرجه الحاكم أيضا من حديث سلمان وقال صحيح الإسناد .

وأخرج الحاكم من حديث أبى هريرة عنه صلى الله عليه وآله وسلم قال : « الدعاء سلاح المؤمن وعماد الدين ونور السموات والأرض » قال الحاكم : صحيح الإسناد وأخرجه أبو يعلى من حديث على بهذا اللفظ ، وأخرجه[2] أبو يعلى أيضا من [حديث][3] جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « ألا أدلكم على ماينجيكم من عدوكم ويدر [لكم][4] أرزاقكم ؟ تدعون الله سبحانه فى ليلكم ونهاركم فإن الدعاء سلاح المؤمن » .

وأخرج أحمد من حديث أبى هريرة عنه صلى الله عليه وسلم : « ما من مسلم ينصب وجهه لله فى مسألة إلا أعطاه إياها إما أن يعجلها له وإما أن يدخرها له » قال المنذرى فى الترغيب والترهيب : إسناده لابأس به . وأخرجه أيضا البخارى فى الأدب المفرد والحاكم .

---

(١) فى (ب) ثلاث .
(٢) فى (ب) (أخرج) بدل (أخرجه) .
(٣) فى (أ) سها المؤلف عن (حديث)
(٤) فى (أ) (لا توجد لكم) .

وأخرج أحمد والبزار وأبو يعلى والحاكم من حديث أبي سعيد عنه صلى الله عليه وآله وسلم : ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولاقطيعة رحم الا أعطاه الله بها إحدى ثلاث : إما أن يعجل له دعوته ، وإما أن يدخرها له فى الآخرة ، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها » قال الحاكم صحيح الإسناد. وقال المنذرى:أسانيده جيدة وأخرج أبو داود والترمذى وحسنه وابن حبان وصححه والحاكم وصححه أيضاً من حديث سلمان عنه صلى الله عليه وآله وسلم : « إن ربكم حيى كريم يستحيي إذا رفع الرجل إليه [يديه][1] أن يردهما صفرا خائبتين » . وأخرجه الحاكم وصححه من حديث أنس .

أذكار الأوقات وفوائدها :

ومن أكثر الأذكار أجوراً وأعظمها جزاء الأدعية الثابتة فى الصباح والمساء فإن فيها من النفع والدفع ماهى مشتملة عليه .

فعلى من أحب السلامة من الآفات فى الدنيا والفوز بالخير الآجل والعاجل أن يلازمها ويفعلها فى كل صباح ومساء ، فإن عسر عليه الاتيان بجميعها أتى ببعض منها . وقد ذكرها صاحب عدة الحصن وذكرنا فى الشرح لها تخريجها وبيان معانيها وما ورد فى معناها . وكذلك ينبغى ملازمة مايقال عند النوم وعند الاستيقاظ ، فإن ذلك هو الترياق المجرب فى دفع الآفات :

وهى أيضا مذكورة فى العدة .

وكذلك ينبغى للإنسان أن يحافظ عند خروجه عن بيته على أن يقول : « أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق » : ويقول : بسم الله الذى

---

(١) فى (أ) (يده) وهو سهو من المؤلف .

لا يضر مع اسمه شيء فى الأرض ولا فى السماء وهو السميع العليم » وآية الكرسي فإن ذلك حرز حريز من جميع الشرور لما ورد فى هذين الذكرين بهذا اللفظ ، وما ورد فى آية الكرسى .

وكذلك ملازمة الاستغفار فإنه المرهم الذى يغسل كل ذنب ، ومن غفرت ذنوبه فاز ، وعلى الصراط السوى جاز ، وقد ورد فى ذلك أحاديث ذكرها أئمة الحديث . وقد ذكر صاحب عدة الحصن منها نصيبا وافراً وذكرنا فى شرحنا لها ، الكلام على كل حديث منها وضممنا إليها زيادة على ما فيها .

أذكار التوحيد :

ومن أعظم ما يلازمه العبد من أذكار الله سبحانه هو كلمة التوحيد . وقد أخرج الترمذى وأحمد بن حنبل من حديث جابر عنه صلى الله عليه وآله وسلم قال : « أفضل الذكر لا إله إلا الله » ولفظ أحمد « لا إله إلا الله أفضل الذكر وهى أفضل الحسنات » . وأخرجه أيضا ابن ماجه من حديثه بلفظ : « أفضل الذكر لا إله إلا الله وأفضل الدعاء الحمد لله »[1] وكذا أخرجه النسائى وابن حبان وصححه والحاكم وقال صحيح الإسناد . كلهم أخرجوه من طريق طلحة بن حراش عن جابر . وطلحة أنصارى مدنى صدوق . قال : الأزدى له ما ينكر ووثقه ابن حبان ، وأخرج له فى صحيحه وأخرج أحمد من حديث أبى ذر قال : « قلت يارسول الله أوصنى قال : إذا [عملت][2] سيئة فأتبعها حسنة تمحوها قال قلت يارسول الله : أمن الحسنات لا إله إلا الله ؟ قال : هى أفضل الحسنات » . قال فى مجمع الزوائد رجاله ثقات

(١) فى (ب) نسى الناسخ (لله) .
(٢) فى (أ) حرفت من المؤلف سهواً إلى (علمت) .

إلا أن سمرة بن عطية حدث به عن أشياخه عن أبى ذر ولم يسم أحدا منهم . وأخرج مسلم من حديث أبى ذر قال : قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « مامن عبد قال لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة » وأخرج البخارى من حديث أبى هريرة أنه قال[1] : يارسول الله « من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : لقد ظننت أن لايسألنى عن هذا الحديث [أحد][2] أول منك لما رأيت من حرصك على الحديث ، أسعد الناس بشفاعتى يوم القيامة من قالها[3] خالصا من قلبه » ، «والأحاديث الثابتة فى كون من قال هذه الكلمة وكانت آخر قوله دخل الجنة متواترة ، فالحمد لله على ذلك .

وفى الصحيحين وغيرهما من حديث أبى أيوب أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال «من قال لا إله إلا الله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير عشر مرات كان كمن أعتق أربعة من ولد اسماعيل » .

---

(١) فى (أ) تكررت كلمة (قال) . وفى صحيح البخارى (قيل) بعد (قال) وليس لها معنى ، لأن السائل هو أبو هريرة ، وهو المخاطب فى الحديث

(٢) فى (أ) ، (ب) سقطت (أحد) من المؤلف ، ثم من الناسخ ، وهى فى الحديث فى صحيح البخارى . وروى ابن عبد البر هذا الحديث بعبارة (أحد أولى منك) وبعبارة (لقد ظننت أنك أول من يسألنى . (جامع بيان العلم ج ٢ ص ٢٧ .

(٣) فى هامش (أ) ، (ب) تفسير الضمير فى (قالها) بالعبارة الآتية : (يعنى كلمة التوحيد) وفى صحيح البخارى : (من قال : لا إله إلا الله) : بالإظهار بدل الإضمار . ينظر هذا الحديث ، فى صحيح البخارى . طبعة بولاق ج ١ (كتاب العلم) باب ٣٣ . وفى طبعة الشعب ج ١ ص ٣٥ — ٣٦ .

الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وفضلها :

ومما ينبغي لطالب الخير ملازمته ، والاستكثار منه وجعله فاتحة لكل دعاء الصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . فقد ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث جماعة « أن من صلى على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صلاة واحدة صلى الله عليه عشر صلوات » .

فانظر إلى هذا الأمر العظيم والجزاء الكريم ، يصلى العبد على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم واحدة فيصلى عليه خالق العالم ورب الكل عز وجل عشر مرات ؟ فهذا ثواب لايعادله ثواب وجزاء لايساويه جزاء وأجر لايماثله أجر !! .

فليستكثر منه من شاء الاستكثار من الخير فإن هذا العبد الحقير الذى هو أحد مخلوقات الرب سبحانه يقول بلسانه هذه الصلاة مرة فيرد الله عليه عشر مرات ؟ ! ! فهل دليل على الرضا والمغفرة والمحبة من الرب للعبد أدل من هذا الدليل وأوضح من هذه الحجة اللهم صل وسلم على محمد وعلى آل محمد عدد ماصلى عليه المصلون منذ بعثته إلى الآن ، وعدد ما سيصلى عليه المصلون من الآن إلى انقضاء العالم .

ومع هذا فمن أجور هذه الصلاة على سيد ولد آدم صلى الله عليه وآله وسلم ماورد من أن أولى الناس به صلى الله عليه وآله وسلم أكثرهم صلاة عليه وما ورد من أن من صلى عليه « صلى الله عليه وآله وسلم » حطت عنه عشر خطيئات ورفعت له عشر درجات وغير ذلك مما تكثر الإحاطة به .

بل ورد « أن من صلى عليه صلاة واحدة صلى الله عليه وملائكته سبعين صلاة » أخرج ذلك أحمد في المسند من حديث عبد الله بن عمرو . قال المنذري

فى الترغيب والترهيب بإسناد حسن وكذلك حسنه الهيثمى وتمامه « فليقل عبد من ذلك أو ليكثر » .

ومن نظر بعين المعرفة فى هذا وفهم معناه حق فهمه طار بأجنحة السرور والحبور إلى أوكار الاستكثار من هذا الخير العظيم والأجر الجسيم والعطاء الجليل والجود الجميل فشكراً لك ياواهب الجزل ومعطى الفضل .

التسبيح وفوائده :

ومما ينبغى لطالب الخير ملازمته التسبيح والتكبير والتوحيد والتحميد فقد ثبت فى صحيح مسلم من حديث سمرة(*) بن جندب قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : أحب الكلام إلى الله أربع : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر لا يضرك بأيهن بدأت » . وأخرجه من حديثه أيضا النسائى وابن ماجه وثبت فى الصحيحين وغيرهما من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « كلمتان خفيفتان على[1] اللسان ثقيلتان فى الميزان حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم » وورد أن الأربع الكلمات[2] المتقدمة أفضل الكلام بعد القرآن . كما أخرجه أحمد بإسناد رجاله رجال الصحيح .

---

(١) فى (ب) (فى اللسان) .

(٢) فى (ب) (الكلمنات) وهو سهو .

الأعلام

(*) توفى سنة ٦٠ هـ وهو سمرة بن جندب بن هلال الفزارى صحابى من الشجعان القادة له رواية عن النبي ﷺ . الأعلام جـ ٣ ص ٢٠٤ .

الأدعية النبوية :

وينبغي لطالب الخير وباغي الرشد أن يلازم من الأدعية النبوية ماتبلغ إليه طاقته .

وأقل حال أن يلازم الكلمات[١] الجامعة مثل قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك وتحول عافيتك وفجأة نقمتك وجميع سخطك » هكذا ثبت في صحيح مسلم عنه صلى الله عليه وسلم من حديث ابن عمر وأخرجه من حديثه أيضا أبو داود والنسائي . ومثل حديث أبي هريرة عند مسلم قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي إليها معادي ، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير واجعل الموت راحة لي من كل شر » . ومثل حديث أبي هريرة أيضا عند الشيخين وغيرهما عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « تعوذوا بالله من جهد البلاء ودرك الشقاء وسوء القضاء وشماتة الأعداء » ومثل ما أخرجه أحمد في مسنده وابن حبان والحاكم وصححاه والطبراني في الكبير قال في مجمع الزوائد وإسناد أحمد وأحد إسنادي الطبراني ثقات . ومثل حديث أنس في الصحيحين وغيرهما قال : كان أكثر دعاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » . ومثل سؤال الله العافية وقد ورد[٢] في ذلك أحاديث متواترة كما بيناه في شرحنا لعدة الحصن الحصين :

---

(١) في (ب) (الأدعية) .
(٢) في (ب) (وردت) .

الأدعية عقب الوضوء والصلاة :

ومما ينبغي لطالب الخير ملازمته الأدعية الواردة عقب الوضوء وعقب الصلوات وهي كثيرة .

وأقل الأحوال أن يقتصر عقب الوضوء على ما أخرجه مسلم وأهل السنن من حديث عمر بن الخطاب عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : « مامنكم من أحد يتوضأ ثم يقول : أشهد أن لا إله الله وحده لاشريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء » .

وعقب الصلاة على ما أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما من حديث المغيرة « أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان يقول في دبر كل صلاة : لا إله إلا الله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير اللهم لامانع لما أعطيت ، ولا معطي لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد ثلاث مرات » وعلى ما أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما من حديث أبي هريرة مرفوعا : « أن يكبر الله ويسبحه ويحمده حتى يحصل من الجميع (ثلاث وثلاثون) أومن كل واحدة من هذه الكلمات إحدى عشرة كما في صحيح مسلم ، أو من كل واحدة(١) منها عشر عشر كما في صحيح البخاري .

الأدعية عند الأذان والإقامة ودخول المسجد :

ويقول عند الأذان كما يقول المؤذن كما في الصحيحين وغيرهما من حديث أبي سعيد .

---

(١) في (ب) سقطت من الناسخ (واحدة) .

وبعد أن يقول المؤذن : حى على الصلاة : لاحول ولا قوة إلا بالله وبعد أن يقول حى على الفلاح لاحول ولا قوة إلا بالله ؛ كما فى الصحيحين وغيرهما من حديث عمر بن الخطاب .

ويقول عند سماع النداء : « اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محمودا الذى وعدته »(١) أخرجه البخارى من حديث جابر .

وإذا دخل المسجد يقول : « اللهم افتح لى أبواب رحمتك » وإذا خرج منه يقول : « اللهم إنى أسألك من فضلك » كما أخرجه مسلم وأبو داود والنسائى من حديث أبى حميد أو أبى أسيد .

الأدعية داخل الصلاة :

أما الأدعية داخل الصلاة فهى كثيرة جداً فى كل ركن من أركانها فيأتى منها بما هو صحيح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . وله أن يدعو بما أحب كما فى حديث : « فليتخير (٢) من الدعاء أعجبه إليه » وإن كان واردا فى التشهد فلا فرق بينه وبين سائر أركان الصلاة .

الأدعية فى الصيام والحج والجهاد والسفر وغيرها :

وهكذا ورد فى الصيام والحج والجهاد والسفر وغيرها أدعية مروية فى كتب الحديث يتخير منها أصحها وأكثرها فائدة فلا نطول بذكرها فهى معروفة فى مواطنها ولنرجع إلى شرح الحديث الذى نحن بصدد شرحه .

---

(١) فى (ب) (بعثته) .

(٢) فى (ب) (أن يتخير) .

(ذ) الإيمان وطريق الولاية :

قال أبو القاسم القشيري(*) قرب العبد من ربه يقع أولا بإيمانه[1] ثم بإحسانه[2] وقرب الرب تعالى من عبده بما يخصه به[3] فى الدنيا من عرفانه، وفى الآخرة من رضوانه[4] وفيما بين ذلك من وجوه لطفه وامتنانه.

ولا يتم قرب العبد من الحق إلا ببعده من الخلق قال : وقرب الرب بالعلم والقدرة عام للناس[5]، وباللطف والنصرة خاص بالخواص[6] وبالتأنيس خاص بالأولياء. انتهى[7] مانقله عنه صاحب الفتح[8].

وأقول : يشير بقوله « قرب العبد من ربه يقع أولا بإيمانه ثم بإحسانه » إلى الحديث الثابت فى الصحيح أنه سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

---

(١) فى الرسالة (وتصديقه) بعد (بإيمانه).
(٢) فى الرسالة (وتحقيقه) بعد ثم (بإحسانه).
(٣) فى (ب) سقطت من الناسخ (ربه).
(٤) فى الرسالة بدل رضوانه (ما يكرمه به من الشهود والعيان).
(٥) فى الرسالة (للكافة).
(٦) (بالمؤمنين) فى الرسالة. طبعة العثمانية. سنة ١٣٠٤ هـ. ص ٥٣، طبعة صبيح سنة ١٣٦٧ هـ. سنة ١٩٥٧ م ص ٤٢.
(٧) فى (ب) (مانقله عن صاحب .. الخ).
(٨) ص ٢٩٤.

الأعـــلام

(*) أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة بن محمد القشيري النيسابوري الفقيه الشافعي. كان علامة فى الفقه والتفسير الحديث والأصول والأدب والشعر وعلم التصوف. ومن تصانيفه : التفسير الكبير (التيسير فى علم التفسير)، الرسالة القشيرية المشهورة، ولد سنة ٣٧٦ وتوفي سنة ٤٦٥ معجم المطبوعات ص ١٥١٤ ج ١.

عن الإيمان فقال : « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والقدر خيره وشره » . وأنه صلى الله عليه وآله وسلم سئل عن الاحسان فقال : « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » :

١ — الإيمان بالقدر ، وخاصة للمؤمنين :

فخصال الإيمان يستوى فى الأربع الأدلة منها غالب المسلمين وأما الخامسة وهى الإيمان بالقدر خيره وشره فهى الخصلة العظمى [التى][1] تتفاوت فيها الأقدام بكثير من الدرجات فمن رسخ قدمه فى هذه الخصلة ارتفعت طبقته فى الإيمان .

ولا يستطيع الإيمان بها كما ينبغى إلا خلاص المؤمنين وأفراد عباد الله الصالحين ، لأن من لازم ذلك أن يضيف إلى قدر الله كل ما يناله من خير وشر غير متعرض للأسباب التى يتعلق بها كثير من الناس ، وإذا مكنه الله من الإيمان بهذه الخصلة كما ينبغى وعلم أنها من عند الله سبحانه بقدره السابق لكل عبد من عباده ، هانت عليه المصائب لعلمه بأن ذلك من عند الله سبحانه ، وما كان من عند الله سبحانه فالرضى به والتسليم له شأن كل عاقل ، لأنه خالقه وموجده من العدم فهو حقه وملكه يتصرف به كيف يشاء كما يتصرف العباد فى أملاكهم من غير حرج عليهم .

فإن مالك العبد أو الأمة إذا أراد أن يتصرف بهما ويخرجهما عن[2] ملكه لم تنكر العقول ذلك ولا تأباه العادات الجارية بين العباد . فكيف تصرف الرب بمخلوقه[3] فإنه المالك للعبد وسيده ولما فى الأرضين والسموات

---

(١) فى (أ) (الذى) وهى ضعيفة .
(٢) فى (ب) (من) .
(٣) فى (ب) (بمخلوقاته) .

من العالم الذي خلقه وشق سمعه وبصره ورزقه ومن عليه بالنعم التي لا يقدر على شيء منها إلا هو تعالت قدرته وتقدس اسمه .

٢ — فوائد الايمان بالقدر :

ومن فوائد رسوخ الإيمان بهذه الخصلة أنه يعلم أنه ماوصل إليه من الخير على أي صفة كان وبيد من اتفق فهو منه عز وجل ، فيحصل له بذلك من الحبور والسرور مالا يقادر قدره لما له سبحانه من العظمة التي تضيق أذهان العباد عن تصورها وتقصر عقولهم عن إدراك أدنى منازلها .

وإذا كان للعطية من ملك من ملوك الدنيا ما يتأثر له المعطى ويفرح به ويسر لأجله لكونه من أعظم بني ؛ آدم لجعل الله سبحانه بيده الحل والعقد في طائفة من عباده ، فكيف العطاء الواصـــل من خالق الملوك ورازقهم ومحييهم ومميتهم .

وما أحسن ما قاله الحربي(*) رحمه الله : « من لم يؤمن بالقدر لم يتهن بعيشه » (١).

وهذا صحيح فما تعاظمت القلوب بالمصائب ، وضاقت بها الأنفس وحرجت [بها](٢) الصدور إلا من ضعف الإيمان بالقدر اللهم ارحمنا برحمتك فإنا من الضعف ما أنت أعلم به ؛ ومن عدم الصبر على حوادث الزمان مالا يخفى عليك ،

(١) في صفوة الصفوة : (من لم يجر مع القدر ..)
(٢) في (أ) (بالصدور) وليست موافقة .

الأعـلام

(*) هو أبو إسحق إبراهيم بن إسحق الحربي ولد سنة ثمان وتسعين ومائة وأصله من مرو وكان إماما في جميع العلوم وله التصانيف الحسان ، وكان زاهداً في الدنيا . وتوفي ببغداد سنة ٢٨٥ هـ (ص ٢٢٨) جـ ٢ صفوة الصفوة .

ومن عدم الثبات عند المحن مالديك حقيقته ولكننا نسألك العافية التى أرشدتنا إلى سؤالها منك ، وقد أرشدنا رسولك صلى الله عليه وآله وسلم إلى أن [نستعيذ][(١)] بك من سوء القضاء كما ثبت لنا[(٢)] عنه فى الصحيحين وغيرهما أنه كان يقول : « اللهم إنى أعوذ بك من سوء القضاء ودرك الشقاء وجهد البلاء وشماتة الأعداء »[(٣)] فنقول : اللهم إنا نعوذ بك مما استعاذ منه[(٤)] رسولك صلى الله عليه وآله وسلم فإنه قد سن ذلك لأمته .

٣ — الإيمان بالقضاء والاستعاذة من سوءه :

إذا عرفت هذا فاعلم أنه لا منافاة بين الإيمان بالقدر خيره وشره وبين الاستعاذة من سوء القضاء .

فعلى العبد أن يجهد نفسه فى الإيمان بهذه الخصلة ويمرنها عليها فإنها إذا مُرنت مرنت اللهم أعنا على هذه النفوس وسهل لنا الخير حيث كان وقو إيماننا فإن الخير كل الخير فى قوة الإيمان وبه تتفاوت المراتب .

ومما يدل على جواز الاستعاذة من سوء القضاء ماثبت من حديث الحسن السبط رضى الله عنه أنه علمه صلى الله عليه وآله وسلم ذلك الدعاء بقوله فى الوتر فيه « وقنى شر ماقضيت » وهو حديث صحيح ، وإن لم يكن فى الصحيحين .

---

(١) (أ) (نستعين) ونستعيذ هنا أوفق لما سيأتى بعد ، ولعل الشوكانى كان يريدها فسبقت يده إلى نستعين) .

(٢) فى (ب) سقطت من الناسخ (لنا) .

(٣) فى (ب) تقديم وتاخير فى أجزاء هذا الحديث .

(٤) فى (ب) (به) بدل (منه) .

٤ — الإيمان والإحسان ولمن يجتمعان :

وتأمل بيان رسول الله [صلى الله عليه وآله وسلم[(١)]] لمعنى الإحسان فإنه يدل على أنه رتبة علية لأن من عبد الله كأنه يراه قد بلغ إلى أعلى منازل الخشوع الذى هو روح الصلاة وبه يتفاوت أجرها كما ثبت فى حديث « أن الرجل يصلى فيكون له نصفها ، ثلثها ، ربعها ، الحديث » فإن ذلك التفاوت إنما هو من جهة الخشوع وحضور القلب وقطع النظر عما سوى الله عز وجل .

فهذا الذى وصل إلى هذه الرتبة لا يبلغها إلا بعد أن تحصل له خصال الايمان على الكمال بعد خصال الاسلام ثم تحصل له هذه المزية العظمى .

ولا يكون ذلك إلا لأولياء الله عز وجل الراسخين فى الولاية ، البالغين إلى غاية مراتبها ، ولهذا آذان الله سبحانه من عاداهم بالحرب وفيه إشارة إلى مراتب الطاعات بتفاوت الأشخاص وأنه قد يقع التفاوت بين الرجلين كما بين السماء والأرض فكم بين رجل يعبد الله وهو يفكر فى أمر آخر ويشتغل بأمور الدنيا لايحصل له شىء من خشوع ولا نصيب من حضور قلب ولا طرف من المراقبة ، وبين هذا الذى رزقه الله سبحانه الاحسان وشرح صدره لعبادة الرحمن .

وفيه منزع قوى لما عليه أولياء الله من تلك المزايا التى لا يشاركهم [فيها[(٢)]] غيرهم ، ولا يلحق[(٣)] بهم فيها سواهم .

---

(١) فى (أ) سها المؤلف عن الصلاة على النبى ﷺ ، فاثبتها لأن مثله لا يتركها إلا سهواً .

(٢) فى (أ) (فيهم) ولا يستقيم ذلك .

(٣) فى (ب) (يلتحق) .

ومن أنكر ماتفضل الله به عليهم من فضله الذى عم ، وكرمه الذى جم فذلك لقصوره فى علم الشريعة المطهرة مع جحده لما لا يدرى وإنكاره لما لا يعرف ، اللهم غفراً .

الدعاء أعظم مظاهر الولاية :

وأما قول أبى القاسم القشيرى فى كلامه السابق إن قرب الرب تعالى من عبده بما يخصه فى الدنيا من عرفانه وفى الآخرة من رضوانه فأقول :

أعظم أنواع قرب العبد من الرب ما صرح به فى الكتاب العزيز بقوله سبحانه(١) : « وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان » .

لقد جعل سبحانه عنوان هذا القرب الذى أخبرنا به مفسراً له ومبيناً لمعناه أنه يجيب دعوة من دعاه من عباده وأكرم بها خصلة وأعظم بها فائدة لا يقادر قدرها ولا يستطاع الإحاطة بما فيها من ارتفاع طبقة من يجيب دعاه ويلبي نداه . فشكراً لك ياربنا وحمداً لا نحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك .

الولاية والعزلة :

وأما قوله : « ولا يتم قرب العبد من الحق إلا ببعده من الخلق » فهذا إنما يكون فيمن لا نفع فيه للعباد .

أما من كان ينفعهم بعلمه ، أو بموعظته أو بجهاده ، أو بإنكار للمنكرات أو بالقيام فيهم بما أوجب الله على مثله القيام به ، فهذا يكون قربه من الخلق

---

(١) فى (ب) بعد سبحانه كلمة (تعالى) .

أقرب إلى الحق . وهو مقام الأنبياء ، ومقام العلماء الذين أخذ الله عليهم البيان للناس .

فليست هذه القضية التي ذكرها أبو القاسم كلية كما لا يخفى على من يعرف شرائع الله سبحانه ، وما ندب عباده إليه في كتبه المنزلة ، وعلى ألسن رسله المرسلة وقد جاء في السنة أن المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أحب إلى الله من المؤمن الذي لا يخالطهم .

ويمكن حمل كلامه على البعد عن الخلق بإقبال قلبه على الله سبحانه ، وعدم الاعتداد بما سواه ، وأنه وإن خالطهم بظاهره فهو مع الله بباطنه . وهذا معنى حسن ورتبة علية .

اللطف والنصرة وعامة المؤمنين :

وأما قوله : « وباللطف والنصرة خاص بالخواص » فأقول : قد أخبرنا الله سبحانه في كتابه أنه لطيف بعباده . وهذا المعنى عام لكل من يصدق عليه أنه عبد الله من غير فرقة بين عوامهم وخواصهم .

ولولا ما تفضل به على عباده من جرى ألطافه عليهم لم يهتدوا إلى معاش ولا معاد ولا عمل دنيا ، ولا عمل آخرة .

وأما النصرة فقد وعد سبحانه في كتابه بنصرة المؤمنين : « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » وينصر حزبه والمجاهدين في سبيله .

فمن كان من المؤمنين أو المجاهدين في سبيل الله ، وإن كان في عمله تخليط وفي طاعته قصور فهو ممن وعد الله سبحانه بنصرته .

محبة الله بين أداء الفرض والنفل :

قوله : « حتى أحببته » في رواية الكشميهني (حتى أحبه) . قال ابن حجر في الفتح : « ظاهره أن محبة الله تعالى للعبد تقع بملازمة العبد التقرب بالنوافل وقد استشكل بما تقدم أولا أن الفرائض أحب العبادات المتقرب بها إلى الله تعالى فكيف لا تنتج المحبة ؟

والجواب : أن المراد من النوافل ما كانت حاوية للفرائض مشتملة عليها ومكملة لها ويؤيده أن في رواية أبي أمامة : « ابن آدم إنك لن تدرك ماعندي إلا بأداء ما افترضت عليك »[1] انتهى .

وأقول هذا الإشكال مندفع من أصله فإن العبد لما كان معتقداً لوجوب الفرائض عليه وأنه أمر حتم يعاقب على تركها[2] كان ذلك بمجرده حاملا له على المحافظة عليها ، والقيام بها فهو يأتي بها بالإيجاب الشرعي والعزيمة الدينية

وأما النوافل فهو يعلم أنه لا عقاب عليه في تركها ، فإذا فعلها فذلك لمجرد التقرب إلى الرب خالياً عن حتم ، عاطلا عن جزم ، فكان في فعلها من هذه الحيثية محض المحبة للتقرب إلى الله بما يحب من العمل ، فجوزي على ذلك بمحبة الله له وإن كان أجر الفرض أكثر ، فلا ينافي أن تكون المجازاة بما كان الحامل عليه هو محبة التقرب إلى الله أن يحب الله فاعله لأنه فعل ما لم يوجبه الله عليه ولا عزم عليه بأن يفعله .

ومثال هذا في الأحوال المشاهدة في بني آدم أن السيد إذا أمر عبده بأن يقضي له في كل يوم حاجة أو حوائج ، وكذلك أمر من له من المماليك

---

(١) ص ٢٩٤ فتح البخاري ١١ .

(٢) في (ب) (على الترك) وليس مستقيما في الأسلوب .

مثل ذلك فكان أحدهم يقضى له تلك الحوائج ثم يقضى له حوائج أخرى يعلم أن سيده يحب قضاءها وتحسن لديه . والآخرون لا يقضـــون له إلا تلك الحوائج التى أمرهم السيد بها . فمعلوم أن ذلك العبد الذى صار يأتى له كل يوم بما أمره به وبغيره مما يحبه ، يستحق المحبة من السيد محبة زائدة على [محبته][1] لكل واحد منهم .

فالمراد من الحديث هذه المحبة الزائدة الحاصلة من فعله لما يحبه سيده من غير أمر منه له مع قيامه بما قام به غيره من امتثال أمر السيد والتبرع بالزيادة التى لم يأمره بها .

وقال الفاكهانى : « معنى الحديث أنه إذا أتى بالفرائض ودام على إتيان النوافل من صلاة وصيام وغيرهما أفضى به ذلك إلى محبة الله تعالى »[2] . انتهى .

أقول : المراد فى الحديث المحبة الحاصلة من النوافل خاصة لا من مجموع الفرائض والنوافل . وكون فاعل الفرائض محبوباً لا ينافى هذه المحبة الخاصة .

أداء الفرائض شرط فى اعتبار النوافل :

فالحاصل أن الاختلاف بين المحبتين ظاهر واضح لاختلاف الأسباب وإن كان سببية أحد السببين مشروطة بفعل السبب الآخر ، فإن من ترك الفرائض وجاء بالنوافل :

كتاركة بيضها بالفـــلا وملبسة بيض أخرى جناحاً

---

(١) فى (أ) (محبة) وهو سهو فى الكتابة من المؤلف لأن الأسلوب يقتضى تعبير (ب) الذى اخترته .

(٢) ص ٢٩٤ فتح البارى .

وقال ابن هبيرة : « يؤخذ من قوله (ما تقرب إلى آخره) أن النافلة لا تقدم على الفريضة لأن النافلة إنما سميت نافلة لأنها تأتى زائدة على الفريضة فما لم[1] يؤدى الفريضة لا يحصل النافلة ، ومن أدى الفرض ثم زاد عليه النفل وأدام[2] ذلك تحققت منه إرادة التقرب»[3] انتهى .

وأقول : أما قوله إنه يؤخذ من قوله ما تقرب إلى آخره أن النافلة لا تقدم على الفريضة فليس فى مثل هذا خلاف لأن الأمر بالفرائض حتم فالإتيان بها[4] هو حتم مقدم لا ينازع فى ذلك أحد ولا يحتاج مثله إلى التحرير والذكر . وقد صح عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : « إذا أقيمت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة » .

ليست المداومة شرطاً فى القرب :

وأما قوله : (وأدام[5] ذلك » فليس فى هذا الحديث ما يدل على الإدامة بل المراد مجرد وجود التقرب بالنوافل وقتاً فوقتاً وتارة فتارة ، فإن من فعل هكذا يصدق عليه أنه متقرب بالنوافل وإن لم يحافظ على ذلك حتى يصدق الدوام على ذلك الذى تقرب به ويصدق عليه أنه مديم التقرب .

قال ابن حجر بعد نقله لكلام ابن هبيرة المتقدم : « وأيضاً قد جرت العادة أن التقرب يكون غالباً بغير ما وجب على المتقرب كالهدية والتحفة بخلاف من يؤدى [ما][6] عليه من إخــراج أو يقضى ما عليه من

---

(١) فى (ب) (فمن لم) وتعبير الشوكانى أقوى وهو ماجاء فى فتح البارى .
(٢) فى (ب) (أدام على ذلك) وهو تعبير ضعيف أيضاً .
(٣) ص ٢٩٤ (٤) فى (ب) بها .
(٥) فى (ب) (أدام على ذلك) .
(٦) سقطت فى (أ) من المؤلف سهواً .

دين »[1] انتهى .

وأقول لا حاجة إلى استخراج هذا المعنى العرف للتقرب فإنه لا يفيد شيئاً مع العلم بأن معنى التقرب فى لسان العرب وفى لسان الشرع يشمل كل ما يتقرب به العبد من فريضة أو نافلة . وصدقه على الفرائض أقدم لكون أمرها ألزم .

وأيضاً قد أغنى عن هذا الاستخراج لفظ النوافل فإنها فى لسان الشرع ما زاد على الفرائض .

قال ابن حجر : « وأيضاً فإن من جملة ما شرعت له النوافل جبر الفرائض كما صح فى الحديث الذى أخرجه مسلم « انظروا هل لعبدى من تطوع فتكمل به فريضته » ؟ الحديث بمعناه .

فتبين أن المراد من التقرب بالنوافل أن تقع ممن أدى الفرائض لا ممن أخل بها كما قال بعض الأكابر : « من شغله الفرض عن النفل فهو معذور ومن شغله النفل عن الفرض فهو مغرور »[2] انتهى .

أقول : لا يخفى عليك أن أصل الإشكال عند هؤلاء الذين تكلموا بمثل[3] هذا الكلام هو ورود المحبة فى جانب التقرب بالنوافل ، وقد بينا وجهه ، وأى مدخل لذكر أن النوافل تجبر بها الفرائض فان هذا إنما هو إذا احتيج إلى الترجيح بين الفرائض والنوافل ، فان الفرائض هى التى قال فيها النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « وما تقرب إلى [عبدى][4] بشىء

(١) ص ٢٩٤ .
(٢) ص ٢٩٥ فتح البارى جـ ١١ .
(٣) فى (ب) سقطت من الناسخ كلمة (مثل) .
(٤) فى (أ) سها المؤلف عن باء (عبدى) .

أحب إلى مما افترضت عليه » فإن هذا قد دل دلالة أوضح من شمس النهار أن التقرب بالفرائض أحب إلى الله من كل شيء . والنوافل ليست بهذه المنزلة فإنها من جملة ما دخل تحت النكرة فى سياق النفى لكن الرب[1] جعل فعلها سبباً لحبه لفاعلها من حيث أنه جاء بزيادة على ما أمره به محبة التقرب إلى الله بما لم يؤمر به ، فاستحق محبة الله له مع كون تأدية الفرائض أحب إلى الله لكن صاحب هذه النافلة محبوب له لتلك النكتة التى قدمنا ذكرها ، والفرائض أحب ما تقرب به إلى الله .

ثم لا خلاف أن نوافل من هو تارك للفرائض ليست بمنزلة نافلة من هو مقيم الفرائض وللتنفل الذى يحبه الله هو الذى جاء بفريضته ، ثم تنفل ما كتبه الله له .

ولهذا سميت نافلة أى زائدة على ما افترضه الله على العبد . فالنا والتعرض للمفاضلة بين الفريضة والنافلة ، فإن هذا كلام خارج عن مقصود الحديث القدسى ، وكيف يعتضد بما نقله عن بعض الأكابر على هذا الأمر الذى هو من الشريعة بمنزلة أوضح من شمس النهار ؟ ! !

محبة الله شاملة للمتقرب بالفرض والمتقرب بالنفل :

وإيضاح المقام بأن يقال إن الترجيح فرع التعارض ولا تعارض هنا ألبتة لأن كون الفرائض أحب القرب إلى الله لا ينافى كون المتقرب[2] بالنوافل يحبه الله ، وإنما يكون التعارض فى هذا المقام لو قال : من جاء بالفرائض

---

(١) فى (ب) (سبحانه) بعد لفظ الرب .
(٢) فى (ب) (التقرب) .

فهو أحب إلى الله من كل أحد ، ومن تقرب بالنوافل فهو أحب إلى الله من كل أحد ؟ !! .

وأما مجرد كونه يحب أحدهما ، فإنه لاينافى أن يحب الآخر ثم لاتنافى بين ماترتب عليهما ، فإن الذى ترتب على التقرب بتأدية الفرائض هو كون هذا التقرب أحب إلى الله من كل شىء من أعمال الخير ، والذى ترتب على التقرب بالنوافل ، هو أن الله يحب فاعلها ، وكونه . يحب فاعلها ، لاينافى كونه يحب غيره وكون تأدية الفرائض أحب من غيرها لاينافى أن تكون تأدية النوافل محبوبة ، بل هو المعنى الذى يفيده أفعل التفضيل فإنه يدل على الاشتراك فى الأصل ، فالفرائض والنوافل محبوبة إلى الله ولكن الفرائض أحب إليه ، وصاحب النافلة يحبه الله ولا ينافيه أن يحب صاحب الفريضة ، لكن صاحب النافلة لما جاء بما جاء به صاحب الفريضة وزاد عليه بما فعله من النافلة ترتب على محبته ماتضمنه الحديث من كونه سبحانه سمعه الذى يسمع به إلى آخر مافى الحديث . ومعلوم أن صاحب العملين أجره أكثر من صاحب العمل ، فاعرف هذا وأشدد يدك[1] عليه ، فإنه قد وقع من شراح الحديث فى هذا الموطن خبط كثير .

(١) فى (ب) (يديك) .

الفصل الثالث

أثر محبة الله فى حياة الولى



هدايته وتوفيقه :

قوله : « فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده الذى[1] يبطش بها ورجله الذى[1] يمشى بها » فى حديث عائشة فى رواية عبد الواحد[*] « عينه التى يبصر بها » وفى رواية يعقوب[**] « عينه الذى يبصر بهما » بالتثنية وكذا قال فى الأذن واليد والرجل ، وزاد عبد الواحد فى روايته وفؤاده الذى يعقل به ، ولسانه الذى يتكلم به » ونحوه فى حديث أبى أمامة . وفى حديث أنس « ومن أحببته كنت له سمعاً وبصراً ويداً ومؤيداً »[2] ووقع فى رواية « فبي يسمع وبى يبصر ، وبى يبطش ، وبى يمشى » .

قوله : « ويده الذى يبطش بها ورجله الذى يمشى بها » هكذا وقع فى الصحيح فى باب التواضع بلفظ الذى فى الموضعين[3] ولعله على تأويل اليد والرجل بالعضو لأنهما مؤنثتان ، وكان على مقتضى هذا التأويل أن يقول الذى

---

(١) فى (ب) (التى) فى الاثنين .
(٢) ص ٢٩٥ فتح البارى .
(٣) فى طبعة بولاق شرح ابن حجر ، وفى طبعة الشعب ج ٨ ص ١٣١ ، جاء بلفظ (التى فى الموضعين) .

الأعـــلام

(*) هو : عبدالواحد بن أحمد بن أبى القاسم بن محمد المليحى المروى من أهل الأدب والحديث له (الرد على أبى عبيد) فى غريب القرآن و (الروضة) ويشتمل على ألف حديث صحيح وألف غريب وألف حكاية وألف بيت من الشعر ص ٣٢٣ ج ٥ الأعلام للزركلى .

(**) يعقوب بن إبراهيم بن كثير . محدث العراق فى عصره . كان ثقة حافظاً متقناً أخذ عنه الأئمة الستة له مسند فى الحديث (الأعلام) ج ٩ ص ٢٥٣ .

يبطش به الذى يمشى [به][1] ولكنه أنث وذكر بالاعتبارين والله أعلم .

قوله يبطش قال فى الصحاح : البطشة السطوة والأخذ بالعنف وقد بطش به يبطش ويبطش بطشاً ، وباطشه مباطشة .

المراد من أن الله صار سمع العبد وبصره إلخ :

قال ابن حجر فى الفتح : « وقد استشكل كيف يكون البارى جل وعلا سمع العبد وبصره إلى آخره . والجواب من أوجه :

أحدها أنه ورد على سبيل التمثيل ، والمعنى كنت كسمعه وبصره فى إيثاره أمرى فهو يحب طاعتى ويؤثر خدمتى كما يحب هذه الجوارح »[2] انتهى الوجه الأول . وأقول :

هذا مع كونه إخراجاً للكلام عن الظاهر البين الواضح فهو مدفوع بالرواية المتقدمة من روايات الصحيح وهى قوله : « فبي يسمع وبى يبصر إلخ » .

ومدفوع أيضاً بالرواية المتقدمة وهى قوله : « كنت له سمعاً وبصراً ويداً ومؤيداً » فإن ذلك التأويل لا يتيسر فى مثل هذه الرواية لا سيما مع قوله « ومؤيداً »[3] .

قال ابن حجر : وثانيها « أن المعنى أن كليته مشغولة بى فلا يصغى بسمعه إلا إلى ما يرضينى ولا يرى ببصره إلا إلى ما أمرته به »[4] انتهى

---

(١) فى (أ) سقطت من المؤلف سهواً ونظم الكلام يقتضيها .
(٢) نفس الصفحة السابقة .
(٣) فى (ب) سقط من الناسخ من أول قوله (فإن ذلك التاويل) إلى (ومؤيدا)
(٤) ص ٢٩٥ .

وأقول : هذا أقرب من الوجه الأول وأقل تكلفاً وحاصله : أن هذا الكلام خارج مخرج التوفيق للعبد إلى طاعات الله وتسديده عن الوقوع فى شىء من معاصيه

قال ابن حجر : ثالثها ، المعنى[1] « أجعل له مقاصده كأنه ينالها بسمعه وبصره الخ »[2] انتهى .

وأقول : هذا الوجه معسول عن الفائدة إذ[3] لا معنى لنيل مقاصده بسمعه وبصره وإن أمكن تأويله بما كان من المقاصد التى لا يقصد بها إلا السماع لها أو النظر إليها ، وما أقل ذلك ، وهو إن استقام فى اليد والرجل لأن اليد هى آلة الأخذ للشىء والرجل هى آلة المشى إليه لكن كان يغنى عن هذا كله كنت معيناً له على تحصيل مطالبه وتقريباً منه . قال : ورابعها : « كنت له فى النصرة كسمعه وبصره ويده ورجله على عدوه » انتهى .

وأقول : الله أعلى وأجل من أن يكون فى معاونة عبده الضعيف كهذه الجوارح الضعيفة ، فمعونته أكبر من كل كبير ، وأجل من كل جليل ، وإنما يصلح ذلك لو كان المراد المساعدة والإنقياد ، فإنه يقال مثل هذا على من كان مساعداً منقاداً كانقياد هذه الجوارح لصاحبها ومثل ذلك لا يصلح فى جانب رب العالم وخالق الكل تعالى وتقدس .

وأيضاً لا يصلح ذلك فى بنى آدم إلا إذا كان من قال فلان : هو كسمعى وبصرى عزيزاً عليه ، وكان[4] من قال : هو كيدى ورجلى قاضياً فى حوائجه ، كما يفعله الخادم الناصح .

---

(١) فى (ب) « أن المعنى » (٢) ص ٢٩٥ .

(٣) فى (ب) (ولا معنى) وهو لا يستقيم معنويا .

(٤) فى (ب) كمن) من تصحيح أو تصحيف أحد القارئين .

قال :

خامسها : قال الفاكهاني وسبقه إلى معناه ابن هبيرة : « هو فيما ظهر لى أنه(١) على حذف مضاف والتقدير كنت حافظ سمعه للذى يسمع به فلا يسمع إلا ما يحل سمعه وحافظ بصره إلى آخره »(٢) .

وأقول : ما أبرد هذا التقدير وأقل جدواه وعلى كل حال فهو يؤول إلى معنى الوجه الثانى . قال :

سادسها : « قال الفاكهانى تحتمل معنى آخر أدق من الذى قبله، وهو أن يكون معنى سمعه مسموعه لأن المصدر قد جاء بمعنى المفعول مثل فلان أملى أى مأمولى . والمعنى أنه لا يسمع إلا ذكرى ولا يلتذ إلا بتلاوة كتابى ، ولا يأنس إلا بمناجاتى ، ولا ينظر إلا فى عجائب ملكوتى ولا يمد يده إلا فيما(٣) فيه رضائى ورجله كذلك . وبمعناه قال ابن هبيرة أيضاً »(٤) انتهى .

وأقول هذا الذى زعمه أدق معنى ،هو أبعد مسافة مما قبله وكون الله عز وجل مسموع العبد ومبصره على ما فيه من عوج كيف يصح مثل هذا التأويل فى اليد والرجل مع أن تلك الرواية الثابتة فى الصحيح وهى « فبي يسمع وبى يبصر الخ » تدفع هذا التأويل وترده على عقبه .

قال الطوفى(*): اتفق العلماء ممن يعتد بقوله على أن هذا مجاز وكناية عن

---

(١) فى (ب) لا توجد (أنه) . (٢) ص ٢٩٥ .
(٣) فى (ب) (إلا ما فيه إلخ) .

الأعلام

(*) سليمان بن عبد القوى بن عبد الكريم الطوفى الصرصرى من (٦٥٧ – ٧١٦ هـ) فقيه حنبلى من العلماء . له (بغية السائل فى أمهات المسائل) فى أصول الدين ، (الإكسير فى قواعد التفسير) ، و (مختصر الجامع الصحيح للترمذى . خ) فى مجلدين الأعلام جـ ٣ ص ١٩٠ .

نصرة العبد وتأييده، وإعانته حتى كأنه سبحانه نزل نفسه من عبده منزلة الآلات التى يستعين بها، ولهذا وقع فى رواية «فبي يسمع وبى يبصر وبى يبطش[١] وبى يمشى».

والاتحادية[٢] زعموا أنه على حقيقته، وأن الحق تعالى عين العبد. واحتجوا بمجيء جبريل فى صورة دحية. قالوا: فهو روحانى خلع صورته وظهر بمظهر البشر. قالوا: والله سبحانه أقدر على أن يظهر فى صورة الوجود الكلى أو بعضه «تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً»[٣] انتهى.

أقول: هذا الذى ذكره من التنزيل لايليق بجنابه سبحانه كما قدمنا فى المصير إلى هذا المجاز بهذا الوجه كما قال الشاعر:

فكنت كالساعى إلى مثعب[٤] موائلا[٥] من سبل[٦] الراعد[٧]

وأما ماحكاه عن الإتحادية فليس ذلك مما يستحق التعرض لرده.

وقال الخطابى(*): هذا مثال[٨]. والمعنى توفيق الله تعالى لعبده فى الأعمال

---

(١) فى (ب) سقطت (بى) قبل (يبطش).
(٢) فى الفتح: قال والاتحادية إلخ.
(٣) الفتح: ص ٢٩٥.
(٤) المثعب: مسيل الماء بشدة وبكثرة: القاموس.
(٥) طالبا للنجاة.
(٦) السبل محركة: المطر. قاموس.
(٧) السحاب (٨) فى الفتح: «هذه أمثال».

الأعـــلام

(*) أبو سليمان أحمد بن محمد بن إبراهيم الخطابى المتوفى سنة ٣٨٨ هـ الإمام المشهور الفقيه الأديب مصنف غريب الحديث ومعالم السنن وغيرها. روى عنه خلق كثير (اللباب فى تهذيب الأنساب جـ ٣ ص ٣٧٩).

التي يباشرها بهذه الأعضاء وتيسر المحبة له فيها بأن يحفظ جوارحه عليه ويعصمه عن مواقعة مايكرهه[1] الله تعالى من الإصغاء إلى اللهو بسمعه ومن النظر إلى مانهى عنه تعالى ببصره، ومن البطش فيما لايحل له بيده، ومن السعى إلى الباطل برجله .

وإلى هذا نحا الداودى(*) ومثله الكلاباذى(**) وعبر بقوله « أحفظه فلا يتصرف إلا فى محابى ، لأنه إذا أحبه كره له أن يتصرف فيما كرهه منه »[2] انتهى .

وأقول : هذا يرجع إلى الوجه الثانى .

قال ابن حجر :

وسابعها : قال الخطابى أيضاً : وقد يكون عبر بذلك عن سرعة إجابة الدعاء والنجح فى الطلب . وذلك أن مساعى الإنسان كلها إنما تكون بهذه الجوارح المذكورة .

وقال بعضهم : وهو منتزع مما تقدم : « لاتتحرك »[3] له جارحة إلا فى الله

---

(١) فى (ب) (ما يكره) (٢) ص ٢٩٥ .
(٣) فى الفتح لا يتحرك .

الأعلام

(*) محمد بن عبد الحى بن رجب الداودى من علماء دمشق توفى سنة ١١٦٨هـ الأعلام جـ ٧ ص ٥٩ .

(**) محمد بن إبراهيم الكلاباذى البخارى أبو بكر من حفاظ الحديث . له (بحر الفوائد خ) فى الحديث ، (التعرف لمذهب أهل التصوف) جـ١: الأعلام جـ١ ص ١٨٤ توفى سنة ٣٨٠ هـ .

ولله فهى كلها تعمل بالحق للحق »[1] انتهى .

وأقول : هــذا الوجه السابع يرجع إلى الوجه الثانى ، كما رجع إليه قول البعض .

هذا ولا يخفاك أن جعل كنت سمعه بمعنى سامع دعائه مجيبه إلى مطلوبه فيه من البعد مالا يخفى على من يفهم تصاريف الـكلام ووجوه إفاداته .

إذا عرفت ما اشتملت عليه هذه الوجوه التى ذكرها ابن حجر فى الفتح ، وعرفت ما قلناه فى كل وجه منها .

فاعلم أن الذى يظهر لى فى معنى هذا الحديث القدسى ، أنه إمداد الرب سبحانه لهذه الأعضاء بنوره الذى تلوح به طرائق الهداية وتنقشع عنده سحب الغواية . وقد نطق القرآن العظيم[2] بأن الله سبحانه هو نور السموات والأرض . وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما سئل هل رأى ربه قال : « نور أنىّ أراه » وهو فى الصحيح .

وثبت أنه سبحانه محتجب بالأنوار وثبت فى الصحيحين وغيرهما من دعائه صلى الله عليه وآله وسلم إذا خرج إلى الصلاة « اللهم اجعل فى قلبي نوراً وفى بصرى نوراً وفى سمعى نوراً وعن يمينى نوراً وخلفى نوراً وفى عصبى نوراً ، وفى لحمى نوراً وفى دمى نوراً وفى شعرى نوراً وفى بشرى نوراً » وزاد مسلم : « وفى لسانى نورا واجعل فى نفسى نورا وأعظم لى نورا » .

وأى مانع من أن يمد الله سبحانه عبده من نوره فيصير صافياً من كدورات الحيوانية الإنسانية لاحقا بالعالم العلوى سامعاً بنور الله مبصراً بنور الله

---

(١) نفس المصدر والصفحة .

(٢) فى (ب) (الـكريم) .

باطشا بنور الله ماشيا بنور الله وما فى هذا من منع أو من أمر لايجوز على الرب سبحانه وقد سأله رسوله[1]، صلى الله عليه وآله وسلم وطلبه من ربه .

ووصف الله[2] عباده بقوله : (نورهم يسعى بين أيديهم ـ الآية)[3].

وليس فى هذا مايخالف موارد الشريعة ، ولا ماينافى إدراك عقول المتشرعين العارفين بالكتاب والسنة .

وقد جعل الله سبحانه الخروج من ظلمات المعاصى إلى أنوار الطاعات خروجاً من الظلمات إلى النور وورد فى الكتاب والسنة من هذا الجنس الكثير الطيب .

فمنى الحديث كنت سمعه بنورى الذى أمده فيه فيسمع سماعا لا كما يسمعه أمثاله من بنى آدم ، وكذلك بقية الجوارح .

وانظر فى هذا الدعاء الذى طلبه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يكون نور الله فى سمعه وبصره وقلبه وعصبه ولحمه ودمه وشعره وبشره ولسانه ونفسه ، بل سأل ربه أن يمده بنوره خلفه وأمامه فلولا أن لنور الله سبحانه قوة لجميع الأعضاء ماطلبه سيد ولد آدم وخير الخليقة

والحال أن الله قد جعله نوراً لعباده فكيف لايكون ذلك مطلوبا لسائر العباد لما ينشأ عنه من النفع العظيم ؟ .

فن أمده الله سبحانه بنوره فى جميع بدنه صار لاحقاً بالعالم العلوى ومن أمد عضواً منه بنوره صار ذلك العضو نورانياً .

---

(١) فى (ب) (رسول الله) .

(٢) فى (ب) (سبحانه) بعد لفظ الجلالة .

(٣) التحريم آية : ٨ .

فإن كان من الحواس كان لها من الإدراك مالم يكن لغيرها من الحواس التي لم تمد بنور الله عز وجل . وإن كان الإمداد لعضو من الأعضاء غير الحواس صار ذلك العضو قويا في عمله الذي يعمل به مستنيرا إذا عمل به الإنسان كان عمله صالحا موافقا لما هو الصواب .

فاتضح لك بهذا معنى ما في هذا الحديث القدسي أي كنت بما ألقيت على سمعه وبصره ويده ورجله من نوري ، سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها ثم أوضح هذا المعنى بقوله : « فبي يسمع وبي يبصر ، وبي يبطش وبي يمشي »[1] .

قال ابن حجر في الفتح : « وأسند البيهقي في الزهد عن أبي عثمان [الحيري][*]

---

(١) ونستأنس لقبول رأي الشوكاني هذا برأي «السيد محمد رشيد رضا» في تاويل هذه المعاني أن هذا من قبيل (والله غالب على أمره) وهو أن يصرف عنه السوء والفحشاء ويوفقه لما يرضيه من الأقوال والأعمال، فبهذا التوفيق والتسخير يسمع ويبصر ويبطش ويسعى ويفكر ، لابهوى النفس وشواتها « رسالة الصوفية والفقراء لابن تيمية » نشر رشيد رضا هامش ص ٢٧ .

(*) في الفتح . الجيزي ، ص ٣٩٥ ، وفي (ب) (الجيربي)، وفي (أ) (الجيزي) كما نقلها الشوكاني عن ابن حجر ، وصحته (الحيري) وهو أبو عثمان الحيري النيسابوري وهو سعيد بن اسماعيل بن سعيد بن منصور الحيري النيسابوري وأصله من الري . والحيري نسبة إلى (الحيرة) قرية من قرى نيسابور ، وهي غير الحيرة القريبة من الكوفة بالعراق . ثالث مؤسسي الملامتية .

وهو في وقته من أوحد المشايخ في سيرته ومنه انتشرت طريقة التصوف بنيسابور وتوفي بنيسابور سنة ٢٩٨ هـ ومن مأثوراته (الخوف من الله يوصلك إلى الله، والكبر والعجب في نفسك يقطعك عن الله ، واحتقار الناس في نفسك مرض عظيم لا يداوى) ص ١٧٠ طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (تحقيق نور الدين شريبة) .

أحد أئمة الطريق قال : معناه[١] : كنت أسرع إلى قضاء حوائجه من سمعه في الإسماع وعينه في النظر ويده في اللمس ورجله في المشي .

وحمله بعض متأخري الصوفية على مايذكرونه من مقام الفناء والمحو وأنه الغاية التي لاشيء وراءها ، وهو أن يكون قائما بإقامة الله تعالى محبا بمحبته له ناظراً بنظره له من غير أن تبقى معه بقية تناط باسم أو تقف على رسم ، أو تتعلق بأمر أو توصف بوصف .

ومعنى هذا الكلام أنه [شهد][٢] إقامة الله تعالى له حتى قام ومحبته حتى أحبه ونظر إلى عبده حتى أقبل ناظراً إليه بقلبه[٣] .

وحمله بعض أهل الزيغ على[٤] مايدعونه من أن العبد إذا لازم العبادة الظاهرة والباطنة حتى تصفى من الكدورات أنه يصير في معنى الحق ، — تعالى عن ذلك علواً كبيراً — وأنه يفنى عن نفسه جملة حتى يشهد أن الله تعالى هو الذاكر لنفسه الموحد لنفسه ، وأن هذه الأسباب والرسوم تصير عدماً صرفاً في شهوده [وأنه][٥] يعدم في الخارج . وعلى الأوجه كلها فلا تمسك فيه للاتحاد ، ولا للقائلين بالوحدة المطلقة ، لقوله في بقية الحديث « لئن سألني ولئن استعاذني فإنه كالتصريح في الرد عليهم »[٦] انتهى .

---

(١) في (ب) (مامعناه) .
(٢) في (أ) (يشهد) ولكن (شهد) أقوم .
(٣) ص ٢٩٥ ، ٢٩٦ (٤) في (أ) تكررت (على) .
(٥) في (ب) « تعدم » وهو سهو من الناسخ ، وفي (أ) ، (ب) (أن) بدل (أنه) والرأي أن (أنه) هي التي تليق بالمقام لأن الكلام على العبد المتحد فإنه يفنى ، وإنه يفنى في الخارج .
(٦) ص ٢٩٦ .

تحقيق آراء الاتحادية والصوفية:

وأقول: أما ما رواه البيهقى عن أبى عثمان فهو كالوجه السابع الذى حكاه ابن حجر عن الخطابى

وما ذكره عن بعض أهل الزيغ هو ماذكره[1] الخطابى[2] فى كلامه السابق عن الاتحادية، إلا أن هذا لايكون الاتحاد [فيه][3] إلا بعد الفناء. وذاك هو اتحاد مطلق من الأصل[4] فكانا من هذه الحيثية قولان، ويكون ماحكاه عن بعض متأخرى الصوفية قولا ثالثا.

فتكون الوجوه التى وجه بها قوله « كنت سمعه الخ » عشرة ينضم إلى ذلك ما ذكرناه واخترناه فتكون الوجوه أحد عشر وجها

وأما ماذكره من الرد على ما حكاه عن بعض أهل الزيغ من قوله: لئن سألنى ولئن استعاذنى. فوجه الرد أنه يقتضى سائلا ومسئولا ومستعيذاً ومستعاذا به. ولعله رحمه الله لم يتأمل هذا الحديث كما ينبغى فإنه لو تأمله لم يقتصر على ماذكره من السؤال والاستعاذة، فإن الحديث كله يرد عليهم فإن قوله: من عادى لى وليا يرد عليهم لأنه يقتضى وجود معاد ومعادى ومعادى لأجله. ويقتضى وجود موالى وموالى، ويقتضى وجود مؤذن ومؤذن ومحارب ومحارب، ومتقرب ومتقرب إليه وعبد ومعبود ومحب، ومحب وهكذا إلى آخر الحديث.

---

(١) الذى ذكر ذلك هو الطوفى لا الخطابى فليراجع.

(٢) فى (ب) (صقر الخطابى).

(٣) لاتوجد (فيه) فى (أ) ولكنها لازمة لاستقامة الأسلوب.

(٤) وهو مايعبر عنه بمذهب وحدة الوجود.

فهو جميعه يرد على الاتحادية المتمسكين به من حيث لا يشعرون فإن قلت: لعله اقتصر في الاستدلال على الرد عليهم بذلك الوجه المأخوذ من ذلك اللفظ لكونه أوضح مما يستفاد منه الرد عليهم في سائر ألفاظ الحديث.

قلت: ليس ذلك الوجه أوضح من غيره حتى يكون[1] لتأثيره على ما عداه مزية، بل هي كلها مستوية من هذه الحيثية.

بل الوضوح أظهر في قوله: «وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن» فإنه يقتضي وجود متردد ومتردد فيه وفاعل ومفعول ووجود نفس متردد فيها وهي نفس العبد المؤمن ومتردد وهو القابض لها وكاره الموت وهو المؤمن وكاره لمساءته وهو الرب سبحانه.

منشأ الخطأ عند الاتحاديين:

والحاصل أن قول الاتحادية يقضي عقل كل عاقل ببطلانه ولا يحتاج إلى نصب الحجة معهم.

وأصل الشبهة الداخلة عليهم من قول الثنوية، فإنهم جعلوا إلهين اثنين إله الخير وإله الشر: فإله الخير النور وإله الشر الظلمة، وجعلوهما أصل الموجودات كلها، فإذا غلب النور صار العبد نورانياً، وإذا غلبت الظلمة صار العبد ظلمانياً.

وغفلوا عن كون هذا المذهب الكفري يرد عليهم بادىء بدء، فإن الظلمة غير النور، والشيء الذي حلا به غير هذا الحال. نعم قد يقع الغلط كثيراً عند إطلاق لفظ الوحدة مع تعدد معانيها، فإنه يقال وحدة شهود

---

(١) في (ب) (تكون) وهو سهو من الناسخ.

ووحدة قصود ووحدة وجود .

فالأولى معناها أنه لا يشهد إلا الله ويقطع النظر عما[1] سواه، وهذه وحدة محمـــودة .

والثانية معناها : لا يقصد إلا الله ويقطع النظر عن قصد غيره ، وهذه وحدة محمودة .

وأما الثالثة فهي التي جاءت على خلاف الشرع والعقل .

نسأل الله سبحانه أن يهدينا إلى مايرضيه منا من طريق لا يقدح فيها شك ولا تعترض فيها شبهة ، ولا يكون للشيطان علينا سبيل .

فضل السمع على البصر في التأثر والاعتبار :

واعلم أنه لم يكن لدى عند تأليف هذا الشرح شيء من الشروح إلا شرح الفتح لابن حجر رحمه الله ، ولم يذكر فيه وجه تقديم قوله : « كنت سمعه على مابعده » مع أن الآيات الكونية والعبر الخلقية تتعلق بحاسة البصر أكثر من تعلقها بحاسة السمع .

ولعل وجه ذلك والله أعلم أن الآيات التنزيلية والعبر القولية إنما تدرك ابتداء بالسمع ولاحظ للبصر فيها ، وكذلك سائر ماشرعه الله[2] لعباده لأنها إما أقوال أو حكاية أفعال وهي لا تدرك ابتداء إلا بالسمع ، فكأن السمع مختصاً بالآيات التنزيلية والعبر القولية وجميع ما جاءت به الشريعة .

---

(١) في (ب) (عن سواه) .

(٢) في (ب) زاد الناسخ (سبحانه) .

ولاشك أن ما كان بهذه المنزلة وعلى هذه الصفة من مشاعر الإدراك أولى من غيره منها وأحق بالتقديم ، مع أنه مشارك للبصر فى الآيات الكونية والعبر الخارجية بوجه من الوجوه . لأنه يصف الواصف لمن يسمع ولا يبصر مايشاهده فى الخارج فيحصل له من الاعتبار والتفكر نصيب من ذلك .

بخلاف المبصر الذى لايسمع فإنه لا يمكنه إدراك شيء من الآيات التنزيلية ولا من العبر القولية ، ولا من الشريعة المشروعة للعباد من الرب سبحانه ، ومن نبيه صلى الله عليه وآله وسلم ، والله أعلم .

إجابة الدعاء ، من مظاهر محبة الله للعبد (أولا) :

قوله : « وإن سألنى لأعطينه » باللام والنون فى آخره . وكذلك فى رواية « ولئن استعاذنى لأعيذنه » وزاد فى رواية عبد الواحد لفظ « عبدى » بعد « سألنى » وفى ضبط استعاذنى وجهان : الأول بالنون بعد الذال المعجمة والثانى بالباء للوحدة .

وفى حديث أبى أمامة « وإذا استنصرنى نصرته » وفى حديث أنس « وإذا نصحنى نصحت له » .

وفى الحديث دليل على شمول النوافل للأقوال والأفعال ، وقد بينا فيما تقدم بعض مايدخل تحت لفظ النوافل ، وهى كثيرة جداً يضبطها أن يقال : هى كل مارغب الشرع فيه أو وعد بالثواب عليه من غير حتم .

وظاهر الصيغتين أعنى قوله : « وإن سألنى أعطيته ، وإن استعاذنى أعذته » العموم . وهو فى الرواية الثانية التى ذكرناها أظهر لما فيها من اللام الموطئة للقسم . فيجاب له كل مطلب ويعاذ من كل ما استعاذ منه .

قال ابن حجر فى الفتح : « وقد استشكل بأن جماعة من العباد والصلحاء

دعوا وبالغوا ولم يجابوا »[1] .

والجواب : أن الإجابة تتنوع فتارة يقع المطلوب بعينه على الفور ، وتارة يقع ولكن يتأخر لحكمة فيه ، وتارة قد تقع الإجابة ولكن بغير المطلوب حيث لا يكون فى المطلوب مصلحة ناجزة ، وفى الواقع مصلحة ناجزة ، أو أصلح منها » . [2] انتهى .

وأقول : كان ينبغى له أن يربط هذا التقسيم[3] بالدليل ، فإنه لا يقبل إلا بذلك . وقد أخرج أحمد بإسناد لا بأس به والبخارى فى الأدب المفرد والحاكم من حديث أبى هريرة عنه صلى الله عليه وآله وسلم قال : « ما من مسلم ينصب وجهه لله فى مسألة إلا أعطاه الله إياها : إما أن يعجلها له وإما أن يدخرها له »[4] .

وأخرج أحمد والبزار وأبو يعلى[*] بأسانيد جيدة والحاكم وقال صحيح الإسناد من حديث أبى سعيد الخدرى[5] أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال « ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم ، إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث : إما أن يعجل له دعوته ، وإما أن يدخرها له فى الآخرة ، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها » .

---

(١) ص ٢٩٦ (٢) ص ٢٩٦ .
(٣) فى (ب) (التفسير) .
(٤) فى (ب) سقطت من الناسخ (له) .
(٥) فى (ب) سقط من الناسخ سطر بأكمله من (والحاكم – إلى : قال :) .

الأعلام

(*) أحمد بن على بن المثنى التميمى الموصلى أبو يعلى حافظ من علماء الحديث ثقة مشهور . له كتب منها (المعجم خ) فى الحديث ومسندان : كبير وصغير . الأعلام جـ ١ ص ١٦٤ وتوفى سنة ٣٠٧ هـ .

فقد تضمن الحديث[1] الأول صورتين . إما التعجيل وإما التأجيل ، وتضمن الحديث الثانى ثلاث صور : الصورتين المذكورتين فى الحديث الأول والثانية : أن يصرف عنه من السوء مثلها .

وورد أيضاً ما يدل على وقوع الإجابة ولا محالة كما فى حديث عائشة عند الحاكم والبزار والطبرانى فى الأوسط والخطيب عنه صلى الله عليه وآله وسلم قال : « لاحذر من قدر والدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل وإن البلاء لينزل فيتلقاه الدعاء فيعتلجان إلى يوم القيامة » قال الحاكم : صحيح الإسناد . وتعقبه الذهبي فى التلخيص بأن زكريا بن موسى أحد رجاله وهو مجمع على ضعفه .

وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد رواه أحمد وأبو يعلى بنحوه ، والبزار ، والطبرانى فى الأوسط ورجال أحمد وأبى يعلى وأحد إسنادى البزار رجاله رجال الصحيح غير على بن على الرفاعى ، وهو ثقة .

وقد قدمنا ذكر هذا الحديث وذكر ما قيل فى إسناده .

وقد تضمن أن الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل . وذلك يشمل دفع كل البلاء النازل وأنه يعتلج هو والبلاء إلى يوم القيامة .

فيمكن أن يجمع بين الحديث وبين حديث أبى هريرة وأبى سعيد بأن دفع البلاء يحصل بالدعاء على كل حال .

وأما إذا كان الدعاء فى مطلوب من المطالب التى ليست بدفع البلاء ، فيحتمل تلك الصور .

ويؤيد هذا الجمع ما أخرجه ابن حبان فى صحيحه والحاكم فى مستدركه ،

---

(١) فى (ب) (هذا) قبل (الحديث) .

والضياء فى المختارة من حديث أنس[1] عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: « لاتعجزوا فى الدعاء، فإنه لن يهلك مع الدعاء أحد » . وقد صححه هؤلاء الأئمة الثلاثة فلا وجه لتعقب الذهبي بأن فى إسناده عمر بن محمد الأسلمى وأنه لايعرفه لأنه قد عرفه هؤلاء الأئمة ولو لم يعرفوه لم يصححوا الحديث . لكنه حكى الذهبي فى الميزان عن أبى حاتم أنه مجهول . وقال ابن حجر فى لسان الميزان : إنه تساهل الحاكم فى تصحيحه .

ويجاب عنه بأنه قد صححه معه ابن حبان والضياء وهما ماهما !؟ . ومعلوم أنهما لايصححان إلا حديثاً قد عرفا إسناده . ومن علم حجة على من لم يعلم .

ومما يدل على إجابة الدعاء على العموم حديث سلمان عند أبى داود والترمذى وحسنه وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه والحاكم ، وقال صحيح على شرط الشيخين قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إن الله حيى [كريم[2]] يستحى إذا رفع الرجل يديه إليه أن يردهما صفراً خائبتين » . وأخرج الحاكم وقال صحيح الإسناد من حديث أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إن الله حيى كريم يستحى من عبده أن يرفع إليه يديه ثم لايضع فيهما خيراً » .

ويدل على إجابته على العموم الآيات التى قدمنا ذكرها .

أثر نوافل الصلاة وغيرها فى محبة الله لعبده :

قال ابن حجر « فى الحديث عظم قدر الصلاة ، فإنه نشأ عنها محبة الله

---

(١) فى (أ) كرر المؤلف (من حديث أنس) .

(٢) فى (أ) (كرم) بنفس ذلك الرسم وهو سهو من المؤلف .

تعالى العبد الذي تقرب[1] بها . وذلك لأن محل النجاة القربة ، ولا واسطة فيها بين العبد وربه ، ولا شيء أقر لعين العبد منها ، ولهذا جاء في حديث أنس المرفوع : « وجعلت قرة عيني في الصلاة » أخرجه النسائي وغيره بسند صحيح ، ومن كانت قرة عينه في شيء فإنه يود أن لا يفارقه ولا يخرج منه لأن فيه نعيمه وبه تطيب حياته .

ولا[2] يحصل ذلك للعابد إلا بالمصابرة على النصب فإن السالك عرضة[3] الآفات والفتور » . انتهى .

أقول : خص في كلامه هذا من بين النوافل نوافل الصلاة مع أن نوافل الصيام والحج والصدقة ونحوها ورد فيها ما ورد في الترغيب في نوافل الصلاة .

وبعضها ورد في نوافله ما أجره أعظم من أجر نوافل الصلاة كما في أحاديث الترغيب في ذلك . وقد قدمنا طرفا منها .

ولا وجه لذلك فإن الحديث صرح بعموم النوافل وهي تشمل كل نافلة ، ونوافل كل نوع ما خرج عن فرائضه مع الترغيب في فعله .

فإن قال : إنه خص نوافل الصلاة لما لها من المزية ، فهذه المزية إنما ترتفع بارتفاع ما وعد به عليها من الثواب . وقد ذكرنا أنه ورد في بعض نوافل غيرها ما هو أكثر ثوابا من بعضها .

وما ذكره من الاستدلال بحديث : « وجعلت قرة عيني في الصلاة » فهو

---

(١) في الفتح (يتقرب) .
(٢) في الفتح : (إنما يحصل ذلك)
(٣) في الفتح (غرض) .

غير مناسب لأن سياق الكلام فى بيان عظيم[1] أجر نوافل الصلاة للمصلى وهذا إنما هو شىء يحصل به التلذذ لفاعل ذلك . وليس من الجزاء الموعود به .

لكن كون الصلاة جعلت قرة عين رسول الله [صلى الله عليه وآله وسلم][2] فيها مما يحرك[3] نشاط الراغبين فى الخير إلى الاستكثار منها ، وأن تكون قرة أعينهم فى الصلاة كما كانت قرة عينه فى الصلاة . وهذه الصلاة التى كانت فيها قرة عين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تتناول الفرائض والنوافل .

وهكذا ، مما يرغب فى الصلاة ، قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « يابلال أرحنا بالصلاة » أى روحنا بفعلها .

وذلك وإن كان مورده صلاة الفرائض ؛ لكن لنوافلها نصيب من هذا الروح .

قال ابن حجر فى الفتح : « وفى حديث حذيفة من الزيادة ، يعنى حديث الباب : ويكون من أوليائى وأصفيائى ويكون جارى مع النبيين والصديقين والشهداء فى الجنة[4] » .

العصمة والقرب التى فى هذا الحديث :

وقد تمسك بهذا الحديث بعض الجهلة من أهل التحل والرياضة فقالوا :

---

(١) فى (ب) (عظم) .
(٢) فى (أ) سقطت (صلى الله عليه وآله وسلم) .
(٣) فى (ب) (مايحرك)
(٤) ص ٢٩٦ .

القلب إذا كان محفوظاً مع الله تعالى كانت خواطره معصومة من[1] الخطأ .

وتعقب ذلك أهل التحقيق من أهل الطريق فقالوا : لا يلتفت إلى شيء من ذلك إلا إذا وافق الكتاب والسنة والعصمة إنما هي للأنبياء . ومن عداهم قد يخطيء ، فقد كان عمر رضي الله عنه رأس الملهمين ومع ذلك فكان ربما رأى الرأي فيخبره بعض الصحابة بخلافه فيرجع إليه ويترك رأيه .

فمن ظن أنه يكتفي بما وقع في خاطره عما[2] جاء به الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فقد ارتكب أعظم الخطأ .

وأما من بالغ منهم فقال : حدثني قلبي عن ربي فهو أشد خطأ ، فإنه لا يأمن أن يكون قلبه إنما حدثه عن الشيطان والله المستعان[3] » انتهى .

متى اسلم بآراء أهل الولاية وخواطرهم :

أقول : قد[4] قدمنا في أول هذا الشرح أن أهل الولاية إذا لم تكن أعمالهم موزونة بميزان الكتاب والسنة فلا اعتداد بها ، وكررنا ذلك . ومعلوم أن أولياء الله إذا لم يجعلوا كلامه وكلام رسوله قدوتهم ويمشون على صراطهما السوي لم يصح لهم هذا الانتساب إلى الله عز وجل .

وكيف يكون ولياً [لله][5] سبحانه من يعرض عما شرعه لعباده ودعاهم إليه ويشتغل بزخارف الأحوال ، وخواطر السوء ويؤثرها على كلام من هو

---

(١) في (ب) (عن) .

(٢) (عما) في (ب) وهو خطأ واضح .

(٣) الفتح ص ٢٩٦ .

(٤) في (ب) سقطت (قد) من الناسخ .

(٥) في (أ) (ولياً لها سبحانه) . وهو سهو من المؤلف .

ولى له ؟ ! فإن هذا هو بالعدو أشبه منه بالولى .

وليس الكلام فيمن كان حاله هذا الحال ، بل الكلام فيمن يستكثر من أنواع الطاعة التى رغب إليها الشرع مقيداً لكل موارده ومصادره بالشرع ، فإن لهذه الطاعات أثراً عظيما فى صلاح باطنه ووقوع خواطره فى الغالب مطابقة للصواب وكيف لا يكون هكذا وقد صار محبوباً لله وكان سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى[2] يبطش بها ورجله التى[3] يمشى بها ، فبه يسمع وبه يبصر وبه يبطش وبه يمشى كما وقع فى هذا الحديث القدسى .

وأى رتبة أعلى من هذه وأى مزية أكبر منها ؟ والمحب فى بنى آدم يؤثر محبوبه على نفسه ويقدمه عليها بأبلغ جهده وغاية طاقته حتى قال بعض المحبين لمحبوبه شعراً :

ولو قلت طا[3] فى النار أعلم أنه ‏ ‏ ‏ ‏ رضاً لك أو مدن لنا من وصالك
لقربت رجلى نحوها ووطيتها ‏ ‏ ‏ ‏ هدى منك لى أو ضلة من ضلالك
لئن ساءنى أن نلتنى بمساءة ‏ ‏ ‏ ‏ لقد سرنى أنى خطرت ببالك

وقال آخر :

ولقد ذكرتك والرماح نواهل ‏ ‏ ‏ ‏ منى وبيض الهند تقطر من دمى
فوددت تقبيل الرماح لأنها ‏ ‏ ‏ ‏ لمعت كبارق ثغرك المتبسم

---

(١) فى (ب) (التى) .

(٢) أمر من (وطأ) بمعنى داس أو مشى .

وقال آخر :

ذكرتك والخطى تخطر بيننا وقد نهلت منا المثقفة السمر

فإذا كان هذا فى الحب البشرى الذى هو نوع من أنواع مخلوقات الرب التى لا تدخل تحت حصر ، ولا تتطرق إليها إحاطة ، فكيف لا يصنع الله عز وجل لمحبوبه من تيسير الخير والحماية عن الجناية ، وحفظ الخواطر عن الزيغ مايصير به ملكى الأفعال والأقوال ، وإن كان بشرى الخلقة وهو القادر القوى الذى لا يتعاظمه شيء .

ومما يشير إلى صدق غالب خواطر أهل الإيمان حديث « اتقوا فراسة المؤمن فإنه يرى بنور الله » وهو حديث حسن كما قدمنا .

والحاصل أن الخواطر الكائنة من أهل الولاية إذا لم تخالف الشرع فينبغى أن تكون مسلمة لهم لكونهم أحباء الله وأولياؤه ، وأهل طاعته وصفوة عباده .

وليس لمن كان بالنسبة إليهم كالبهيمة بالنسبة إلى الإنسان ، أو كالإنسان بالنسبة إلى الملائكة أن ينكر عليهم شيئاً لا يخالف الشريعة ، فإن خالف شيئاً منها فهى الجسر الذى لا يصل أحد إلى مراضى الله إلا بالمرور منه ، والباب الذى من دخل من غيره ضل وزل ، وقل وذل .

يا سالكا بين الأسنة والقنا إنى أشم عليك رائحة الدم

ولا شك ولا ريب أن من جمل ما أمتن به الله على عباده الصالحين المستكثرين من نوافل العبادات فى هذا الحديث[٢] من المحبة لهم ، وماترتب

(١) فى (ب) (أنواع) .
(٢) فى (ب) سقطت من الناسخ (فى هذا الحديث) .

عليها عصمة كعصمة الأنبياء مخطىء مخالف للإجماع .

فإن العصمة بهذا المعنى خص الله سبحانه بها رسله وملائكته ولم يجعلها لأحد من خلقه .

فإن هذا المقام هو مقام النبوة لامقام الولاية . ولايخالف فى ذلك إلا جاهل أو زائغ .

ولكن الشأن فيما تستلزمه هذه المحبة من الرب سبحانه وما يتأثر عن قوله كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده الذى[1] يبطش بها . ورجله الذى[1] يمشى بها . فإن هذا يدل أبلغ دلالة ويفيد أعلى مفاد أن من وقع له ذلك من جناب رب العزة كان مثبتا أكمل تثبيت ، وموفقا أعظم توفيق ، وربك يخلق ما يشاء ويختار ، لامانع لما أعطى ، ولامعطى لما منع .

وأما ما حكاه عمن بالغ منهم فقال : حدثنى قلبي عن ربى . فليس هذا من الخواطر ، بل من الرواية المكذوبة والكلام المفترى إن كان قائله كامل العقل .

وإلا فغالب ماتصدر مثل هذه الدعاوى العريضة على المصابين بعقولهم ، المخالطين فى إدراكهم ، وليس على مجنون حرج .

وليس أحباء الله سبحانه هم هؤلاء ، بل الكلام فى أحبائه [الذين][2] ذكرهم الله فى هذا الحديث القدسى ولسان حالهم :

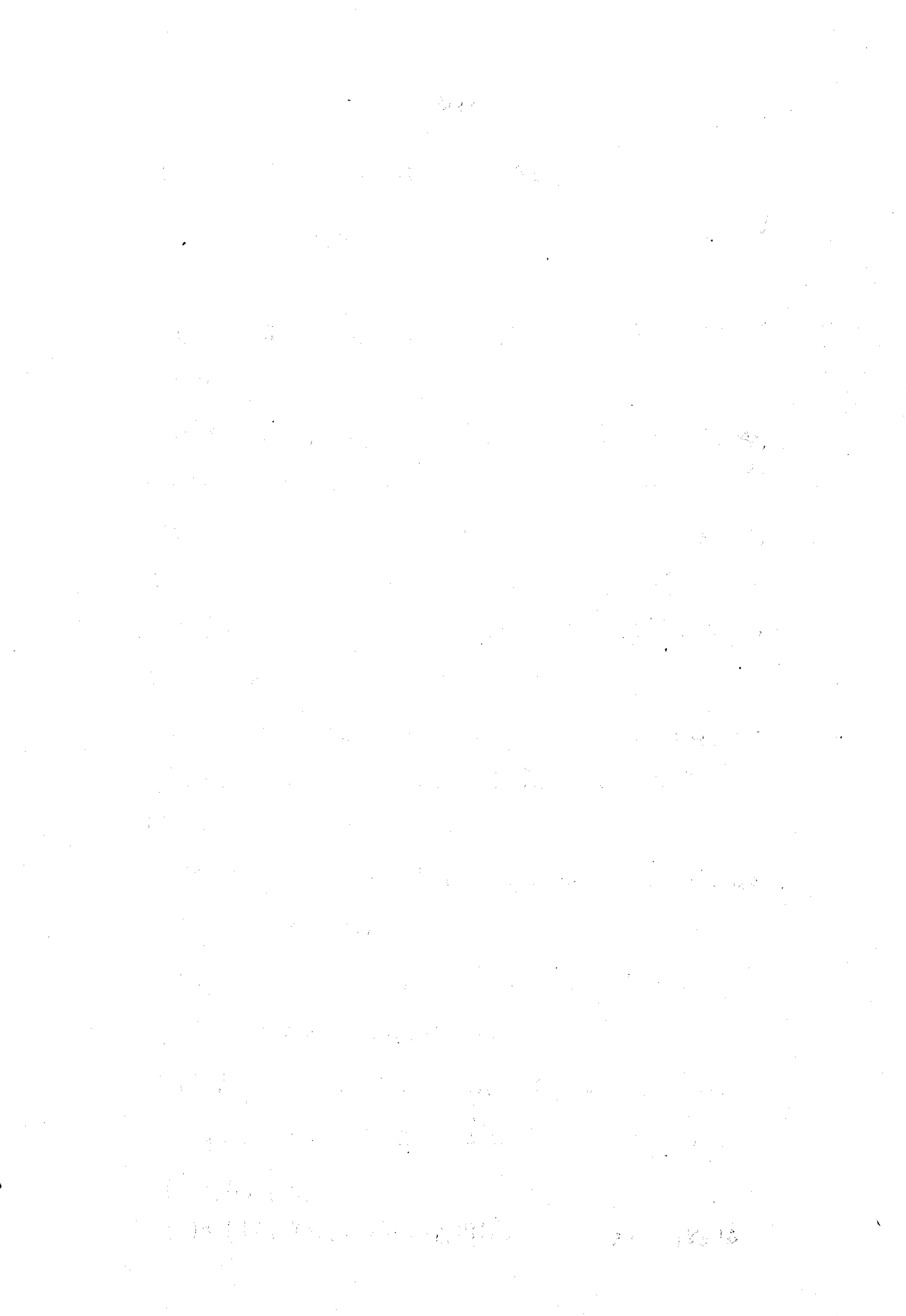
أهلا بما لم أكن أهلا لموقعه ... قول المبشر بعد اليأس بالفرج

لك البشارة فاخلع ماعليك فقد ... ذكرت ثم على مافيك من عوج

---

(١) فى (ب) (التى) .

(٢) فى (أ) (الذى) وهو سهو من المؤلف .



الفصل الرابع

قيمة هذا الحديث في باب السلوك والأخلاق



الإحسان والمفروضات الباطنة :

وحكى ابن حجر فى الفتح عن الطوفى أنه قال : « هذا الحديث أصل فى السلوك إلى الله تعالى ، والوصول إلى معرفته ومحبته ، وطريقة[1] أداء للفروضات الباطنة وهى الإيمان ، والظاهرة وهى الإسلام ، والمركب منهما وهو الإحسان ؛ كما تضمنه حديث جبريل عليه السلام . والإحسان يتضمن مقامات السالكين من الزهد والإخلاص والمراقبة وغيرها »[2] انتهى .

أقول : قد عرفناك فيما سلف أن مما افترضه الله على عباده ترك المحرمات، فتركها فريضة من فرائض الله سبحانه . فقوله أداء المفروضات الباطنة وهى الإيمان ، والظاهرة وهى الإسلام لا يشمل جميع فرائض الله .

وبيانه أن الإيمان هو كما قاله صلى الله عليه وآله وسلم فى جواب من سأله عن الإيمان « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والقدر خيره وشره » ، فلم يشمل جميع المفروضات الباطنة . فإن منها أن لا يتعلق بشىء من الاعتقادات الباطلة ، ولا يحسد ، ولا يعجب ، ولا يتكبر ولا يشوب عمله رياء ، ولا نيته عدم خلوص ، ولا يستخف بما أوجب الله عليه تعظيمه ، ولا يبطن غير ما يظهره[3] حتى يكون ذا وجهين ، وغير ذلك من الأمور القلبية التى هى عند من يتفكر فى الأمور ويتفهم الحقائق كثيرة جداً . والتكليف[4] بها شديد،

---

(١) فى (ب) (وطريق) .

(٢) ص ٢٩٦ .

(٣) فى (ب) (ما يظهر) دون الهاء

(٤) فى (ب) (والتكلف) .

والوعيد عليها شديد ، والحريص على دينه إذا لم يجاهدها[1] كلية المجاهدة هلك من حيث لا يشعر . وذهب عليه أجر أعماله الظاهرة وهو لا يدرى .

فترك هذه هو من أعظم ما افترضه الله على عباده ، وهى غير داخلة فى خصال الإيمان التى اشتمل عليها الحديث .

فإن الرجل قد يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، والقدر خيره وشره وهو مشتمل على شىء من هذه المعاصى الباطنة

وبيان ذلك أنك لو كشفت ما عنده فى الإيمان بالله لوجدته . مؤمنا لا يعتريه فى ذلك شك ولا شبهة ، وكذلك لا يشك فى الملائكة وفى كتب الله ورسله ، وكون الأمر بيد الله عز وجل وهو القابض الباسط النافع الضار . فهذه [يجدها][2] الإنسان عند كل أحد من المسلمين . وإذا كشفت هذه الأمور الباطنة وجدت عباد الله مختلفين فيها لا ينزعها الله سبحانه إلا من قلوب خاصة الخاصة .

وما أحسن ما روى عن بعض كفار الهند الوثنية بعد إسلامه أنه قال : « جاهدت نفسى فى كسر الوثن الذى كنت أعبده ليلة فغلبتها وكسرته ، وأنا فى جهاد لها نحو عشرين سنة فى كسر الأصنام الباطنة فلم أقدر عليها ، ولا نفع جهادى لها أبداً » .

ومن فكر فى هذا النوع الإنسانى وجد غالب مصائب دينه من المعاصى الباطنة ووجد المعاصى الظاهرة بالنسبة إلى الباطنة أقل خطراً وأيسر شراً ، لأنه قد يمنع عنها الدين وقد يمنع عنها الحياء وحفظ المروءة . وأما البلايا الباطنة فهى إذا لم ينزع حاملها وازع الدين لم يقلع عنها لأنها أمور لا يطلع عليها الناس حتى يستحى ويحاشى ويحافظ على مروءته .

---

(١) فى (ب) (يجاهد نفسه) وهو أوضح .

(٢) فى (أ) (يجده) وليس يستقيم .

طهارة الباطن وأثرها فى مركز الإنسان من الولاية :

وبالجملة فمن قدر على تصفية باطنه من هذه الأدناس فقد دخل من باب الولاية الكبرى ، وتمسك بأوثق أسبابها لأنه قد خلص من أعظم موانعها ، وأشد القواطع عنها ، وصار باطنه قابلا لأنوار التوفيق مستعداً للظفر بالمنازل العالية والمزايا الجميلة التى هى أس الولاية العظمى وأساس الهداية الكبرى وركن الإيمان القوى ، وعماد الإخلاص السوى .

وإذا تقرر لك عدم اشتمال خصال الإيمان على جميع الأمور الباطنة ، فكذلك[1] ما ذكره من اشتمال الإسلام على الفرائض الظاهرة ، فإنه غير مسلم . لأن الإسلام هو الذى ذكره النبي صلى الله عليه وآله وسلم فى جواب سؤال من سأله عن الإسلام فقال : « أن تقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتحج البيت ، وتصوم رمضان ، وتشهد أن لا إله إلا الله » فقد اقتصر صلى الله عليه وآله وسلم فى بيان ماهية الإسلام على هذه الخمس .

والفرائض الظاهرة كثيرة جداً يصعب حصرها ، وتتعسر الإحاطة بها ، وناهيك أن رأس الفرائض الظاهرة الجهاد وليس من جملة الخمس التى اشتمل عليها حديث الإسلام ، فلا نطيل بذكرها فإنها معروفة لكل ذى علم وفهم .

الطريق إلى طهارة الباطن :

ويحسن أن نبين هاهنا الزواجر عن بعض المعاصى الباطنة حتى يكون ذلك بعد ما قدمناه من التحذير منها كالدواء لدائها العضال ، وكالترياق لسمها القتال .

---

(١) فى (ب) (وكذلك) وهو خطأ .

فاعلم أن عمدة الأعمال التي تترتب[١] عليها صحتها أو فسادها هي النية والإخلاص ، ولا شك أنهما من الأمور الباطنة .

فمن لم تكن نيته صحيحة لم يصح عمله الذي عمله ، ولا أجره المترتب عليه. ومن لم يخلص عمله لله سبحانه فهو مردود عليه مضروب به في[٢] وجهه ، وذلك كالعامل الذي يشوب نيته بالرياء ، قال الله عز وجل : « واعبدو الله مخلصين له الدين »[٣] . وفي الصحيحين وغيرهما من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه » .

وفي الصحيحين وغيرهما من حديث عائشة[٤] في قصة الجيش الذي يغزو الكعبة فيخسف بهم ، قالت : قلت يا رسول الله كيف يخسف بأولهم وآخرهم وفيهم أسواقهم ومن ليس منهم ؟ قال : « يخسف بأولهم وآخرهم ثم يبعثون على قدر نياتهم » .

وأخرج ابن ماجه بإسناد حسن من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إنما يبعث الناس على نياتهم » وأخرجه أيضا من حديث جابر . وأخرج البخاري وغيره من حديث أنس قال . « رجعنا

---

(١) في (ب) (ترتب) هكذا دون نقط الياء .

(٢) في (ب) سقطت من الناسخ (في) .

(٣) لعله يريد بذلك قوله تعالى «وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء الخ »سورة البينة آية٥، لأنه لا يوجد في القرآن آية بذلك الصدر الذي أورده

(٤) في (ب) (رضى الله عنها) .

من غزوة تبوك مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال : إن أقواما خلفنا بالمدينة ماسلكنا شعبا ولا واديا إلا وهم معنا حبسهم العذر » . وأخرج مسلم من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم » .

وفي الصحيحين وغيرهما من حديث ابن عباس عنه صلى الله عليه وآله وسلم: « من هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة ، فإن هم بها فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة وإن هو هم بها فعملها كتبها الله عنده سيئة واحدة » زاد[1] في رواية : « أو محاها ، ولا يهلك على الله إلا هالك » . وهو في الصحيحين بنحوه من حديث أبي هريرة .

ومن ذلك حديث : « الثلاثة الذين هم أول من تسعر بهم النار وهم : العالم الذي علم ليقال له عالم ، والمجاهد الذي جاهد ليقال له جريء ، والرجل الغني الذي تصدق ليقال له جواد » .

وهو من حديث أبي هريرة في الصحيحين وغيرهما بألفاظ . وأخرج أبو داود والنسائي بإسناد جيد من حديث أبي أمامة قال : « جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . فقال : أرأيت رجلا غزا يلتمس الأجر والذكر: ماله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : لاشيء له ، فأعادها ثلاث مرات، يقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : لاشيء له ، ثم قال : إن الله لا يقبل من العبد إلا ما كان له خالصاً ، وابتغي به وجهه » .

وأخرج أحمد بإسناد جيد والبيهقي والطبراني من حديث أبي هند الداري

---

(١) في (ب) (وفي رواية) .

أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « من قام مقام رياء وسمعة راءى الله به يوم القيامة وسمع » .

وأخرج الطبراني في الكبير بأسانيد أحدها صحيح والبيهقي عن عبد الله ابن عمرو ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « من سمع الناس بعلمه سمع الله به سامع خلقه وصغره وحقره » .

وفي الصحيحين وغيرهما من حديث جندب بن عبد الله (*) قال : قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « من سمع سمع الله به[1] ومن يرائي يرائي الله به »

وأخرج ابن ماجه والحاكم والبيهقي في كتاب الزهد من حديث معاذ قال : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : اليسير من الرياء شرك » الحديث قال الحاكم : صحيح ولا علة له

وأخرج أحمد بإسناد جيد ، وابن أبي الدنيا والبيهقي في الزهد عن محمود ابن لبيد أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر ، قالوا : وما الشرك الأصغر ؟! قال الرياء ، يقول الله عز وجل ، إذا جزى[2] الناس بأعمالهم : اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء ؟! » .

وأخرج الترمذي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه من حديث أبي سعيد

---

(١) في (ب) سقطت من الناسخ (به)
(٢) في (جرى) .

الأعلام

(*) جندب بن عبد الله بن سفيان البجلي العلقي ، أبو عبد الله ، له صحبة مات بعد الستين من الهجرة . خلاصة التذهيب ، للخزرجي . وتقريب التهذيب لابن حجر .

نحوه ، وأخرج ابن ماجه بإسناد رجاله ثقات ، وابن خزيمة فى صحيحه والبيهقى من حديث أبى هريرة نحوه أيضاً

والأحاديث الواردة فى كون الرياء مبطلا للعمل موجباً للإثم كثيرة جـــداً واردة فى أنواع من الرياء : الرياء فى العلم ، والرياء فى الجهاد ، والرياء فى الصدقة ، والرياء فى أعمال الخير على العموم ، ومجموعها لا يفى به إلا مصنف مستقل .

والرياء هو أضر المعاصى الباطنة وأشرها مع كونه لا فائدة فيه إلا ذهاب أجر العمل والعقوبة على وقوعه فى الطاعة ، فلم يذهب به مجرد العمل بل لزم صاحبه مع ذهاب عمله الإثم البالغ

ومن كان ثمرة ريائه هذه الثمرة ، وعجز عن صرف نفسه عنه فهو من ضعف العقل ، وحمق الطبع بمكان فوق مكان المشهورين بالحماقة

ومن الزجر عن الذنوب الباطنة الخارجة عن حديث الإيمان ما أخرجه الشيخان وغيرهما من حديث أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ، ولا تجسسوا ولا تحسسوا ، ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا كما أمركم ، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره التقوى هاهنا التقوى هاهنا التقوى هاهنا ، ويشير إلى صدره بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام : دمه وعرضه وماله » .

وهذه الأمور غالبها من المعاصى الباطنة ، وناهيك أن التقوى التى هى طريق النجاة الكبرى قد صرح صلى الله عليه وآله وسلم هاهنا أنها من الأمور الباطنة ، فإذا كانت النية والإخلاص والتقوى من الأمور الباطنة ، وهى عمدة الاعتداد بالأفعال والأقوال فناهيك بذلك .

وأخرج ابن حبان فى صحيحه من حديث أبى هريرة عنه صلى الله عليه وآله وسلم قال : « لا يجتمع فى جوف عبد مؤمن غبار فى سبيل الله وفيح جهنم ، ولا يجتمع فى جوف عبد الإيمان والحسد » .

فقد أوضح فى هذا الحديث أن الحسد مغاير للإيمان ، فصح ماذكرناه من الاعتراض على كلام الطوفى السابق .

وأخرج أبو داود والبيهقى من حديث أبى هريرة ، وأخرجه ابن ماجه من حديث أنس عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : « إياكم والحسد فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب » وأخرج الطبرانى بإسناد رجاله ثقات عن ضمرة بن ثعلبة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « لا يزال الناس بخير مالم يتحاسدوا » ، وأخرج البزار والبيهقى بإسناد جيد من حديث الزبير أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « دب إليكم داء الأمم قبلكم : الحسد والبغضاء ، والبغضاء هى الحالقة أما إنى لا أقول تحلق الشعر ، ولكن تحلق الدين » .

وأخرج ابن ماجه بإسناد صحيح والبيهقى « أنه سئل رسول الله [صلى الله عليه وآله وسلم] [1] عن أفضل الناس فقال : التقى النقى لا إثم فيه ولا بغى ولا غل ولا حسد » . والأحاديث فى هذا الباب كثيرة .

ومما ورد فى ذم الكبر والعجب حديث عياض بن حمار الذى أخرجه مسلم وأبو داود وابن ماجه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إن الله تعالى أوحى إلىّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغى أحد على أحد » ، وأخرج مسلم والترمذى من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله

---

(١) فى (أ) سقطت : (صلى الله عليه وآله وسلم) .

صلى الله عليه وآله وسلم : « ما نقصت صدقة من مال وما زاد[1] الله عبداً بعفو إلا عزاً ، وما تواضع أحد لله إلا رفعه » ، وأخرج الترمذى والنسائى وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه والحاكم وصححه من حديث ثوبان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من مات وهو برىء من الكبر والغلول والدَّين دخل الجنة » .

وأخرج ابن ماجه وابن حبان فى صحيحه من حديث أبى سعيد الخدرى عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : « من تواضع لله درجة يرفعه درجة حتى يجعله فى أعلا عليين ، ومن تكبر على الله درجة يضعه الله درجة حتى يجعله فى أسفل سافلين ، ولو أن أحدكم يعمل فى صخرة صماء ليس عليها باب ولا كوة لخرج ما غيبه للناس كائناً ما كان » .

وأخرج أحمد والبزار بإسناد رجاله رجال الصحيح ، والطبرانى عن عمر بن الخطاب[2] أنه قال على المنبر : « أيها الناس تواضعوا فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : من تواضع لله رفعه الله وقال : — انتعش نعشك الله — فهو فى أعين الناس عظيم وفى نفسه صغير ، ومن تكبر قصمه الله ، وقال : اخسأ فهو فى أعين الناس صغير ، وفى نفسه كبير » .

وأخرج مسلم من حديث أبى سعيد وأبى هريرة[3] قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : يقول الله عز وجل : « العز إزاره والكبرياء

---

(١) فى (ب) (ولا زاد الله . . .) .
(٢) فى (ب) (رضى الله عنه) .
(٣) فى (ب) (رضى الله عنه) .

رداؤه، فمن[1] نازعني واحداً منهما عذبته »، وفي الصحيحين وغيرهما من حديث حارثة بن وهب قال: « سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: ألا أخبركم بأهل النار: كل عتل جوّاظ[2] مستكبر ».

وأخرج مسلم والنسائي من حديث أبي هريرة عنه صلى الله عليه وآله وسلم « ثلاثة لا يكلمهم الله تعالى يوم القيامة ولا يزكيهم ولا ينظر إليهم ولهم عذاب أليم: شيخ زان، وملك كذاب، وعائل[3] مستكبر ». وأخرج مسلم والترمذي من حديث ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: « لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر ». فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً، ونعله حسنة[4] قال. إن الله جميل يحب الجمال. الكبر بطر الحق وغمط الناس » وأخرج البخاري وغيره من حديث ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: « بينما رجل ممن كان قبلكم يجر إزاره من الخيلاء خسف به فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة ». وأخرج نحوه البخاري ومسلم وغيرهما من حديث أبي هريرة.

وفي الصحيحين وغيرهما من حديث ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: « من جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله له يوم القيامة فقال أبو بكر: يارسول الله إن إزاري يسترخي إلا أن أتعاهده؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إنك لست ممن يفعله خيلاء »، والخيلاء عند أهل اللغة والشرع الكبر والعجب. والأحاديث في هذا الباب كثيرة. وأخرج الشيخان

---

(٣) في (ب) (عما).

(٣) الجواظ. المتكبر الجافي المختال. قاموس.

(٣) عائل: فقير. قال تعالى « ووجدك عائلا فأغنى » سورة الضحى.

(٤) في (ب) (حسناً).

وغيرهما من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « تجدون الناس معادن خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإســلام إذا فقهوا ، وتجدون شر الناس ذا الوجهين الذى يأتى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه » . وأخرج البخارى من حديث ابن عمر أن رجلا قال له إنا ندخل على سلطاننا فنقول بخلاف ما نتكلم إذا خرجنا من عنده فقال : كنا نعد هذا نفاقاً على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم » .

وأخرج أبو داود وابن حبان فى صحيحه من حديث عمار بن ياسر (*) قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « من كان له وجهان فى الدنيا كان له يوم القيامة لسانان من نار » . وأخرجه ابن أبى الدنيا (**) والطبرانى والأصبهانى (***) من حديث أنس . وأخرجه الطبرانى أيضاً فى الأوسط من حديث سعد بن أبى وقاص بلفظ [ذوو][1] الوجهين فى الدنيا يأتى يوم القيامة وله وجهان من نار » .

---

(١) فى (ا) ، (ب) (ذى) .

الأعـــلام

(*) عمار بن ياسر بن عمار بن مالك : أسلم قديما وكان من المستضعفين الذين يعذبون بمكة ليرجعوا عن دينهم، أحرقه المشركون بالنار وشهد بدرا ولم يشهدها ابن مؤمنين غيره ، وشهد المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وسماه الطيب المطيب قتل عمار بصفين مع على بن أبى طالب سنة ٣٧ هـ ، صفوة الصفوة جـ ١ ص ١٧٥ .

(**) (من ٢٠٨ – ٢٨١ هـ) عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان ابن أبى الدنيـــا القرشى الأموى مولاهم البغدادى حافظ للحديث مكثر من التصنيف ص ٢٦٠ جـ ٤ الأعلام .

(***) من (٥٠١–٥٨١ هـ) محمد بن عمر بن أحمد بن عمر بن محمد الأصبهانى المدينى (نسبة إلى مدينة أصبهان) من حفاظ الحديث المصنفين فيه من كتبه (الأخبار الطوال) و (اللطائف) خ فى الحديث . الأعلام جـ٧ ص ٢٠٢ .

ومن الأمور الباطنة الخيانة وقد وردت الأحاديث الصحيحة بأنها من خصال النفاق .

ومن الأمور الباطنة المحبة والبغض والكراهة وقد ثبت فى الصحيحين وغيرهما من حديث أنس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان ، من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، ومن أحب عبداً لا يحبه إلا لله تعالى ، ومن يكره أن يعود فى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف فى النار » وفى رواية « وأن يحب فى الله ويبغض فى الله » .

وأخرج مسلم من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إن الله تعالى يقول يوم القيامة : [أين][1] المتحابون لأجلى اليوم أظلهم فى ظلى يوم لا ظل إلا ظلى « وفى الصحيحين وغيرهما من حديث أبى هريرة فى السبعة الذين يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله » ومنهم رجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه » . وأخرج مسلم من حديثه فى الرجل الذى أتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعرفه أنه زار أخاله أحبه فى الله تعالى فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إن الله قد أحبك كما أحببت فيه » وفى الصحيحين وغيرهما من حديث أبى ذر « أنه صلى الله عليه وآله وسلم قال : المرء مع من أحب » .

والأحاديث فى هذا الباب كثيرة جداً ومن ذلك ما ورد فى ذم حب الدنيا ومدح حب الآخرة ، وهى أحاديث كثيرة »[2] .

ومن الأمور الباطنة الطيرة وقد صح عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنها

---

(١) فى (أ) سهى المؤلف عن كتابة (أين) .
(٢) فى (ب) سقطت من الناسخ (وهى أحاديث كثيرة) .

شرك كما فى حديث ابن مسعود وصححه الترمذى وابن حبان .

ومن الأمور الباطنة التوبة ، والأحاديث الواردة فى الترغيب فيها متواترة . ومنها الأحاديث الواردة فى مدح الخشية من الله عز وجل .

ومنها الأحاديث الواردة فى ذم طول الأمل ومدح قصره . ومنها الأحاديث الواردة فى مدح الخوف من الله عز وجل ، ومراقبته .

ومنها الأحاديث الواردة فى مدح حسن الظن بالله ، ولو لم يكن منها إلا ما فى الصحيحين وغيرهما من حديث أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : قال الله عز وجل أنا عند ظن عبدى بى » . وحديث جابر عند مسلم وغيره أنه سمع النبى صلى الله عليه وآله وسلم قبل موته بثلاثة أيام يقول : « لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عز وجل » .

ومنها الصبر وقد ورد مدحه وكون الله مع الصابرين وما لهم[1] من الأجر العظيم فى الكتاب والسنة .

وبالجملة فاستيفاء الفرائض الباطنة ، والمحرمات الباطنة التى تركها من الفرائض يطول جدا ، فلنقتصر على هذا المقدار ، وبه يتبين أن ما ذكره الطوفى من اشتمال خصال الإسلام على الفرائض الظاهرة ، واشتمال خصال الإيمان المذكورة فى الحديث على الفرائض الباطنة غير صحيح .

مقام الإحسان ولمن يكون :

وأما قول الطوفى : والمركب منهما وهو الإحسان كما تضمنه حديث جبريل الخ فأقول : وجه تركبه منهما أنه صلى الله عليه وآله وسلم قال فى

(١) فى (ب) زاد الناسخ (فى الآخرة) .

الاحسان لما سأله السائل عنه : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » ، فأمره أن يعبد الله سبحانه على هذه الصفة ، وهى كأنه يراه فمجموع الإحسان هو العبادة مع الحضور والمراقبة ومزيد الخشوع فيها .

ولكن لا يخفاك أن كون الاحسان يتركب من مجموع الاسلام والايمان مبنى على أن العبادة مع هذه المراقبة تحصل لكل مؤمن ، وهو ممنوع .

فإن هذه رتبة وراء الإيمان بمسافات طويلة ودرجات كثيرة ، لأن الإيمان يحصل للعبد بمجرد إيمانه بالله وملائكته وكتبه ورسله والقدر خيره وشره وقد عرفناك أن هذا حاصل لغالب العباد ، ولو كان الاحسان من مجموع الاسلام والايمان لزم أن يحصل لكل مسلم مؤمن، وأنه إذا لم يحصل له ذلك ولم يعبد الله كأنه يراه لم يحصل الإيمان . وهـذا باطل من القول وتكليف بما لا يستطيعه من أهل الايمان إلا من هو الكبريت الأحمر والغراب الأبقع ، وكل عالم بهذه الشريعة الغراء لا يخفى عليه مثل هذا .

فالاحسان هو موهبة يتفضل الله بها على خاص عباده وجلة صفوته وأكابر أوليائه وأهل محبته .

فالذى ينبغى أن يقال : إن الاحسان مشروط بالاسلام والايمان ، وأنه لا يتم إلا لمن حصل له هذان الأمران وهو شىء ثالث ، ليس هو عين أحدهما ولا مركب منهما ، وفرق بين الشطر والشرط ، فإن الشرط خارج عن المشروط وإن استلزم عدمه عدمه بخلاف الشطر فإنه جزؤه الذى تركب منه مع غيره .

فالطوفى لما صرح بتركيب الاحسان من الاسلام والايمان ، استلزم كلامه هذا ، أنهما جزآن له ، وليسا كذلك ، بل هما شرطان له ، من فقدهما أو أحدهما فقد الاحسان كما هو مفهوم الشرط . فلا بد من هـذا ، وإلا

استلزم كلامه الباطل ، وهو أن كل من اجتمع له الاسلام والايمان يكون قد بلغ رتبة الاحسان ، وهذا غلط من القول ، وشطط من الرأى ، وعبء من التكليف ثقيل لا ينوء به غالب عباد الله المؤمنين .

مقام لاحسان :

والمراتب تتفاوت بتفاوت هذه المقامات ، وإن كان بينها فى العلو ما بين السماء والأرض ، وأعظم محصلات هـذا المقام الاحسانى هو الخشوع والخوف والخشية من الله عز وجل كما قال عز وجل : « ولمن خاف مقام ربه جنتان » (١) وفى الحديث المتفق عليه فى السبعة الذين يظلهم الله فى ظله ومنهم رجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إنى أخاف الله .

وكذلك فى حديث الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة فقال صاحب المرأة التى دعته فتركها : « اللهم إن كنت تعلم أنى إنما فعلت ذلك رجاء رحمتك وخشية عذابك » وهو فى الصحيحين وغيرهما .

وكذلك حديث الرجل الذى أمر أولاده بإحراقه إذا مات فقال له الله عز وجل : « لم فعلت هذا ؟ قال : خشيتك يارب وأنت أعلم فغفر الله له » . وهو فى الصحيحين وغيرهما .

وأخرج ابن حبان فى صحيحه من حديث أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم عن الله سبحانه أنه قال : « وعزتى لايجتمع على عبد خوفان وأمنان : إذا خافنى فى الدنيا أمنته يوم القيامة ، وإذا أمننى فى الدنيا أخفته يوم القيامة .

وأخرج الترمذى وحسنه والبيهقى من حديث أنس قال : قال رسول الله

---

(١) سورة الرحمن آية : ٤٦ .وفى (ب) لاتوجد (عز وجل وجل) بعدقال .

صلى الله عليه وآله وسلم : « قال الله عز وجل : أخرجوا من النار من ذكرنى يوماً أو خافنى فى مقام » وأخرج الترمذى وصححه من حديث أبى هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « من خاف أدلج ، ومن أدلج بلغ المنزلة ، سلعة الله غالية ، ألا إن [1] سلعة الله الجنة » .

وأخرج البخارى وغيره من حديث أبى ذر ، أنه صلى الله عليه وآله وسلم قال : « والله لو تعلمون [2] ما أعلم لضحكتم قليلا ، ولبكيتم كثيرا ، وما تلذذتم بالنساء على الفرش ، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله والله لوددت أنى شجرة تعضد » وهو فى الصحيحين من حديث أنس .

ومن ذلك حديث أنس عند الترمذى وابن ماجه : أنه صلى الله عليه وآله وسلم دخل على شاب وهو فى الموت ، فقال : « كيف تجدك : قال : أرجو الله يارسول الله وإنى أخاف ذنوبى ، فقال صلى الله عليه وآله وسلم : لايجتمعان فى قلب عبد مؤمن فى مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله مايرجو وآمنه ممايخاف : وإسناده حسن ، وفى إسناده جعفر بن سليمان الضبعى [*] ولكنه صدوق . أخرج له مسلم ووثقه الجمهور ، وتكلم فيه قوم منهم الدارقطنى .

---

(١) فى (ب) سقطت من الناسخ (ألا إن) .

(٢) فى (ب) (علمتم) .

الأعـــلام

(*) (الضبعى) : وردت الصبعى بالصاد فى (أ) ، (ب) وفى (خلاصة تذهيب الكمال) للحافظ صفى الدين أحمد بن عبد الله الخزرجى الأنصارى : (جعفر بن سليمان الضبعى بضم المعجمة وفتح الباء أبو سليمان البصرى الزاهد ، وثقه أحمد وابن معين قال ابن سعد ثقة يتشيع مات سنة ١٧٨ هـ) الطبعة الأولى .

وأخرج أحمد والنسائي والحاكم وصححه من حديث أبي ريحانة(*) عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « حرمت النار على عين دمعت أو بكت من خشية الله » وأخرجه الحاكم وصححه من حديث أنس ، وأخرج الترمذي وصححه والنسائي والحاكم ، وقال صحيح الإسناد من حديث أبي هريرة « أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال « لا يلج النار رجل بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع » والأحاديث في هذا الباب كثيرة .

ومن أعظم الأسباب للوصلة إلى مقام الإحسان الزهد في الدنيا ، وفي ذلك ترغيبات كثيرة[1] : ومنها ما أخرجه ابن ماجه من حديث سهل بن سعد(**) قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال : « يارسول الله دلني على عمل إذا عملته أحبني الله تعالى وأحبني الناس قال : ازهد في الدنيا يحبك الله،وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس »، وفي إسناده[2] خالد بن عمرو القرشي الأموي السعيدي وفيه مقال .

وأخرج مسلم وغيره من حديث أبي سعيد أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم [قال][3] : « إن الدنيا خضرة حلوة وإن الله تعالى مستخلفكم

(*) هو أبو ريحانة شمعون بن زيد الأزدي حليف الأنصار مولى رسول الله ﷺ شهد فتح دمشق وسكن بيت المقدس ولم يعرف له تاريخ وفاة . (خلاصة التذهيب) ص ١٤٣ .

(١) في (أ) تكررت (كثيرة) .

(٢) في (أ) سقطت (الهاء) من المؤلف سهواً .

(٣) في (أ) لا توجد (قال) .

الأعلام

(**) هو سهل بن سعد الخزرجي الأنصاري من بني ساعدة صحابي مشهور من أهل المدينة له في الصحيحين ١٨٨ حديثا توفي سنة ٩١ هـ (الأعلام ج ٣ ص ٢١٠) .

فيها فينظر كيف تعملون فاتقوا الله ، واتقوا النساء » وأخرج مسلم عن عبد الله ابن عمر(*) سأله رجل فقال له عبد الله : « ألك امرأة تأوى إليها ؟ قال نعم قال ألك مسكن تسكنه ؟ قال نعم قال فأنت من الأغنياء ؟ قال فإن لى خادما قال فأنت من الملوك » .

وأخرج مسلم والترمذى ، وابن ماجه من حديث عبد الله بن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً وقنعه الله تعالى بما آتاه » .

وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما من حديث أبى هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً . وفى رواية كفافاً » . وأخرج مسلم من حديث المستورد(**) قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « ما الدنيا فى الآخرة إلا كما يجعل أحدكم إصبعه هذه فى اليم ، وأشار بالسبابة فلينظر بما ترجع » .

وأخرج أحمد بإسناد رواته ثقات ، والبزار ، وابن حبان فى صحيحه والحاكم والبيهقى فى الزهد من حديث أبى موسى(1) أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « من أحب دنياه أضر بآخرته ، ومن أحب آخرته أضر بدنياه ، فآثروا ما يبقى على ما يفنى » .

(*) عبد الله بن عمرو بن العاص . صحابى من النساك ، ومن كتاب الوحى ، ولد سنة ٧ قبل الهجرة وتوفى سنة ٦٦ هـ ، وكان كثير العبادة ، له فى الصحيحين ٧٠٠ حديث .

(1) فى (ب) (رضى الله عنه) .

الأعلام

(**) هو المستورد بن أحنف الفهرى روى عن عبد الله بن مسعود وكان ثقة وله أحاديث (الطبقات الكبرى لابن سعد) ج ٦ ص ١٩٥ .

وأخرج الحاكم وصححه من حديث أبي مالك الأشعري (*) قال عند موته : يامعشر الأشعريين : ليبلغ الشاهد الغائب : إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « حلوة الدنيا مرة الآخرة ، ومرة الدنيا حلوة الآخرة » .

وأخرج الترمذي وصححه وابن حبان في صحيحه من حديث كعب بن مالك (**) قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « ماذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه » . وأخرج الطبراني وأبو يعلى بإسناد جيد من حديث أبي هريرة نحوه . وأخرج البزار أيضاً بإسناد حسن من حديث ابن عمر نحوه .

وفي الصحيحين وغيرهما من حديث عمرو بن عوف الأنصاري قال: « لما قدم عليه (1) بجزية البحرين [قال] (2) : أبشروا وأملوا ما يسركم ، فو الله ما الفقر أخشى عليكم ، ولكن أخشى أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان من قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم » .

وفي الصحيحين وغيرهما من حديث أبي سعيد الخدري قال : « جلس

---

(1) في (ب) تفسير للضمير من عمل الكاتب ، أو أحد القراء كما يلي (على النبي صلى الله عليه وآله وسلم) .

(2) في (ا) لا توجد (قال) وهي ضرورية .

الأعلام

(*) قيل اسمه عبيد ، وقيل عبد الله ، وقيل عمرو بن الحارث ، صحابي ، مات في طاعون (عمواس) سنة ١٨ هـ . تقريب التهذيب لابن حجر .

(**) هو كعب بن مالك بن عمرو بن القين البدري الأنصاري الخزرجي . صحابي من أكابر الشعراء من أهل المدينة اشتهر في الجاهلية ، وكان في الإسلام من شعراء النبي ﷺ شهد الوقائع توفي سنة ٥٠ هـ (الأعلام جـ ٥ص ٨٥) .

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على المنبر ، وجلسنا حوله فقال : إن مما أخاف عليكم ما يفتح[1] عليكم من زهرة الدنيا وزينتها » . وفى الصحيحين وغيرهما من حديث أبى ذر قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : يا أبا ذر . قلت : لبيك يارسول الله ، فقال[2] : ما يسرنى أن عندى مثل أحد هذا ذهبا يمضى عليه ثالثة وعندى منه دينار إلا شىء أرصده لدين إلا أن أقول فى عباد الله هكذا ، وهكذا ، عن يمينه وعن شماله ومن خلفه ثم سار فقال : إن الأكثرين[3] هم الأقلون يوم القيامة إلا من قال هكذا وهكذا وهكذا عن يمينه وعن شماله ومن خلفه . وقليل ماهم » .

وفى الصحيحين وغيرهما من حديث أبى هريرة قال : « والذى نفسى بيده ماشبع[4] نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم ثلاثة أيام تباعا من خبز حنطة حتى فارق الدنيا » .

وأخرج الترمذى وقال : حديث صحيح من حديث ابن عباس قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يبيت الليالى المتتابعة وأهله طاوياً لايجدون عشاء ، وإنما كان أكثر خبزهم الشعير » . وفى الصحيحين وغيرهما من حديث عائشة قالت : « ما شبع آل محمد من خبز الشعير يومين متتابعين حتى قبض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم » .

وأخرج أحمد والطبرانى برجال ثقات من حديث أنس أن فاطمة رضى الله عنها ناولت النبى صلى الله عليه وآله وسلم كسرة من خبز شعير ، فقال :

---

(١) فى (ب) (أن يفتح) .
(٢) فى (ب) (قال) .
(٣) فى (ب) (الأكثر) .
(٤) فى (ب) (رسول الله) .

« هذا طعام أكله أبوك منذ ثلاثة أيام » .

وأخرج ابن ماجه بإسناد حسن والبيهقى بإسناد صحيح من حديث أبى هريرة قال : « أتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بطعام سخن فأكل ، فلما فرغ قال : الحمد لله مادخل بطنى طعام سخن منذ[1] كذا وكذا » .

وأخرج الترمذى وقال : حسن من حديث أبى أمامة قال : « قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : عرض على ربى عز وجل ليجعل لى بطحاء مكة ذهباً ، قلت: لايارب. ولكن أشبع يوما وأجوع يوما أو قال ثلاثا أو نحو هذا فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك ، وإذا شبعت شكرتك وحمدتك » .

وأخرج البخارى والترمذى من حديث أبى هريرة قال: «خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من أيدينا[2] ولم يشبع من خبز الشعير » . وأخرج الطبرانى بإسناد جيد من حديث كعب بن عجزة قال : « أتيت النبى صلى الله عليه وآله وسلم فرأيته متغيراً قال: فقلت بأبى أنت مالى أراك متغيرا ؟فقال: ما يدخل جوفى ما يدخل جوف ذات كبد منذ ثلاث »[3] .

وأخرج البخارى من حديث سهل بن سعد قال : « ما رأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم النقى[4] من حين ابتعثه الله تعالى حتى قبضه الله، فقيل هل كان لكم فى عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مناخل ؟ فقال مارأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منخلا من حين ابتعثه الله تعالى حتى قبضه

---

(١) فى (أ) بعد منذ (ألف) زائدة سهوا .
(٢) فى (ب) سقطت من (أيدينا) من الناسخ .
(٣) فى (ب) سقطت من الناسخ (جوف) وهى ضرورية لتمام المعنى .
(٤) هو الخبز الذى نقى دقيقه فصار أبيض ، ويسمى . الحــوارى صفوة صحيح البخاري جـ ٤ ص ٨٧ .

الله ، فقيل : فكيف كنتم تأكلون الشعير غير منخول ؟ قال : كنا نطحنه وننفخه فيطير ما طار ، وما بقى ثريناه فأكلناه » .

وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما من حديث عائشة أنها قالت : « إن كنا لننظر إلى الهلال ثم الهلال ثم الهلال ثلاثة أهلة فى شهرين ، وما أوقد فى أبيات النبي صلى الله عليه وآله وسلم نار . قال عروة يا خالة فما كان يعيشكم ؟ قالت : الأسودان : التمر والماء » .

وفى الصحيحين وغيرهما من حديث أنس « أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم عصب بطنه بعصابة من الجوع » .

وأخرج الترمذى وصححه وابن حبان فى صحيحه من حديث أنس قال : قال صلى الله عليه وآله وسلم : لقد أتت على ثلاثون من بين يوم وليلة ومالى[1] ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلا شىء يواريه إبط بلال » . وأخرج ابن ماجه والترمذى وصححه الطبرانى من حديث عبد الله بن مسعود قال : نام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على حصير فقام وقد أثر فى جنبه فلنا[2] يارسول الله : «لو اتخذنا لك وطاء فقال مالى والدنيا ما أنا فى الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها » وأخرجه أحمد وابن حبان فى صحيحه والبيهقى من حديث ابن عباس وأخرج نحوه ابن ماجه بإسناد صحيح والحاكم وصححه من حديث عمر بن الخطاب ونحوه من حديث فى الصحيح فى قصة دخوله على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما [آلى][3] من نسائه وفى الصحيحين وغيرهما من حديث عائشة قالت « إنما كان فراش رسول الله صلى الله عليه

---

(١) فى (ب) (مالى) فقط دون الواو .
(٢) فى (ب) (فقلنا) .
(٣) فى (أ) ، (ب) (آلا) بالألف .

وآله وسلم الذى ينام عليه أدما حشوة ليف » . وفى الصحيحين وغيرهما من حديث أبى بردة بن أبى موسى قال: « أخرجت لنا عائشة كساء ملبداً، وإزاراً غليظا فقالت: قبض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى هذين » والملبد: (المرقع) وأخرج البخارى من حديث عمرو بن الحارث قال : « ما ترك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عند موته درهما . ولا ديناراً ولا عبداً ، ولا أمة ، ولا شيئاً إلا بغلته البيضاء التى كان يركبها وسلاحه وأرضا جعلها لابن السبيل » .

وفى الصحيحين وغيرهما من حديث عائشة قالت : « توفى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ودرعه مرهونة عند يهودى فى ثلاثين صاعا من شعير » .

وفى الصحيحين وغيرهما من حديث سعد بن أبى وقاص وقال: « إنى لأول العرب رمى بسهم فى سبيل الله ، ولقد كنا نغزو مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مالنا طعام إلا ورق الحبلة وهذا السمر حتى إن كان أحدنا ليضع كما تضع الشاة ماله خلط » [والحبلة][1] والسمر من شجر البادية .

وخرج مسلم وغيره من حديث خالد بن عمير العدوى قال : « خطبنا خالد ابن عزوان وفى خطبته ولقد رأيتنى سابع سبعة مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مالنا طعام إلا ورق الشجر حتى قرحت أشداقنا » .

وفى الصحيحين من حديث خباب بن الأرت(*) « أنهم لم يجدوا ما يغطوا

---

(١) فى (أ) (المحبلة) بالميم قبل الحاء ، ولعله سهو من المؤلف فإنها فى القاموس (الحبلة) كما كتبها المؤلف قبل .

الأعلام

(*) كان عبداً ، لأم أنمار امرأة من أهل مكة وأسلم قبل أن يدخل رسول

به رأس مصعب بن عمير(*) لما قتل يوم أحد إلا بردة إذا غطوا بها رأسه خرجت رجلاه، وإذا غطوا بها رجليه خرج رأسه فأمرهم صلى الله عليه وسلم أن يغطوا بها رأسه»[1] .

وأخرج البخاري وغيره من حديث أبي هريرة قال : «لقد رأيت سبعين من أهل الصفة مامنهم رجل عليه رداء، إما إزار أو كساء قد ربطوا في أعناقهم منها ما يبلغ نصف الساقين ، ومنها ما يبلغ الكعبين فيجمعه بيده كراهية أن ترى عورته» .

ومن الخصال التي يبلغ بها العبد مقام الإحسان : الرفق والأناة والحلم وحسن الخلق وطلاقة الوجه ، وإفشاء السلام .

ففي الصحيحين وغيرهما من حديث عائشة قالت: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله» .

وأخرج مسلم وغيره عنها قالت : «قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الرفق لايكون في شيء إلا زانه ، ولا ينزع من شيء إلا شانه» . وأخرج

= الله صلى الله عليه وسلم دار الأرقم ولقي من المشركين الأذى الكثير والعذاب بالنار وعاش حتى خلافة علي بن أبي طالب فتوفي سنة ٣٧ هـ وهو ابن ثلاث وسبعين سنة . صفوة الصفوة جـ ١ ص ١٦٨ .

(١) نلاحظ أن هذا ليس زهدا وإنما هو فقر وضيق ذات اليد فاستدلال الشوكاني بهذه الأحاديث ليس في موضعه .

الأعــلام

(*) هو مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي (رضي الله عنهم) دخل على رسول الله ﷺ دار الأرقم فأسلم وكتم إسلامه وكان من أنعم الناس عيشا قبل إسلامه فلما أسلم زهد في الدنيا وأرسله الرسول إلى المدينة قبل الهجرة يدعو أهلها إلى الإسلام حتى أسلم معظمهم وهو أول من صلى الجمعة بالمدينة . المصدر السابق ص ١٢٥ .

مسلم وغيره من حديث جرير بن عبد الله عنه صلى الله عليه وآله وسلم « من يحرم الرفق يحرم الخير زاد أبو داود كله » .

وأخرج الترمذي وصححه من حديث أبي الدرداء عنه صلى الله عليه وآله وسلم : « من أعطى حظه من الرفق فقد أعطى حظه من الخير » . وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما من حديث أنس عنه صلى الله عليه وآله وسلم قال : « يسروا ولا تعسروا ، وبشروا ولا تنفروا » . وأخرج البخاري من حديث أبي هريرة : (عنه صلى الله عليه وآله وسلم : « إنما بعثتم ميسرين ، ولم تبعثوا معسرين » . وفي الصحيحين وغيرهما من حديث عائشة قالت : « ما خير رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بين أمرين قط إلا اختار أيسرهما مالم يكن إثما »

وأخرج مسلم من حديث ابن عباس(١) قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للأشج « إن فيك خصلتين يحبهما الله ورسوله: الحلم والأناة » وأخرج مسلم والترمذي من حديث النواس بن سمعان قال : (سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن البر والإثم فقال : البر حسن الخلق ، والاثم ماحاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس) وفي الصحيحين وغيرهما من حديث ابن عمرو قال : لم يكن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فاحشا ، وكان يقول : (إن من خياركم أحسنكم أخلاقا . والأحاديث في الثناء على حسن الخلق كثيرة جداً .

وأخرج مسلم وغيره من حديث أبي ذر قال : (قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق) . وأخرج أحمد والترمذي وصححه من حديث جابر قال : قال رسول الله

---

(١) في (ب) (رضي الله عنه) .

صلى الله عليه وآله وسلم : « كل معروف صدقة وإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق وأن تفرغ من دلوك فى إناء أخيك » وصدره فى الصحيحين من حديث حذيفة وجابر .

وأخرج الترمذى وحسنه وابن حبان وصححه من حديث أبى ذر[1] قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « تبسمك فى وجه أخيك لك[2] صدقة الحديث » . وأخرجه البزار من حديث ابن عمر وفى الصحيحين وغيرهما من حديث عدى بن حاتم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « اتقوا النار ولو بشق تمرة فمن لم يجد فبكلمة طيبة » .

وفى الصحيحين وغيرهما من حديث ابن عمرو « أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وآله وسلم : أى الإسلام خير ؟ قال : تطعم الطعام وتقرىء السلام على من عرفت ومن لم تعرف » وأخرج مسلم وأبو داود والترمذى وابن ماجه من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا . ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم ، أفشوا السلام بينكم » .

وأخرج الترمذى وقال حسن صحيح من حديث عبد الله بن سلام قال : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : يأيها الناس أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام » ، وأخرج الترمذى وصححه وابن حبان وصححه من حديث ابن عمر قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : اعبدوا الرحمن وأفشوا السلام وأطعموا الطعام تدخلون الجنان » . وأخرج الطبرانى وابن حبان فى صحيحه والحاكم وصححه

(١) فى (ب) (رضى الله عنه) .
(٢) فى (ب) لا توجد (لك) .

من حديث أبي شريح أنه قال : يا رسول الله أخبرني بشيء يوجب لي الجنة ، قال : « طيب الكلام وبذل السلام وإطعام الطعام ». وفي الصحيحين وغيرهما من حديث أبي هريرة « قال صلى الله عليه وآله وسلم : حق المسلم على المسلم خمس ، وفي رواية ست ، ومنها إذا لقيته تسلم عليه » وأخرج الطبراني في الأوسط بإسناد جيد من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « أعجز الناس من عجز في الدعاء ، وأبخل الناس من بخل بالسلام » وأخرج الطبراني في معاجمه الثلاثة بإسناد جيد من حديث عبد الله بن مغفل(*) قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : أسرق الناس الذي يسرق صلاته قيل يا رسول الله : كيف يسرق صلاته ؟ قال : لا يتم ركوعها ، ولا سجودها ، وأبخل الناس من بخل بالسلام » وأخرج أحمد والطبراني والبزار ، وبإسناد أحمد لا بأس به من حديث جابر « وفيه أنه صلى الله عليه وآله سلم وسلم قل للذي امتنع من أن يبيعه عذقة بالجنة : ما رأيت أبخل منك إلا الذي يبخل بالسلام » .

ومن أعظم الأسباب الموصلة إلى مقام الإحسان المداومة على العمل الصالح ، فقد ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث عائشة[1] أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم [قال][2] : « إن أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل » .

---

(١) في (ب) (رضي الله عنها) .
(٢) سها المؤلف في (أ) عنها أي عن (قال) .

الأعـــلام

(*) عبد الله بن مغفل أبو سعيد (رضي الله عنه) كان من البكائين ومن الذين بعثهم عمر إلى البصرة يفقهونهم . صفوة الصفوة جـ١ ص٢٨٢ .

مقام الولى وإجابة الدعاء :

ولنرجع إلى شرح الحديث الذى نحن بصدد شرحه فنقول : إن قوله : « ائن سألنى لأعطينه ، ولئن استعاذنى لأعيذنه » ربما يقال : ما الفائدة فى توقف العطية منه عز وجل على السؤال ، والإعاذة له على الاستعاذة مع أنه سبحانه المعطى بغير حساب المتفضل على عباده بكل جميل وغالب ما يصل إلى العباد الذين لم تكن لهم مرتبة الولاية العظمى بل الذين هم دونها بمراحل ، بل الذين خلطوا على أنفسهم وقصروا فيما يجب عليهم هو من تفضلاته الجمة وتكرماته الفائضة من غير تقدم سؤال .

قلت : هاهنا[1] نكتة عظيمة وفائدة جليلة وهى أنهم إذا أعطوا بعد السؤال وأعيذوا بعد الاستعاذة عرفوا أن الله سبحانه قد أجاب[2] لهم الدعاء وتلك منقبة لا تساويها منقبة ورتبة تتقاصر عنها كل رتبة وعند ذلك يحصل لهم من السرور ما لا يقادر قدره ويكونون عند هذه الإجابة أعظم سروراً بها من العطية وإن بلغت أعظم[3] مبلغ فى الكثرة والنفاسة وعند ذلك يستكثرون من أعمال الخير ويبالغون فى تحصيلها لأنهم قد عرفوا مالهم عند ربهم حيث أجاب دعاءهم ولبى نداءهم .

وأيضاً قد قدمنا أن الدعاء هو العبادة بل هو مخ العبادة فالإرشاد إليه إرشاد إلى عبادة جليلة تترتب عليها فائدة جميلة مع ما فى ذلك من امتثال الأمر الربانى حيث يقول : (ادعونى أستجب لكم)[4] وقوله سبحانه : (وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان)[5]

---

(١) فى (ب) (هنا) فقط .

(٢) فى (ب) استجاب لهم .

(٣) فى (ب) (أبلغ مبلغ) .

(٤) سورة غافر آية : ٦٠ .

(٥) سورة البقرة آية : ١٨٦ .

ومع ما فيه أيضاً من خلوص عباده من الاستكبار على ربهم الذى ورد الوعيد عليه بقوله سبحانه : (إن الذين يستكبرون عن عبادتى)[1] أى دعائى كما سبق بيانه .

فكانت الفوائد ثلاثا :

الأولى : الظفر بالمرتبة العلية من كونهم من [مجابى][2] الدعوة .

الثانية : مافى ذلك من العبادة لله عز وجل بدعائه .

الثالثة : توقيهم[3] لما خوطب به غيرهم من المستكبرين عن الدعاء .

ومع هذا فلاشك أن بعض المسببات مربوطة بأسبابها فمن العطايا مالايحصل العبد[4] إلا بسبب الدعاء . فالولى وإن كان فى أعلى مراتب الولاية لاينال ماقيده الله بسبب إلا بفعل ذلك السبب فكان فى الدعاء من هذه الحيثية فائدة رابعة لأن العبد لايتيسر له أن يقطع بوصول مطلوب من مطالبه إليه حتى يترك[5] الدعاء لربه عز وجل بأن يوصله إليه .

مقام المحبة وإجابة الدعاء :

قال ابن حجر فى الفتح : « وفى الحديث أيضا أن من أتى بما وجب عليه ، وتقرب بالنوافل لم يرد دعاؤه لوجود هذا الوعد الصادق المؤكد بالقسم ، وقد تقدم الجواب عما يتخلف »[6] . انتهى .

---

(١) سورة البقرة آية : ١٨٦ .
(٢) فى (أ) ، (ب) : (مع من مجابين) وهو خطأ نحوى .
(٣) فى (ب) (توفيقهم) وهو خطا كما يفهم من السياق .
(٤) فى (ب) سقطت كلمة (للعبد) سهوا من الناسخ .
(٥) هنا يترك ، بمعنى : يجعل (٦) ص ٢٩٦ .

أقول : قد قدم ذكر استشكال ما في الحديث من الوعد بالإجابة بأن جماعة من العباد والصلحاء دعوا وبالغوا ، ولم يجابوا . ثم ذكر ذلك الجواب الذي قدمه وقدمنا الاستدلال على ما ذكره في الجواب . وكان الأولى له أن يقدم ماذكره هنا على ما ذكره هناك حتى يكون ذلك الاستشكال ، لما أفاده هذا الاستدلال المذكور هنا .

وأقول : هذا الحديث مورده ، هم أولياء الله الذين تقربوا إليه بما يحب حتى أحبهم ، وهو مقتضى لإجابتهم لا محالة .

ولا يرد عليه ما أورده من عدم إجابة جماعة من العباد والصلحاء ، فإن هذا مقام هو أعلى من مقامهم ، ومنزلة هي أرفع من منزلتهم ، ولا ملازمة بين مقام العبادة والصلاح ، وبين مقام المحبة ، فإن العبادة وإن كثرت وتنوعت قد تقع منه عز وجل الموقع المقتضى لمحبته ، وقد لا [تقع][1] إما لكونها مشوبة بشائبة تكدر صفوها وتمحق بركتها مما لا يتعمده العباد ، بل يصدر إما على طريق التقصير في علم الشريعة أو التقصير في الخلوص الذي يوصل صاحبه إلى محبة الرب عز وجل .

ولا حرج على قائل أن يقول : إن من بلغ إلى رتبة المحبة ، وكان الله سمعه وبصره أن يجاب له كل دعاء ويحصل [بغيته][2] على حسب إرادته . وأى مانع يمنع من هذا ؟! . بل كل ما يظن أنه مانع ليس بمانع شرعي ولا عقلي . ووجود بعض أهل العبادة على الصفة التي ذكرها من كونه دعا وبالغ ولم يجب ليس ذلك إلا لمانع يرجع إلى نفسه . ولا يكون المانع الراجع إلى نفسه مانعاً في حق من هو أعلى منه رتبة وأجل منه مقاما وأكبر منه منزلة .

---

(١) في (أ) (يقع) وهو سهو من المؤلف . وفي (ب) (الياء) دون نقط .
(٢) في (أ) (بمينه) وهو سهو خطى من المؤلف .

وإذا عرفت انتفاء المانع الذى يعتد به فى المانعية فقد وجد هاهنا المقتضى الذى هو أوضح من شمس النهار ، وهو وعد[1] من لا يخلف الميعاد . وإذا وجد المقتضى وانتفى المانع حصل المطلوب الذى وجد ما يقتضيه إعمالا لهذا المقتضى الذى ورد مؤكداً بإقسام الرب سبحانه .

فما أبعد ماجاء به المشككون فى هذا الأمر الذى لايقبل التشكيك لاشرعا ولا عقلا بل ولا عادة . فإن من اطلع على أحوال أولياء الله سبحانه وعرف ماذكره المؤرخون فى أخبارهم ، وما اشتملت عليه تراجمهم وجدكل ماتوجهوا به إلى ربهم حاصلا لهم فى كل مطلب من المطالب كائنا ما كان . والمحروم من حرم ذلك .

وكيف ترى ليلى بعين ترى بها ‏ ‏ سـواها وما طهرتها بالمدامع

وتلتذ منهـا بالحديث وقد جرى ‏ ‏ حديث سواها فى خروت المسامع

أجلك ياليـلى عن العين إنمـا ‏ ‏ أراك بقلب خاشع لك خاضـع

أولئك قوم لما دعوا أجيبوا ولما أحَبو[2] أُحِبوا،ولما أخلصوا استخلصوا صدقت منهم الضمائر . فصفت منهم السرائر ، وصاروا صفوة الله فى أرضه ففاضت عليهم أنواره ، وامتلأت قلوبهم من معارفه .

ألا إن وادى الجزع أضحى ترابه ‏ ‏ من المس كافورا وأعواده رندا

وما ذاك إلا أن هنـداً عشية ‏ ‏ تمشت وجرّت فى جوانبه بُردا

فلا تجهد نفسك فى كشف حقائقهم ، وذوق دقائقهم حتى تتصل منهم بسبب وتتمسك من هديهم بطرف فلسان حالهم ينشدك :

---

(١) وهو قوله : (ولئن سالنى لأعطينه إلخ) .
(٢) فى (ب) (أحبوا) ولا يستقيم مع السياق .

وكم سائل عن سر ليلى رددته   بعمياء من ليلى بغـــير يقين
يقولون : خبرنا فأنت أمينها   وما أنا إن خــبرتهم بأمين

فهم القوم الذين لايشقى جليسهم ، ولا يستوحش أنيسهم قد نالوا مطالبهم برفع أكفهم إلى خالقهم ، لايحتاجون فى حوائجهم إلا إليه ولا يعولون إلا عليه .

ونبئت ليلى أرسلت بشفاعة   إلىّ فهلا نفس ليلى شفيعها
أأكرم من ليلى على فتبتغى   به الوصل أم كنت أمرأ لا أطيعها؟

وقول ابن حجر فى كلامه الذى نقلناه هنا[1] أنه قد تقدم الجواب عما يتخلف . هو كلام لاحاصل له لأن الاستشكال الذى قدمه ، هو على مايقتضيه الحديث القدسى الذى نحن بصدد شرحه . فأجاب عن الإشكال بما ذكره سابقا من قوله : « والجواب أن الإجابة تتنوع : فتارة قد يقع المطلوب بعينه إلى آخر كلامه » .

فإن كان هذا الجواب منه الذى جعله متنوعا هو عما أورده من استشكال مافى هذا الحديث من قوله فيه « إن سألنى لأعطينه ولئن استعاذنى لأعيذنه» فكلامه هنا حيث قال : إن من أتى بما وجب عليه وتقرب بالنوافل لم يرده دعاؤه لوجود هذا الوعد الصادق المؤكد بالقسم هو كلام على ذلك اللفظ الذى أورد الإشكال عليه . ومجموع كلاميه هما فى شرح ذلك اللفظ . فما معنى قوله : إنه قد تقدم الجواب عما يتخلف ؟ فإن كان التخلف وغير التخلف بالنسبة إلى الولى الذى وعده الله بذلك فقد تناقض كلامه .

وإن كان مراده أنه قد يتخلف تارة ويقع المطلوب بعينه تارة فكلامه

---

(١) (ب) سقطت من الناسخ كلمة (هنا) .
(٢) فى (ب) (إشكال) .

السابق قد تضمن هذا بل صرح به تصريحاً لا يبقى بعده ريب . فما معنى تكرير الكلام بما يوهم أن دعاء الولى لا يرد على كل حال ؟

مقام المحبة ومداومة الدعاء :

ثم قال ابن حجر فى الفتح : « وفيه أن العبد ولو بلغ أعلى الدرجات حتى يكون محبوباً لله لا ينقطع عن الطلب من الله تعالى لما فيه من الخضوع له وإظهار العبودية[1] » انتهى .

أقول : إذا كان أنبياء الله [صلوات تعالى وسلامه عليهم][2] لا ينقطعون عن الطلب من الله[3] والرجاء له ، والخوف منه حتى قال سيد ولد آدم صلى الله عليه[4] وسلم كما صح عنه : « والله ما أدرى وأنا رسول الله[5] صلى الله عليه وآله وسلم ما يفعل بى » مع أنه الذى غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر .

ويقول كما صح عنه من شدة خوفه من ربه[6] « لو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلا ، ولبكيتم كثيراً » الحديث الذى تقدم حتى قال فى آخره : « وددت[7] أنى شجرة تعضد » .

فإذا كان مقام النبوة الذى هو أعلى مقام وأرفع رتبة ، وليس مقام الولاية بالنسبة إليه إلا كمقام التابع من المتبوع والخادم من المخدوم ، فكيف يحتاج أن يقال : إنه لا ينقطع عن الطلب من الله عز وجل مع انتفاء العصمة عنه ، وثبوتها لمن لم ينقطع عن الطلب من الله سبحانه . بل كان نبينا « صلى الله عليه وآله

(١) ص ٢٩٧ (٢) فى (أ) جاءت مختصرة هكذا (صلم) .

(٣) فى (ب) (سبحانه) بعد لفظ الجلالة .

(٤) فى (ب) (وآله صلى الله إلخ) وإن كان المؤلف فى (أ) نسيها .

(٥) فى (ب)

(٦) فى (ب) عز وجل بعد (من ربه) (٧) (ب) (ووددت) .

وسلم ، مديما لدعاء ربه فى جميع أحواله مستمراً على طلب حوائجه الدنيوية والأخروية من خالقه لايعتريه ملل ولا يتماق به كال ، وله من العبادة على اختلاف أنواعها مالا يلحقه به غيره ، ولا يطيقه سواه .

فكيف ينقطع الولى عن الطلب . فإنه إن فعل ذلك كان ممكوراً به، ورجع عدوا لله بعد أن كان وليا له . وبغيضاً له بعد أن كان حبيباً له . « اللهم أحسن عاقبتنا فى الأمور كلها ، وأجرنا من خزى الدنيا وعذاب الآخرة » .

وشأن كل عبد من عباد الله إذا ازداد الله قرباً إلى الله وصار من المحبوبين له أن يزداد خضوعاً له[1] وتضرعاً إليه ، وتذللا وتمسكنا وعبادة . وكلما ارتفع عند ربه درجة زاد فيما يحبه الله منه[2] درجات . هذا شأن العبودية .

وإذا كان هذا هو الكائن فيما بين العبد وسيده فى بنى آدم، فكيف لايكون فيما بين العبد وخالقه ورازقه ومحييه ومميته .

ضلال المدعين لرفع التكليف :

وما أقبح مايحكى عن بعض المتلاعبين بالدين المدعين للتصوف أنهم يزعمون أنهم وصلوا إلى ربهم فانقطعت عنهم التكاليف الشرعية ، وخرجوا من جيل المسلمين المؤمنين ، وسقط عنهم ما كلف الله به العباد فى هذه الدار . فإذا صح هذا . فما يقوله أحد من أولياء الرحمن ، بل يقوله أولياء الشيطان لأنهم خرجوا إلى حزبه وصاروا من جملة أتباعه .

فالعجب لهؤلاء المغرورين ، فإنهم رفعوا أنفسهم عن طبقة الأنبياء وطبقة الملائكة ، فإن الأنبياء حالهم كما عرفناك من إدامة العبادة لله فى كل حال .

---

(١) فى (ب) سقطت من الناسخ (له) .

(٢) فى (ب) سقطت من الناسخ (منه) .

والإزدياد من التقربات المقربة[١] إلى الله[٢] حتى توفاهم الله تعالى .

وكذلك الملائكة فإنهم كما وردت بذلك الأدلة لاينفكون عن العبادة لله وصارت أذكاره سبحانه من التسبيح والتهليل هي زادهم الذي يعيشون به وغذاءهم الذي يتغذون به .

فحاشا لأولياء[٣] الله سبحانه أن يقع من أحقرهم في هذه المرتبة العظيمة وأدناهم في هذا المنصب الجليل هذا الزعم الباطل ، والدعوى الشيطانية ، وإنما ذلك الشيطان سول لجماعة من أتباعه ومطيعيه واستزلهم ، وأخرجهم من حزب الله إلى حزبه ومن طاعة الله[٤] إلى طاعته ، ومن ولاية الله سبحانه[٥] إلى ولايته . وقد رأينا في ترجمة جماعة من أهل الله وأوليائه أنهم سمعوا خطاباً من فوقهم ، ورأوا صورة تكلمهم ، وتقول ياعبدي قد وصلت إلى ، وقد أسقطت عنك التكاليف الشرعية بأسرها . فعند أن يسمع منهم السامع ذلك[٦] يقول : ما أظنك أيها المتكلم إلا شيطاناً ، فأعوذ بالله منك ، فعند ذلك تتلاشى تلك الصورة ولا يبقى لها أثر .

فقد بلغ كيد الشيطان إلى هذا الكيد العظيم ، ولكنه لم ينفق كيده هذا على أولياء الله سبحانه فردوه في نحره حتى إنه قد يتطاير عند ذلك التلاشي شرراً كما وقع لكثير منهم

فهذا الذي يزعم أنه من أولياء الله قد كاده الشيطان بهذه الحيلة واجتذبه

---

(١) (ب) (المقربات) .

(٢) بعد لفظ الجلالة في (ب) توجد كلمة (سبحانه) .

(٣) في (ب) (أولياء) دون اللام .

(٤) في (ب) بعد لفظ الجلالة كلمة (سبحانه) .

(٥) في (ب) (عز وجل) بدل (سبحانه) .

(٦) في (ب) سقطت من الناسخ (ذلك) .

بهذا المكر ، فانخدع وعاد سعيه ضلالا وعبادته كفراً وعمله خسراً ، وسبب ذلك ماهو فيه من الجهل بالشريعة المطهرة ، ولولا ذلك لكان له من أنوار الدين وحجج الشرع مايرد عنه كيد الشيطان الرجيم ، كما رده أولياء الله فعاد خاسئاً وهو حسير .

وقد عرفنا أن دعوى الولاية إذا لم تكن مربوطة بالشرع مقيدة بالكتاب والسنة ضل صاحبها وهو لايدرى ومكر به وهو لايشعر ووقع فى مغاضب الله سبحانه وهو يظن أنه فى مراضيه .

وما أحسن قول الشاعر :

فساد كبير عالم متهتك ... وأفسد منه جاهل متنسك
هما فتنة للعالمين كبيرة ... لمن بهما فى دينه يتمسك

المراد بتردد الله سبحانه عن نفس المؤمن :

قوله : « وما ترددت عن شىء أنا فاعله ترددى عن نفس المؤمن » فى حديث عائشة عن موته .

التردد : التوقف عن الجزم بأحد الطرفين ولأجل كون هذا معناه عند أهل اللغة احتاج شراح الحديث إلى تأويله بوجوه .

قال الخطابى : « التردد فى حق الله تعالى غير جائز ، والبدا عليه فى الأمور غير سائغ ، ولكن له تأويلات[1] » .

« أحدها[2] : أن العبد قد يشرف على الهلاك فى أيام عمره من داء يصيبه

---

(١) فى الفتح : (تاويلان) وهو المستقيم لأن الخطابى لم يورد إلا تأويلين .
(٢) فى الفتح (أحدهما) .

وفاقة تنزل به فيدعو الله تعالى ويستغيثه فيشفيه منها ، ويدفع عنه مكروهها ، فيكون ذلك من فعله كتردد من يريد أمراً ثم[1] يبدو له فيتركه ويعرض عنه ولا بد له من لقائه إذا بلغ الكتاب أجله ، ولأن الله تعالى قد كتب الفناء على خلقه ، واستأثر بالبقاء لنفسه[2] » انتهى الوجه الأول .

أقول : ما أبرد هذا التأويل وأسمجه ، وأقل [فائدته][3] فإن صدور الشفاء من الله عز وجل لذلك الذى أصابه الداء فشفاه منه ليس من التردد فى شىء ، بل هو أمر واحد وجزم لاتردد فيه قط .

وكذلك إنزال المرض به جزم لاتردد فيه فهما قضاء بعد قضاء ، وقدر بعد قدر ، وإن كانا [با][4] اعتبار شخص واحد ، فهما مختلفان متغايران لم يتحدا ذاتا ، ولا وقتاً ، ولا زمانا ، ولا صفة ، بل قضى الله على عبده بالمرض ثم شفاه منه .

فأى مدخل للتردد أو لما يشبه التردد ، أو لما يصح أن يؤول به التردد فى مثل هذا .

وقد ذكر أهل العلم أن التأويل لما احتيج إلى تأويله لا بد أن يكون مقبولا على وجه ، وله مدخل على حالة ، وإلا وقع تحريف الكلمات الإلهية والنبوية لمن شاء كيف شاء ، وتلاعب بهما من شاء بما شاء :

قال الخطابى :

الثانى ، أن يكون معناه : « مارددت رسلى فى شىء أنا فاعله كترديدى

---

(١) فى (ب) (ولم يبدو له) وهو خطأ فى الأسلوب .

(٢) الفتح ص ٢٩٧ (٣) فى (أ) (فائدة) وهو اضطراب فى الأسلوب .

(٤) فى (أ) سقطت (با) من المؤلف .

إيام فى نفس المؤمن ، كما روى فى قصة موسى عليه السلام ، وما كان من لطمه عين ملك الموت وتردده إليه مرة بعد أخرى ، قال وحقيقة المعنى على الوجهين عطف الله تعالى على العبد ولطفه به وشفقته عليه »[1] انتهى .

أقول : جعل التردد الذى معناه التوقف عن الجزم بأحد الطرفين بمعنى الترديد الذى هو الرد مرة بعد مرة ، وهما مختلفان مفهوماً وصدقاً ، فحاصله : إخراج التردد عن معناه اللغوى إلى معنى لايلاقيه ولا يلابسه بوجه من الوجوه فليس هذا من التأويل فى شىء ، قال فى الفتح بعد أن ذكر كلام الخطابى باللفظ الذى حكيناه : « وقال الكلاباذى ماحاصله : أنه عبر عن صفة الفعل بصفة الذات أى عن الترديد بالتردد ، وجعل متعلق الترديد اختلاف أحوال العبد من ضعف ونَصَب إلى أن تنتقل محبته فى الحياة إلى محبته فى الموت فيقبض على ذلك .

قال وقد يحدث الله تعالى فى قلب عبده من الرغبة فيما عنده والشوق إليه والمحبة لقائه مايشتاق معه إلى الموت فضلا عن إزالة الكراهة عنده فأخبره أنه يكره الموت ويسوءه فيكره الله تعالى مساءته ، فيزيل عنه كراهة[2] الموت بمايورده عليه من الأحوال ، فيأتيه الموت وهو له مؤثر ، وإليه مشتاق.

قال : « وقد ورد تفعّل بمعنى فعل ، مثل تفكّر ، وفكّر ، وتدبر ودبر ، وتهدد وهدد والله أعلم »[3] انتهى .

أقول : كلامه هذا قد اشتمل على أمرين : أحدهما هو كالتفسير لما ذكره الخطابى ، ولكنه ربطه بغاية هى قوله إلى أن تنتقل محبته فى الحياة إلى محبته فى الموت ، فصار كلامه بهذه الغاية أتم من كلام الخطابى ، فإنه إنما جعل

---

(١) الفتح ص ٢٩٧ (٢) فى الفتح : (كراهية) .
(٣) ص ٢٩٧ .

حاصل الوجهين اللذين ذكرهما ، هو عطف الله على العبد ، ولطفه به وشفقته عليه .

ويقال الكلاباذى : غاية ماجاء به التأويل الذى ذكرته أن التردد الذى حكاه الله عن نفسه هو انتقال العبد من حالة إلى حالة ، فأخرجت التردد عن معناه ، وأخرجت المتردد إلى اختلاف أحوال المتردد فى شىء من الأمور المتعلقة به ، وهذا إخراج للمعنى إلى معنى مغاير له بكل حال وعلى كل وجه .

ويقال للخطابى : جعلت التردد فى الموت عطف الله على العباد ولطفه به وشفقته عليه ، وهذا معنى لاجامع بينه وبين التردد فى موت العبد ، فإن لطف الله [بعباده](١) وعطفه عليهم وشفقته بهم أمر مقطوع به لاتردد فيه منه عز وجل ، وأما ماذكره الكلاباذى من قوله : « وقد يحدث الله فى قلب عبده من الرغبة فيما عنده والشوق إليه إلخ » ؛ فهو تكرير لقوله قبله إلى أن تنتقل محبته فى الحياة إلى محبته فى الموت ، وقد قدمنا الجواب عنه .

وأما قوله : وقد ورد تفعل بمعنى فعل مثل تفكر(٢) إلخ فأقول : هذا مسلم فيما لم يخرج منه المعنى إلى معنى آخر ، فإن فكر ، وتفكر ، لم يخرجا عن معنى حصول الفكرة للعبد فى شىء متفكر فيه ، وكذلك دبر وتدبر فإنهما راجعان إلى معنى التدبير ، وكذلك هدد وتهدد ، وأما التردد والترديد فلا يرجعان

---

(١) فى (ب) (على عباده) على أنها كانت مكتوبة أولا اتجاه بعض القراء ووضع فوقها : (بعباده) ، وكذلك فى (أ) (على عباده) ولكن المشهور أن لطف تتعدى بالباء (الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوى العزيز) سورة الشورى آية : ١١ ، أو تتعدى باللام ، كما فى لسان العرب .

(٢) فى (ب) زاد الناسخ (فكرة)

إلى معنى كما بينا، بل لكل واحد منهما معنى مستقل يغاير[1] معنى[2] الآخر لمن تدبر وتفكر.

قال في الفتح: «وعن بعضهم: يحتمل أن يكون تركيب الولى يحتمل أن يعيش خمسين سنة وعمره الذى كتب له سبعون، فإذا بلغها فرض دعا الله تعالى بالعافية فيحييه عشرين أخرى مثلا، فعبر عن قدر التركيب وعما انتهى إليه بحسب الأجل المكتوب بالتردد»[3] انتهى.

أقول: هذا التأويل لم يأت بفائدة قط فإن العمر الذى هو السبعون لابد أن يبلغه العبد على اعتقاد هذا القائل سواء كان التركيب محتملا لذلك أم لا، وسواء مرض عند انتهاء عمره إلى خمسين أو لم يمرض، وسواء دعا الله بالعافية أو لم يدع، فإنه لابد أن يبلغ السبعين، وغاية ماهناك أن الله رحمه ولطف به فشفاه من مرضه الذى عرض له وهو فى خمسين سنة.

فأى شيء هذا، وما الجامع بينه وبين معنى التردد المذكور في الحديث؟ قال في الفتح: «وعبر ابن الجوزى عن الثانى[4] بأن التردد للملائكة الذين يقبضون الروح فأضاف[5] الحق ذلك لنفسه لأن ترددهم عن أمره قال: وهذا التردد ينشأ عن إظهار الكراهة، فإن قيل إذا أمر الملك بالقبض كيف يقع منه التردد؟ فالجواب أنه متردد فيما لم يحد له[6] فيه الوقت كأن يقال لاتقبض روحه إلا إذا رضى»[7] انتهى.

---

(١) فى (ب) (مغاير).

(٢) فى (ب) (المعنى) (٣) ص ٢٩٧.

(٤) (ب) سقطت من الناسخ (عن الثانى).

(٥) فى الفتح: (وأضاف). (٦) فى (ب) (يحل فيه).

(٧) ص ٢٩٢.

أقول : انظر ما فى هذا الكلام من الخبط والخلط ، فإنه أولا جعل التردد للملائكة فأخرج الكلام عن معناه إخراجاً لا يبقى للمعنى الأصلى معه أثرقط ، وكأنه جعله من المجاز العقلى كقوله بنى الأمير المدينة وهو عنه أجنبى ، فإنه قد وقع البناء فى الخارج ، وإنما نسب الفعل إلى [الأمير[1]] ، وأما هذا فلم يكن للتردد الواقع من الملائكة فائدة قط ولا وجد فى الخارج [له[2]] أثر ، ثم قال : وهذا التردد ينشأ عن إظهار الكراهة ، فيقال : إن كان هذا الإظهار من جهة الرب سبحانه فهو يحتاج إلى تأويل آخر كما احتيج التردد إلى تأويل ، فإن الكراهة لا تجوز عليه بهذا المعنى .

ثم لم يظهر[3] لهذا الإظهار فائدة ، فإن ذاك[4] العبد الذى وقع التردد فى قبض روحه لم يمت إلا بأجله المحتوم من دون أن يتقدم عنه ساعة ، أو يتأخر عنه ساعة ، ثم انظر إلى ما أورده على نفسه من قوله : فإن قيل : إذا أمر الملك بالقبض ، كيف يقع منه التردد ؟ وهـــذا إيراد وارد ، فإنهم لا يعصون الله فيما أمرهم ولا يتراخون عن إنجاز أمره سبحانه ، ثم انظر إلى سقوط ما أجاب من أن الملك متردد فيما لم يحد له فيه الوقت ، وكيف يؤمر الملك بفعل غير محدود ثم يسارع إلى فعله ؟ ! .

أما قوله : كأن يقال له : لا تقبض روحه إلا إذا رضى فهو مع كونه يبطل التأويل بالمرة والكرة ، ليس للملك أن يفعل إلا ما يرضى به العبد من قبض روحه أو عدمه ، لأنه قد علق ذلك برضاه ، وحينئذ لا ينجز الفعل إلا عند الرضى من العبد ، والمفروض أنه يكره الموت كما نطق به هذا الحديث القدسى ،

---

(١) فى (أ) (الآمر) ولكن الأمير هى المقصودة ، موافقة لظاهر السياق .
(٢) فى (أ) ، (ب) (لها) ولكن (له) هى الصحيحة لأنها تعود على التردد .
(٣) فى (ب) (تظهر) (٤) فى (ب) سقطت (ذلك) من الناسخ .

فعند أن يعرف الملك أن العبد لا يرضى بقبض روحه ، ما بقى إلا الإمهال له حتى يرضى ، وأن يخالف الوقت المحدود لموته .

وحينئذ ينفتح إشكال أكبر من هذا الإشكال الذى هم بصدد تأويله .

قال فى الفتح : « ثم ذكر ابن الجوزى جواباً ثانياً وهو احتمال أن يكون معنى التردد اللطف به كأن الملك يؤخر القبض ، فإنه إذا نظر إلى قدر المؤمن وعظم المنفعة به لأهل الدنيا احترمه فلم يبسط يده إليه ، فإذا ذكر أمر ربه تعالى[1] لم يجد بداً من امتثاله[2] » انتهى .

أقول[3] هذا اللطف الذى بنى عليه هذا الجواب لم يظهر له أثر ، ولا تبين له معنى ، فإن الملك وإن تردد فهو لا محالة سيقبض الروح فى الوقت المحدود ووقوع ذلك الشىء فى نفسه لم يجد له العبد فائدة ولا علم به فضلا عن أن[4] يصل إليه منه منفعة .

فهذا اللطف ليس بلطف أصلا ، وإن[5] فرضنا أنه[6] بتلك الرأفة على العبد ، لكونه ممن ينتفع العباد به ، كان بها تأخير قبض روح العبد لحظة وأن مجرد ذلك يعد لطفاً ، فإنه يرد عليه إشكال أعظم من الإشكال الذى هم بصدد تأويله ، وهو أن الأجل المحتوم قد تأخر عن وقته بسبب تراخى الملك عن إنفاذ أمر الله به ، وحاشا الملك أن يكون منه هذا ، وحاشا الأمر الإلهى أن لا ينجز حسب المشيئة الربانية ، فما أحق صاحب هذا التأويل ، بقول الشاعر :

فكنت كالساعى إلى مثعب   موائلا من سبل الراعد

---

(١) فى الفتح (لا توجد) (تعالى)   (٢) ص ٢٩٧ .
(٣) فى (ب) (قلت) .   (٤) فى (ب) (تصل)
(٥) فى (ب) (ولو) .   (٦) فى (ب) (أن)

قال فى الفتح : « وجواباً ، رابعاً ، وهو أن يكون خطاباً ، لنا بما نعقل ، والرب عز وجل[1] يتنزه عن حقيقته ؛ بل هو من جنس قوله : « ومن[2] أتانى يمشى أتيته هرولة » فكما أن أحدنا يريد أن يضرب ولده تأديباً فتمنعه المحبة وتبعثه الشفقة فيتردد بينهما ، ولو كان غير الوالد كالمعلم لم يتردد بل كان لايبالى ، بل يبادر إلى ضربه لتأديبه ، فأريد تفهيمنا بتحقيق المحبة للولى بذكر التردد[3] » انتهى .

أقول : هذا التأويل هو أحسن مما تقدم من تلك الوجوه ، فإنهم قد أولوا ما لا يجوز على الله سبحانه من مثل التعجب والاستفهام ونحوهما مما يرد هذه الموارد بأن ذلك بالنسبة إلى العباد المخاطبين .

ولكن المقام الذى نحن بصدده ، هو مقام أولياء الله وأحبائه وصفوته من خلقه ، وخالصته من عباده .

وفيه الترغيب للعباد بأن يحرصوا على هـــذه الرتبة ، وعلى البلوغ إليها بما تبلغ إليه طاقتهم ، وتصل إليه قدرتهم ، ولا يألون جهداً فى تحصيل أسبابها الموصلة إليها من التقرب إلى الله سبحانه بما يحب .

فلا بد أن يكون لذلك التردد فائدة تعود على الولى حتى يكون ذلك سبباً لتنشيط العباد إلى بلوغ رتبته .

وأما إذا كان يموت بأجله المحتوم فهو كغيره من عباد الله من غير فرق بين سعيدهم وشقيهم وصالحهم وطالحهم .

قال فى الفتح : « وجوّز الكرمانى احتمالا آخر وهو أن المراد أنه

---

(١) فى (ب) (متنزه) .

(٢) فى (ب) (وإن) (٣) ص ٢٩٧ .

يقبض روح المؤمن بالتأنى والتدريج بخلاف سائر الأموات[1] فإنها تحصل بمجرد قول كن سريعاً »[2] انتهى .

أقول : هذا التأنى والتدريج إن كان له تأثير فى الأجل ولو يسيرا رجع الإشكال بأعظم مما نحن بصدده لأنه قد تأخر عن وقته المحدود وأجله المحتوم.

وإن كان لا تأثير له فلا نفع فيه للعبد أصلا بل قد يكون قبض روحه دفعة واحدة من غير تراخ ولا تدريج أسهل عليه من قبضه على خلاف ذلك:

فإن قلت إذا لم ترض شيئاً من هذه التأويلات فأين لنا ما لديك حتى ننظر فيه:

قلت : ستعرف ما لدى فى ذلك إن شاء الله لكن لابد هاهنا[3] من تقديم مقدمة يتضح بها الكلام ، ويتبين بها الصواب ، فافهمها حق فهمها وتدبرها حق تدبرها .

اعلم أن كثيراً من أهل العلم لما نظروا فى آيات وأحاديث تدل على أن ما قد سبق به القضاء لا يتحول ، وأنه ليس فى هذه الدار إلا ما قد فرغ منه من قليل وكثير وجليل ودقيق محافظة على ما ورد مما يدل على ذلك ، ووقفوا عند قواعد مقررة قد تقررت عند أهل الكلام حتى قال قائلهم إنه لو وقع غير ما سبق به العلم وفصل به القضاء لزم لازم باطل ، وهو انقلاب العلم جهلا ، لتخلف ما قد حق به القضاء .

لا تلازم بين علم الله ونفاذ قضائه :

فقصروا أنظارهم على هذا الإلزام وغفلوا عن لزوم ما هو أشد منه ، وهو أن الرب القادر القوى المتصرف فى عالمه بما يشاء ، وكيف يشاء لم يبق له عز وجل

---

(١) فى الفتح (الأمور) (٢) ص ٢٧٩ .
(٣) فى (ب) (هنا)

إلا ماقد سبق به قضاؤه ، ولا يتمكن من تغييره ولا من نقله إلى قضاء آخر .

وهذا تقصير عظيم بالجناب العلى عز وجل وتعالى وتقدس وهو يستلزم إهمال كثير من الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة .

فمنها إهمال ما أرشدنا إليه سبحانه من التضرع إليه والدعاء له لأنه ليس للداعى إلا ماقد جف به القلم دعا أو لم يدع . وهذه مقالة تبطل بها فائدة الدعاء الذى أرشدنا سبحانه إليه فى كتابه العزيز وقال : « ادعونى أستجب لكم » ، وجعل ترك دعائه من الاستكبار عليه ، وتوعد عليه ، كما قال[1] : إن الذين يستكبرون عن عبادتى الآية) وقال : (أم من يجيب المضطر إذا دعاه)[2] وقال : وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع اذا دعان) .

الدعاء كسبب لرد القضاء :

فأخبرنا سبحانه أنه يجيب دعوة من دعاه بعد أن أمرنا بالدعاء فى آيات كثيرة ، ومنها هذا الحديث القدسى الذى نحن بصدد شرحه ، فإنه قال فيه . « لئن سألنى لأعطينه ، ولئن استعاذنى لأعيذنه » . وهو صادق ولا يخلف الميعاد كما أخبرنا بذلك فى كتابه العزيز .

وقد أكد الإجابة منه للعبد فى هذا الحديث القدسى بالقسم على نفسه عز وجل . فكيف يتخلف ذلك .

وقد ورد من الترغيب فى الدعاء مالو جمع لكان مؤلفا مستقلا ، فمن ذلك . ماهو فى الصحيحين وغيرهما ومنها ماهو صحيح كما ستقف عليه .

فمن مافى الصحيحين وغيرهما من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله

(١) فى (ب) (بقوله) .

(٢) فى (ب) زاد الناسخ جزءا من الآية بعد ذلك وهو (ويكشف السوء)

صلى الله عليه وآله وسلم قال الله عز وجل : «أنا عند ظن عبدى ، وأنا معه إذا دعانى» . وفى الحديث القدسى ، الذى أخرجه مسلم وغيره عن أبى ذر[١] . «ياعبادى لو ان أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد فسألونى فأعطيت كل إنسان منهم مسألته ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر» وأخرج أهل السنن وابن حبان والحاكم ، وصححه الترمذى وابن حبان والحاكم من حديث النعمان بن بشير عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : «الدعاء هو العبادة ثم قرأ : (وقال ربكم ادعونى أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين) :

وأخرج الترمذى والحاكم وصححه من حديث أبى هريرة[٢] أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : «من سره أن يستجيب الله له عند الشدائد فليكثر من الدعاء فى الرخاء» وأخرجه أيضاً الحاكم من حديث سلمان وصححه . وأخرج الترمذى وحسنه من حديث أنس قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول قال الله : «يا ابن آدم ، إنك مادعوتنى ورجوتنى غفرت لك على ما كان ولا أبالى» .

وأخرج الترمذى والحاكم وصححاه من حديث عبادة بن الصامت «أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : ما على الأرض مسلم يدعو الله بدعوة إلا آتاه الله إياها ، أو صرف عنه من السوء مثلها مالم يدع بإثم أو قطيعة رحم، فقال رجل من القوم : إذاً نكثر قال : الله أكثر» .

وأخرج أحمد بإسناد لا بأس به من حديث أبى هريرة قال : قال رسول

---

(١) للمؤلف كتاب على ذلك الحديث اسمه (نثر الجوهر على حديث أبى ذر) ألفه (عام ١٢٤٠) وهو مصور بدار الكتب المصرية (رقم ٢٣٤٧٣ب) وقد شرح ذلك الحديث فيه متعرضا لما يتصل به من نواح كلامية وتصوفية وغيرها .

(٢) فى (ب) (رضى الله عنه) .

الله صلى الله عليه وآله وسلم : « مامن مسلم ينصب وجهه لله عز وجل فى مسألة إلا أعطاها إياه : إما أن يعجلها له ، وإما أن يدخرها ». وأخرج أحمد والبزار وأبو يعلى بأسانيد جيدة والحاكم وصححه من حديث أبى سعيد الخدرى أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث : إما أن يعجل له دعوته ، وإما أن يدخرها له فى الآخرة ، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها . قالوا : إذن نكثر . قال الله أكثر » .

وأخرج ابن حبان فى صحيحه والحاكم وصححه والضياء فى المختارة من حديث أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « لا تعجزوا فى الدعاء فإنه لن يهلك مع الدعاء أحد » . وأخرج الحاكم وصححه من حديث أبى هريرة قال : قال رسول[1] الله صلى الله عليه وآله وسلم : « الدعاء سلاح المؤمن وعماد الدين ونور السموات والأرض » وأخرجه أبو يعلى من حديث على . وأخرج الترمذى والحاكم وصححه من حديث ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « من فتح له منكم باب الدعاء فتحت له أبواب الرحمة ، وما سئل الله شيئا أحب إليه من أن يسأل العافية والدعاء ينفع مما نزل، ومما لم ينزل فعليكم عباد الله بالدعاء » . وفى إسناده عبد الرحمن بن أبى بكر المليكى وفيه مقال . وأخرج أبو دواد والترمذى وحسنه ، وابن ماجه ، وابن حبان فى صحيحه والحاكم وصححه من حديث سلمان[2] قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إن الله حيى كريم يستحى إذا رفع الرجل إليه يديه أن يردهما صفراً خائبتين » .

---

(١) فى (أ) نسى المؤلف (الراء) من (رسول) .
(٢) فى (ب) توجد (رضى الله عنه) .

وأخرج الحاكم وصححه من حديث أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إن الله رحيم كريم يستحي من عبده أن يرفع إليه يديه ثم لا يضع فيهما خيرا » . وأخرج أبو داود والترمذي وصححه والحاكم وصححه من حديث عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « من نزلت به فاقة ، فأنزلها بالناس لم تسد فاقته ، ومن نزلت به فاقة فأنزلها بالله فيوشك الله له برزق عاجل وآجل » .

وأخرج الترمذي وابن أبي الدنيا من حديث ابن مسعود[1] قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « سلوا الله من فضله فإن الله يحب أن يسأل » . وأخرج الترمذي من حديث أنس أن رسول الله صلى عليه وآله وسلم قال : « الدعاء مخ العبادة » وأخرج أبو يعلى من حديث جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « ألا أدلكم على ما ينجيكم من عدوكم ويدر لكم أرزاقكم تدعون الله في ليلكم ونهاركم ، فإن الدعاء سلاح المؤمن » وأخرج أبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجه وابن حبان في صحيحه والحاكم وصححه من حديث عبد الله بن بريدة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « سمع رجلا يقول : اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد . فقال : لقد سألت الله بالاسم الذي إذا سئل به أعطى ، وإذا دعي به أجاب » .

وأخرج الترمذي وقال : حسن من حديث معاذ « قال سمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رجلا وهو يقول : ياذا الجلال والإكرام فقال : قد استجيب لك فسل » . وأخرج الحاكم من حديث أبي أمامة قال : « قال

---

(١) في (ب) (رضي الله عنه)

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن لله ملكا موكلا بقول : يا أرحم الراحمين فمن قالها ثلاث مرات قال الملك : إن أرحم الراحمين قد أقبل عليك فسل ».

وأخرج أحمد وأبو داود والنسائى ، وابن ماجه ، وابن حبان فى صحيحه، والحاكم وصححه من حديث أنس قال : « مر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأبى عياش زيد بن الصامت الزرقى وهو يصلى وهو[1] يقول: اللهم إنى أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان بديع السموات والأرض ياذا الجلال والإكرام ، ياحى ياقيوم : فقال رسول صلى الله عليه وآله وسلم : لقد دعا الله باسمه الأعظم ، الذى إذا دعى به أجاب » :

ومن ذلك ماورد فى إجابة دعوة المظلوم على ظالمه ، والأب على ولده، وورد أيضاً أن جماعة لا يرد دعاؤهم ، والأحاديث بذلك صحيحة ثابتة » والأحاديث فى هذا الباب كثيرة وفيها الترغيب فى الدعاء ومحبة الله له ، حتى أخرج الترمذى من حديث أبى هريرة مرفوعاً : « من لم يسأل الله يغضب عليه » وأخرج ابن أبى شيبة من حديثه « من لم يدع الله غضب عليه » .

فلو لم يكن الدعاء نافعاً لصاحبه ، وأن ليس له إلا ما قد كتب له دعا أو لم يدع لم يقع الوعد بالإجابة وإعطاء المسألة فى هذه الأحاديث ونحوها ، بل قد ثبت أن الدعاء يرد القضاء كما أخرجه الترمذى وحسنه من حديث سلمان أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: « لا يرد القضاء إلا الدعاء ولا يزيد فى العمر إلا البر » وأخرجه أيضاً ابن حبان فى صحيحه ، والحاكم وصححه ، وأخرجه أيضاً الطبرانى فى الكبير ، والضياء فى المختارة .

وأخرج ابن أبى شيبة وابن حبان فى صحيحه والحاكم وصححه والطبرانى

---

(١) فى (ب) لا توجد (وهو) .

فى الكبير من حديث ثوبان « لا يرد القدر إلا الدعاء ، ولا يزيد فى العمر إلا البر وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه » .

وأخرج البزار والطبرانى والحاكم وصححه والبزار من حديث عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « لا يغنى حذر من قدر ، والدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل ، وأن البلاء لينزل ، فيتلقاه الدعاء فيعتلجان إلى يوم القيامة » .

فهذه الأحاديث وما ورد موردها قد دلت على أن الدعاء يرد القضاء فما بقى بعد هذا ؟

ومن الأدلة التى تدفع ما قدمناه من قول أولئك القائلين ما ورد من الاستعاذة من سوء القضاء ، كما ثبت فى الصحيحين وغيرهما ، أنه كان صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « اللهم إنى أعوذ بك من سوء القضاء ، ودرك الشقاء ، وجهد البلاء وشماتة الأعداء » . وقد قدمنا هذا الحديث .

فلو لم يكن للعبد إلا ما قد سبق به القضاء لم يستعذ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من سوء القضاء .

ومن ذلك حديث الدعاء فى الوتر ، وفيه : « وقنى شر ما قضيت » . وهو حديث صحيح ، وإن لم يكن فى الصحيحين حسبما قدمنا الإشارة إليه .

ومن الأدلة التى ترد قول أولئك القائلين ما ورد فى صلة الرحم ، ففى الصحيحين وغيرهما من حديث أنس أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « من أحب أن يبسط له فى رزقه ، وينسأ له فى أثره فليصل رحمه » .
قوله ينسأ : بضم الياء وتشديد السين المهملة مهموز أى يؤخر له فى أجله – وأخرجه البخارى وغيره من حديث أبى هريرة .

وأخرج البزار والحاكم وصححه من حديث ابن عباس[1] عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: « مكتوب فى التوراة : من أحب أن يزاد[2] فى عمره ويزاد فى رزقه فليصل رحمه » .

وأخرج أحمد بإسناد رجاله ثقات عن عائشة[3] أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «صلة الرحم وحسن الجوار يعمران الديار ويزيدان فى الأعمار» وهو من طريق عبد الرحمن بن القاسم[*] ولم يسمع من عائشة. والأحاديث فى هذا الباب كثيرة .

فلو لم يكن للعبد إلا ما قد سبق له لم تحصل له الزيادة بصلة رحمه ، بل ليس له إلا ما قد سبق به القضاء ، وصل رحمه أو لم يصل ، فيكون ما ورد فى ذلك لغواً لاعمل عليه ولا صحة له .

ومن الأدلة التى ترد قول أولئك ماورد من الأمر بالتداوى ، وهى أحاديث ثابتة فى الصحيح . فلولا أن لذلك فائدة كان الأمر به لغوا .

إذا عرفت ما قدمناه فاعلم أن الله سبحانه قال فى كتابه العزيز : (يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب)[4] . وظاهر هذه الآية العموم المستفاد من قوله ما يشاء ، فما شاء سبحانه مما قد[5] وقع فى القضاء وفى اللوح المحفوظ محاه ، وما شاء أثبته . ومما يستفاد منه مثل معنى هذه الآية قوله عز وجل :

---

(١) فى (ب) (رضى الله عنه) (٢) فى (ب) (يزاد له) .
(٣) فى (ب) (رضى الله عنها) .
(٤) سورة الرعد : ٣٩ (٥) فى (ب) سقطت (قد) .

الأعــــلام

(*) عبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق التيمى القرشى ، من سادات أهل المدينة فقها وعلما وديانة ، وحفظاً للحديث وإتقانا. توفى بالشام سنة ١٢٦ هـ الأعلام جـ ٤ ص ٩٧ .

(وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب)[1] ، وقوله عز وجل: (ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده)[2] .

وقد أجاب أولئك القوم الذين قدمنا ذكرهم[3] عن الآية الأولى بجوابات : منها أن المراد : يمحو ما يشاء من الشرائع والفرائض فينسخه ويبدله : ويثبت ما يشاء فلا ينسخه ولا يبدله . وجملة الناسخ والمنسوخ عنده فى أم الكتاب .

ويجاب عن ذلك بأنه تخصيص لعموم الآية بغير مخصص . وأيضا يقال لهم: إن القلم قد جرى بما هو كائن إلى يوم القيامة كما فى الأحاديث الصحيحة . ومن جملة ذلك الشرائع والفرائض ، فهى مثل العمر إذا جاز فيها المحو والإثبات جاز فى العمر المحو والإثبات .

وكل ما هو جواب لهم عن هذا فهو جوابنا عليهم .

ومنها أن المراد بالآية محو ما فى ديوان الحفظة مما ليس بحسنة ولا سيئة لأنهم مأمورون بكتب ما ينطق به الإنسان .

ويجاب عنه الجواب الأول ، ويلزم فيه مثل اللازم الأول ، وجميع ما ينطق به بنو آدم من غير فرق بين أن يكون حسنة أو سيئة أو لا حسنة ولا سيئة هو فى أم الكتاب ، و (ما يلفظ[4] من قول إلا لديه رقيب عتيد)[5] (وكل شيء أحصيناه فى إمام مبين)[6] ، (ما فرطنا فى الكتاب من شيء)[7]

---

(١) سورة فاطر : ١١ (٢) سورة الأنعام : ٢ .

(٣) علماء الكلام .

(٤) فى (ب) (ينطق) وهو خطأ واضح مخالف لما فى المصحف .

(٥) سورة ق : ١٨ (٦) سورة يس : ١٢ .

(٧) سورة الأنعام : ٣٨ .

ومنها أن المراد أن الله يغفر ما يشاء من ذنوب عباده ، ويترك ما يشاء فلا يغفره. ويجاب عنه بمثل الجواب السابق.

ومنها أن المراد يمحو ما يشاء من القرون فيمحو قرنا ويثبت قرنا كقوله : (ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون)[1] وقوله : (ثم أنشأنا من بعدهم قرنا آخرين)[2] ويجاب عنه بمثل ما تقدم.

ومنها أن المراد الذى يعمل بطاعة الله ثم بمعصيته فيموت [فيموت][3] على ضلاله فهذا الذى يمحوه الله والذى يثبته : الرجل يعمل بمعصية[4] الله ثم يتوب فيمحوه من ديوان السيئات ويثبته فى ديوان الحسنات . ويجاب عنه بما تقدم ، ويلزم فيه ما يلزم فى الأول وما بعده بلا شك ولا شبهة .

وأى فرق بين محو السيئة وإثبات الحسنة ، وبين محو أحد العمرين وإثبات الآخر .

ومنها أن المراد يمحو ما يشاء يعنى الدنيا ويثبت الآخرة . ويجاب عنه بما تقدم . وإذا تقرر لك هذا عرفت أن الآية عامة ، وأن العمر فرد من أفرادها . ويدل على هذا التعميم ما ثبت عن كثير من أكابر الصحابة [أنهم][5] كانوا يقولون فى دعائهم : « اللهم إن كنت قد أثبتنى فى ديوان الأشقياء ، فانقلنى إلى ديوان [السعداء][6] » ونحو هذه العبارة من عباراتهم وهم جمهور قد جمع بعض الحنابلة فيما ورد عنهم من ذلك مجلداً بسيطاً .

---

(١) سورة يس ٣١ (٢) سورة المؤمنون : ٣١ .

(٣) فى (أ) لاتوجد (فيموت) الثانية وهى لازمة لسلامة الأسلوب وقوة المعنى.

(٤) فى (ب) (بمعصية) دون لفظ الجلالة .

(٥) فى (أ) (أنه) ولا يستقيم .

(٦) فى (أ) (السعد) دون مدة . وهو سهو من المؤلف .

وبالجملة فالقول بالتخصيص بغير مخصص هو من التقول على الله بما لم يقل لأن الذي قاله هو ذلك اللفظ العام ، وتلك الآية الشاملة فقصرها على بعض مدلولاتها بغير حجة نيرة لا شك أنه من التقول على الله بما لم يقل . وقد قال سبحانه : (قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والإثم والبغي بغير الحق ، وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون)[1] .

وأجابوا عن قوله تعالى : وما يعمر من معمر ، ولا ينقص من عمره إلا في كتاب) ، بأن المراد بالمعمر الطويل العمر ، والمراد بالمنقوص قصير العمر .

ويجاب عن ذلك بأن الضمير في قوله : « ولا ينقص من عمره » يعود إلى قوله من معمر لاشك في ذلك . والمعنى على هذا « وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمر ذلك المعمر » .

هذا معنى النظم القرآني الذي لا يحتمل غيره ، وما عداه فهو إرجاع الضمير إلى غير ما هو المرجع ، وذلك لا وجود له في النظم .

وأجابوا أيضا بأن معنى ما يعمر من معمر ما يستقبله من عمره . ومعنى ولا ينقص من عمره ما قد مضى . وهذا تعسف وتكلف وتلاعب بكتاب الله وتصرف فيه بما يوافق المذهب ويطابق الهوى .

وأجابوا أيضا بأن المراد بالمعمر من بلغ سن الهرم ، وبالمنقوص من عمره هو معمر آخر غير هذا الذي بلغ سني[2] الهرم أي ينقص من عمره عن عمر الذي بلغ سن الهرم ، ويجاب عنه بمثل ما تقدم .

---

(١) سورة الأعراف : ٣٣   (١) في (ب) (سن) .

وقيل المعمر : من بلغ عمره ستين ، والمنقوص من عمره من يموت قبل الستين ، ويجاب عنه بما تقدم .

والحاصل أن ما جاءوا به من الأجوبة يردها اللفظ القرآني ، ويدفعها النظام الرباني ، والصيغة عامة بما فيها من النفي الدال على العموم المتوجه إلى النكرة المنفية المؤكد نفيها بمن . وكذلك النفي الآخر بلفظ لا ، المتوجه إلى نفي النقص ، من عمر ذلك المعمر . وهذا ظاهر لا يخفى ، ومحاولة تخصيصه ، أو إرجاع ضميره إلى غير من هو له تعسف، وتلاعب بكتاب الله ، ورده بلا حجة نيرة إلى ما يطابق هو الأنفس .

وأجابوا عن قوله تعالى : (ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده) بأن المراد بالأجل الأول ، النوم ، والأجل الثاني الموت . وهذا من بدع التفاسير وغرائب التأويل . ومعنى الآية أوضح من أن يخفى .

وأجابوا أيضا بأن الأجل الأول ما قد انقضى من عمر كل أحد . والثاني ما بقي عمر كل أحد .

وهذا كالأول . وقيل الأول أجل الموت ، والثاني أجل الحياة في الآخرة ، وهذا أشد تعسفا مما قبله .

وقيل الأول ما بين خلق الإنسان إلى موته : والثاني ما بين موته إلى بعثه وهو كالذي قبله . والكل مخالف لما يدل عليه النظم القرآني .

وإذا عرفت بطلان ما أجابوا به . تقرر لك أن الثلاث الآيات دالة على ما أردناه . فإن المحو والإثبات عامان يدخل تحت عمومها العمر والرزق والسعادة والشقاوة وغير ذلك[1] ؟

---

(١) في (ب) (وغيرها) .

ومعنى الآية الثانية أنه لايطول عمر إنسان ولا يقصر ، إلا وهو في كتاب أي اللوح المحفوظ . ومعنى الآية الثالثة : أن الإنسان أجلين يقضى الله سبحانه له بما يشاء منهما من زيادة أو نقص .

فإن قلت : فعلام تحمل مثل قوله تعالى : (فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون)[١] وقوله سبحانه[٢] : (ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها)[٣] وقوله سبحانه (إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر)[٤]. قلت : أفسرها بما هي مشتملة عليه فإنه قال : في الآية الأولى : « فإذا جاء أجلهم » وقال في الثانية « إذا جاء أجلها » ، وقال في الثالثة : « إن أجل الله إذا جاء » .

فأقول : إذا حضر الأجل ، فإنه لايتقدم ، ولا يتأخر . وقبل حضوره يجوز أن يؤخره الله بالدعاء أو بصلة الرحم ، أو بفعل الخير ، ويجوز أن يقدمه لمن عمل شراً ، [أو][٥] قطع ما أمر الله به أن يوصل ، وانتهك محارم الله سبحانه .

مبدأ السببية في الشريعة الإسلامية :

فإن قلت : فعلام تحمل نحو قوله عز وجل : « وما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها »[٦] وقوله سبحانه « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا »[٧] وكذلك سائر ما ورد في هذا المعنى .

---

(١) سورة النحل : ٦١ (٢) فى (ب) سقطت من الناسخ (سبحانه) .
(٣) سورة المنافقون الآية : ١١ (٤) سورة نوح الآية : ٤ .
(٥) فى (أ) (وقطع) بالواو ولكن (أو) أصح وأوضح وأقرب إلى المنطق .
(٦) سورة الحديد : ٢٢ (٧) سورة التوبة : ٥١ .

قلت : أجمع بينها وبين ما عارضها فى الظاهر من قوله عز وجل : « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير » (١) وما ورد فى معناها . ومن ذلك الحديث القدسى الثابت فى الصحيح عن الرب عز وجل « يا عبادى : إنما هى أعمالكم أحصيها عليكم فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد شراً (٢) فلا يلومن إلا نفسه » بحمل الآيتين [الأوليين] (٣) وما ورد فى معناهما على عدم التسبب من العبد بأسباب الخير من الدعاء وصلة الرحم ، وسائر الأعمال والأقوال الصالحة . وحمل الآية [الأخرى] (٤) ، والحديث القدسى ، وما ورد فى معناها ، وعلى وقوع التسبب من العبد بأسباب الخير الموجبة لحسن القضاء ، واندفاع شره . وعلى وقوع التسبب من العبد بأسباب الشر المقتضية لإصابة المكروه ، ووقوعه على العبد .

وهكذا أجمع بين الأحاديث الواردة بسبق القضاء ، وأنه قد فرغ من تقدير الأجل والرزق ، والسعادة والشقاوة ، وبين الأحاديث فى طلب الدعاء من العبد ، وأن الله يجيب دعاءه ، ويعطيه ما سأل مثله ، وأنه يغضب إذا لم يسأل ، وأن الدعاء يرد القضاء ونحو ذلك مما قدمنا ، كصلة الرحم وأعمال الخير .

فأحمل أحاديث الفراغ من القضاء على عدم تسبب العبد بأسباب الخير أو الشر . وأحمل الأحاديث [الأخرى] (٥) على وقوع التسبب من العبد بأسباب الخير أو التسبب بأسباب الشر .

---

(١) سورة التوبة : ٣٠ .
(٢) فى (ب) (غير ذلك) بعد (شرا) وهى زيادة لاداعى لها .
(٣) فى (أ) (الأوليين) غير صحيحة إملائياً ورسمها كذلك (الأولويين) .
(٤) فى (أ) (الأخرة) بالهاء .
(٥) فى (أ) (الأخرة) بالهاء .

وأنت خبير بأن هذا الجمع لا بد منه لأن الذى جاءنا بالأدلة الدالة على أحد الجانبين هو الذى جاءنا بالأدلة الدالة على الجانب الآخر . وليس فى ذلك خلف لما وقع فى الأزل ، ولا مخالفة لما تقدم العلم به . بل هو من تقييد المسببات بأسبابها ، كما قدر الشبع والرى بالأكل والشرب ، وقدر الولد بالوطء وقدر حصول الزرع بالبذر[1] .

فهل يقول قائل بأن ربط هذه المسببات بأسبابها يقتضى خلاف العلم السابق ، أو ينافيه بوجه من الوجوه ؟ .

فلو قال قائل : أنا لا آكل ، ولا أشرب ، بل أنتظر القضاء ، فإن قدر الله لى ذلك كان ، وإن لم يقدره لم يكن ، أو قال : أنا لا أزرع ولا أجامع زوجتى ، فإن قدر الله لى الزرع[2] والولد حصلا ، وإن لم يقدرهما لم يحصلا .

أليس هذا القائل قد خالف ما فى كتب الله سبحانه ، وما جاءت به رسله وما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه ، والتابعون ، وتابعوهم وسائر علماء الأمة ، وصلحائها ، بل يكون هذا القائل قد خالف ما عليه هذا النوع الإنسانى من أبينا آدم إلى الآن ، بل خالف ما عليه جميع أنواع الحيوانات فى البر والبحر ؟ .

فكيف ينكر وصول العبد إلى الخير بدعائه ، أو بعمله الصالح ، فإن هذا من الأسباب التى ربط الله مسبباتها بها ، وعلمها قبل أن تكون . فعلمه على كل تقدير أزلى فى المسببات ، والأسباب . ولا يشك من له اطلاع على كتاب الله عز وجل ، ما اشتمل عليه من ترتيب حصول المسببات على حصول أسبابها ، وذلك كثير جداً .

---

(١) فى (ب) (حصول البذر بالزرع) فى الهامش كتصحيح لتلك العبارة ولكنه إخراج لها مخرج الخطأ ، فإن الزرع لا يحصل إلا ببذر البذر وزرعه .

(٢) فى (ب) (البذر) وهو غير مقبول .

ومن ذلك قوله : « إن تجتنبوا كبائر ، ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم »[1] ، « فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً . يرسل السماء عليكم مداراً ويمددكم بأموال وبنين ، ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً »[2] و « لئن شكرتم لأزيدنكم »[3] « اتقوا الله ويعلمكم الله »[4] « فلولا أنه كان من المسبحين للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون »[5] .

وكم يعد العاد من هذا الجانس فى الكتاب العزيز . وما ورد فى معناه من السنة المطهرة .

فهل ينكر هؤلاء الغلاة مثل هذا ويجعلونه مخالفاً[6] لسبق العلم مباينا لأزلية ؟ . فإن قالوا نعم ، فقد أنكروا ما فى كتاب الله سبحانه من فاتحته إلى خاتمته ، وما فى السنة المطهرة من أولها إلى آخرها ، بل أنكروا أحكام الدنيا والآخرة جميعها ، لأنها كلها مسببات مترتبة على أسبابها ، وجزاءات معلقة بشروطها .

ومن بلغ إلى هذا الحد فى الغباوة[6] ، وعدم تعقل الحجة ، لم يستحق المناظرة ، ولا ينبغى الكلام معه فى الأمور الدينية ، بل ينبغى إلزامه بإهمال أسباب[7] ما فيه صلاح معاشه ، وأمر دنياه كله حتى ينتعش من غفلته ، ويستيقظ من نومته ، ويرجع عن ضلالته وجهالته .

والهداية بيد ذى الحول ، والقوة .

---

(١) سورة النساء : ٣١ (٢) سورة نوح : ١٠ ، ١١ ، ١٢ .

(٣) سورة إبراهيم : ٧ (٤) سورة البقرة : ٢٨٢ .

(٥) سورة الصفات : ١٤٣ ، ١٤٤ .

(٦) سقطت من الناسخ (مخالفاً) فى (ب) .

(٧) فى (ب) (العناد) (٨) فى (ب) نسى الناسخ (أسباب) .

ثم يقال لهم : أيما فائدة لأمره عز وجل لعباده بالدعاء بقوله : « ادعونى أستجيب لكم » ثم عقب ذلك بقوله : « إن الذين يستكبرون عن عبادتى » أى دعائى « سيدخلون جهنم داخرين » . وقوله عز وجل : (واسألوا الله من فضله)[1] فأى فائدة لهذين[2] الأمرين منه عز وجل بالدعاء ووعيده لمن تركه وجعله مستكبراً ، وتمدحه سبحانه بقوله « أم من يجيب المضطر إذا دعاه ، ويكشف السوء »[3] . وبقوله : « وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان » فإن قالوا إن هذا الدعاء الذى أمرنا الله عز وجل به وأرشدنا إليه وجعل تركه استكبارا وتوعد عليه بدخول النار مع الذل ، وأنكر عليهم أن غيره يجيب المضطر .

إن [كان][4] ذلك كله لا فائدة فيه للعبد ، وأنه لا ينال إلا ما قد سبق به القضاء فعل الدعاء ، أو لم يفعل ، فقد نسبوا إلى الرب عز وجل ما لا يجوز عليه ولا تحل نسبته إليه بإجماع المسلمين ، فإنه عز وجل لا يأمر إلا بما فيه فائدة للعبد دنيوية أو أخروية إما جلب نفع أو دفع ضر .

هذا معلوم لا يشك فيه إلا من لا يعقل حجج الله ، ولا يفهم كلامه ولا يدرى بخير ولا شر ، ولا نفع ولا ضر . ومن بلغ فى الجهل إلى هذه الغاية فهو حقيق بأن لا يخاطب ، وقمين بأن لا يناظر ، فإن هذا المسكين المتخبط فى جهله المتقلب فى ضلاله قد وقع فيما هو أعظم خطراً من هذا أو أكثر ضرراً منه .

---

(١) سورة النساء : ٣٢ (٢) فى (ب) (لهذه) وهى سهو من الناسخ .

(٣) سورة النمل : ٦٢ .

(٤) فى (أ) لاتوجد كان وهى لازمة لكى يفهم المعنى ويستقيم . ولعل المؤلف سها عنها . وكذلك فى (ب) قد سهى الناسخ عن هذه الملاحظة ونقل حرفياً ما أمامه .

وذلك بأن يقال لهم : إذا كان دعاء الكفار إلى الإسلام ، ومقاتلتهم على الكفر وغزوهم إلى عقر الديار ، كما فعله رسل الله ونزلت به كتبه ، لا يأتي بفائدة ، ولا يعود على القائمين به من الرسل وأتباعهم ، وسائر المجاهدين بعائدة ، وأنه ليس هناك إلا ما قد سبق به القضاء ، وجف به القلم ، وأنه لا بد أن يدخل في الإسلام ، ويهتدي إلى الدين من علم الله في سابق علمه أنه يقع منه ذلك سواء قوتل أم لم يقاتل ، وسواء دعي أم لم يدع ، كان هذا القاتل والتكليف الشاق ضائعاً ، لأنه من تحصيل الحاصل ، وتكوين ما هو كائن فعلوا أو تركوا . وحينئذ يكون الأمر بذلك عبثاً ، تعالى الله عن ذلك .

وهكذا ما شرعه الله لعباده من الشرائع على لسان أنبيائه ، وأنزل به كتبه يقال فيه مثل هذا ، فإنه إذا كان ما في سابق علمه كائناً لا محالة ، سواء أنزل كتبه ، وبعث رسله أم لم ينزل ولا بعث ، كان ذلك من تحصيل الحاصل فيكون عبثاً ، تعالى الله عن ذلك .

ثم يقال لهم : هذه الأدعية التي علم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمته في صلواتهم ولياليهم ونهارهم وسفرهم وحضرهم ، لو رام العالم جمعها متوناً لكانت في مجلد . وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أكثر الناس قياماً وخضوعاً إلى ربه حتى كان في تارة يرفع كفيه حتى يرى بياض إبطيه وفي تارة يرفعهما حتى يسقط الرداء عن منكبيه ثم أخبرنا بما للداعي لربه من الجزاء الجزيل ، والثواب الجليل عموماً ، وخصوصاً .

هل كان لهذا فائدة يتبين أثرها أم لا فائدة ، بل ما خط في اللوح فهو كائن لا محالة وقع الدعاء أم لم يقع ؟!!

فيقال لهم : يا نوكى[1] . أأنتم أعرف بالله سبحانه من رسوله صلى الله

---

(١) يا حمقى . [illegible]

عليه وآله وسلم حتى يكون ما فعله ، وما علمه أمته لغواً ضائعاً لا فائدة فيه ولا عائدة ؟ ! سبحانك هذا بهتان عظيم .

ثم يقال لهم : لو كان القضاء السابق حتما لا يتحول ، فأى فائدة فى استعاذته صلى الله عليه وآله وسلم من سوء القضاء ، كما صح ذلك عنه فى الصحيحين ، وصح عنه أنه كان يقول : وقنى شر ما قضيت .

فيالله العجب من دعاوى عريضة من قلوب مريضة ، وأفهام مريضة . يالكم الويل ، أما تدرون فى أى بلية وقعتم ، وعلى أى جنب سقطتم ، ومن أى باب من الشريعة خرجتم ؟ ! ! فإنكم لم تعملوا بشرع ولا اهتديتم بعقل.

وقد كان لكم قدوة وأسوة برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وبكتاب الله المنزل عليه ، وبما كان عليه أكابر الصحابة فى هذه المسألة [التى][(١)] نحن بصددها كعمر بن الخطاب . وعبد الله بن مسعود ، وأبى وائل ، وأمثالهم من أكابر الصحابة الذين صح عنهم أنهم كانوا يسألون الله سبحانه أن يثبتهم فى ديوان السعادة وأن ينقلهم من ديوان الشقاوة إن كانوا فيها ، إلى ديوان السعادة كما قدمنا .

ولله در كعب[(*)] الأحبار ، فإنه قال لما طعن عمر رضى الله عنه : « والله لودعا عمر أن يؤخر الله أجله لأخره » فقيل له : إن الله عز وجل يقول : « فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ، ولا يستقدمون » فقال : هذا إذا

---

(١) فى (أ) (الذى) وهو سهو من المؤلف .

الأعلام

(*) كعب بن ماتع بن ذى هجن الحميرى أبو إسحاق : تابعى : كان فى الجاهلية من كبار علماء اليهود فى اليمن وأسلم فى زمن أبى بكر وقدم المدينة فى دولة عمر فأخذ عنه الصحابة وغيرهم كثيراً من أخبار الأمم الغابرة، وأخذ هو من الكتاب

حضر الأجل[1] ، فأما قبل ذلك فيجوز أن يزاد وينقص » وقرأ قوله تعالى: (وما يعمر من معمر ، ولا ينقص من عمره إلى فى كتاب) .

وكلامه هذا يرشد إلى الجمع الذى جمعناه كما عرفت ، ولنقتصر على هذا المقدار فى تقرير المقدمة التى قدمنا أنه يظهر بها ما سنذهب إليه فى ذلك المقام ، بعد أن تعقبنا جميع تلك التأويلات المذكورة فى التردد الذى وقع فى الحديث القدسى .

فنقول الآن : إن ذلك التردد هو كناية عن محبة الله لعبده المؤمن أن يأتى بسبب من الأسباب الموجبة لخلوصه من المرض الذى وقع فيه حتى يطول به عمره ، من دعاء ، أو صلة رحم ، أو صدقة ، فإن فعل مد له فى عمره بما [يشاء][2] ، وتقتضيه حكمته وإن لم يفعل حتى جاء أجله ، وحضره الموت مات بأجله الذى قد قضى عليه إذا لم يتسبب بسبب يترتب عليه الفسحة له فى عمره ، مع أنه وإن فعل ما يوجب التأخير ، والخلوص من الأجل الأول ، فهو لا بد له من الموت بعد انقضاء تلك المدة التى وهبها الله سبحانه له .

فكان هذا التردد معناه : انتظار ما يأتى به العبد مما يقتضى تأخير الأجل أولا يأتى ، فيموت بالأجل الأول ، وهذا معنى صحيح لا يرد عليه إشكال ، ولا يمتنع فى حقه سبحانه بحال[3] ، مع أنه سبحانه يعلم أن العبد

عن الصحابة ، وخرج إلى الشام وسكن حمص وتوفى فيها سنة ٣٢ هعن ١٤٠ سنة. الأعلام ج ٦ ص ٨٥ وفى شذرات الذهب ٣٥ ه ص ٤٠ ج ١ .

(١) فى (أ) كرر المؤلف سهوا (فقال هذا إذا حضر الأجل) .

(٢) فى (أ) (يشاء) بالهاء وهو سهو .

(٣) نعم لا يمتنع فى حقه سبحانه ، ولكن يرد عليه إشكال ، وهو أننا مادمنا قد جوزنا تاخير موته لسبب من الأسباب ، فيجوز أن يؤخر بعد ذلك أيضا ، ويؤخر ويؤخر ، وهكذا فمتى يموت ذلك الشخص إذا أتى بالأسباب فى تأخير أجله؟

سيفعل ذلك السبب ، أو لا يفعله ، لكنه لا يقع لتنجيز لذلك المسبب إلا بحصول السبب الذى ربطه عز وجل به .

« كراهة الموت ومقام الولاية » :

قوله : « يكره الموت وأكره إساءته »[1] قال ابن حجر : « وفى حديث عائشة : أنه يكره الموت وأنا أكره مساءته . زاد ابن مخلد عن ابن كرامة فى آخره : « ولا بد له منه »[2] ووقعت هـذه الزيادة أيضاً فى حديث وهب »[3] انتهى .

فيه فائدة جليلة هى أن المؤمن قد يكره الموت ولا يخرج بذلك عن رتبة الإيمان الجليلة ، ولا ينافى ذلك أن شأن المؤمن أن يحب لقاء الله سبحانه ، كما ورد فى الأحاديث الصحيحة لوقوع البيان فيها بأن محبة لقاء الله لا تستلزم أن لا يكره صاحب هذه المحبة الموت ، كما فى الصحيحين وغيرهما من حديث عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « من أحب لقاء الله ، أحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه فقلت يا نبي الله أكراهية

---

(١) فى (ب) (مساءته) . (٢) الفتح ص ٢٩٨ .

الأعــلام

(٣) وهب بن منبه من رواة الحديث وجامعيه ، أسند عن جابر بن عبد الله والنعمان بن بشير وابن عباس ، وقد روى عن معاذ بن جبل وأبى هريرة وروى عن أناس كثيرين من كبار التابعين . كطاوس ، وروى عنه من التابعين جماعة منهم عمرو بن دينار وهو من التابعين . من مأثوراته : « الإيمان قائد والعمل سائق والنفس بينهما حرون ، فإذا قاد القائد ولم يسق السائق لم يغن ذلك شيئاً ، وإذا ساق السائق ولم يقد القائد لم يغن ذلك شيئاً وإذا قاد القائد وساق السائق اتبعته النفس طوعا وكرهاً وطاب العمل » . مات بصنعاء سنة ١١٠ أو فى سنة ١١٤ . صفوة الصفوة جـ ٢ ص ١٦٧ وينظر أيضاً الكواكب الدرية ص ١٨٦ .

الموت فكلنا نكره الموت ؟ قال : ليس ذلك ، ولكن المؤمن إذا بشر برحمة الله ورضوانه وجنته أحب لقاء الله فأحب الله لقاءه ، وإن الكافر إذا بشر بعذاب الله وسخطه كره لقاء الله ، وكره الله لقاءه » .

وأخرج أحمد برجال الصحيح والنسائي بإسناد جيد من حديث أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه ، قلنا يارسول الله : كلنا نكره الموت . قال : ليس ذاك كراهية الموت ، ولكن المؤمن إذا حضر جاءه البشير من الله فليس شيء أحب إليه من أن يكون قد لقي الله فأحب الله لقاءه ، وإن الفاجر والكافر إذا حضر جاءه ما هو صائر إليه من الشر ، أو ما يلقى من الشر ، فكره لقاء الله فكره الله لقاءه » .

وفي الصحيحين وغيرهما من حديث أبي هريرة قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : قال الله : إذا أحب عبدي لقائي أحببت لقاءه ، وإذا كره لقائي كرهت لقاءه » وأخرج الطبراني بإسناد جيد من حديث عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « تحفة المؤمن الموت » وأخرج أحمد من رواية عبد الله ابن [زجر](*) من حديث معاذ[1] قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إن شئتم أنبأتكم ما أول ما يقول الله عز وجل للمؤمنين يوم القيامة ، وما أول ما يقولون له ، قلنا : نعم يا رسول الله قال : إن الله عز وجل يقول للمؤمنين : هل أحببتم لقائي ،

(١) في (ب) (رضي الله عنه) .

الأعـــلام

(*) الصحيح (عبيد الله زجر الضمري) مولاهم الأفريقي ، صدوق ، يخطيء ، من السادسة ، التقريب لابن حجر ، وخلاصة التذهيب للخزرجي ، وقد جاء في أ ، ب [زحر] بالحاء المهملة .

فيقولون نعم يا ربنا، فيقول لهم : لم؟ فيقولون : رجونا عفوك ومغفرتك فيقول : قد وجبت لكم مغفرتي ».

قال ابن حجر في الفتح : « وأسند البيهقي في الزهد عن الجنيد سيد الطائفة قال : الكراهة هنا لما يلقى المؤمن من الموت ؛ وصعوبته وكربه وليس المعنى أني أكره له الموت لأن الموت يورده إلى رحمة الله ومغفرته »[1] انتهى.

أقول : ظاهر الأحاديث التي قدمناها : أن الكراهة لنفس الموت الذي هو انتقال من الدار الأولى إلى الدار الآخرة من غير حاجة إلى تأويل . ولاشك أن الكراهية للموت قد تكون لاستصحاب مقدماته ، وقد تكون لما في الموت من مفارقة الأهل والولد والأصحاب والأتراب ، وقد تكون للخوف من أن يفارق الدنيا وهو غير راض من نفسه بأعماله الصالحة ، أو لذنوب اقترفها لم يخلص التوبة عنها ، أو لحقوق لله سبحانه ، أو لعبادة لم يتلخص عنها ؛ فليست كراهة الموت مختصة بذلك الوجه الذي ذكره الجنيد رحمه الله .

قال في الفتح : « وعبر بعضهم عن هذا بأن الموت حتم مقضي ، وهو مفارقة الروح الجسد ، ولا يحصل غالباً إلا بألم [شديد][2] جداً كما جاء عن عمرو بن العاص أنه سئل وهو يموت ، فقال : كأني أتنفس من خرم إبرة ، وكأن غصن شوك يجر به من قامتي إلى هامتي »[3] انتهى .

قلت : هذا هو مثل كلام الجنيد . والجواب عنه جواب عن هذا ، وقصة عمرو هذه مشهورة في كتب التاريخ ، قال له رجل وهو يجود بنفسه : إنك

---

(١) الفتح ص (٢٨٩) .

(٢) لعل المؤلف نسي كلمة (شديد) فهي ضرورية قبل (جداً) والناسخ في (ب) نسيها كذلك .

(٣) الفتح ص ٢٩٨ .

كنت تقول لنا : وددت أن يخبرنى رجل عاقل [و][1] هو فى سياق الموت كيف يجد الموت فقال له رجل : أنت ذلك الرجل العاقل فأخبرنا فقال : « كأنه نفس الخ » قال فى الفتح : « وعن كعب أن عمر سأله عن الموت فوصفه بنحو هذا ، فلما كان الموت بهذا الوصف والله سبحانه يكره [أذى][2] المؤمن أطلق على ذلك الكراهة . ويحتمل أن تكون المساءة بالنسبة إلى طول الحياة ، لأنها تؤدى إلى أرذل العمر ، وتنكس الخلق والرد ، إلى أسفل سافلين » انتهى .

أقول : معنى قوله وأ كره إساءته كراهة إساءته بنفس الموت كما يفيده قوله يكره الموت ، فإن قوله وأ كره إساءته هو معطوف عليه ، فالمراد أ كره إساءته بما كرهه . وتخصيص التفسير بوجه مع وضوح المعنى لاحاجة إليه ؛ فإنه لايلزم من ذلك شىء حتى يصار إلى التأويل ، وعلى فرض وجود مقتض للتأويل ، فهو ذو وجوه كما بينا ، وغير ما تطابق عليه قول الجنيد وكعب والمصنف [وهو][3] أولى منه .

قال فى الفتح : « وجوز الكرمانى أن يكون المراد أنه يكره الموت فلا أسرع بقبض روحه فأ كون كالمتردد »[4] انتهى .

أقول : هذا صواب إذ لا مقتضى للتأويل كما عرفناك .

---

(١) هذه الواو ضرورية، لأن الجملة حالية اسمية .وقد سهى عنها المؤلف أيضاً، وعبارته (رجل عاقل هو فى إلخ) . وكذلك الناسخ فى (ب) نقلها حرفياً .

(٢) فى (أ) ، (ب) (أذا) بالألف .

(٣) ليست فى (أ) ولا فى (ب) وهى لازمة لسلامة الأسلوب .

(٤) ص ٢٩٨ مع اختلاف يسير .

قال في الفتح : « وقال الشيخ أبو الفضل(*) : في هذا الحديث ، عظم قدر الولي ، لكونه خرج عن تدبير نفسه(١) إلى تدبير ربه تعالى ، وعن انتصاره لنفسه إلى انتصار الله له ، وعن حوله وقوته بصدق توكله .

قال : ويؤخذ منه أن لا يحكم لإنسان آذى ولياً ثم لم يعاجل بمصيبة في نفسه أو ماله أو ولده بأنه سلم من انتقام الله تعالى له ، فقد يكون مصيبته في غير ذلك مما هو أشد عليه كالمصيبة في الدين مثلا .

قال : ويدخل في قوله : افترضت عليه الفرائض الظاهرة فعلا ، كالصلاة والزكاة وغيرهما من العبادات .

وتركا كالزنا والقتل وغيرهما من المحرمات ، والباطنة كالعلم بالله تعالى والحب له والتوكل عليه ، والخوف منه وغير ذلك .

وهو ينقسم أيضاً إلى أفعال وتروك .

الولي ومعرفة الغيبيات :

قال : وفيه دلالة على جواز اطلاع الولي على المغيبات بإطلاع الله تعالى إياه ، ولا يمنع من ذلك ظاهر قوله : (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً

---

(١) في (ب) (تدبيره) .

الأعــلام

(*) المتوفى سنة ٧٠٩ ، أحمد بن محمد بن عبد الكريم أبو الفضل تاج الدين ابن عطاء الله الإسكندري متصوف شاذلي ، من العلماء ، كان من أشد خصوم شيخ الإسلام ابن تيمية ، له تصانيف منها (الحكم العطائية ط) في التصوف ، و(تاج العروس) ط . في الوصايا والعظات ، وينسب إليه كتاب (مفتاح الفلاح) وليس من تأليفه . الأعلام ج ١ ص ٢٠٣ .

إلا من ارتضى من رسول)(١) فإنه لا يمنع دخول بعض أتباعه معه بالتبعية لصدق قولنا : ما دخل على الملك اليوم إلا الوزير ، ومن المعلوم أنه دخل معه بعض خدمه .

قلت : الوصف المستثنى للرسول هنا إن كان فيما يتعلق بخصوص كونه رسولا فلا مشاركة لأحد من أتباعه فيه إلا منه ، وإلا فيحتمل ما قال ، والعلم عند الله عز وجل »(٢) انتهى .

أقول : أما قوله : فى هذا الحديث عظم قدر الولى ، فلا شك فى ذلك لأن الله سبحانه قد أحبه وكان سمعه وبصره ويده ورجله ، ووعده بأنه إذا سأله أعطاه ، وإذا استعاذه أعاذه

وأما قوله : « لكونه(٣) خرج من تدبيره الخ » فإن أراد بهذا التعليل أن الولى فى الواقع كذلك فصحيح وإن أراد أن فى الحديث القدسى دلالة على هذه العلة فلا ، فإنه لم يذكر ذلك فيه إلا أن يريد أن فى قوله : كنت سمعه الذى يسمع به إلى آخره ، ما يدل على أنه بذلك قد صار فى تدبير من صار سمعه وبصره الخ . وهو الرب عز وجل ، ولكن ليس هذا الخروج من فعل الولى حتى يكون ذلك(٤) علة لتعظيم قدره ، فإن ذلك من فعل الله سبحانه ، فهو الذى جازى الولى بالمحبة وكان سمعه وبصره الخ ، هو من جملة ما جوزى به الولى فلا يصح أن يكون علة المجازاة .

وأما قوله « ويؤخذ منه أن لا يحكم لإنسان آذى وليا الخ »

---

(١) سورة الجن آية : ٢٦ ، ٢٧ (٢) ص ٢٩٨ .

(٣) فى (ب) (أنه) بدل (لكونه) وهو سهو من الناسخ وخطأ فى نفس الوقت ، لأن كلام أبى الفضل المتقدم : (لكونه .. الخ) .

(٤) فى (ب) نسى الناسخ (ذلك) .

فلعله يريد أنه سبحانه لما آذن من يعادى الولى بالحرب كان ذلك واقعاً لا محالة إما معجلا ، أو مؤجلا ، فى النفس أو فى المال أو فى الولد ، فإن كل ذلك يصدق عليه أنه من حرب الله لذلك المعادى للولى .

وأما قوله : ويدخل فى قوله : « افترضت عليه : الفرائض الظاهرة الخ » فقد أوضحنا هذا عند كلامنا على قوله : « وما تقرب إلى عبدى بمثل أداء ما افترضت عليه » بأوضح بيان فارجع إليه .

وأما قوله : « وفيه دلالة على جواز اطلاع الولى على المغيبات بإطلاع الله تعالى إياه الخ » فهو مأخوذ من قوله : « كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به . . الخ » .

فإن من كان الله سبحانه سمعه وبصره لا مانع من اطلاعه على بعض [أسراره][1] الإلهية ولا سيما بعد بيان هذا بقوله : فبي يسمع ، وبى يبصر ، وبى يبطش ، وبى يمشى ، وقد أطلنا الكلام على هذا فيما سبق ، وبيناه أكمل بيان وذكرنا ما يعضد ذلك من الأدلة .

وأما قوله : « ولا يمنع من ذلك ظاهر قوله تعالى : « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول » فإنه لا يمنع أحد من دخول بعض أتباعه معه بالتبعية الخ .

فأقول : هذا صحيح ، فإن الله سبحانه قد أطلع على مايشاء[2] من غيبه من يرتضيه من رسله ، كما تفيده هذه الآية : ولم يمنع الرسول من إظهار ما أطلعه عليه على بعض خواصه من أتباعه :

---

(١) فى (أ) نسى المؤلف (هاء) (أسراره) .
(٢) فى (ب) (من يشاء) وهو خطأ لأن الغيب غير عاقل .

وقد وقع منه صلى الله عليه وآله وسلم ذلك فى غير قضية كاطلاعه حذيفة[1] على أهل النفاق ومعرفته بهم ، واطلاعه له أيضاً على بعض الأمور المستقبلة خصوصاً أمور الفتن التى حدثت بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فإنه كان بها بصيراً ، وكان يسأل عنها فيجيب كسؤال عمر له الثابت فى الصحيح ، وإخباره بأن بينه وبينها باباً ، فقال عمر له[2] : أيكسر أم يفتح ؟ فقال : بل يكسر . ففهم عمر رضى الله عنه أنه الباب وأنه يقتل .

(١) هذا فى الواقع ليس إخباراً من الله سبحانه بالغيب لغير الرسول لأن الرسول هو الذى أخبر به ، وما دام الأمر قد علمه الرسول فلم يعد غيبا ، وخصوصا إذا أخبر به . ونص الآية (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول) يدل دلالة قاطعة أن ذلك غير ممكن لغير الرسل : هذا بالنسبة لغيبه سبحانه الذى . أضافه لنفسه ، وهو المذكور فى قوله تعالى : « إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ، ويعلم مافى الأرحام ، وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا ، وما تدرى نفس باى أرض تموت » آخر سورة لقمان . أما بقية أنواع الغيب غير هذه الأنواع الخمسة ، فهى مما لم يستأثر الله بعلمه ، ومن الممكن أن يعلمه المخلوقين على مختلف أصنافهم ، رسل وغير رسل ، ثم إن هناك قاعدة ، فى تمييز غيب الله من غيب المخلوقين ، وهى أن ما كان مغيبا ، لايزال فى طى الغيب ، فهو من غيب الله الذى لايظهره ، إلا للرسل (صلى الله وسلم عليهم) ، وأما ما علمه أحد المخلوقين فلم يعد من غيبه سبحانه ، وليس غيباً ، إلا بالنسبة لمن لم يعلمه ، فمن الممكن ، أن يعلم أحد المقيمين ، فى جهة من الجهات ، ماحدث أو وقع فى جهة أخرى ، وأصبح معلوما لأصحاب تلك الجهة الأولى ، أو لأحد أفرادها . ينظر تفسير الفخر الرازى ج٤ ص ٨٠ – ٨٢ ، ج٨ ص ٣٣٠ ، ٣٣١ ، وتفسير أبى السعود على هامش الفخر فى الموضعين المتقدمين طبعة سنة ١٢٨٩ هـ . وتفسير ابن كثير ، ج ١ ص ٤١ ، ج٢ ص ١٣٧ ، ٢٧٣ ، ج ٤ ص ٤٣٣ ، طبعة سنة ١٩٥٦ ، والفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، لابن تيمية ص١٣٩–١٤٩ طبعة صبيح سنة ١٩٥٨ .

(٢) فى (ب) (فقال له عمر الخ) .

فهذا وأمثاله هو من عند الله سبحانه ومن ذلك : قول على بن أبى طالب رضى الله عنه كما فى صحيح مسلم وغيره : « والذى فلق الحبة وبرأ النسمة إنه لعهد النبي الأمى أن لا يحبنى إلا مؤمن ولا يبغضنى إلا منافق » ومن ذلك قضية المخدج(*) الذى قتل من الخوارج فى يوم النهروان وأمرهم على[1] أن يبحثوا عنه فلم يجدوه ، فقام فوجده فقال له أبو عبيدة السلمانى(*) آلله إنه لعهد النبي إليك (٢) قال : نعم.

بل ثبت فى الصحيح « أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قام مقاما فما ترك شيئاً من الأمور المستقبلة حتى أخبرهم به حفظه من حفظه ونسيه من نسيه » . وذكر كل قائد من قواد الفتن ، وأخبر جماعة من الصحابة كأبى ذر ، وأبى هريرة

(١) فى (ب) (رضى الله عنه) .

الأعــلام

(*) فى اللغة ، المخدج . الناقص ، والمخدج هذا ، أحد رجال الخوارج الذين أخبر رسول الله ﷺ عليا (رضى الله عنه) بأنهم سيقاتلونه ، وأن علامتهم أنه يكون فيهم هذا المخدج ، وقد كان رجلا ، « ناقص اليد ، ليس فيها عظم ، طرفها حلمة ، مثل ثدى المرأة » وقد عثر عليه على رضى الله عنه بين قتلى الخوارج فى يوم (النهروان) فتأكد بذلك ، وأكد به صدقه فى روايته عن الرسول (ﷺ) هذا الخبر . ينظر (الروضة الندية ، شرح التحفة العلوية ص ٩٣ — ٩٦ ، للسيد محمد بن إسماعيل الأمير ، مطبعة المعارف بصنعاء سنة ١٣٧١ هـ) ، (مروج الذهب للمسعودى ، ج ٢ ص ٣٠ طبعة سنة ١٢٨٣ هـ) .

(٢) فى الروضة الندية ، اختلاف يسير فى عبارة السلمانى .

الأعــلام

(*) هو عبيدة بن عمر ، ويقال ابن عمرو بن قيس بن السلمانى أسلم قبل وفاة النبى صلى الله عليه وسلم بسنتين ، ولم يلقه ، روى الحديث ، وتوفى سنة ٧٢ هـ ، وقيل سنة ٨٣ ، وقيل سنة ٧٤ هـ . (وقعة صفين لابن مزاحم المنقرى ، الطبعة الأولى سنة ١٩٦٥ هـ) .

وغيرهما بشيء من الأمور المستقبلة ، كما ذكره أهل الحديث والسير والتاريخ.

وكما قال[2] لعبدالله بن عباس ، لما وصل إليه بابنه علي(*) ليبرك عليه : خذ إليك أبا الأملاك ، فكان أول من ملك من أولاده السفاح(**) عبدالله بن محمد ابن علي بن الله بن العباس ، ثم ملك بعده أخوه المنصور(***) ثم أولاده من خلفاء بني العباس ، وكانت لهم تلك الدولة الطويلة . بل كان لدى أولاد علي بن أبي طالب من الأخبار المتعلقة بالدول ما هو معروف ، وكان الإمام الباقر والإمام الصادق يخبران خواصهم بالوقت الذي تنتقل فيه الدولة من بني أمية إلى بني هاشم . بل كان عند بني أمية من دواتهم أخبار منقولة في كتب التاريخ وكان العارف بها مسلمة بن عبد الملك بن مروان(****) .

ومن أعجب ما روى عنه[3] أنهم اجتمعوا في أيام دولتهم في مسجد من

---

(١) في (ب) زائد الناسخ بعد قال : (علي رضي الله عنه) .

الأعلام

(*) علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب ولد ليلة قتل علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) سنة ٤٠ هـ فسمي باسمه وكنيته ، فقال له عبد الملك بن مروان لا أحتمل لك الاسم والكنية فغير كنيته . قيل عنه . (كان يسجد كل يوم ألف سجدة) ولما توفي محمد بن علي أبي طالب وكان قد أوصى بنصيبه من الخلافة إلى علي هذا، انتقل جانب من الشيعة إلى جانب علي هذا ، واستمر الدعاة في هذا الاتجاه حتى قامت الخلافة السياسية على يد حفيده عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس . صفوة الصفوة جـ٢ صـ٥٩ ، المصدر السابق صـ ١٣ .

(**) أبو العباس أول خليفة عباسي من ١٣٢ - ١٣٦ هـ .

(***) أبو جعفر ثاني الخلفاء العباسيين من (١٣٦ — ١٦٨) هـ .

(****) هو مسلمة بن عبدالملك بن مروان بن الحكم الأموي ، الأمير ، مقبول من الطبقة السادسة ، مات سنة ١٢٠ هـ أو بعدها (تقريب التهذيب) .

(٢) في (ب) (عنهم) وهو سهو من الناسخ .

المساجد الخاصة بهم ، فصار مسلمة بن عبد الملك[١] يحدثهم بالأمور التي يكون بها زوال دولتهم ، وبينما هو يذكر لهم قيام أبي مسلم بظهور الدولة الهاشمية بخراسان ، صادف في ذلك الوقت دخول رجل غريب عليهم ووقف يسمع الحديث ومسلمة يحدثهم عن الجيش الذي يقدم[٢] من خراسان ويصل إلى العراق ، وتظهر دولة بني العباسية[٣] فسماه باسمه ، وقال هو رجل اسمه قحطبة ابن شبيب(*) صفته كذا ، ثم وقعت عينه على ذلك الغريب ، فقال كأنه هذا أو يشبه هذا ، واستمر في حديثه حتى قال : ثم يهلك بعد وصوله هو وجيشه إلى العراق في دجلة أو الفرات ، الشك مني

وكان ذلك الرجل الغريب الداخل عليهم هو قحطبة بن شبيب ، فلما سمع الحديث انخلس من بينهم وقصد خراسان ، وكان هو الأمير الذي أرسله أبو مسلم إلى العراق ، وطوى الممالك ما بين خراسان إلى العراق ولما وصلوا إلى النهر الذي لا يجاز معه إلى العراق إلا من القنطرة أمر الجيش أن يترقفوا إلى الليل ويجوزوا القنطرة ، ثم جمع خواص الجيش وكبارهم وطلب منهم أنهم يقلدون الإمارة بعده لابنه حميد بن قحطبة(**) إذا عرض له الموت ففعلوا وهو

(١) (الملك) في (أ) غير واضحة تماما .
(٢) في (ب) (تقدم) .
(٣) في (ب) سقطت من الناسخ كلمة (بني) ولعل الأوفق كان يكون (دولة بني العباس) .
(*) قحطبة بن شبيب داع من الدعاة لقيام دولة بني العباس ، وأحد النقباء الاثنى عشر الذين اختيروا لقيادة الدعوة وإعلان الخلافة العباسية (محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية (الدولة العباسية) ص ١٥ ، ٢٥) .
الأعلام
(**) في كتاب (تاريخ الأمم الإسلامية) أن الذي تولى مكان قحبطة ابنه الحسن وأما حميد هذا فوجهه أبو سلمة الخلال — أول وزير عباسي وأحد

قد ظن أنه يكون هلاكه بالقتل فدخل فى غمار الجيش كواحد منهم وأخفى نفسه وركب فرسا من عرض الأفراس ومشى بها فى الجسر ، فازدحمت الخيل حتى رمت به إلى النهر فهلك ، وكان فى تدبيره تدميره .

ومن عجائب ما ألقى من هذا العلم على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه اجتمع بنو هاشم من آل على وآل العباس [1] فى بعض الأوقات فى أيام بنى أمية ، فبايعوا محمد (*) بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ، فقال جعفر الصادق (**) لبعض خواصه : إن هذا يعنى المنصور العباسى هو الذى يكون خليفة ، وسيكون قتل من بايعناه الآن ، يعنى محمد بن عبدالله

المؤسسين لدولة بنى العباس — إلى المدائن : ونص عبارة الخضرى (سار قحطبة واغلا فى بلاد العراق فقصده ابن هبيرة أمير العراق من قبل مروان بن محمد ، وكان اجتماعهما غربى الفرات وقبل أن تقع بينهما الموقعة الكبرى مات قحطبة فولى إمرة الجيش ابنه الحسن) صـ ٧٥ .

(١) فى (ب) سقطت من الناسخ (آل) .

(*) ولما انتقلت الخلافة من أولاد على إلى أولاد العباس لم يبايع لأبى العباس السفاح ولا لأبى جعفر المنصور ، وظل على خلاف لهم مدة من الزمن يرى أنه هو الخليفة الحقيقى ، ثم خرج بالمدينة وأعلن نفسه خليفة وجرت بين أبى جعفر وبينه مكاتبات انتهت بهزيمة محمد هذا وقتله على يد عيسى ابن موسى ولى عهد السفاح بعد المنصور سنة ١٤٥ هـ بالمدينة (محاضرات الخضرى صـ ٦٠ — ٦٨) .

الأعـــلام

(**) هو جعفر بن محمد بن على بن الحسين عليهم السلام كان مشغولا بالعبادة عن حب الرياسة روى عن أبيه وعن عطاء بن أبى رباح ، وروى عنه من التابعين كثيرون ، وكثيرا ما أراد أبو جعفر المنصور قتله لالتفاف الناس حوله ، ولكن استعانته بالله عليه كانت تنجيه دائما . توفى بالمدينة سنة ١٤٨ هـ . صفوة الصفوة جـ ٢ صـ ٩٤ — ٩٨ .

المذكور وهو الملقب بالنفس الزكية على يد جيش المنصور هذا . فانظر إلى هذا العجب العجيب .

ومن ذلك ما أخبر به النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيما صح عنه في الصحيح من خروج الترك على بلاد الإسلام ، وذكر ما يصدر منهم من أخذ البلاد الإسلامية وفتح مدائن الإسلام ، ثم وصفهم بأوصاف من جملتها أن وجوههم كالمجان المطرقة ، وأن نعالهم الشعر ، ونحو ذلك من الأوصاف .

فخرج الترك الذين يقال لهم التتر ، وفعلوا تلك الأفاعيل ببلاد الإسلام ، حتى كادوا يشتولون عليها جميعاً ، ولم يبق إلا اليسير منها .

وكم يعد العاد من ذلك فإنه كثير جداً ، وكله مستفاد من الجناب النبوي ومن الغيب الذي أطلع الله رسوله عليه فأطلع عليه من ارتضاه من أصحابه[1] .

وقد قدمنا حديث « إن في هذه الأمة محدثين ، وإن منهم عمر » وهو في الصحيحين ، وهذا هو نوع من أنواع علم الغيب . وكذلك ذكرنا حديث « اتقوا فراسة المؤمن فإنه يرى بنور الله » وهو حديث حسن كما بينا فيما سلف .

ومن أغرب ما يحكيه فيما يتعلق بهذا الحديث أن السرى السقطى(*)

---

(١) هذا تكلف في تفسير الآية « ... إلا من ارتضى من رسول » فإن الله هو الذي يرتضى الرسول ، لا أن الرسول يرتضى أيضاً بعض أصحابه ، فإن إرتضاء الرسول هذا ، خلاف نص الآية ، وخلاف (فكرة إخبار الله بالغيب بعض مخلوقاته مباشرة منه سبحانه) .

الاعـــلام

(*) هو السرى بن المغلس السقطى خال الجنيد وأستاذه من كبار العباد والزهاد ومن كلامه . (أجلد الناس من ملك غضبه ، ومن تزين للناس بما ليس فيه سقط من عين الله ، ولن يكمل رجل حتى يؤثر دينه على شهوته ، ولن يهلك حتى يؤثر شهوته على دينه) توفى سنة ٢٥٣ هـ . (صفوة الصفوة ج ٢ ص ٢٠٩) .

شيخ الجنيد أمره بأن يخرج يتكلم على الناس فاعتذر منه[1] بما فى لسانه من العجمة ، وبعدم صلاحيته لذلك ، فعزم عليه أن يخرج صبح تلك الليلة يتكلم على الناس فى الجامع ، فكأنه نادى [مناد][2] فى الناس : بأن الجنيد سيتكلم على الناس عقب صلاة الفجر فى الجامع ، فجاءوا إليه أفواجا .

وكان هذا أول كرامة للجنيد ، لأنه لم يطلع على ما دار بينه وبين شيخه أحد ، فخرج ووجد الجامع [غاصا][3] أهله فلما قعد أقبلوا إليه بأجمعهم ، فبرز رجل وسأله عن معنى حديث : « اتقوا فراسة المؤمن » فأطرق قليلا ثم قال له: أسلم فقد آن لك أن تسلم ، فقام وجثا[4] بين يديه وأسلم ، وانكشف أن ذلك الرجل من النصارى لما سمع أخبار الناس بأن الجنيد سيتكلم فى ذلك المحل فى ذلك الوقت لبس لبس المسلمين ودخل معهم مختبرا الإسلام وأهله ، فكان فى ذلك سعادته الأبدية .

وبهذا تعرف أنه لاحاجة إلى ماقاله الشيخ أبو الفضل فى آخر كلامه من قوله : « لصدق قولنا مادخل على الملك إلا الوزير ، ومن المعلوم أنه قد دخل معه بعض خدمه » . لأن مثل هذا التشغيل لايؤكل[5] به الكتف ، ولا ينفع فى مقام النزاع . ومراده أن بعض أتباع الرسل قد يدخل معه كما دخل أتباع الوزير معه فيطلعهم الله على الغيب كما أطلع عليه من ارتضى من رسول .

---

(١) فى (ب) (إليه) ولعل المؤلف يعنى (منه) أى من الحديث .
(٢) فى (أ) و (ب) (منادى) بإثبات الياء ، وهو خطأ نحوى .
(٣) فى (أ) (غاص) بالرفع وهو خطأ نحوى لأنها مفعول ثان لوجد .
(٤) فى (ب) (جثى) بالياء .
(٥) فى (ب) (تؤكل) .

وهذا إلحاق مع فارق أوضح من الشمس ، وهو كونه رسولا ، وكون الله ارتضاه . ولا يوجد ذلك فى غير رسول .

وليس النزاع فى دخول أتباع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فى قوله : « إلا من ارتضى من رسول » ، فمعلوم أنه لادخول لهم فى ذلك ، لكن النزاع فى أن الرسول هل له أن يطلع غيره من أتباعه على ما أطلعه الله عليه من علم الغيب أم لا؟ فنحن نقول : لا نسلم قول من قال إنه لايجوز له ، ونسند هذا المنع بما قدمنا ذكره وبأمثاله مما لم نذكره .

وإذا تبرعنا بالاستدلال على جواز إطلاعه لبعض أتباعه على ما أطلعه الله عليه من علم الغيب ، فنقول : عموم قوله : « يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك »[1] . ولهذا يقول الله عز وجل : « وإن لم تفعل ، فما بلغت رسالته »[2] وتقول عائشة[3] : « من زعم أن محمداً كتم شيئاً مما أوحاه الله إليه فقد أعظم على الله الفرية » وهو فى الصحيح .

ولو سلمنا تخصيص ذلك بما يحتاجه الناس من علم الشريعة ، وهذا لايحتاجونه لكان ما قدمنا ذكره من الواقعات منه صلى الله عليه وآله وسلم من إطلاع بعض أتباعه على شىء من علم الغيب دليلا على أن ذلك جائز .

وأما قول ابن حجر مستدركا على أبى الفضل بقوله : « قلت : الوصف المستثنى للرسول هنا إن كان فيما يتعلق بخصوص كونه رسولا فلا مشاركة

---

(١) فى (ب) زاد الناسخ من تكملة الآية كلمة (من ربك) ، وفى (أ) (رسالاته) وهو سهو من المؤلف .

(٢) سورة المائدة آية . ٦٧ .

(٣) فى (ب) (رضى الله عنها) .

لأحد من أتباعه فيه إلا منه ، وإلا فيحتمل ماقال والعلم عند الله »[١] انتهى .

فأقول : ليس المراد إلا الشق الأول ، فإنه قال : لا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول فلو لم يكن ذلك الوصف المستثنى متعلقاً بخصوص كونه رسولا لكفى قوله : « إلا من ارتضى » بدون قوله : « من رسول » فلا يتم ما قاله فى الشق الثانى من قوله . وإلا فيحتمل ما قال .

نعم اقتصار الشيخ أبو[٢] الفضل على مجرد ذلك المثال، وموافقة ابن حجر له بقوله ، وإلا فيحتمل ماقال إن [أراد][٣] أن ذلك المثال . وهذا الاحتمال فى الآية القرآنية . فقد عرفت اندفاع ذلك من الأصل ، ولكن كان ينبغى لهما أن يحتجا لدخول بعض أولياء الله وصلحاء عباده فى الظفر بشىء من الغيب الذى استأثر الله بعلمه بما قدمنا من قوله : « كنت سمعه الذى يسمع به،وبصره الذى يبصر به الخ » .

ولو فرضنا أن دلالة هذا مخصوصة بقوله : « لا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول » فإن هذا النفى والاستثناء مشعران أتم إشعار باختصاص ذلك بمن جمع بين وصف كونه ممن ارتضاه الله ، ووصف كونه رسولا . والولى وإن كان ممن ارتضاه الله ، فإن وصف المحبة له يفيد كونه مرتضى لله لكنه ليس برسول .

نعم ما قدمنا من حديث المحدثين ، وأن فى هذه الأمة منهم ، وأن منهم

---

(١) الفتح ص ٢٩٨ مع زيادة كلمة (تعالى) .
(٢) هكذا فى (أ) ولعلها بالباء أحسن لأنها مجرورة بالإضافة ، ويجوز أن يكون الشوكانى قد قصد الحكاية .
(٣) فى (أ) تكررت (إن أرادا) وبذلك الرسم .

عمر رضى الله [عنه][1] يفيد أعظم إفادة بأن وصف كونه من المحدثين طريق إلى تلقى شىء من علم الغيب ووصوله إليهم ، والحديث فى الصحيحين .

وانظر إلى قول عمر رضى الله عنه : « ياسارية الجبل » مع كونه فى المدينة يخطب فى منبرها ، وسارية ومن معه من المسلمين فى أقاصى بلاد العجم فأطلعه الله على الحرب الذى هم فيه حتى كأنه مشاهد لهم ، وأسمعهم الله[2] صوته فنفعهم به وسلموا[3] من معرة الكفار مع أن ذهنه فى تلك الحالة[4] كان مشغولا بالخطابة التى هى محتاجة إلى جمع الفهم عليها ، وإفراغ الذهن لها ، وعدم الاشتغال بغيرها ، لكون ذلك فى مجمع الصحابة رضى الله عنهم ، وهم أهل الفصاحة التامة والبلاغة الفائقة .

فانظر إلى ما منح الله هذا الرجل من المواهب العظيمة من كل باب : جعله خليفة المسلمين وإمامهم ثم فتح الله له أقطار الأرض ، وكانت دولته مثلا مضروباً لكل دولة جامعة بين كمال الحزم والورع ، والعمل بالشريعة الواضحة ثم جعل له من المهابة فى الصدور ما لا تبلغ إليه المهابة لعادل ، أو جائر[5] حتى قال الناس : إن درته أهيب فى الصدور من سيف الحجاج الذى قتل بن عباد الله ظلماً وعدواناً نحو مائة وعشرين ألفاً .

وكان ابن عباس رضى الله عنه[6] يقول : « إذا عوتب على قول لم يقله فى أيام عمر ، أو على فتيا لم يفت بها فى زمانه : كان عمر مهيباً فهبته » ولقد صدق

---

(١) فى (أ) (عنها) وهو سهو من المؤلف .

(٢) فى (ب) (سبحانه) بعد لفظ الجلالة .

(٣) فى (ب) (وأسلمهم) (٤) فى (ب) (الحال) .

(٥) فى (ب) (جائز) دون نقط أو وضع همزة .

(٦) عنهما فى (ب) وهو سهو من الناسخ .

من قال : « إن سعادة المسلمين طويت فى أكفان عمر » لأن معظم الفتوح[1] الإسلامية فيها ثم حدث بعده ما حدث من الاختلاف العظيم فى آخر أيام الإمام المظلوم الشهيد [عثمان] بن عفان[2] رضى الله عنه . وما زالت من بعد قتله سيوف المسلمين مختلفة ، من بعضهم على بعض إلى هذه الغاية ، وأنت إذا كنت عالماً بأخبار الناس عارفاً بما [اشتملت][3] عليه تواريخ أهل الإسلام لم تشك فى هذا ، ولأجل هذه المزايا العمرية قال أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه ، لما رأى عمر فى أكفانه : « ما أحب أن ألقى الله بعمل رجل من الناس إلا بعمل هذا » وإنما يعرف الفضل لأهل الفضل ذووا الفضل .

وقد أخبرنا الصادق المصدوق بأن خلافة النبوة بعده ثلاثون عاما ، [فكملت][4] بخلافة الحسن السبط(*) رضى الله عنه .

وهذا مما ألقاه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى أصحابه من علم الغيب فله مدخل فى الاستدلال به على ما نحن بصدده .

ومن إخباره صلى الله عليه وآله وسلم لأصحابه رضى الله عنهم بما هو من علم الغيب مما يتعلق بهذا الإمام : الحسن السبط رضى الله عنه : قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « إن ابنى هذا سيد ، وسيصلح الله به بين طائفتين من المسلمين » فكان ذلك كما أخبر به الصادق المصدوق . وبالجملة فالأخبار المتلقاة عن النبي

---

(١) فى (ب) (الفتوحات) (٢) (أ) و (ب) (عثمن) .

(٣) فى (أ) (اشتمل) ولكن اشتملت أوفق لتطابقها مع (تواريخ) .

(٤) فى «أ» كتبها المؤلف هكذا (فكلمت) .

الأعـــلام

(*) هو الحسن بن على بن أبى طالب : تولى الخلافة بعد أبيه ثم تنازل عنها فى نفس العام سنة ٤٠ هـ لمعاوية بن أبى سفيان .

صلى الله عليه وآله وسلم من غيب الله كثيرة جداً تشتمل عليها المؤلفات المدونة فى معجزاته .

تواضع الولى وحقيقته :

واعلم أنه قد استدل البخارى بهذا الحديث الذى شرحناه على التواضع فذكره له فى باب التواضع ، فمن جملة ما يستفاد منه مشروعية التواضع . وقد قال ابن حجر فى الفتح عند تمام شرحه لهذا الحديث .

« تنبيه : أشكل وجه دخول هذا الحديث فى باب التواضع حتى قال الداودى : ليس هذا الحديث من التواضع فى شىء . وقال بعضهم : المناسب إدخاله فى الباب الذى قبله وهو مجاهدة المرء نفسه فى طاعة الله تعالى :

والجواب عن البخارى من أوجه :

أحدها : أن التقرب إلى الله تعالى بالنوافل لا يكون إلا بغاية التواضع لله تعالى والتذلل له . ذكره الكرمانى .

وثانيها : ذكره أيضاً فقال : قيل : الترجمة مستفادة مما قال : كنت سمعه ، ومن التردد .

قلت . ويخرج منه جواب ثالث ، ويظهر لى رابع ، وهو أنه يستفاد من لازم قوله من عادى لى ولياً لأنه يقتضى الزجر عن معاداة الأولياء المستلزم لموالاتهم . وموالاة جميع الأولياء لا تتأتى إلا بغاية التواضع لله تعالى ، والتذلل له ، إذ منهم الأشعث الأغبر الذى لا يؤبه له .

وقد ورد فى الحث على التواضع عدة أحاديث صحيحة ، لكن ليس فى شىء منها على شرطه فاستغنى عنها بحديثى[1] الباب .

---

(١) وهما هذا الحديث « موضوع هذا الكتاب » وحديث قبله فقط وهو =

منها حديث عياض بن حمار رفعه : « إن الله تعالى أوحى إلى أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد » أخرجه مسلم، وأبو داود وغيرهما. ومنها حديث أبي هريرة رفعه « وما تواضع أحد لله تعالى[1] إلا رفعه » أخرجه مسلم أيضاً والترمذى . ومنها حديث أبي سعيد رفعه : « من تواضع لله رفعه الله تعالى حتى يجعله فى أعلى عليين — الحديث » . أخرجه ابن ماجه وصححه ابن حبان »[2] انتهى .

أقول : كثيراً ما يقع فى أذهان كثير من الناظرين فى البخارى عدم المطابقة بين بعض تراجم الأبواب ، وبين ما ذكره فيها من الأحاديث ، فإذا أعطوا الفهم حقه ، وتدبروا كل التدبر ، وجدوه قد عمد إلى معنى دقيق ومنزع لطيف من منازع ذلك الحديث فجعله دليلا على الترجمة ، وإذا لم يجد على شرطه شيئاً مما يصلح لذلك الباب ، جعل مجرد ترجمته إشارة إلى ذلك الخبر الذى لم يكن على شرطه .

وقد منح الله هذا الرجل من صدق الفهم ونفوذ الذهن مالم يكن لغيره من أذكياء العالم . هذا مع ما وهب له من حفظ السنة المطهرة والتمييز بين صحيحها وسقيمها ، وإختيار ما اختاره فى كتابه من أصح الصحيح حتى سماه كثير من أئمة هذا الشأن، أمير المؤمنين فى الحديث ،وجعل الله سبحانه كتابه هذا أرفع مجاميع كتب السنة المطهرة وأعلاها وأكرمها عند جميع الطوائف الإسلامية ، وأجلها عند كل أهل هذه الملة . وصاروا فى جميع الديار إذادهمهم

= قول رسول الله صلى الله عليه وسلم. « إن حقا على الله أن لا يرفع شيئاً من الدنيا إلا وضعه » . ينظر صحيح البخارى (باب التواضع) ، كتاب ، الرقاق وأنه لا عيش إلا عيش الآخرة .

(١) فى (ب) سقطت من الناسخ (تعالى) .

(٢) الفتح ص ٢٩٨ .

عدو أو أصيبوا بجدب يفزعون إلى قراءته فى المساجد والتوسل إلى الله بالعكوف على قراءته لما جربوه قرناً بعد قرن وعصراً بعد عصر ، من حصول النصر والظفر على الأعداء بالتوسل به ، واستجلاب غيث السماء ، واستدفاع كل الشرور بذلك ، وصار هذا لديهم من أعظم الوسائل إلى الله سبحانه ، وهذه مزية عظيمة ، ومنقبة كريمة ، ولم يكن هذا لغير هذا الكتاب من حسن الانتقاء ، وسلامة مااشتمل عليه من قيل وقال . ومن تعرض لشىء من ذلك أرغم الله أنفه بما يرد عليه أهل الإتقان من الردود التى تدع اعتراضه هباء منثورا ، وهشيما تذروه الرياح .

وقد كان هذا الرجل فى العبادة على اختلاف أنواعها ، والزهد فى الدنيا بمنزلة علية ورتبة رفيعة، وتم الله له ذلك بما امتحن به فى آخر أيامه من أعداء العلماء العاملين ، والمتجرئين على عباد الله الصالحين حتى مات كمداً، رحمه الله ووفر عنده جزاءه فكوفىء فى كتابه هذا بهذا الحظ العظيم فى الدنيا ، ليتوفر فى الأخرى بما[1] يصل إليه من الثواب الحاصل من انتفاع الناس به، فإن العلم الذى ينتفع به هو إحدى الثلاث التى يدوم للميت ثوابها بعد انقطاع كل شىء عنه ، كما صح الحديث بذلك الذى أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » وأخرجه ابن ماجه بإسناد صحيح من حديث أبى قتادة بنحوه .

وبما ذكرنا نعرف الجواب على ماقاله الداودى إجمالا .

وأما ماحكاه ابن حجر عن الكرمانى من الوجهين المذكورين . فيقال على الأول : إن كل العبادات وسائر الصلوات فرائضها ونوافلها هى عبادة

---

(١) فى (ب) (ما) دون الباء وهو سهو من الناسخ .

الرب . والعابد متواضع للمعبود دائما خصوصاً عند العبادة فما الوجه لتقييد النوافل المذكورة فى الباب بقيد التواضع مع أن غيرها مثلها ؟ .

ولهذا ورد أن الصلوات[1] الفرائض وغيرها تتفاوت بتفاوت الخشوع حتى تكون لبعض العباد صلاة كاملة ، ولبعضهم نصف صلاة ولبعضهم أقل من ذلك ، كما فى الحديث الوارد فى هذا المعنى .

والخشوع لايتم إلا بغاية الخضوع فهذه خاصة العبادات ، خصوصاً[2] الصلوات شاملة لامختصة بنوع منها . وكلما إذا حصل الاستكثار من نوافلها حصلت للعبد المحبة من الرب عز وجل فيلزم على هذا أن العبادات كلها يستدل بها على التواضع فى جميع الأحاديث المذكورة فى أنواعها فى البخارى وغيره ، بل مجرد العبودية إذا لم تكن على تواضع وخضوع فليست عبودية[3] معتـــبرة .

وأما الوجه الثانى فما أبعده . فالرب سبحانه قد وصف نفسه بأنه المتكبر وأنه ذو الكبرياء ، وأنه ذو الجلال ، فما أسمج بأن يوصف بالتواضع مع عبده الحقير الذليل .

قال فى الصحاح : التواضع : التذلل . فانظر هل يصح إطلاق التواضع الذى معناه فى هذه اللغة العربية التذلل على رب العالم وخالق الكل ورازقه ومحييه ومميته ؟ سبحانك هذا بهتان عظيم .

تعالى قدرك وجل اسمك ، سبحانك ما أعظم شأنك ، سبحانك ما أعز سلطانك .

---

(١) (ب) الصلاة (٢) فى (ب) (وخصوصاً) ، بزيادة الواو .
(٣) فى (ب) (بعبودية) .

وأما قول ابن حجر : قلت ويخرج منه جواب ثالث ، يريد أنه يخرج من التردد كما خرج من قوله « كنت سمعه » وهـــذا الذى استخرجه مثل الوجه الثانى الذى ذكره الكرمانى . وكلاهما فى غاية السقوط ونهاية البطلان .

أما قول ابن حجر ، ويظهر لى وجه رابع إلى آخر كلامه ، فلما قيده بأن يكون التواضع لله سبحانه لم يبق للولى منه شىء .

ولا موجب لذلك فإن تواضع العباد مع بعضهم البعض ، هو الذى ندب الله إليه وجاءت به الترغيبات الكثيرة .

وأما تواضع العباد مع الرب سبحانه فهم أحقر وأقل من أن يتواضعوا له ، وإن كان ذلك من لوازم العبودية .

وانظر فى مثال هذا فى الأحوال ، فإنه يسمج أن يقال : تواضع الرجل لسلطانه ولوالديه ، لأن التواضع هو التذلل بعد التلبس بضده ، كما تدل عليه صيغة التفعل مع أن ابن حجر ذكر فى أول هذا الباب مالفظه : « باب التواضع بضم المعجمة مشتق من الضعة بكسر أوله وهى التذلل والهوان . والمراد بالتواضع: إظهار التذلل لمن يراد تعظيمه : وقيل : هو تعظيم من فوقه لفضله »[(١)] انتهى .

فانظر هل يصح إطلاقه على الرب عز وجل على كلا المعنيين ؟ . فلعله سهى عن أول الباب .

وأما تواضع العباد مع بعضهم البعض ، فهو الممدوح المرغب فيه ، كما ذكره فى الحديث الذى استدل به فى آخر البحث « إن الله[(٢)] أوحى إلى أن

---

(١) الفتح ص ٢٩٣ جـ ١٣ (٢) فى (ب) نسى الناسخ لفظ الجلالة .

تواضعوا حتى لايفخر أحد على أحد » ، فإن المراد تواضع العباد [لبعضهم[(١)]]
البعض حتى لا يفخر أحد على أحد .

وأما حديث : « من تواضع لله رفعه الله »(٢) الخ . فالمراد تواضع لعباد الله لأجل الرب سبحانه(٣) امتثالا لما أرشد إليه رسوله ، أو يكون المراد به (التواضع لكتابه ولسنة رسوله ولعلماء أمته ولابد من هذا فإن الله(٤)) أعظم وأجل من أن يتواضع له العباد ، فيكون معنى قوله من تواضع لله من تواضع لأجل الله عز وجل . ومن هذا القبيل من تصدق لله ، من أحب لله ، وأبغض لله . ونحو ذلك كثير .

وإذا عرفت هذا كان هذا الوجه الذى ذكره ابن حجر أحسن مايحمل عليه ترجمة البخارى ، لكن بدون ذلك التقييد إلا أن يريد هذا المعنى الذى ذكرناه ، فيكون معنى قوله لا يتأتى إلا بغاية التواضع لله ، أى لأجله .

وقد وردت أحاديث فى مشروعية التواضع غير ماذكره المصنف ، منها ما هو صحيح ، ومنها ماهو حسن .

وورد فى ذم التكبر الذى هو مقابل التواضع أحاديث صحيحة ، منها مافى الصحيحين وغيرهما من حديث حارثة بن وهب قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : ألا أخبركم بأهل النار ؟ كل عتل [جواظ](٥) مستكبر » . ومنها حديث أبى سعيد وأبى هريرة عند مسلم وغيره قالا : « يقول الله عز وجل : العز إزاره ، والكبرياء رداؤه ، فمن نازعنى واحداً

---

(١) فى (أ) (لبعض البعض) وليس أسلوبا مستقيما . ولم يسمع بمثل هذا التعبير .
(٢) فى (ب) نسى الناسخ لفظ الجلالة (٣) فى (ب) (وتعالى) بعد سبحانه
(٤) نسى الناسخ فى (ب) من أول (التواضع إلى — فإن الله) .
(٥) فى (أ) ، (ب) (جواض) بالضاد ، وهو تصحيف .

عنها عذبته »[1].

ومنها حديث أبي سعيد عند مسلم قال : « احتجت الجنة والنار فقالت النار فى الجبارون ، والمتكبرون ، وقالت الجنة فى ضعفاء المسلمين ومساكينهم » وأخرج مسلم وغيره من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « ثلاثة لايكلمهم الله يوم القيامة ولايزكيهم ، ولاينظر إليهم ، ولهم عذاب أليم : شيخ زان ، وملك كذاب ، وعائل[2] مستكبر » . وأخرجه البزار بإسناد حسن من حديث سلمان .

وأخرج النسائى والترمذى وحسنه من حديث ابن عمرو ، نحوه وأخرج مسلم وغيره من حديث ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « لايدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر » ، وأخرج البخارى وغيره من حديث ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، قال: « بينما رجل ممن كان قبلكم يجر إزاره من الخيلاء خسف به فهو يتجلجل فى الأرض إلى يوم القيامة » .

وأخرج نحوه أحمد والبزار برجال الصحيح من حديث أبي سعيد . وأخرج نحوه البزار بإسناد رجاله ثقات من حديث جابر .

وفى الصحيحين وغيرهما من حديث أبي هريرة ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « بينما رجل يمشى فى حلة تعجبه نفسه مرجل رأسه يختال فى مشيته إذ خسف الله به فهو يتجلجل فى الأرض إلى يوم القيامة » :

وفى الصحيحين وغيرهما من حديث ابن عمر عنه صلى الله عليه وآله وسلم

---

(١) فى (ب) زاد الناسخ (بنارى) .

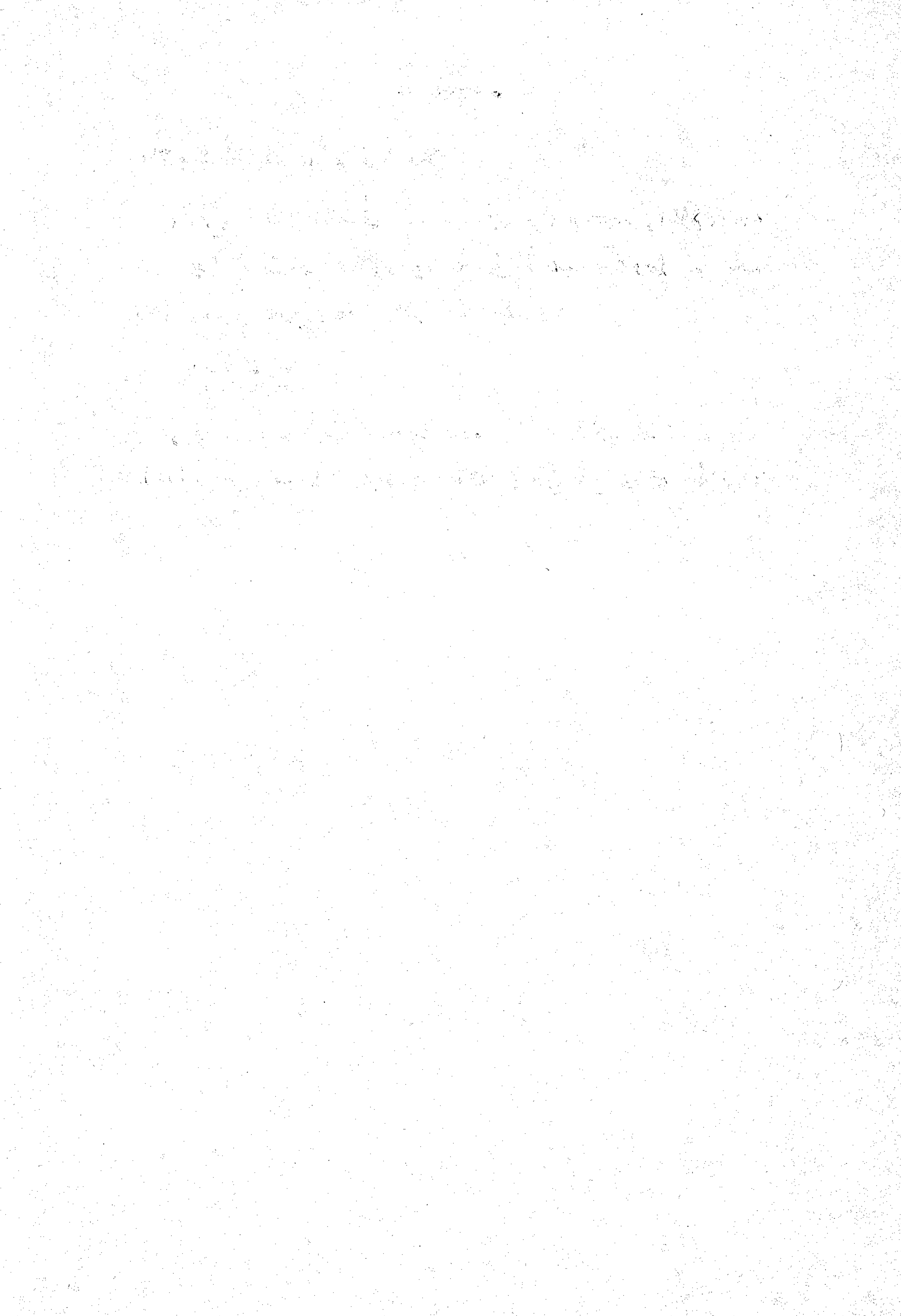
(٢) فى (ب) (عامل) وهو خطأ كما تقدم قبل ذلك .

« لا ينظر الله إلى رجل جر ثوبه خيلاء » :

وأخرج الترمذى والنسائى وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه والحاكم وصححه من حديث ثوبان قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : من مات وهو برىء من الكبر والغلول والدين دخل الجنة » :

خاتمة الشرح :

وإلى هنا انتهى الشرح لحديث القدسى فى نهار الاثنين لعله سابع شهر القعدة من شهور سنة ١٢٣٩ : بقلم مؤلفه « محمد بن على الشوكانى غفر الله لهما »



أهم المراجع

(أ) المراجع العربية

القرآن الكريم .

المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم . محمد فؤاد عبد الباقى .

صحيح البخارى .

الجامع الصحيح للإمام مسلم .

ابن تيمية : (أحمد عبد الحليم) :

١ — الفرقان بين أولياء الرحمن ، وأولياء الشيطان (الطبعة الثانية سنة ١٩٥٨ م) . تصحيح وتعليق ، (محمود عبد الوهاب فايد) .

٢ — مجموعة الرسائل والمسائل . طبعة المنار .

٣ — التحفة العراقية (فى الأعمال القلبية) الطبعة الأولى إدارة الطباعة المنيرية .

٤ — الرد الأقوم على ما فى كتاب فصوص الحكم . المطبعة السلفية سنة ١٩٤٩ م .

٥ — بغية المرتاد فى الرد على المتفلسفة والقرامطة ، والباطنية . ج ٥ من مجموعة فتاوى ابن تيمية طبعة سنة ١٣٢٩ هـ مطبعة (كردستان العلمية) .

٦ — شرح العقيدة الأصفهانية ج ٥ من مجموعة الفتاوى الطبعة المتقدمة .

٧ — منهاج السنة النبوية ج ١ ، تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم طبعة سنة ١٩٦٢ م . وطبعة سنة ١٣٢١ هـ المطبعة الأميرية ببولاق .

٨ — رأس الحسين . طبعة سنة ١٩٤٩ م مطبعة السنة المحمدية .

٩ — نقض المنطق . طبعة سنة ١٩٥١ م مطبعة السنة المحمدية .

١٠ — رسالة الصوفيه والفقراء . الطبعة الثانية . المنار سنة ١٣٤٨ ه .

١١ — عقيدة أهـــل السنة ، الفرقة الناجية . مطبعة أنصار السنة سنة ١٣٥٨ ه

١٢ — النبوات . إدارة الطباعه المنيرية سنة ١٣٤٦ ه .

ابن الجوزى (أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزى) :

١ — تلبيس إبليس . إدارة الطباعة المنيرية . الطبعة الأولى .

ابن سينا :

١ — الإشارات والتنبيهات . تحقيق الدكتور سليمان دنيا . الطبعة الأولى دار المعارف سنة ١٩٥٨ .

٢ — رسالة الزيارة . مخطوطة بدار الـكتب المصرية ضمن مجموعة رقم (٠٢٦٩٤ و) .

ابن عربى (أبو بكر محمد بن على الملقب بمحيى الدين بن العربى) .

١ — الفتوحات المكية طبعة بولاق سنة ١٨٧٦ ه .

٢ — فصوص الحـكم . تحقيق الدكتور أبو العلا عفيفى ، طبعة سنة ١٩٤٦ م .

٣ — تفسير ابن عربى . المطبعة الميمنية بالقاهرة .

٤ — عنقاء مغرب . المطبعة الرحمانية سنة ١٣٥٣ .

ابن كثير . (إسماعيل بن كثير القرشى الدمشقى المتوفى سنة ٧٧٤ ه) .

١ — تفسير القرآن العظيم طبعة سنة ١٩٥٦ .

ابن هشام (أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميرى) :

١ — السيرة النبوية . طبعة مصطفى البابى الحلبي سنة ١٩٣٦ م .

أبو الحسن الأشعرى :

رسالة فى استحسان الخوض فى علم الكلام . طبعة حيدر أباد الدكن سنة ١٣٢٣ هـ)

أبو السعود (محمد بن محمد العمادى) :

١ — تفسير أبو السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم) على هامش تفسير الفخر الرازى مطبعة الكافدخانة سنة ١٢٨٩هـ .

أبو عبد الرحمن السلمى :

١ — حقائق التفسير مخطوط بدار الكتب رقم ٤٨١ تفسير .

الدكتور أبو العلا عفيفى :

١ — (التصوف) الثورة الروحية فى الإسلام : الطبعة الأولى ، دار المعارف بالإسكندرية .

١ — التعليقات على فصوص الحكم لابن عربى طبعة سنة ١٩٤٦ .

٢ — من أين استقى ابن عربى فلسفته التصوفية . مجلة كلية الآداب جـ١ مجلد (١) مايو سنه ١٩٣٣ م .

الدكتور أبو الوفا الغنيمى ، التفتازانى :

١ — ابن عطاء الله السكندرى وتصوفه ، الطبعة الأولى سنة ١٩٥٨ .

التسترى (أبو محمد سهل بن عبد الله التسترى) :

١ — تفسير القرآن العظيم . طبعة مصطفى البابى الحلبي سنة ١٩٢٩ هـ .

أحمد حميد الدين الكرمانى (الداعية الإسماعيلى) :

١ — راحة العقل طبعة دار الفكر العربي سنة ١٩٥٢ . تحقيق الدكتور محمد مصطفى حلمي ، والأستاذ محمد كامل حسين .

إخوان الصفاء :

١ — رسائل إخوان الصفاء . المكتبة التجارية سنة ١٩٢٨

أسين بلاثيوس :

١ — ابن عربي (حياته ومذهبه) ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوي مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٦٥ .

الدكتور توفيق الطويل :

١ — الأحلام الطبعة الأولى سنة ١٩٤٥

الدكتور جبور عبد النور :

١ — إخوان الصفاء ـ دار المعارف سنة ١٩٦١ (نوابغ الفكر العربي) ـ (٧)

الدكتور أحمد أمين :

زعماء الإصلاح في العصر الحديث (طبعة ١٩٥٨) .

دي بور :

١ — تاريخ الفلسفة في الإسلام . ترجمة الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة طبعة لجنة التأليف سنة ١٩٤٨ .

روجيه باستيد :

١ — مبادىء علم الاجتماع الديني . ترجمة الدكتور محمود قاسم الأنجلو سنة ١٩٥١ .

الزمخشري :

١ — تفسير الكشاف . مطبعة الاستقامة سنة ١٩٤٦ .

سامى الكيالى :

١ - السهروردى نوابغ الفكر العربى - ١٣ - دار المعارف سنة ١٩٥٥.

السجستانى (أبو بكر السجستانى المتوفى سنة ٣٣٠ هـ) :

١ — نزهة القلوب فى تفسير غريب القرآن . على هامش المصحف طبعة المكتبة السعيدية .

السراج (أبو نصر) :

١ — اللمع تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ، وطه عبد الباقى سرور ، دار الكتب الحديثة بمصر سنة ١٩٦٠ .

السهروردى البغدادى (أبو حفص عمر « ١١٤٥ — ١٢٣٤ » م) :

١ — عوارف المعارف : على هامش الإحياء للغزالى ، المطبعة الأميرية ببولاق سنة ١٢٨٩ هـ .

السهروردى الحلبي . أو المقتول :

١ — مجموعة فى الحكمة الإلهية . نشر جمعية المستشرقين الألمانيه استانبول مطبعة المعارف سنة ١٩٤٥ .

٢ — هياكل النور . تحقيق الدكتور أبو ريان . المطبعة التجارية الطبعة الأولى .

السيوطى :

١ — القول الأشبه فى حديث (من عرف نفسه فقد عرف ربه) ضمن مجموعة رسائل السيوطى . مخطوط بدار الكتب رقم (٧٥ مجاميم) قوله .

الشوكانى (محمد بن على) :

١ — النقد الثمين ، فى إثبات وصاية أمير المؤمنين على رضى الله عنه . المطبعة المنيرية سنة ١٣٤٨ هـ .

٢ — نثر الجوهر على حديث أبى ذر . مصور بدار الكتب رقم : (٢٣٤٧٣ ب)

٣ — عقود الزبرجد فى جيد مسائل علامة ضمد . مخطوط ولدى منه نسخة .

٤ — الدواء العاجل فى دفع العدو الصائل . فى مجموعة بعنوان شرح الصدور بتحريم رفع القبور ، مطبعة السنة المحمدية سنة ١٩٤٧ م .

٥ — القول المفيد فى أدلة الاجتهاد والتقليد . طبعة مصطفى البابى الحلبى سنة ١٣٤٧ هـ .

٦ — إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول . المطبعة المنيرية سنة ١٣٤٧ هـ .

٧ — بحث فى وجوب محبة الله . مخطوط ولدى منه نسخة .

٨ — فتح القدير الجامع بين فنى الرواية والدراية من علم التفسير . طبعة مصطفى البابى الحلبى سنة ١٣٤٩ هـ .

٩ — الفوائد المجموعة ، فى الأحاديث الموضوعة . تحقيق عبد الرحمن ابن يحيى المعلمى اليمانى طبعة سنة ١٩٦٠ « أنصار السنة المحمدية بمصر »

١٠ — قطر الولى على حديث الولى (موضع التحقيق والدراسة) .

الطبرى :

١ — جامع البيان ، عن تأويل وتفسير القرآن . تحقيق الأستاذ محمود محمد شاكر . طبعة المعارف الأولى .

طه عبد الباقى سرور :

١ ـ الحسين بن منصور الحلاج طبعة ١٩٦١ .

الظواهرى :

العلم والعلماء . المطبعة العمومية بطنطا سنة ١٩٠٤ .

القاضى عبد الجبار :

١ ـ المغنى فى أبواب التوحيد والعدل جـ ١٥ طبعة ١٩٦٥ عيسى الحلبي .
تحقيق الدكتور محمود الخضيرى ، والدكتور محمود قاسم .

٢ ـ جـ ٢٠ فى الإمامة . الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر .
تحقيق د . عبد الحليم محمود ، د . سليمان دنيا .

عبد الجليل عيسى :

١ ـ صفوة صحيح البخارى جـ ٣ ، جـ ٤ الطبعة الرابعة سنة ١٩٤٨ .

الدكتور عبد الحليم محمود :

١ ـ (منطق التصوف) مقدمة للمنقذ من الضلال ، للإمام الغزالى
الطبعة الثانية (الأنجلو المصرية سنة ١٩٥٥) .

عبد الحى الكنوى الهندى :

تذكرة الراشد برد تبصرة الناقد . طبع الهندى .

الدكتور على سامى النشار :

١ ـ نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام . النهضة المصرية سنة ١٩٥٤ .

الدكتور على عيسى عثمان :

١ ـ الإنسان عند الغزالى . تعريب الأستاذ خيرى حماد ، الأنجلو سنة ٦٤

الإمام الغزالى :

١ ـ إلجام العوام عن علم الكلام . (إدارة الطباعة المنيرية) .

٢ ـ جواهر القرآن . طبعة الجندى . إشراف الشيخ محمد مصطفى أبو العلا .

٣ ـ الرسالة اللدنية للغزالى . ضمن مجموعة القصور العوالى للإمام الغزالى (مكتبة الجندى ـ القاهرة) .

٤ ـ معارج القدس فى مدارج معرفة النفس . مطبعة السعادة الطبعة الأولى سنة ١٩٢٧ .

٥ ـ إحياء علوم الدين . المطبعة الأميرية ببولاق سنة ١٢٨٩ هـ . وطبعة لجنة نشر الثقافة الإسلامية سنة ١٣٥٦ هـ .

٦ ـ فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة . طبعة الجندى .

٧ ـ كيمياء السعادة . مكتبة الجندى ، تعليق وتصحيح محمد محمد جابر من علماء الأزهر .

٨ ـ المستصفى فى علم الأصول . المطبعة التجارية سنة ١٩٣٧ م .

٩ ـ المنقذ من الضلال . تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود . الطبعة الثانية الأنجلو سنة ١٩٥٥ .

الفارابى :

١ ـ آراء أهل المدينة الفاضلة . الطبعة الثانية ١٩٤٨ .

فتح الله بن أبى بكر البنانى :

١ ـ تحفة الأصفياء فى بيان معنى القول بعصمة الأنبياء ، على هامش كتاب (إتحاف أهل العناية الربانية) للمؤلف نفسه . الطبعة الأولى سنة ١٣٢٤ هـ .

الفخر الرازى :

١ — مفاتيح الغيب المشهور بتفسير الفخر الرازى مطبعة الكاغدخانة سنة ١٢٧٩ هـ .

القشيرى :

١ — الرسالة القشيرية . طبعة محمد على صبيح سنة ١٩٥٧ م .

الدكتور كامل مصطفى الشيبي :

١ — الصلة بين التصوف والتشيع الطبعة الأولى بغداد سنة ١٩٦٣ م .

الكلينى (أبو جعفر محمد بن يعقوب الكلينى) :

١ — الكافى مخطوط بدار الكتب المصرية رقم (٢١٢٢٦ ب) .

محمد زبارة اليمنى .

نيل الوطر . المطبعة السلفية ١٣٥٠ هـ

محمد بن عطية المكى :

١ — علم القلوب . مخطوط بدار الكتب المصرية رقم (١١٣ تصوف)

محمد أبو الفيض المنوفى :

١ — المدخل إلى التصوف الإسلامى : الطبعة الأولى عدد ٧٦ من سلسلة (مذاهب وشخصيات) الدار القومية للطباعة والنشر .

الدكتور محمد على أبو ريان :

١ — أصول الفلسفة الاشراقية عند السهروردى طبعة سنة ١٩٥٩

الدكتور محمد غنيمى هلال :

١ - ليلى والمجنون ، فى الأدبين العربى ، والفارسى : الأنجلو المصرية الطبعة الأولى .

الدكتور محمد مصطفى حلمى :

١ — الحياة الروحية فى الإسلام طبعة سنة ١٩٤٥ م

الدكتور محمد يوسف موسى :

١ — فلسفة الأخلاق فى الإسلام . طبعة سنة ١٩٤٥ م .

الدكتور محمود قاسم :

١ — دراسات فى الفلسفة الإسلامية الطبعة الأولى سنة ١٩٦٦ م مكتبة الأنجلو المصرية .

٢ — جمال الدين الأفغانى (حياته وفلسفته) الأنجلو المصرية الطبعة الأولى

٣ — (ابن باديس) الزعيم الروحى لحركة التحرير الجزائرية . طبعة سنه ١٩٦٨ م . دار المعارف .

٤ — مناهج الأدلة فى عقائد الملة لابن رشد . تقديم وتحقيق الدكتور محمود قاسم . الأنجلو سنة ١٩٥٥ .

٥ — المنطق الحديث ومناهج البحث . الأنجلو الطبعة الثالثة .

الإمام النسفى (أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفى) :

١ — تفسير النسفى .

نيكولسون :

١ — فى التصوف الإسلامى وتاريخه . ترجمة الدكتور أبو العلا عفيفى . طبعة سنة ١٩٥٦ م . لجنة التأليف .

يوسف كرم :

١ — تاريخ الفلسفة اليونانية ، طبعة لجنة التأليف و والترجمة والنشر ، سنة ١٩٤٦ .

(ب) المراجع الإفرنجية

(1) (La Lande) Vocabulaire - Technique et critique de le Philosophie. P. U. F. Paris 1951.

(2) Les Problemes de la Vie mystique par roger bastide.

(3) Carl Brockel Mann : Arabischen literatur 1943.

(4) Corbin (Henri) : Histoire de la philosophie Islamique. (Gallmard 1964).

محتويات الكتاب

الموضـوع	الصفحة

الموضـوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

فهرس الأعلام التى وردت بالنص المحقق*

(*) يلاحظ أنه قد وضعت هذه العلامة (*) بجانب رقم الصفحة التى ترجم فيها العلم .

(ب)

(ت)

تصويب

خطأ	الصفحة	السطر		الصواب
ابن عمر	٤٧٠	٢		ابن عمرو
قدمه	٤٧٠	٧		قصه
هو	٥٠٧	٨		هوى
وما أصاب	٥٠٨	٤	من أسفل	ما أصاب
أستجيب	٥١٢	٢		أستجب
	٥٢٥	٣		ابن علي بن عبد الله بن العباس
التشغيل	٥٢٩	٤	» »	التعليل
بل	٥٣٢	٤	» »	من

رقم الإيداع بدار الكتب ١٨٣٣ لسنة ١٩٧٩

مطبعة حسان

١٢٤١ شارع الجيش - القاهرة ت ٨٣٣٥٤٠